وزارة المعارف العمومية



والجاحظ المسرحُ اللعو ... بُ يغوص للدرّ الفريد
« الجارم »

تأليف

أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

ضبطه وشرحه وصححه

أحمد العوامري بك
المفتش الأول للغة العربية سابقا
وعضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية

علي الجارم بك
المفتش الأول للغة العربية
وعضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية

الجزء الثاني

القاهرة
مطبعة دار الكتب المصرية
١٣٥٨ هـ — ١٩٣٩ م

طبع بأمر من وزارة المعارف العمومية ليكون فى طليعة الكتب
التى تعنى الوزارة بنشرها إحياء للأدب العربى القديم

الطبعة الأولى بمطبعة دار الكتب المصرية

بسم الله الرحمن الرحيم

الجزء الثاني[1]

من كتاب البخلاء

قصّة أسد بن جاني[2]

فأمّا أسدُ بنُ جانِي فكان يجعلُ سريرَه في الشّتاء من قَصَب مُقَشَّر[3]؛ لأنّ البراغيثَ تَزْلَقُ عن لِيطِ[4] القَصَب، لِفَرْطِ لِينه وملاسته[5].

وكان إذا دخلَ الصيفُ، وحَرَّ[6] عليه بيتُه، أثارَه[7] حتّى يُغرِقَ المِسْحاةَ[8]. ثم يَصُبُّ عليه جِرَارًا كثيرةً من ماء البئر. ويتوطّؤه[9] حتى يستوِيَ. فلا يزالُ ذلك البيتُ باردًا ما دام نَدِيًا[10].

---

(١) لم يكن الجاحظ ـ رحمه الله ـ قد جعل كتابه هذا في جزأين، بل في جزء واحد. وإنما أردنا بوضعه في جزأين تيسير تداوله.

(٢) هذا أيضا لم نقف له على خبر في غير هذا الكتاب.

(٣) القصب: كل نبات ذى أنابيب. الواحدة قصبة. و (مقشر): منزوع ما عليه من القشر الذى يحيط بأنابيبه لوقايتها.

(٤) الليط: جمع ليطة، وهى قشرة القصبة اللازقة بها. وهى ظاهرها اللامع الأملس.

(٥) المراد باللين هنا النعومة والملاسة — يعنى أن البراغيث إذا مشت على قوائم السرير المتخذ من القصب المقشر تزل أرجلها عنها، فلا تصل إلى النائم.

(٦) حر (من باب نصر، وهو أحد أبوابه الثلاثة).

(٧) (أثاره): أثار أرضه. فالكلام على حذف مضاف. ومعنى إثارة الأرض تمزيقها بفأس أو نحوه. وفى نسخة (ليدن): (فأثاره). والصحيح حذف الفاء، لأنه جواب (إذا)، ولا مقتضى لها.

(٨) حتى إلخ. المسحاة: المجرفة. وسحوت الطين عن وجه الأرض: جرفته. أى فلا يزال يثير الأرض، ويفرق أجزاءها، حتى يغرق المسحاة فى التراب، لعمق ما حفر وأثار.

(٩) هكذا فى نسخة الشنقيطى. وهو الصواب. وفى نسخة ليدن: (ويتوطأ). وفى تخريجه تكلف. (ويتوطؤه): يدوسه برجليه.

(١٠) قال فى القاموس: وندى كرضى. فهو ند (بفتح فدال مكسورة منونة): ابتل. وأنديته وندّيته.

فإذا امتدَّ به النَّدى، ودَامَ بَرْدُه بدوامه، اكْتَفَى بذلك التَّبْرِيد صَيْفَتَه. وإن جَفَّ قبل انقضاء الصَّيْف، وعاد عليه الحرّ، عاد عليه بالإثارة والصَّبِّ.

وكان يقول: خَيْشَتِي أرضٌ[1]، وماءُ خَيْشَتِي من بِئْرِي[2]، وبيْتِي أبْرَدُ[3]، ومُؤْنَتِي أخَفّ. وأنا أفْضُلُهم أيضا بِفَضْلِ الحِكْمَة وجَوْدَةِ الآلة[4].

٥ وكان طبيبا فأكْسَدَ مَرَّةً[5]، فقال له قائل: السَّنَةُ وَبِئَة[6]، والأمراضُ فاشية، وأنتَ عالِمٌ، ولك صَبْرٌ وخِدْمة، ولك بيانٌ[7] ومَعْرِفَةٌ. فَمِنْ أين تُؤْتَى في هذا الكَساد؟[8]

قال: أما واحدةً[9] فإنّي عِنْدَهُم مُسْلِمٌ. وقد اعتقدَ القوم قبل أن أتطبَّبَ، لا بَلْ قَبْلَ أن أُخْلَق، أنَّ المسلمين لا يُفْلِحون في الطِّب! واسْمِي أَسَد، وكان ينبغي أن يكونَ اسْمِي صَلِيبًا، ومُرَايِلَ[10]، ويُوحَنَّا، وبِيرا[11]. وكُنْيَتِي أبو الحارِث، وكان ينبغي أن تكون أبو عيسى،

---

١٠ (١) خيشتى أرض. الخيش: هو ما يعرف فى زماننا بهذا الاسم. وفى القاموس: الخيش: ثياب فى نسجها رقة، وخيوطها غلاظ، من مشاقة (بضم الميم) الكتان اه. والذى يظهر لنا من قرينة المقام أن أهل الثراء فى ذلك العهد كانوا يستعملون مراوح من الخيش منداة بالماء، تعلق فى السقوف، ويشدها الغلمان للترويح. فهو يقول: إنى بما أعمل من تبريد بيتى بصب الماء على أرضه المثارة، أستغنى عن تلك المراوح. ولعل النسخة الأصلية: (أرضى)، ليناسب (خيشتى) و (بئرى) الخ. (٢) وماء الخ، أى فلا مؤنة علىّ فى إحضاره، ولا ثمن له.

١٥ (٣) وبيتى أبرد، أى من بيوت هؤلاء الذين يتخذون المراوح. (٤) يقصد بالآلة إثارة الأرض وبلها لإحداث التبريد. (٥) أكسد الرجل: كسدت سوقه. (٦) كثيرة الأمراض. ويقال أيضا: وبيئة وموبئة (بضم الميم وكسر الباء). (٧) (بيان): فصاحة تكشف بها للناس عن عللهم. (٨) فمن أين تؤتى الخ، أى فمن أى الجهات جاءت نكبتك فى كسادك هذا؟ (٩) أما واحدة: أما أولا. وهو تركيب جرى مجرى الأمثال. وتعرب (واحدة) على أنها ظرف متعلق (بأما) لما فيها من معنى الفعل الذى نابت عنه، كما فى (المغنى)،

٢٠ أى: أما فى ابتداء القول فإنى الخ. (١٠) كتب هذا اللفظ فى نسخة ليدن هكذا: (ومرابل)، من غير إعجام الباء أو الياء — وفى نسخة هكذا: (ومرابلو). فدل ذلك على أن الكلمة وجدت هكذا ناقصة فيما عثر عليه من النسخ. أما أننا كتبناها بالياء فتابعة لنسخة الساسى. وقد تكون الكلمة مكونة من (مورا)، أى مخافة، و (إيل)، أى الله، بالعبرية. فالمعنى: مخافة الله. وفى كتاب (أسماء الملائكة) أن هناك ملكا اسمه (مورائيل). فيجوز أن يكون (مرايل) مخففة عنه. (١١) هكذا فى النسخ. وقد بحثنا فلم نعثر لهذا الاسم على أصل.

وأبو زكريَّا، وأبو إبراهيم . وعلىَّ رداءُ قُطْنٍ أبيضُ[1]، وكان ينبغى أن يكون رِداءَ حرير أسودَ . وأَفْظى لفظٌ عربىٌّ، وكان ينبغى أن تكون لغتى لغةَ أهل جُندَيْسابُورَ[2] .

* * *

قال الخليلُ السَّلُولىُّ[3] : أقبلَ علىَّ يوما الثَّوْرىُّ[4]، وكان يملك خَمسمائة جَرِيب[5]، ما بين كُرْسىِّ الصَّدَقَة إلى نهر مُرَّة[6] . ولا يشترى إلا كلَّ غُرَّة[7]، وكلَّ أرض مشهورةٍ بكريم التُّرْبة[8]، وشَرَف الموضع[9]، والغلَّةِ الكثيرة . قال[10] : فأقبلَ علىَّ يوما فقال لى : هل اصطبغتَ[11] بماء الزَّيْتُون قطُّ ؟ قال : قلتُ : لا والله ! قال : أمَا والله لو فعلتَه ما نسيتَه ! قال : قلتُ : أجَلْ . إنِّى والله لو فعلتُه لمـا نَسِيتُه[12] !

وكانــ يقول لعياله : لا تُلْقُوا نَوَى التَّمْر والرُّطَب، وتعوَّدُوا ابتلاعَه ، وخُذُوا حُلُوقَكم[13] بتَسْــوِيغه ؛ فإنَّ النَّوَى يَعقِــدُ[14] الشَّحْم فى البطن ، ويُدْفِئُ الكُلْيَتين بذلك الشَّــحْم ! واعتَبِرُوا

(١) التعبير بكلمة (أبو) فى الأحوال الثلاث على الحكاية . (٢) جنديسابور ، من كور (بضم ففتح) الأهواز . والأهواز تسع كور بين البصرة وفارس ، كما سبق . ولغة أهل هذه الكورة (بضم الكاف) هى الفارسية .

(٣) لم نعثر له على ترجمة أو خبر فى غير هذا الكتاب . والسلولى نسبة إلى سلول ، أبو قبيلة . وهو سلول بن مرة ابن صعصعة . (٤) هو أبو عبد الرحمن الثورى . وقد تقــدّم له ذكر فى قصة أحمــد بن خلف . وقد روى ابن قتيبة اسمه هكذا عن الجاحظ . وفى (العقد الفريد) : أبو عثمان الثورى . (٥) الجريب : القطعة المتميزة من الأرض . ويختلف مقدارها بحسب اصطلاح أهل الأقاليم (مصباح) . (٦) (نهر مرة) بالبصرة . منسوب إلى مرة بن أبى عثمان ، مولى عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق ، رضى الله عنه اهـ من ياقوت . أما كرسى الصدقة فيظهر أنه موضع بالبصرة ، أو قريب منها . (٧) الغرة من المتاع : خياره . والمتاع : كل ما ينتفع به من طعام وثياب وأثاث وغير ذلك . (٨) بكريم التربة ، من إضافة الصفة إلى الموصوف ، أى بالتربة الخصبة المثمرة .

(٩) وشرف الموضع : كريم الصقع ، بأن تكون مجاورة للعمران ، جامعة مزايا الإغلال . (١٠) الخليل السلولى .

(١١) اصطبغت : ائتدمت . (١٢) لما نسيته ، أى لكراهة طعمه . (١٣) وخذوا الخ . أخذه بكذا : دربه عليه . وتسويغه : إساغته ، أى إمراره فى الحلق . وفى عيون الأخبار : كان الثورى مستخفيا بالبصرة ، فورد عليه كتاب من أهله ، وفيه : «قد بلغ منا الجهد إلى أن نأخذ النوى فنرضه ، ثم نخلطه مع التبن فنأكله» . انظر ج ٢ ، ص ٣٦٨ (١٤) هكذا فى (عيون الأخبار) . وفى نسخة ليدن : (تعقــد) و (تدفئ) . وله وجه . إلا أنه يخرج الضمائر فى العبارة كلها عن اتساقها .

ذلك ببطون الصفايا وجميع ما يعتلف النوى[1]! والله لو حملتم أنفسكم على البزر والنوى[2]، وعلى قضم الشعير[3]، واعتلاف القت[4]، لوجدتموها سريعة القبول! وقد يأكل الناس القت قداحا[5]، والشعير فريكا[6]، ونوى البسر الأخضر[7]، ونوى العجوة[8].

فإنما بقيت الآن عليكم عقبة واحدة: لو رغبتم في الدفإ لالتمستم الشحم[9]. وكيف لا تطلبون شيئاً يغنيكم عن دخان الوقود، وعن شناعة العكر[10]، وعن ثقل الغرم[11]؟ والشحم يفرح القلب، ويبيض الوجه[12]. والنار تسود الوجه[13]. أنا أقدر أن أبتاع النوى، وأعلفه النساء[14]. ولكني أقول ذلك بالنظر مني لكم[15].

---

(١) واعتبروا الخ، أي اتخذوا ببطون الصفايا الخ لكم عبرة. والصفايا: جمع صفي (بفتح فكسر فياء مشددة)، وهي الناقة الغزيرة اللبن. (٢) والله الخ. حمله على كذا: ألزمه إياه. و (على البزر)، أي على أكله.

(٣) في المصباح: قضمت الدابة الشعير، من باب تعب: كسرته بأطراف الأسنان. وقضمته قضما، من باب ضرب، لغة اهـ. والمراد أكله والاغتذاء به. (٤) في المصباح: حب بري لا ينبته الآدمي. فإذا كان عام قحط، وفقد أهل البادية ما يقتاتون به من لبن وتمر ونحوه، دقوه وطبخوه، واجتزءوا به، على ما فيه من الخشونة اهـ. وفي قوله: اعتلاف القت مجاز لا يخفى. (٥) قداحا: رطبا غضا، قبل اليبس. (٦) فريكا: مفروكا. قال الزبيدي: وأصل الفرك دلكك الشيء، حتى ينقلع قشره عن لبه. (٧) البسر: التمر قبل إرطابه. وذلك إذا لون (بفتح اللام وتشديد الواو) ولم ينضج. وقد وصفه هنا بالخضرة. فكأن هذا الاسم يطلق عليه أيضا قبل أن يلون.

(٨) ضرب من أجود التمر بالمدينة. صحاح. (٩) لو رغبتم الخ. الدفء، بوزن سبب. ويقال أيضا: الدفء (بكسر فسكون)، والدفاءة (بفتح الدال). ومعنى (لالتمستم الشحم): لسعيتم لأن تكونوا سمانا، بأكل ما يحدث الشحم وهو النوى. (١٠) العكر: اختلاط دخان الوقود بالضوء والهواء. وفي نسخة ليدن: (العسكر). ولا معنى له. (١١) (وعن ثقل الغرم)، أي بشراء الوقود. (١٢) والشحم الخ، يفرح القلب، هكذا في نسخة الشنقيطي. كأن الثوري يظن أن السرور ينشأ من كمال الصحة الناشئة من نمو الشحم في البدن. وكأنه يتوهم أن السمن من أسباب بياض البشرة. (١٣) أي لما ينبعث عنها من الدخان والحرارة.

(١٤) (وأعلفه النساء)، أصله وأعلف النساء إياه. فقدم المفعول الثاني على المفعول الأول. وهو كثير في كلامهم. والكلام على المجاز. ويقصد بالنساء زوجاته. وفي (عيون الأخبار): (الشاء)، بدل النساء. والشاء: جمع الشاة. (١٥) (بالنظر مني لكم): بالنظر إلى خيركم وصالحكم. وهذا التعبير يرد كثيرا في هذا الكتاب.

وكان يقول : كُلُوا البَاقِلَّى بقُشوره ، فإنَّ الباقِلَّى يقول : مَنْ أكلَنى بقُشُورِى فقد أكلنى[١] ، ومن أكلنى بغير قُشورى فأنا الذى آكُلُه[٢] ! فما حاجَتُكم إلى أن تصِيروا طعاما لطعامكم ، وأكْلا لما جُعِل أكلا لكم ؟

وكان يُعَيِّنُ[٣] مالا عظيما . ولم يكن له وارثٌ[٤] . فكان يَسْخَر ببعضهم[٥] ، فيقول عند الإشْهاد : قــد علمتم أن لا وارِثَ لى . فإذا مُتُّ فهذا المــال لفلان ! فكان قوم كثير يَحْرِصُــون على مُبايعته[٦] لهذا .

وقد رأيتُــه أنا زمانًا من الدَّهْر ، ما رأيتُه قَطُّ إلا ونعـلُه فى يده ، أو يَمْشِى طُولَ نهارِه فى نَعْلٍ مَقْطُوعةِ العَقِب ، شديدة على صاحِبها[٧] !

قال[٨] : فهو ذا المَجُوسُ[٩] ، يرتَعُون البَصْرَةَ و بَغْدادَ وفارِسَ والأهْوازَ والدنيا كلَّها ، بنعالٍ سِنْدِية .

---

(١) فقد أكلنى ، أى أكلنى حقا وانتفع بى . والباقلى : الفول ، كما سبق .

(٢) (فأنا الذى آكله) . للكلام على المجاز . والمقصود الضرر .

(٣) قال فى اللسان : والعينة (بكسر العين) : السلف . تعين (بتشديد الياء مفتوحة) عينة ، وعينه إياها اهـ . و (يعين مالا) : يقرض الناس مالا . وقال أيضا : والعينة : الربا . وعين التاجر : أخذ بالعينة ، أو أعطى بها اهـ . ونرجح أنه يريد هنا المعنى الثانى ، بقرينة المقام .

(٤) ولم يكن الخ ، قــد مر أنه كان يقول لعياله : لا تلقوا نوى التمــر الخ . إلا أن يكون من كان يعولهم لم يكونوا ورثة له .

(٥) فكان يسخر الخ ، يسخر ببعضهم : يضحك منهم . والمراد الإغراء بالسلف والاستدراج إليه . وقوله : (عند الإشهاد) ، أى إشهاد الشاهدين على القرض . وقوله : (لفلان) ، أى المقرض (بفتح الراء) .

(٦) (مبايعته) : معاملته بالاقتراض منه .

(٧) شديدة على صاحبها ، قاسية على من يلبسها ، بسبب ذهاب عقبها .

(٨) (قال) ، أى ردا على اعتراض الناس عليه فى هذا .

(٩) فهو ذا المجوس الخ ، (هو) ضمير الشأن مبتدأ . وذا اسم إشارة مبتــدأ ثان . و (المجوس) بدل من (ذا) . وجملة (يرتعون) خبر المبتدإ الثانى . والمبتدأ الثانى وخبره خبر الأول . والمجوس : جمع مجوسى . والمجوس : طائفة تقول بالأصلين ، وهما النور والظلمة ، يزعمون أن الخير من فعل النور ، وأن الشر من فعل الظلمة . وقوله : يرتعون البصرة الخ ، أى يجوبون هذه البلاد و يطوفون بها . ويستأنس لهذا بما فى الحديث الشريف : (إن من يرتع حول الحمى يوشك أن يخالطه) ، أى يطوف به ، و يدور حوله ، كما فى اللسان . ولكن (رتع) لازم . فضمنه هنا معنى (جاب) أو (قطع) ، فعداه . وقوله : سندية ، نسبة إلى السند ، وهى البلاد المعروفة . و يظهر أن تلك النعال السندية كانت خفيفة رخيصة . وفى نســخة الشنقيطى : (يربعون) . و يمكن تخريجــه . ففى القاموس : و [ربعت] الإبل : سرحت فى المرعى ، وأكلت كيف شاءت اهـ إلا أن (ربع) هذا لازم أيضا ، فيضمن معنى فعل متعد .

فقيل له : إنّ المجوسىّ لا يستحلّ فى دينه المُشَرَّكة [١] ، فأنت لا تجده أبدًا إلا حافيًا ، أو لابسًا نعلًا سِنْديَّة . وأنت مُسلم . ومالُك كثير .

قال : فَمَنْ كان مالُه كثيرا ، فلا بُدَّ له مِنْ أن يَفْتَح كِيسَه للنَّفقات وللسُّرَّاق ؟

قالوا : فليس بين هاتين منزلة [٢] ؟

٥ قال الخَليلُ : جلس الثَّوْرىُّ إلى حَلْقة المُصْلِحين [٣] فى المَسْجد . فسمِع رَجُلًا من مَيَاسيرهم يقول : بَطِّنُوا كلَّ شيء لكم ، فإنَّه أبْقَى [٤] . ولِأمْرٍ جَعَل الله دارَ الآخرة باقيةً ، ودارَ الدنيا فانية [٥] . ثم قال [٦] : ربما رأيتَ المبَطَّنةَ الواحدةَ تقطعُ أربعةَ أقْمِصة ، والعِمامةَ الواحدةَ تَقْطَع أربعةَ أُزُرٍ [٧] ، ليس ذلك إلا لِتعاوُن الطَّىِّ ، وترافُد الأثْناء [٨] . فبَطِّنُوا البَوارِىَّ [٩] ، وبَطِّنوا الحُصُر ، وبَطِّنُوا البُسُط ، وبَطِّنوا الغَدَاء بِشَرْبةٍ باردة !

١٠ قال : فقال له الثَّوْرِىُّ [١٠] : لم أفهمْ ممَّا قلتَ إلا هذا الحرفَ [١١] وحْدَهُ !

---

(١) شراك النعل : سيرها الذى على ظهر القدم . وشركتها : جعلت لها شراكا . والمشركة : النعل المشركة . وقوله : إن المجوسى الخ . أى فهو يلبس النعل السندية ، لأنها غير مشركة . (٢) فليس الخ . أى أفليس بين هاتين الحالين مرتبة متوسطة . والحالان هما : ما هو عليه . والإسراف الجنونى . (٣) هم المسجديون الذين تقدم ذكرهم فى (قصة أهل البصرة من المسجديين) . (٤) (فانه أبقى) . اسم (إنّ) يعود إلى التبطين المفهوم من (بطنوا) .

١٥ وقد أطلق التبطين وأراد المبطن (بفتح الطاء مشددة) . (٥) ولأمر الخ ، أى لما أن البقاء خير ما تتصف به الأشياء ، جعل الله الآخرة وهى خير الدارين باقية ، والدنيا فانية . (٦) ثم قال الخ ، (قال) ، أى ذلك الرجل . و (المبطنة) ، أى الجبة المبطنه مثلا ، وقوله : (تقطع أربعة أقمصة) ، يريد أنها لا تبلى إلا إذا بليت معها أربعة أقمصة ، كلما بلى منها قميص لبس قميص . ويجمع القميص أيضا على قمص (بضمتين) ، وقمصان (بضم القاف) . (٧) جمع إزار ، وهو الملحفة (بكسر فسكون) . (٨) ليس ذلك الخ ، تعليل لقطع العمامة الواحدة

٢٠ لأربعة أزر . و (ترافد الأثناء) : تعاونها ، من رفده ، من باب ضرب ، إذا أعانه . والأثناء (جمع ثنى ، بكسر فسكون) : الطاقات والمطاوى . (٩) جمع باريه (بتشديد الياء) ، وهى الحصير المنسوج من القصب . (١٠) أى الخليل . (١١) يريد بهذا الحرف قول الرجل : (وبطنوا الغداء الخ) . ومعنى أنه لم يفهم إلا ذلك الكلام ، أنه وقع من نفسه ، وصادف منها قبولا واستحسانا ، لأن شربة الماء لا تكلفه مالا ، ولأنها تمنع الإكثار من الأكل .

قال الخليل : حُمَّ الثَّوْرِىُّ وحُمَّ عيالُه وخادِمُه، فلم يقدِروا مع شِدّة الحُمَّى على أكل الخبز. فربِح كَيْلَةَ[1] تلك الأيّام من الدَّقيق ، ففرح بذلك ، وقال : لو كان منزلى سُوقَ الأهْوازِ، أو نَطاةَ خَيْبَرَ، أو وادِىَ الجُحْفَةِ[2]، لَرَجَوْتُ أن أسْتَفْضِلَ[3] كلَّ سنةٍ مائةَ دينار !

فكان لا يُبالِى أن يُحَمَّ هو وأهْلُه أبدًا[4]، بعد أن يستفضِلَ كفايتَهم من الدَّقيق !

وكان يقول : إذا رأيتُ الرجلَ يَشْتَرِى الجَدْىَ رحِمْتُه[5]، فإن رأيتُه يشترى الدَّجاج حَقَرْتُه[6]، فإن رأيتُه يشترى الدُّرَّاجَ[7] لم أبايِعْه[8] ولم أكلِّمه !

وإنَّه قال : أولُ الإصلاح — وهو من الواجب — خَصْفُ[9] النَّعْل، واستِجادةُ الطِّراقِ[10]، وتَشْحِيمُها[11] فى كلّ الأيام ، وعَقْدُ ذُؤابة الشِّراكِ[12]، من زِىِّ النُّسَّاك ، لكيلا يَطأَ عليــه إنسانٌ

---

(١) الكيلة : اسم مصدر من كال الطعام يكيله كيلا . وقد أريد بها هنا المكيل . (٢) سوق الأهواز الخ، سبق الكلام على الأهواز . وسوق الأهواز : كورة منها ، كما فى ياقوت . وخيبر : ولاية على ثمانية برد (بضمتين، جمع بريد ، وهو اثنا عشر ميلا) من المدينة ، لمن يريد الشام . ونطاة خيبر : حصن بها . وقيل : هى خيبر نفسها ، كما فى اللسان . والجحفة ، بضم فسكون ، كما ضبطها ياقوت ، كانت قرية كبيرة على طريق المدينة من مكة ، على أربع مراحل ، (جمع مرحلة ، وهى المسافة التى [كانـــ] يقطعها المسافر فى نحو يوم ، كما فى المصباح) . — وهذه الأماكن الثلاثة وبيئة جدا ، كما فى ياقوت . (٣) لرجوت أن استفضل الخ ، أى لكثرة ما يمرض هو وعياله .

(٤) أى لأن الحمى لا تفارق هذه البلاد . (٥) رحمته : رققت له ، وأشفقت عليه أن يناله مكروه من جراء هذا الإنفاق الكثير . (٦) حقرته ، أى لأن أكل الدجاج ترف لا يليق بالعقلاء ، فى رأيه . (٧) فى الصحاح : والدراج والدراجة ضرب من الطير ، للذكر والأنثى اه . وفى شرح القاموس : وهو من طير العراق ، أرقط (أسود يشوبه نمط بيض ، أو العكس) اه — ويظهـــر أن الدراج كان من الطير الغالى الخاص بموائد الأغنياء وذوى الثراء والنعمة . (٨) لم أبايعه : لم أصافه ولم أعامله ، على ضرب من المجاز . (٩) فى المصباح : خصف الرجل نعله ، من باب ضرب ، فهو خصاف (بتشديد الصاد) . وهو كرقع الثوب اه . (١٠) الطراق : جلد النعل . واستجادته : تخيره وطلب أن يكون جيدا . (١١) الضمير المضاف إليه يرجع إلى النعل . والمراد بتشحيمها دهنها بالشحم لتقويتها وإلانتها . (١٢) وعقد الخ ، فى الأساس : ولشراك نعله ذؤابة ، وهى ما أصاب الأرض من المرســل على القـــدم اه . وشراك النعل : ســيرها الذى على ظهر القـــدم . و(من زى النساك) : على هيئـــة ما يفعلون . والنساك : العباد ، جمع ناسك . وذلك أنهم كانوا يعقدون هذه الذؤابة خشية تلوثها من الأرض .

فيقطعه . ومن الإصلاح الواجب قَلْبُ خِرْقَةِ القَلَنْسُوَة(١) إذا اتَّسَخَتْ ، وغَسْلُها من اتِّساخها بعد القَلْب ، واجْعَلْها حِبَرَةً(٢) ، فإنها مما له مَرْجُوعٌ !

ومن ذلك(٣) اتخاذُ قميصِ الصَّيْفِ جُبَّةً في الشتاء ، واتخاذُ الشاةِ اللَّبُونِ إذا كان عندك حِمارٌ ، واتخاذُ الحمارِ الجامعِ خيرٌ من غَلَّةِ ألف دينار(٤) : لأنه لِرَحْلِكَ(٥) ، و به يُدْرَكُ البعيدُ من حوائجك ، وعليه يُطْحَن(٦) . فتستفضلُ عليه ما يَرْبَحُه عليك الطحانُ(٧) . ويَنْقُلُ عليه حوائجَه وحوائجك(٨) ، حتى الحطبَ ، ويُسْتَقَى عليه الماءُ(٩) . وهذه كلها مُؤَنٌ إذا اجتمعتْ كانتْ في السَّنَة مالا كثيرا .

ثم قال : أَشْهَدُ إنَّ الرِّفْقَ يُمْنٌ(١٠) ، وإنَّ الخُرْقَ شُؤْمٌ(١١) .

واشتريتُ مُلاءَةً مَدارِيَّةً(١٢) ، فلبستُها ما شاء الله رداءً ومِلْحَفَةً . ثم احتجتُ إلى طَيْلَسانٍ(١٣) ، فقطعتُها(١٤) — يعلمُ الله ! — فلبسته ما شاء الله . ثم احتجتُ إلى جُبَّة فجعلتُه — يعلمُ الله ! —

---

(١) الخرقة من الثوب : القطعة منه . وقد كانوا يجعلون في القلنسوة خرقة تقيها العرق ، فهو يوصي بقلبها ، أي جعل ما كان مباشرا منها للرأس مباشرا للقلنسوة ، فإذا اتسخ الوجهان غسلت . (٢) واجعلها الخ : الحبرة : ضرب من برود اليمن ، أي اجعل خرقة القلنسوة من هذا الصنف . وقوله : (مرجوع) ، أي رجوع إليه بالاستعمال مرارا . وفي الأساس : وليس لهذا البيع مرجوع ، أي لا يرجع فيه اهـ . وفي اللسان : ومتاع مرجع (بضم فسكون ففتح) : له مرجوع اهـ . (٣) (ومن ذلك) : من الإصلاح . (٤) واتخاذ الشاة الخ : الشاة اللبون : ذات اللبن . والظاهر أنه يريد أنك إذا كان عندك حمار واتخذت شاة معه ، فإن الشاة تأكل من فضلات علفه ، فيكفيهما علف واحد ، وتربح لبن الشاة . و(الجامع) ، أي لمنافع الحمير متفرقة ، كما يتضح مما يلي . (٥) لرحالك : لركوبك . في اللسان : رحلت البعير أرحله رحلا : إذا علوته . (٦) (وعليه يطحن) ، أي تدور به الطاحونة . (٧) فتستفضل الخ ، تقدم معنى الاستفضال . و(عليه) بمعنى (به) ، كما هو أحد معاني (على) . و(عليك) بمعنى (منك) ، كما هو أحد معاني (على) أيضا . وقوله : (ما يربحه عليك الطحان) ، أي في حال طحن حبك عنده . (٨) ما يحتاج إليه الحمار من علف ونحوه . (٩) (ويستقى عليه الماء) : يجلب عليه الماء من بئر أو نهر ونحوه . (١٠) أشهد الخ : أشهد : أحلف . والرفق : مصدر رفق به يرفق (كنصر ينصر) وهو خلاف العنف . واليمن : البركة . (١١) الخرق والخرق (بفتحتين) : ضد الرفق ، وألا يحسن الرجل العمل والتصرف في الأمور . والشؤم : ضد اليمن . (١٢) في القاموس : المدار كسحاب : بلد بين واسط والبصرة اهـ . (١٣) الطيلسان : ضرب من أكسية الفرس ، والكلمة معربة . (١٤) فقطعتها : فصلتها .

ظِهارةَ جُبَّة[1] مَحْشُوَّة، فلبستُها ما شاء الله . ثم أخرجتُ ما كان فيها من الصحيح، فجعلتُه مَخَادَّ[2]، وجعلتُ قُطْنَها للقَنَادِيل[3] . ثم جعلتُ ما دُونَ خِرَق المخادّ[4] للقلانِس . ثم عَمَدْتُ إلى أصَحِّ ما بَقِيَ، فبعتُه مِنْ أصحاب الصِّينِيَّات[5] والصَّـلاحِيَّاتِ . وجعلتُ السُّقَاطاتِ[6]، وما قـد صار كالخُيُوط وكالقطن المَنْدوف، صَمَائِمَ[7] لرءوس القَوَارِير !

*

وقد رأيته، وسمعتُ منه فى البخل كلاما كثيرا . وكان من البَصْرِيِّين، يَنْزِل فى بَغْـدَادَ مَسْجِدَ ابن رَغْبَانَ[8] . ولم أر شيخًا ذا ثَرْوة اجتمعَ عنده وإليه من البُخَلاء ما اجتمع له[9] : منهم إسماعيلُ بنُ غَزْوانَ[10]، وجَعْفَرُ بنُ سَعِيد[11]، وخَاقَانُ بنُ صُبَيْح[12]، وأبو يعقوبَ الأعْوَرُ، وعبدُ الله العَرُوضِىُّ[13]، والحِزامىُّ عبدُ الله بنُ كاسِب .

---

(١) فجعلته الخ، الضمير المفعول فى (جعلته) يعود إلى الطيلسان . والظهارة : خلاف البطانة .

(٢) ثم أخرجت الخ، أى بعد أن بليت الجبة أخرجت الخ . و (مخاد) : جمع مخدة (بكسر ففتح) . قال فى المصباح : سميت بذلك، لأنها توضع تحت الخد اه . (٣) أى ذبالا (بضم الذال) للقناديل . (جمع ذبالة، وهى الفتيلة) .

(٤) (ما دون خرق المخاد)، أى فى المتانة . والقلانس : جمع قلنسوة . (٥) فبعته الخ، أى ممن يتجرون فى الأوانى الصينية، وفى الصلاحيات، وهى صحاف من الفخار تطلى لسد مسامها . ولا تزال تعرف فى الشام بهـذا الاسم . وبيع هـذه الخرق منهم إنما هو لينظفوا بها هذه الأوانى مما يكون عليها من تراب . وفى مقدمة طبعة ليدن ما يفيد أن الصينيات والصلاحيات أطباق خاصة من النحاس . فإذا كان هذا كذلك، فإن هذه الخرق كانت تستعمل لجلائهـا . (٦) جمع سقاطة، وهى ما سقط من الشىء . (٧) هكذا فى نسخة الشنقيطى، جمع صمامة (بكسر الصاد) وهى السداد (بكسر السين) . وفى نسخة (ليدن) : صماما (بكسر الصاد أيضا)، وهو السداد أيضا .

(٨) مسجد ابن رغبان : حى البصريين ببغداد . قال الزبيدى : ابن رغبان : مولى حبيب بن مسلمة الفهرى، من أهل الشام، صاحب المسجد ببغداد اه . (٩) ولم أر الخ، يظهر أنه يريد بالاجتماع إليه حضور مجلسـه للاستماع إلى ما يلقيه من نوادره فى البخل واحتجاجاته له . وقوله : (ما اجتمع له)، أى مثل القدر الذى اجتمع له .

(١٠) من أصحاب الجاحظ . تجد له خبرا فى (البيان والتبيين)، جزء ١، ص ١٠٠، ١٠١، طبعة السندوبى .

(١١) تقدم ذكره فى حكاية المسرجة ذات العود والخيط . (١٢) هو أبو يعقوب إسحاق بن حسان السغدى الخريمى الأعور . كان أديبا شاعرا . وكان متصلا بمحمد بن منصور بن زياد، كاتب البرامكة . وقد مدحه ورثاه بعد موته . (١٣) سبق التعريف به .

وأبو عبدِ الرحمنِ هذا شديدُ البُخْلِ [1]، شَديدُ العارِضة [2]، عَضْبُ اللسان [3]. وكان يَحْتَجُّ للبُخل [4]، ويُوصِى به، ويَدْعُو إليه. وما علمتُ أنّ أحدًا جَرَّدَ فى ذلك كتابًا [5] إلا سَهْلَ بنَ هارون.

وأبو عَبْد الرحمن هذا هو الذى قال لابنه [6]: أىْ بُنَىَّ، إنّ إنْفاقَ القَرَاريط، يفتحُ عليك أبوابَ الدَّوانيق [7]، وإنفاقَ الدوانيق، يفتح عليك أبوابَ الدراهِم [8]، وإنفاقَ الدراهم، يَفْتَحُ عليك أبواب الدنانير. والعَشَرَاتُ تفتح عليك أبوابَ المِئِينَ، والمِئُونَ تفتحُ عليك أبوابَ الأُلُوف، حتّى يأتىَ ذلك على الفَرْع والأَصْل، ويَطْمِسَ على العَيْن والأَثَر [9]، ويحتمِلَ [10] القليلَ والكثير!

أىْ بُنَىَّ، إنّما صار تأويلُ الدِّرهم: (دارَ الهمُّ) [11]، وتأويلُ الدينار: (يُدْنِى إلى النّار). الدرهمُ إذا خَرَجَ إلى غيرِ خَلَفٍ، وإلى غيرِ بَدَلٍ، دارَ الهَمُّ على دوانِق مُخْرَجَة [12]. وقيل: إنَّ الدينار يُدْنِى إلى النّار، لأنّه إذا أنفقتَه فى غير خَلَف، وأُخْرِجَ إلى غير بَدَل، بقيتَ مُخْفِقًا [13]

(١) كنية الثورى، كما تقدم. (٢) فى اللسان: العارضة: قوة الكلام وتنقيحه والرأى الجيد اهـ.

(٣) فى اللسان: وسيف عضب: قاطع، وصف بالمصدر. ولسان عضب: ذليق (بفتح فكسر)، مثل بذلك اهـ وقوله: (مثل بذلك)، أى على التشبيه بالسيف. (٤) وكان الخ، أى يدافع عنه ويأتى بالحجج على ضرورته للانسان. (٥) يقصد بالكتاب رسالته المشهورة (وقد تقدمت فى هذا الكتاب)، فيما يظهر. وقيل: إن له كتابا آخر فى البخل، كما فى (الأعلام) للزركلى. وجرد: وضع. (٦) قال لابنه الخ، قد سبق فى هذه القصة أنه (لم يكن له وارث)، اللهم إلا إذا ولد له هذا الولد بعد ذلك. وقد شرحنا معنى القيراط آنفا. (٧) جمع دانق، بفتح النون وكسرها. ويجمع أيضا كل منهما على دوانق. راجع المصباح فى (د ن ق). وهو سدس درهم.

(٨) الدرهم: ستة دوانق. والدرهم: نصف دينار وخمسه. راجع المصباح فى (دره)، ففيه تفصيل للموضوع.

(٩) يقال: طمسه (بفتح الميم) وطمس عليه طمسا: محاه. وعين الشىء: ذاته ونفسه. والأثر: ما بقى منه. ومنه: أصبح الشىء أثرا بعد عين، أى: لا شىء بعد أن كان شيئا. (١٠) (يحتمل): يحمل، أى يذهب به.

(١١) جملة (دار الهم) مقصود لفظها — وكذا (يدنى إلى النار). (١٢) الدرهم الخ، يفسر الثورى تأويل الدرهم بدار الهم الخ. وقوله: دار الهم على دوانق، أى نزل بها الهم. والكلام على المجاز، أى نزل بصاحبها. وكان مقتضى الظاهر أن يقول: دار الهم عليه — ولكنه قال: (على دوانق مخرجة)، إشارة إلى أن الدرهم — فى مذهبه — لا يخرج جملة، بل مقطعا. (١٣) (مخفقا): خائبا. ونرجح أن (مخفقا) محرفة عن مخفا (بضم فكسر ففاء مشددة)، من أخف، أى صار قليل المال، لأن نظم الكلام يقتضى ذلك.

مُعْدِمًا ، وفقيرًا مُبْلَطًا[1] . فيخرجُ الخارجُ[2] ، وتدْعُو الضَّرورة[3] إلى المَكَاسب الرديَّة[4] ، والطُّعَم[5] الخبيثة . والخبيثُ من الكَسْبِ يُسْقِطُ العدالة[6] ، و يَذْهَبُ بالمُرُوءَة ، و يُوجِبُ الحَدَّ[7] ، و يُدْخِل النَّار .

✣ ✣ ✣

وهـذا التأويلُ الذى تأوَّله للدرهم والدينار ليس له ، إنّمـا هذا شىء كانـ يتكلّم به عبدُ الأعْلى القاصُّ[8] .

فكان عبدُ الأعلى إذا قيـل له : لِمَ سُمِّىَ الكَلْبُ قَلَطِيًّا[9] ؟ قال : لأنه قَلَّ وَلَطَى[10] ! و إذا قيل له : لِمَ سُمِّىَ الكلبُ سَلُوقِيًّا[11] ؟ قال : لأنّه يَسْتَلُّ و يُلْقِى[12] ! و إذا قيل له : لِمَ سُمِّىَ العُصْفُورُ عصفورا ؟ قال : لأنّه عَصَى وفَرَّ[13] !

---

(١) مبلطا : لا شىء لك . قال فى الأساس : واعترضهم اللصوص فأبلطوهم : إذا تركوهم على ظهـر الغبيراء ، لم يبقوا لهم شيئا اهـ . (٢) الدينار . (٣) فى نسختى الشنقيطى و (ليدن) : (و يدعوه الضرورة) . ولا يخفى سقمه . فلذا رجحنا أن يكون الأصل : (وتدعو الضرورة) . (٤) من ردا يردو فهو ردىّ (بتشديد الياء) ، أى خسيس وضيع . واللغة المشهورة : ردؤ يردؤ رداءة ، فهو ردىء . (٥) جمع طعمة . قال فى اللسان : والطعمة بالضم والكسر : وجه المكسب . يقـال : فلان جيـد الطعمة ، وخبيث الطعمة : إذا كان ردىء الكسب اهـ .

(٦) يسـقط العدالة : يسقط المروءة والشرف ، ويجعل المـرء غير مقبول الشهادة . وفى اللسان : رجل عدل وعادل : جائز الشهادة . وفى المصـباح : وعدّلت الشاهد : نسبته إلى العـدالة ، ووصفته بهـا ، وعدل هو بالضم [أى بضم الدال] عدالة وعدولة فهو عدل . أى مرضى يقنع به اهـ . (٧) يراد بالحد هنا العقوبة التى جعلها الله لمن ركب ما نهى عنه ، كحد السارق ، وهو قطع يمينه — وكل ذلك مفصل فى موضعه — يعنى أنه قد يكون من خبيث الكسب ما يوجب الحد ، كالسرقة مثلا ، ويؤدّى إلى النار . (٨) يقول الجاحظ : وهذا التأويل الخ ، يعنى أن التأويل الذى التمسه الثورى للدرهم والدينار ، ليس من وضعه هو . و إنمـا نقله عن عبد الأعلى القاص . والقاص : الواعظ الذى يقص على الناس أخبار من مضى ، و يتكلم بالنوادر والحديث والتفسير ، كما سبق . (٩) فى اللسان : القلطى ... القصير المجتمع من الناس والسنانير والكلاب اهـ . (١٠) قل : صار قليلا فنى اللسان : والقليل من الرجال القصير الدقيق الجثة اهـ . ولا مانع من أن يقال ذلك أيضا للكلب القصير الدقيق الجثة . وفى القاموس : لطى كسعى : لزق بالأرض اهـ . والكلب يلزق بالأرض إذا نام ، أو إذا أقعى مثلا . و يظهر أن القطىّ نوع خاص من الكلاب .

(١١) النسبة إلى سلوق ، بلدة باليمن ، على أحد أقوال ثلاثة ، على ما جاء فى القاموس . (١٢) لأنه الخ ، الاستلال : انتزاعك الشىء و إخراجه فى رفق . فكأن عبد الأعلى يريد بهذا التأويل أن الكلب يستل الصيد ثم يلق به لصاحبـه . (١٣) و إذا قيل له الخ ، حكى هـذه أبو الفرج الأصفهانى . ونقلها عنه ياقوت الرومى . ولا يخفى أن أمثال هذه التأويلات إنمـا يراد بها الدعابة والمزاح واللعب بالألفاظ .

وعبدُ الأعلى هـذا هو الذى كان يقول فى قَصَصِه : الفقيرُ ... مِرفقتُه سَلَبَة[١] ، وجَرْدَقَتُه فلقة[٢] ، وسَمَكَتُه سَلَّته[٣] ، فى طَيِّب له كثير[٤] .

وبعضُ المُفَسِّرين يَزْعُمُ أنّ نُوحا النبيَّ عليه السلام ، إنمـا سُمِّىَ نُوحًا ، لأنّه كان يَنُوح على نفسه ؛ وأنّ آدَمَ إنّمـا سُمِّىَ آدمَ ، لأنّه حُذِىَ[٥] من أديم الأرض[٦] — وقالوا : كان لونُه فى أُدْمَته لَوْنَ الأرض — وأنّ المَسِيحَ إنمـا سُمِّىَ المسيحَ[٧] لأنّه مُسِـح بِدُهْن البَرَكة . وقال بعضهم : لأنه كان لا يقيم فى البلد الواحد ، وكان كأنّه ماسِحٌ[٨] يمسح الأرض .

* *

ثم رَجَعَ الحديثُ إلى أعاجيب أبى عبد الرحمن :

وكان أبو عبد الرحمن يُعْجَبُ بالرءوس ، ويَحْمَدُها ويَصِفُها[٩] . وكان لا يأكل اللحم إلا يومَ

---

(١) مرفقته سلبة ، المرفقة : المخدة . وفى اللسان : وفى حديث ابن عمر أن سعيد بن جبير دخل عليه وهو متوسد مرفقة أدم (بفتحتين ، جمع أديم ، وهو الجلد المدبوغ) حشوها ليف أو سلب ، بالتحريك اهـ . واختلف فى (السلب) . فمن معانيه أنه شجر معروف باليمن تعمل منه الحبال . وقيل : قشر من قشور الشجر تعمل منه السلال . وقيل غير ذلك . والسلبة مفرد السلب — فمعنى (مرفقته سلبة) أنه ليس لديه إلا هذا الشىء الغليظ الجافى يضع عليه رأسه .

(٢) وجردقته فلقة ، أسلفنا معنى الجردقة ، وهو الرغيف . والفلقة هنا : الكسرة من الخبز . يعنى أن الفقير لا يعرف الرغيف الكامل ، وربما يعرف كسرة منه . (٣) هكذا ضبطت فى نسخة ليدن . وفى نسخة الشنقيطى بلا ضبط . ولم نجـد اللفظ أثرا فى مراجعنا . فلعله محرف . أو لعله منقول عن لغة أعجمية ، فدرج على ألسنة الناس هكذا فى عهد الجاحظ . وكل ما يفهم من السياق أنه نوع حقير من السمك . وسيأتى للجاحظ فيما يرويه نوع صغير من السمك سماه (الشلاى) . فلعل مفرده شلية . وهذا النوع معروف بمصر . وربما كانت كلمة (سلته) محرفة عن (شلية) — ويقصد عبد الأعلى بهذه الجمل الإخبارية حض الناس على الرأفة بالفقراء والتصدق عليهم . (٤) فى طيب الخ ، أى هذا الذى يرويه عن عبد الأعلى واقع فى جملة كلام طيب كثير له . فقوله : (فى طيب) خبر لمبتدإ : محذوف .

(٥) (حذى) : قطع . (٦) أديم الأرض : وجهها . (٧) وقالوا الخ ، أى وقالوا أيضا فى تعليل تسميته بآدم . والأدمة فى الإنسان : السمرة . كما فى اللسان . (٨) وكان الخ ، فى اللسان : وقال أبو العباس : سمى مسيحا ، لأنه كان يمسح الأرض ، أى يقطعها اهـ . وقال صاحب القاموس : وذكرت فى اشتقاقه خمسين قولا ، فى شرحى لمشارق الأنوار وغيره اهـ — وقد ساق الجاحظ أقوال بعض المفسرين فى تأويل تسمية نوح وآدم والمسيح عليهم السلام ، استطرادا لمناسبة ما أورده آنفا لعبد الأعلى . (٩) يذكرنا ما وصف به أبو عبد الرحمن الرءوس ، وصفا لرأس الديك تكلم به سهل بن هرون ، فى خبر طريف تجده فى عيون الأخبار ، جزء ٣ ، ص ٢٥٩

أضْحَى[1]، أو مِنْ بَقِيَّة أُضْحِيَّتِه[2]، أو يكونُ فى عُرْسٍ أو دَعْوَة أو سُفْرة[3]. وكان سَمَّى الرأسَ عُرْسًا، لمـا يجتمع فيه من الألوان الطَّيِّبة[4]. وكان يُسمّيه مَرَّةً الجامعَ، ومرّة الكامِلَ.

وكان يقول: الرأسُ شيء واحد، وهو ذُو ألوان عَجِيبة، وطُعُومٍ مختلفة. وكلُّ قِـدْرٍ وكلُّ شِواءٍ[5] فإنَّما هو شيء واحد. والرأسُ فيه الدِّماغ، فطَعْمُ الدماغ على حِدَة[6]. وفيه العَيْنان، وطعمهما شيء على حِدَة[7]. وفيــه الشَّحْمَةُ التى بين أصــل الأُذُن ومُؤْخِرِ العين[8]، وطعمها على حِدَة. على أنّ هــذه الشَّحْمَة خاصَّــةً أطيبُ مِنَ المخّ، وأنْعَمُ من الزُّبْد، وأدْسَمُ من السِّلاء[9].

وفى الرأس اللسانُ، وطَعْمُــه شيء على حِدَة. وفيــه الخَيْشُوم[10]، والغُضْروف[11] الذى فى الخَيْشُوم، وطعمهما شيء على حِدَة. وفيه لحم الخَدَّين، وطعمه شيء على حِدَة — حتى يقَسِّم أسْقاطَه الباقية[12].

(١) الأضحى: جمع أضحاة. وبهذا الجمع سمى يوم النحر. (٢) الأضحية، بكسر الهمزة وضمها: شاة يضحى بها، كالأضحاة والضحية (بفتح فكسر فتشديد الياء). (٣) السفرة: طعام السفر. ويؤخذ من قرينة المقام أنه كان يأكله فى سفرة من يكون معه فى سفر. (٤) وكان سمى الرأس الخ، فى (عيون الأخبار): ويسمى الرأس عرسا، لمـا تجمع فيه الخ. (٥) وكل قدر الخ، يريد بالقدر اللون من الطعام طبخ فى قدر، على المجاز. والشواء: المشوى من اللحم. قال فى المصباح: والشواء بالمد، فعال بمعنى مفعول. مثل كتاب وبساط، بمعنى مكتوب ومبسوط. وله نظائر كثــيرة اهـ. (٦) فطعم الدماغ على حدة، فى (عيون الأخبار): وطعمه مفرد. (٧) وطعمها شىء على حدة، فى (عيون الأخبار): وطعمها مفرد. (٨) مؤخر العين: الذى يلى الصدغ، ومقدمها (على وزن مؤمن): الذى يلى الأنف. (٩) السلاء: السمن ذهب ما فيه من آثار اللبن. (١٠) (الخيشوم): أقصى الأنف. ومنهم من يطلقه على الأنف. مصباح. والمراد هنا الأنف جميعــه، كما يعينه المقام. (١١) (الغضروف)، ويقال له أيضا: غرضوف: كل عظم رخص (بفتح فسكون) يؤكل. وقد أحصى صاحب القاموس الغضاريف، فراجعه. (١٢) حتى يقسم الخ، أى: ويذهب فى تعــديد أجزاء الرأس حتى يقسم الخ، و(يقسم): يصنف. والأســقاط: جمــع سقط (بفتحتين)، وهو ما سقط من الشىء. ويطلق أيضا على الردىء منه. والمراد هنا الأجزاء غير البالغة فى الجودة، لأنها فى رأيه جديرة بالذكر والتفصيل.

ويقـــول :

الرأسُ سيِّدُ البَدَن : وفيه الدِّماغ ، وهو مَعْدِنُ[1] العقـل ، ومنه يتفرَّق العَصَبُ الذى فيه الحِسُّ[2] ، وبه قِوَامُ[3] البَدَن . وإنّمـا القلبُ[4] بابُ العقل — كما أنّ النفسَ هى المُدْرِكة ، والعينَ هى بابُ الألوان ، والنفسُ هى السامعةُ الذّائقة ، وإنّمـا الأنفُ والأُذُنُ بابان .

ولولا أنّ العقل فى الرأس لمـا ذهب العقلُ من الضَّرْبة تُصيبُه .

وفى الرأس الحواسُّ الخمس .

وكان يُنْشِدُ قَوْلَ الشاعر :

إذا ضَرَبُوا رأسِى وفى الرأس أكْثَرِى وغُـودِرَ عنـدَ الملتقَى ثَمَّ سائِرِى[5]

وكان يقول : الناسُ لم يقولوا : هـذا رأس الأمر ، وفلانٌ رأسُ الكَتِيبة[6] ، وهو رأسُ القوم ، وهم رُءُوس الناس وخَرَاطِيمُهم[7] وأنُفُهُـم[8] ، ويَشْتَقُّوا[9] من الرأس الرِّياسـةَ ، والرَّئيسَ ، و (قد رأَسَ القومَ فلان)[10] ، إلا والرأسُ[11] هُوَ المَثَلُ ، وهو المُقَدَّم .

وكان إذا فرَغَ من أكل الرأس عَمَدَ إلى القِحْفِ[12] ، وإلى الجَبِين ، فوضعه[13] بقُرْب بُيوت النَّمْل

(١) معدن كل شىء حيث يكون أصله . (٢) فيه الحس ، أى الذى يحصل الحس بسببه . ففى للسببية . (٣) قوام الشىء : ما يقوم به ، أى يصلح به . (٤) وإنما القلب الخ ، كأنه جواب عن سؤال نشأ من الكلام السابق . فكأن سائلا قال له : وما عمـل القلب إذا ؟ فقال : وإنما الخ . والمراد بالقلب القوة المودعة فيـه ، على رأى الأقدمين من الفلاسفة . (٥) البيت للشنفرى ، عمـرو بن مالك الأزدى . وقوله : (وفى الرأس أكثرى) ، أى أكثر ما فى . والجمـلة اعتراضية . و (سائرى) ، أى بقيّى ، نائب فاعل (غودر) . وفى (عيون الأخبار) : (هو) بدل (إذا) . (٦) الكتيبة : الطائفة من الجيش . (٧) فى اللسان : وخراطيم القوم : ساداتهـم ومقدموهم فى الأمور اهـ . وإنمـا شبهوا بالخراطيم التى هى الأنوف ، لشرف الأنف فى الوجه . ومنه اشتقت الأنفة (بفتح الهمزة والنون) وهى الحمية والغيرة على الشرف . (٨) قال فى الأساس : ومن المجاز : هو أنف قومه ، وهم أنف الناس اهـ . (٩) (ويشتقوا) ، معطوف على (يقولوا) . وفى نسخة (ليدن) : (واشتقوا) ، وكذا فى نسخة الشنقيطى . وهو تحريف ، كما يعلم من سـياق التركيب . (١٠) (قد رأس القوم فلان) ، مقصود لفظها ، معطوفة على (الرياسة) . (١١) إلا والرأس الخ ، مرتبط بقوله : لم يقولوا الخ ، والواو للحال . وقوله : (هو المثل وهو المقدّم) ، أى عندهم وفى اعتبارهم . (١٢) (القحف) ، تقدم تفسيره . (١٣) أفرد ضمير المفعول باعتبار (المذكور) . ومثل هذا كثير فى فصيح الكلام :

والذّرّ[1] . فإذا اجتمعتْ فيــه أخَذه فنفَضَه فى طَسْتٍ[2] فيهـا ماء . فلا يزال يُعيد ذلك فى تلك المواضع، حتى يَقلَعَ أصلَ النمل والذّرّ من داره . فإذا فرغَ من ذلك ألقاهُ فى الحَطَب[3]، ليُوقِدَ به سائرَ الحطب[4] .

وكان إذا كانَ يومُ الرءوس[5]، أقْعدَ ابنَه معه على الخوَان . إلا أنّ ذلك بَعْدَ تَشَرُّطٍ[6] طويل، وبعدَ أن يَقِفَ به على ما يُريد !

وكانَ فيما يقول له[7] : إيّاك ونَهَمَ[8] الصِّبيان، وشَرَهَ الزُّرّاع[9]، وأخلاقَ النوائح[10] . ودَعْ عنك خَبْطَ المَلّاحين[11] والفَعَلة[12]، ونَهْشَ الأعْراب والمَهَنة[13] . وكُلْ ما بينَ يَدَيْك ؛ فإنّمـا حقُّك الذى وَقَعَ لك، وصار أقْرَبَ إليك[14] .

---

(١) الذر : صغار النمل . (٢) تجمع الطست على طساس (بكسر الطاء) وطسوت . وهى أنثى . وقد تذكر . (٣) الحطب : ما أعد من الشجر للنار . (٤) ليوقد به الخ، أى لأن هذا النوع من العظم الرقيق سريع الالتهاب . (٥) وكان الخ، (كان) الثانية تامة، أى أقبل . و(يوم الرءوس)، أى يوم أكلها . (٦) تشرط : تكلف شروط يلزمها ابنه . وفى الأساس : وقد تشرط فلان فى عمله : إذا تنوق (التنوق : المبالغة) وتكلف شروطا ما هى عليه اهـ . (٧) (فيما يقول له) : فى ضمن ما يقول له . و(إياك) إلى آخر كلامه لابنه مقصود اللفظ اسم كان . (٨) النهم : إفراط الشهوة فى الطعام . والفعل من باب فرح . (٩) الشره : غلبة الحرص على الطعام . والفعل من باب فرح . وإنمـا خص شره الزراع، لأنهم قوم أهل كد ونصب وحركة، فيشرهون إلى الطعام لفرط ما يبذلون من قواهم البدنية . هذا ما ظهر لنا .

(١٠) وأخلاق النوائح، هكذا فى (عيون الأخبار)، المفرد نائحة . قال فى اللسان : والنوائح : اسم يقع على النساء يجتمعن فى مناحة اهـ . والظاهر أنه يريد أن النوائح ينحن ما ينحن . فإذا حضر الطعام أقبلن عليه شرهات، ونسين ما كن فيه من بكاء وعويل . يقول : فلا يكن شرهك إلى الطعام كشره النوائح . وفى نسخة الشنقيطى (النوابح)، وله توجيه .

(١١) خبط الملاحين، الملاح : نوتى السفينة . وهو سائقها . والخبط : السير على غير هدى . فكثيرا ما يحيد الملاح عن طريقه ضالا، أو ذاهبا مع الريح هنا وهناك . يقول : لا تذهب فى الطعام على غير استقامة، وكل مما يليك .

(١٢) الفعلة : صفة غالبة على عملة الطين والحفر ونحوه، كما فى القاموس . والمفرد فاعل . يقول : لا تكن عنيفا فى أكلك عنف الفعلة فى عملهم . (١٣) ونهش الخ، سبق شرح النهش . و(الأعراب) : جمع أعرابى، وهو ساكن البدو من العرب . يقول : لا تنهش اللحم كما ينهشه الأعراب الجفاة، ولا تنهش كما ينهش المهنة (جمع ماهن، وهو العبد والخادم)، أى فإنهم لا يعرفون أدب المائدة، ولا ثقافة لهم ولا تهذيب . (١٤) فإنمـا الخ، (وقع لك) : صار إليك . أى ليس لك حق إلا فى ذلك . وفى (عيون الأخبار) : فإن حظك الذى وقع وصار إليك .

وأعلم أنّه إذا كان فى الطعامِ شىء طَرِيف ، ولُقْمة كريمة ، ومُضْغة شهيّة [١] ، فإنّما ذلك للشَّيْخ المعظَّم ، والصَّبِيِّ المُدَلَّل [٢] ، ولستَ واحدا منهما ، فأنت قد تأتى الدَّعواتِ والولائم ، وتدخلُ منازلَ الإخوان ، وعَهْدُك باللَّحم قَرِيب [٣] ، وإخوانُك أشَدُّ قَرَما [٤] إليه منك ، وإنّما هو رأس واحد [٥] . فلا عليك أن تَجَافَى عن بعْضٍ [٦] وتُصِيبَ بعضًا [٧] . وأنا بَعْدُ أكْرَه لك المُوالاةَ بين اللحم [٨] ، فإنّ الله يُبْغِضُ أهْلَ البيتِ اللَّحِمِين [٩] .

وكان يقول : إيّاكم وهذه المجازِرَ ، فإنّ لها ضَراوةً [١٠] كضَراوة الخمر .

وكان يقول : مُدْمِنُ اللحم [١١] كمُدْمِن الخمر .

---

(١) إذا كان الخ ، سبق تعريف الطريف . و(لقمة كريمة) : نفيسة أو شهية . والمضغة : قطعة لحم . وقيل : تكون المضغة غير اللحم . وفى (عيون الأخبار) : (بضعة) ، بدل (مضغة) . والبضعة (بفتح الباء) : القطعة من اللحم .

(٢) المدلل : الذى يتجنى فى غير موضع تجن ، كما فى اللسان . والمراد الصبى الجرىء على أهله ، ذو الحظوة عندهم .

(٣) وعهدك باللحم قريب ، الواو للحال . أى إنك قد أكلته قريبا .

(٤) سبق شرح القرم وهو شدة الشهوة إلى اللحم .

(٥) وإنما هو الخ ، أى والفرض أن ما على المائدة رأس واحد فقط .

(٦) فلا عليك الخ ، قال فى شرح القاموس : إن (لا) إذا كانت لنفى الجنس جاز حذف الاسم لقرينة ، نحو : لا عليك ، أى لا بأس عليك اهـ . وقوله : (أن تجافى) ، أن والفعل فى تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف ، أى : فى أن تجافى . و(تجافى) : تبتعد . و(تصيب بعضا) : تنال بعضا .

(٧) (بعد) : بعد كل ما أسديته إليك من النصح .

(٨) يقال : والى بين الشيئين ، أى تابع . و(الموالاة بين اللحم) ، أى بين أكله .

(٩) فإن الله الخ ، فى النهاية لابن الأثير : إن الله ليبغض أهل البيت اللحمين . وفى رواية : البيت اللحم وأهله . قيل : هم الذين يكثرون أكل لحوم الناس بالغيبة . وقيل : هم الذين يكثرون أكل اللحم ويدمنونه . وهو أشبه اهـ . وكلاهما حديث عن النبى صلى الله عليه وسلم . وقد تقدم فى هذا المعنى شىء من ذلك .

(١٠) فى اللسان : وفى حديث عمر : اتقوا هذه المجازر ، فإن لها ضراوة كضراوة الخمر — أراد مواضع الجزارين التى تنحر فيها الإبل ، وتذبح البقر والشاء وتباع لحمانها ... واحدها مجزرة (بفتح الزاى وكسرها) . وإنما نهاهم عنها ، لأنه كره لهم إدمان أكل اللحوم ، وجعل لها ضراوة كضراوة الخمر ، أى عادة كعادتها ، لأن من اعتاد أكل اللحوم أسرف فى النفقة . فجعل العادة فى أكل اللحوم كالعادة فى شرب الخمر ، لما فى الدوام عليها من سرف النفقة والفساد اهـ . وبهذا اتضح المقام .

(١١) مدمن الخ ، يتضح معناه مما نقلناه عن اللسان فى تفسير الفقرة السابقة . ويقال : أدمن على الشىء ، كما يقال : أدمن الشىء .

وقال الشيخُ ورأى رجلا يأكل اللحم، فقال : لحمٌ يأكل لحمًا ! أفٍّ لهذا عملا ! (١) (٢) (٣) (٤)

وذكر هَرِمُ بن قُطْبَة اللحم، فقال : وإنه ليَقْتُلُ السِّباعَ . (٥) (٦)

وقال المُهَلَّبُ : لحمٌ واردٌ على غير قارِم، هذا الموتُ الأحمر . (٧) (٨)

وقال الأوّلُ : أهلكَ الرجالَ الأحمـران : اللحمُ والخمـر، وأهلكَ النِّساءَ الأحمـران : الذهبُ والزَّعْفَران . (٩)

٥

أى بُنَىَّ، عوِّدْ نفسَك الأَثَرَة، ومُجَاهَدَةَ الهَوَى والشَّهْوة . ولا تَنْهَشْ نَهْشَ الأفاعِى، ولا تَخْضَمْ (١٠) (١١) (١٢)

---

(١) أبو عبد الرحمن . (٢) ورأى رجلا، الواو للحال . والجملة حالية . وتقدر (قد) وجوبا، أى : وقد رأى . (٣) فقال الخ، كرر (قال) . وهو من أساليبه . وقد تقدم نظيره فى غير موضع . وقوله : لحم الخ، جملة خبرية، أريد بها التعجب . (٤) أف الخ، قال البيضاوى فى تفسير قوله تعالى فى سورة الأنبياء : (أف لكم) : تضجر منه على إصرارهم بالباطل البين . وأف : صوت المتضجر . ومعناه : قبحا ونتنا (بفتح النون وسكون التاء) . واللام لبيان المتأفف (بتشديد الفاء مفتوحة) له اهـ . (٥) هو هرم بن قطبة بن سنان ابن عمـرو الفزارى الصحابى . كان راجح العقل، تقدمه العرب فى الحكم والعلم . وقد حكم له عمـر بن الخطاب رضى الله عنه بإصابة الرأى، ورجحان العقل، فى خبر تجده فى (البيان والتبيين) . وقوله : وذكر هرم، إلى قوله : (والزعفران)، هو من مقول قول الحارثى . (٦) وإنه الخ، يريد الإكثار من أكله، أى : فما بالك بالإنسان . (٧) المهلب بن أبى صفرة . وقد سبق الكلام عليه . (٨) لحم الخ، الذى فى المعاجم : (قرم) (بكسر الراء)، لأن الفعل من باب فرح . ولا مانع من استعمال (قارم) لإفادة الحـدوث، كما نصوا على ذلك . ومعنى (لحم وارد على غير قارم) : لحم يأكله من لا يشتهيه .

(٩) الذهب والزعفران، فالذهب للحليـة، والزعفران للتطيب . وفى اللسان : الأزهرى : فى قولهم : أهلك النساء الأحمـران، يعنون الذهب والزعفران، أى أهلكهن حب الحلى والطيب اهـ . ويقال للذهب والزعفران : الأصفران أيضا — وأما إهلاك اللحم والخمر للرجال، فاهلاك مال وإهلاك صحة . (١٠) الأثرة اسم مصدر من آثر يؤثر إيثارا، كما فى اللسان . أى : عود نفسك أن تؤثر غيرك على نفسك . (١١) ومجاهدة الخ، أى على المائدة . أى لا تطلق لنفسـك العنان فيما تشتهيه وتهواه من الألوان عليها . ويمكن أن يراد مع ذلك المعنى العام أيضا . (١٢) سبق تعريف النهش . والأفاعى : جمع أفعى للأنثى، وأفعوان للذكر . وقد عرف الأفعى فى اللسان بأنها حيـة رقشاء، دقيقـة العنق، عريضـة الرأس . وفى (عيون الأخبار) : (السباع)، بدل (الأفاعى) .

١٠ ١٥ ٢٠ ٢٥

خَضْمَ البراذين[1] ، ولا تُدِم الأَكْلَ إدامةَ النِّعاج[2] ، ولا تَلْقَمْ لَقْمَ الجمال[3] . قال أبو ذَرٍّ لمن بَذَلَ من أصحاب رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلم : يَخْضَمُونَ ونَقْضَمُ ، والموْعدُ الله[4] .

إنّ الله قد فَضَّلكَ ، فجعلكَ إنسانا ، فلا تجعلْ نفسَك بهيمةً ولا سَبُعًا[5] . واحذرْ سُرْعةَ الكِظَّة[6] ، وسَرَفَ البِطْنة . وقد قال بعضُ الحكماء : إذا كنتَ بَطِيناً[7] فعُدَّ نفسَك في الزَّمْنَى[8] .

٥ وقال الأعشى :

* والبِطْنَـةُ ممّـا تُسَفِّه الأحْلامَا[9] *

واعلمْ أنّ الشِّبَع داعيةُ البَشَم[10] ، وأنّ البَشَم داعيةُ السَّقَم ، وأنّ السَّقَم داعيةُ الموْت . ومَنْ مات هذه المِيتةَ ، فقد مات مِيتةً لَئِيمة[11] . وهو قاتِلُ نفسِه ، وقاتِلُ نَفْسِه ألْوَمُ مِنْ قاتِل غيرِه[12] .

---

(١) ولا تخضم الخ . الخضم : الأكل بجميع الفم . و باب الفعل فهم . والبراذين : جمع برذون (بوزن فرعون) .
١٠ قال الزبيدى : وقال الباجى : البرذون من الخيل : هو العظيم الخلقة الجافيها ، الغليظ الأعضاء اهـ .

(٢) فى (عيون الأخبار) : ولا تدمن الأكل إدمان النعاج . (٣) فى اللسان : اللقم : سرعة الأكل والمبادرة إليه اهـ . والفعل من باب فهم ، كما فى المختار . (٤) قال أبو ذر الخ ، (لمن بذل) ، أى ماله من الصحابة ، رضوان الله عليهم . والمراد بالخضم هنا بذل المال . ففى القاموس وشرحه : وخضم له من ماله : أعطاه اهـ . والقضم : الأكل بأطراف الأسنان — أى إنهم يبذلون مالهم فى سبيل الله . أما نحن الفقراء فإننا لا نشره
١٥ فى الأكل ، بل نرضى بالقليل مما يجودون به علينا تعففا . وقوله : (والموعد الله) ، أى يوم الله ، وهو يوم القيامة ، ففيه الجزاء . (٥) فلا تجعل الخ ، أى لا تكن عند الأكل كالبهيمة أو السبع . والبهيمة : كل ذات أربع قوائم من دواب البر والماء . والسبع : ما يفترس الحيوان و يأكله قهرا وقسرا ، كالأسد والنمر والذئب وغيرها . والجمع أسبع وسباع . وسباع الطير : التى تصيد ، كما فى اللسان . (٦) واحذر الخ ، الكظة : الامتلاء من الطعام ، كما سبق . وسرعة الكظة : أن يسرع إليه الامتلاء ، وهو لا يزال فى أثناء طعامه ، فيتفاقم عليه الأمر . (٧) البطين : عظيم
٢٠ البطن من كثرة ما يأكل . والفعل من باب فرح ، ومصدره بطن (بالتحريك) ، وبطنة (بكسر فسكون) أيضا . وهو بطين .

(٨) جمع زمين ، وهو ذو العاهة الذى يدوم مرضه زمانا طويلا . وفعله من باب تعب . (٩) والبطنة الخ ، (الأحلام) : جمع حلم ، (بكسر فسكون) وهو هنا العقل . و (تسفه الأحلام) : تطيشها . والبيت كله ، كما فى اللسان :

يا بنى المنذر بن عبدان والبطـ ـنة مما تسفه الأحلاما

عبدان ، بفتح فسكون . (١٠) فى المصباح : بشم الحيوان بشما ، من باب تعب : اتخم (بتشديد التاء مفتوحة)
٢٥ من كثرة الأكل . فهو بشم اهـ . (١١) فن مات الخ (لئيمة) : دنيئة . وفى عيون الأخبار : بهذه الميتة .

(١٢) ألوم من قاتل غيره : أحق منه بأن يلام . قال فى الأساس : وأنت ألوم من فلان : أحق بأن تلام اهـ .

واعْجَبْ ، إنْ أردتَ العَجَب ! وقد قال الله جلّ ذِكْرُه : ﴿ولا تَقْتُلوا أنفُسَكم﴾ . — وسواءٌ قتلنا أنفُسَنا ، أو قَتَل بعضُنا بعضًا ، كان ذلك للآية تأويلًا[1] .

أىْ بُنىّ ، إنّ القاتِلَ والمقتولَ فى النّار[2] . ولو سألتَ حُذّاقَ الأطِبّاء لأخبروك أنّ عامّةَ أهلِ القُبور إنّما ماتُوا[3] بالتُّخَم . واعْرِفْ خَطأ مَنْ قال : أكْلةٌ ومَوْتةٌ ! وخُذْ بقول مَنْ قال : رُبَّ أكْلةٍ تمنع أكَلاتٍ[4] . وقد قال الحَسَنُ[5] : يابنَ آدم كُلْ فى ثلث بطنك ، واشربْ فى ثلث بطْنك ، ودع الثُّلُثَ للتفكُّر والتّنفس . وقال بَكْرُ بنُ عبـد الله المُزَنىّ[6] : ما وجدتُ طَعْمَ العَيْش حتى استبدلتُ الخُمْصَ بالكِظّة[7] ، وحتى لم أَلْبَس من ثيابى ما يستخدِمُنى[8] ، وحتى لم آكُلْ إلا ما لا أَغْسِل يدَىَّ منه[9] .

يا بُنَىّ[10] ، والله ما أدّى حقّ الرُّكوع ، ولا وَظِيفةَ السـجود ذو كِظّة ، ولا خَشَـعَ لله ذو بِطْنة . والصّومُ مَصَحّة[11] ، والوَجَبات عَيْشُ الصالحين[12] .

---

(١) وسواء الخ ، (سواء) خبر مقدّم . والمصدر من (قتلنا الخ) مبتدأ مؤخر . وهنا يؤتى بالمصدر من غير سابك . أى قتل أنفسنا وقتل بعضنا بعضا سـواء فى تأويل الآية ، أى فى تفسيرها . لأن قوله : (أنفسكم) يحتمل قتل المرء نفسه ، وقتله لغيره .

(٢) إن القاتل الخ ، أى إنّ من مات بالتخمة فقد قتل نفسه . فهو قاتل ومقتول فى وقت معا . فهو فى النار ، على رأيه .

(٣) هكذا فى نسخة الشنقيطى . وفى نسخة (ليدن) : (أتوا) ، بالبناء للمجهول . ويمكن تخريجه .

(٤) رب الخ . أى لما ينشأ عنها من الأمراض .

(٥) أى البصرى ، رضى الله عنه .

(٦) هو من مزينة مضر . كان حسن اللباس ، كثير الانفاق عليـه . وكان من أفاضـل التابعين ، صالحا تقيا . قال الجاحظ فى (البيان والتبيين) : وكانوا إذا ذكروا البصرة قالوا : شيخها الحسن ، وفتاها بكر اه . مات سنة ١٠٨ هـ .

(٧) حتّى استبدلت الخ ، قال فى المصباح : خمص (بفتح فضم) الشخص خمصا ، فهو خميص : إذا جاع اه . أى حتّى اتخذت الخمص بدل الكظة .

(٨) وحتّى لم ألبس الخ ، يستخدمنى : يجعلنى خادما له ، أى بالمحافظة عليه ، لأنه ثمين .

(٩) وحتّى لم آكل الخ ، هكذا فى نسـخة الشنقيطى . أى المأكولات غير ذات الدسم . وفى نسـخة (ليدن) : (إلا ما أغسل) . وهو تحريف .

(١٠) يا بنى الخ ، أى لأن الممتلئ لا يمكن أن يركع فى الصلاة تمام الركوع ، ولا أن يسجد تمام السجود . والخشوع وتفريغ القلب لله تعالى لا يكون مع التعب والتخمة .

(١١) فى اللسان : وفى الحديث : (الصوم مصحة) . ومصحة ، بفتح الصاد وكسرها . والفتح أعلى ، أى يصح (بالبناء للفعول) عليه . وهو مفعلة من الصحة اه .

(١٢) الوجبات : جمع وجبة ، وهى الأكلة الواحدة فى اليوم والليلة . ويراد بالصالحين هنا العباد والزهاد ، وذلك ليتجردوا لعبادتهم .

ثم قال : لأمرٍ مَّا[1] طالت أعمارُ الهِنْد[2] ، وصحَّتْ أبدانُ الأعْراب . لله درّ الحارث ابن كَلَدَة[3] ، حين زَعَم أنّ الدواءَ هو الأَزْمُ[4] ، وأنّ الداءَ هو إدخالُ الطعام في أَثَرِ الطعام[5] !

أي بُنيّ لِمَ صَفَتْ أذهانُ العرب ؟ ولِمَ صَدَقَتْ أحْسَاسُ الأعْراب[6] ؟ ولِمَ صَحَّت أبدان الرُّهْبان ، مَعَ طُول الإقامة في الصَّوامع[7] ؟ وحتى[8] لم تعرِف النِّقْرِسَ[9] ، ولا وَجَعَ المفاصل ، ولا الأَوْرَامَ ، إلا لقلّة الرِّزْق[10] من الطَّعام ، وخِفَّة الزاد ، والتَّبلُّغ باليسير .

أيْ بُنَيَّ ، إنّ نَسيمَ الدنيا ورَوْحَ الحياة[11] أفْضَلُ مِنْ أن تَبِيتَ كَظِيظًا ، وأن تكون لِقِصَرِ العُمْر حَليفا . وكيفَ لا ترغبُ في تَدْبير[12] يجمع لك صِحَّةَ البدن ، وذكاءَ الذِّهن ، وصلاحَ المِعَى ، وكثرةَ المال ، والقُرْبَ من عَيْش الملائكة ؟

---

(١) لأمر ما . (ما) صفة لأمر ، أي : لأمر عظيم . (٢) (أعمار الهند) : أعمار أهلها . ويطلق الهند أيضا على ذلك الجيل . (٣) الحارث بن كلدة طبيب العرب . سافر إلى فارس . وتعلم هناك الطب واشتهر فيه ، ونال به مالا . وأدرك الاسلام . (٤) أزم ، من باب ضرب : أمسك عن المطعم والمشرب . وفي المصباح : ومنه قول الحارث بن كلدة ، لما سأله عمر رضي الله عنه عن الطب ، فقال : هو الأزم ، يعني الحمية .

(٥) في أثر الطعام : بعده بمدة قريبة . وفي المصباح : وجئت في أثره ، بفتحتين ، وإثره ، بكسر الهمزة والسكون ، أي تبعته عن قرب اهـ . وفي (عيون الأخبار) : إدخال الطعام إثر الطعام . (٦) ولم صدقت الخ ، الأحساس : جمع حس ، وهو الشعور بالشيء . وصدق الشعور : صحته وسلامته ، وخلوه من شوائب الضعف .

(٧) جمع صومعة : متعبد النصارى . (٨) وحتى ، أي : وهكذا ظل شأن صحتهم حتى الخ . قالوا : وليست الواو في الحقيقة داخلة على (حتى) . (٩) لم تعرف النقرس ، فاعل (تعرف) يعود إلى (الطوائف) التي ذكرها . والنقرس : ورم يحدث في مفاصل القدم . (١٠) إلا لقلة الخ ، مرتبط بقوله : (لم صفت ... ولم صدقت ... ولم صحت ...) ، أي ما صفت الخ ، إلا لقلة الرزق الخ . فالاستفهام إنكاري . و(التبلغ باليسير) : الاكتفاء به . وفي نسخة (ليدن) : (التبليغ) ، وهو تحريف . وفي (عيون الأخبار) : لا لقلة الرزء (بضم فسكون) اهـ . والرزء هنا : ما يصيبه الإنسان من طعام . (١١) روح الحياة : راحتها .

(١٢) وكيف لا ترغب الخ . التدبير : مصدر دبرت الأمر : فعلته عن فكر وروية . وقد أطلق المصدر وأريد به الأمر المدبر ، وهو المفكر فيه ، الذي أحكمته العقول والتجارب ، ألا وهو الاكتفاء باليسير من الطعام ، والبعد عن الكظة . و(المعى) : واحد الأمعاء . وقوله : (والقرب من عيش الملائكة) ، أي من حياتهم ، إذ هم لا يأكلون ولا يشربون .

أى بُنَىّ ، لِمَ صَار الضَّبُّ أطوَلَ شيءٍ عُمْرًا[١] إلا لأنَّه إنَّمـا يَعيش بالنَّسيم ؟ ولِمَ زَعَمَ[٢] الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم أنّ الصوم وِجَاءٌ[٣] إلّا لِيجعلَ الجوعَ حِجَازًا دونَ الشَّهوات .

افهمْ تأديبَ الله؛ فإنّه[٤] لم يَقْصِدْ به إلّا إلى مِثْلِك[٥] .

أىْ بُنَىّ ، قد بلغتُ تِسْعين عامًا ما نَقَص لى سِنٌّ[٦] ، ولا تحرَّكَ لى عَظْم[٧] ، ولا انْتَشَرَ[٨] لى عَصَبٌ ، ولا عرفتُ دَنِينَ أُذُنٍ[٩] ، ولا سَيَلانَ عَيْنٍ[١٠] ، ولا سَلَسَ بَوْل[١١] ! ما لذلك عِلّةٌ إلا التَّخْفِيفَ من الزّاد .

فإنْ كنتَ تُحِبُّ الحياةَ ، فهـذه سبيل الحياة ، و إنْ كُنتَ تُحِبُّ الموتَ ، فلا يُبْعِـدُ الله إلا مَنْ ظَلَم[١٢] .

هذه كانت وَصِيَّتَه فى يوم الرُّءوس وَحْدَه ! فلمْ يكُنْ لِعياله إلا التَّقَمُّم[١٣] ومَصَّ العَظْم !

---

(١) كون الضب لا يعيش إلا بالنسيم ، ولا يأكل مطلقا ، غير صحيح . ولكن الثورىّ نقـل خرافة قديمة . وفى (عيون الأخبار) : ... أطول شىء ذماء (بفتح الذال) إلا لأنه يتبلغ بالنسيم — والذماء : بقيـة الروح .

(٢) الزعم : القول يكون حقا و يكون باطلا . وهو أحد الأقوال فيه ، كما فى اللسان : فقوله : (زعم الرسول) ، معناه : قال حقا . وقوله تعالى : (فقالوا هذا لله بزعمهم) معناه : بقولهم الكذب . وقد يطلق الزعم على مجرد القول . وفى (العقد الفريد) : ولِمَ قال الرسول .

(٣) وجاء : مانع من الشهوات . ولذا حض صلى الله عليه وسـلم من لم يستطع الزواج على الصوم .

(٤) على لسان نبيه .

(٥) الى مثلك ، أى من الشباب المسرفين ، كما يفهم من المقام .

(٦) (ما نقص لى سن) ، أى فيها . وفى (عيون الأخبار) : ما نغض — ونغض (بفتحتين) : اضطرب وتحرك .

(٧) (ولا تحرك لى عظم) ، يظهر أن المراد بالتحرك هنا الالتواء ، كاحديداب الظهر .

(٨) فى اللسان : قال أبو عبيدة : الانتشار : الانتفاخ فى العصب للإتعاب اهـ .

(٩) (دنين أذن) ، قال فى اللسان : الدنين ... صوت الذباب والنحل والزنابير ، ونحوها من هينمة الكلام الذى لا يفهم اهـ . والمراد نحو هذا الصوت فى الأذن من الكبر . وفى (العقد الفريد) : ذنين أنف — والذنين ، بوزن الدنين : المخاط الرقيق الذى يسيل من الأنف .

(١٠) ولا سيلان عين ، وهو ما يحدث فى الكبر من ضعف العينين ، فتسيل منهما دموع وسوائل أخرى .

(١١) فى المصباح : سلس البول : استرساله ، وعدم استمساكه ، لحدوث مرض بصاحبه .

(١٢) فلا يبعد الخ ، أى لا يهلك الله الخ ، يقال : بعد بعدا (كفرح فرحا) ، و بعد (بفتح فضم) : هلك . وجواب الشرط محذوف ، أى : إن كنت تحب الموت فأنت هالك ؛ لأنك ظالم نفسك . والله لا يهلك إلا من ظلم .

(١٣) تقمم : تتبع القمامات ، أى الكناسات . أى إنهم كانوا يتقممون ما على المائدة من الفضلات والعظام . وفى الكلام تجوز .

وكان لا يشترى الرأس إلا فى زيادة الشهر [١]، لمكان زيادة الدماغ [٢]. وكان لا يشترى إلا رأس فتىٍّ، لوفارة الدماغ [٣]؛ لأن دماغ الفتىّ أوفر، ويكون مخه أنقص [٤]، ومخّ المسنّ أوفر، ودماغه أنقص [٥].

ويزعمون أن للأهلّة والمحاق فى الأدمغة والدماء عملاً معروفاً [٦]. وبينها فى الربيع والخريف فضلاً بيّناً [٧].

٥

وتزعم الأعراب والعرب [٨] أن النطفة إذا وقعت فى الرحم فى أوّل الهلال، خرج الولد قويّاً ضخماً. وإذا كان فى المحاق خرج ضئيلا شخْتاً [٩].

وأنشد قول الشاعر [١٠]:

لَقِحَتْ فى الهلال عن قُبُل الطُّهـ ... ـرِ وقد لاح للصَّباح بَشِيرُ [١١]

---

١٠ (١) (فى زيادة الشهر): فى إبان ازدياد الهلال. (٢) (لمكان زيادة الدماغ)، (مكان) هنا: مفعل من (كان)، أى لوجود زيادة الدماغ وحصولها فى زيادة الشهر، فى زعمهم. وقد تقدم مثل هذا التعبير فى غير موضع من الكتاب. (٣) من مصادر وفر (بفتح فضم)، أى زاد وكثر. (٤) ويكون الخ، المخ: ما فى داخل العظام من الودك. والودك: الدهن. وقوله: (أنقص)، أى من مخ المسن.

(٥) ومخ الخ، (مخ) معطوف على (دماغ). وقوله: (أنقص)، أى من دماغ الفتى. وفى العبارة إطناب لا يخفى.

١٥ (٦) ويزعمون الخ، فاعل يزعمون يرجع إلى الأطباء أو المنجمين أو العرب. واختلفوا فى تعريف الهلال. فقيل: يسمى به إلى أن يبهر ضوءه سواد الليل. وقيل غير ذلك. واختلف أيضا فى المحاق. فقيل: هو انمحاق ضوئه لثلاث ليال قبل آخر الشهر لا يكاد يرى. ومنهم من جعل لياليه ليلة خمس وست وسبع وعشرين. وقيل غير ذلك. والمحاق مثلث الميم. وقوله: (فى الأدمغة والدماء) متعلق (بعملا). و (عملا): أثرا.

(٧) الضمير فى (بينها) يعود إلى الأدمغة والدماء. و (فضلا): تفاضلا فى التأثير. (٨) الأعراب:

٢٠ البدو. وهم أصحاب النجعة (بضم فسكون)، وارتياد الكلإ، وتتبع مساقط الغيث. والعرب: من استوطنوا الريف والمدن والقرى. (٩) (شختا): دقيقا ضامرا، لا عن هزال، بل خلقة.

(١٠) أى فى وصف مولود كامل، اجتمعت له شرائط السلامة والصحة. (١١) (لقحت): حملت، من باب تعب. والفاعل يعود إلى امرأة معينة. (فى الهلال): فى ليلة من لياليه. (عن قبل الطهر): فى أول طهرها من الحيض. تقول: فعلت كذا فى قبل (بضم فسكون) الشتاء وقبل الصيف، أى فى أوله.

٢٥ و(عن) بمعنى (فى). وحركت الباء بالضم إتباعا لضمة القاف.

ثم نَمَّى ولم تُرَضَّـع فَـلُوًّا (١) وَرَضَاعُ المُحِجِّ عَيْبٌ كبيرُ

وكان أبو عبد الرحمٰن يَشْـترى ذلك الرأسَ من جميـع رءَّاسى بَغْـدَادَ، إلّا منْ رءَّاسى مسْجِد ٱبنِ رَغْبَانَ (٢) . وكان لا يشـتريه إلّا يَوْمَ سَبْت . واختلط عليـه الأمرُ فيما بَيْنَ الشتاءِ والصيف (٣) . فكان مَرَّةً يشتريه فى هذا الزمان، ومَرَّةً يشتريه فى هذا الزّمان .

وأمّا زُهْدُه فى رُءُوس مَسْـجِد ابن رَغْبَانَ ، فإنّ البَصْرِيِّين يختارون لَحْمَ المَـاعِزِ الخَصِىِّ على الضأن كلِّه (٤) . ورُءُوسُ الضأن أشْحَمُ وأَلْحَمُ (٥) ، وأَرْخَصُ رُخْصًا وأطيب . ورأسُ التَّيْس (٦) أكثر لحمًا من رأس الخَصِىِّ، لأنّ الخَصِىَّ من المَـاعِز يَعْرَقُ جِلْدُه (٧) ، ويقِلُّ لحم رأسه . ولا يبلغُ جِلْدُه، (وإنْ كان ما عِزًا) (٨) ، فى الثمن (٩) ، عُشْرَ ما يبلغُ جِلْدُ التَّيْس . ولا يكون رأسـه إلّا دُونًا (١٠) . ولذلك تخطّاه (١١) إلى غيره .

---

(١) نمى فعـل لازم ، كنمى ينمى نميا ونمـاء ، أى زاد وعظم فى بطن أمه . والواو للحال . والفلو (بفتح الفاء أو ضمها وضم اللام وتشديد الواو — أو بكسر الفاء وسكون اللام) : المهر والجحش إذا فطما أو بلغا سـنة . يقول : ثم نمى الصبى فى بطنها . وفى حال نمـائه لم ترضع صبيا آخر . وسمى الصبى فلوا على التشبيه . والمحج : العظيمة البطن من الحمل . وقوله : ورضاع الخ ، أى لمـا ينشأ عنه من الضرر بالرضيع . (٢) مسجد ابن رغبان : هو الحى الذى كان يسكنه أبو عبد الرحمن ، كما سبق . وهو حىّ البصريين . (٣) واختلط عليه الأمر الخ ، أى التبس عليه أمر هذين الزمنين ، أيهما يفضل فيه أكل الرءوس؟ (٤) فان البصريين الخ ، الماعز والمـاعزة ، للذكر والأنثى . والجمع مواعز ومعز (بفتحتين ، وبفتح فسكون) . يعنى أن الرءاسين فى حىّ ٱبن رغبان ، لم يكونوا يبيعون غير المعز الخصية ، لإيثار البصريين لحمها على سائر الضأن . وأبو عبد الرحمن لا يحب رءوس المعز ، لمـا يأتى من التعليل .

(٥) ورءوس الخ ، أى فلذا كانت مفضلة عنده . و (أشحم) : اسم تفضيل من شحم يشحم شحامة (بضم الحاء فيهما) : كثر شحم جسـده . و (ألحم) : أكثر لحمـا ، من لحم يلحم (بضم الحاء فيهما) لحامة . (٦) التيس : الذكر من المعـز إذا أتى عليه سـنة . والمراد به هنا الفحل مطلقا . (٧) (يعرق جلده) ، يظهـر أن ذلك من فرط سمنه . (٨) (وإن كان ماعزا) ، يظهر لنا أن هـذه الجملة من زيادات النساخ ، لأن الكلام فى الخصى من المـاعز . (٩) (فى الثمن) : من حيث الثمن . (١٠) رديئا خسيسا .

(١١) ولذلك الخ ، مفعول (تخطاه) يرجع إلى رأس المـاعز الخصىّ ، كما هو ظاهر . والمراد بغيره إما رأس الضأن ، وإما رأس التيس .

وأمّا اختيارُه شِراءَ الرءوس يوم السبت ، فإنّ القصّابين يذْبَحُون يومَ الجمعة أكْثَر[١] ، فتكثُرُ الرءوسُ يومَ السبت ، على قدر الفَضْل فيما يَذْبحون[٢] ، ولأنّ العوامَّ والتُّجّار والصُّنّاع لا يقومون[٣] إلى أكل الرءوس يومَ السبت ، مع قُرْب عَهْدِهم بأَكْلِ اللَّحْمِ يومَ الجمعة ؛ ولأنّ عامّتهم[٤] قد بقيت عِنْدَه فَضْلةٌ ، فهي تَمْنَعه من الشَّهْوة[٥] ؛ ولأنّ الناس لا يكادون يَجْمَعُونَ على خُوانٍ واحدٍ بَيْنَ الرُّءوس واللحم[٦] .

وأما اختلاطُ التَّدْبير عليه في فَرْق ما بَيْنَ الشتاءِ والصيف[٧] ، فوَجْهُ ذلك أنّ العِلَلَ كانت تَتَصوَّرُ له[٨] ، وتعرِضُ له الدَّواعي على قَدْر قَرَمه ، وحَرَكة شَهْوته[٩] ؛ صيفًا وافقَ ذلك أم شِتَاء .

فإن اشتراه في الصيف ، فلأنّ اللحم في الصيف أَرْخَص[١٠] . والرءوسُ تابعة للّحم ؛ ولأنّ الناس في الشتاء لها آكَلُ ، وهم لها في القَيْظ أترك[١١] . فكان يختارُ الرُّخْص على حُسْن المَوْقِع[١٢] .

فإذا قويتْ دواعيها[١٣] في الشتاء قال : رأسٌ واحد شَتْوِيٌّ[١٤] كرأسين صَيْفِيّيْن !

---

(١) أكثر ، أى ذبحا أكثر من سائر أيام الأسبوع . (٢) على قدر الخ ، أى على قدر الزيادة في الذى يذبحونه يوم الجمعة . (٣) لا يقومون : لا ينهضون . (٤) (عامتهم) : جميع من ذكر من العوام والتجار والصناع . (٥) قد بقيت الخ ، أى بقيت ليوم السبت من يوم الجمعة . و(من الشهوة) ، أى إلى الرءوس .

(٦) لا يكادون الخ ، أى لا يكادون في يوم السبت يجمعون على خوان واحد اللحم الباقى من يوم الجمعة ، والرأس ، أى فلذلك يندر أن يشتروا الرءوس يوم السبت — أى فلهذه الأسباب كلها كان أبو عبد الرحمن يختار شراء الرءوس يوم السبت . (٧) (في فرق ما بين الشتاء والصيف) : في علة إيثار أحدهما على الآخر بشراء الرءوس .

(٨) فوجه ذلك الخ ، أى فتوجيهه وتفسيره . (والعلل) : الأسباب الحافزة لشراء الرأس . (وتتصور له) : تمثل له ، وتعرض له . (٩) الإشارة إلى تصور العلل وعروض الدواعى ، على قدر الخ . (١٠) أى لانصراف الناس عن الإكثار من أكل اللحم فيه . (١١) ولأن الناس الخ ، تكرير لما تضمنه معنى قوله : فلأن اللحم الخ ، فهو من الإطناب . (١٢) فكان الخ ، أى فكان يقدم الرخص و يؤثره في الصيف على حسن وقوع الرأس موقعه من الزمان ، إذ الرأس في الصيف مما يستثقل . (١٣) دواعيها ، الضمير يرجع إلى الرءوس : ودواعيها : الأسباب الحافزة إلى أكلها ، كما سبق . وقوله : قال الخ ، أى دفاعا عن موقفه أمام الناس ، و إرضاء لنفسه .

(١٤) اختلف في النسبة إلى الشتاء : فمن جعله جمع شتوة (بفتح فسكون) قال في النسبة : شتوى ، ردا إلى الواحد . و ربما فتحت التاء على غير قياس . ومن جعله مفردا علما على الفصل قال : شتائى وشتاوى اهـ ملخصا من المصباح .

لأن المعلُوفةَ غيرُ الرّاعيــة(١) . وما أكلَ الكُسْبَ فى الحَبْسِ مُوثَقــا(٢) ، غيرُ ما أكلَ الحشيشَ(٣) فى الصحراء مطلقا .

وكان على ثِقة أنَّه سيأتى عليه فى الشِّتاء(٤) ، مع صحَّته و بُدْنه ، وفى شَكٍّ من استبقائه(٥) فى الصيف . ولِنُقْصانِ شَهَواتِ النــاس للرءوس فى الصيف ، كان يخاف جَرِيرَةَ(٦) تلك البَقِيةِ ، وجِنَايةَ تلك الفَضْــلة . وكان يقول : إنْ أكلتُها بعــد الشِّبَع لم آمن العَطَبَ(٧) ، و إن تركتها لهم(٨) فى الصيف ولم يعرفوا العلَّة ، طلبُوا ذلك منِّى فى الشتاء .

✣
✣ ✣

حدَّثنى المَكِّىُّ(٩) قال : كنتُ يوما عند العَنْبَرِىِّ(١٠) ، إذ جاءتْ جاريةُ أمِّه ومعها كُوزٌ فارغ . فقالت : قالت أمُّك : بَلَغَنِى أنَّ عندك مُزَمَّلَةً(١١) ، و يومُنا يومٌ حارٌّ . فابعَثْ إلىَّ بشَرْبة منها فى هذا الكوز .

قال : كَذَبْتِ ! أُمّى أعقــلُ مِنْ أنـــ تَبْعَث بكُوز فارغ ، ونَرُدّه ملآنَ ! اذْهبِى فاملئيه من ماء حُبِّكم(١٢) ، وفرِّغيه فى حُبِّنا ، ثم املئِيه من ماء مُزَمَّلتِنا ، حتى يكون شىءٌ بشىء(١٣) !

---

(١) (المعلوفة) ، أى فى الصيف ، و (الراعية) ، أى فى الشتاء . (٢) وما أكل الخ ، يعنى أن الراعية ، أسمن من المحبوســة وأصح بدنا . (٣) جرى الجاحظ على أن الحشيش يطلق على يابس الكلإ وأخضره ، والمشهور أنه لا يطلق إلا على اليابس من العشب والكلإ . (٤) وكان على ثقة الخ ، الضمير فى (صحته) و (بدنه) يرجع الى الرأس . و يأتى عليــه : يأكله جميعا . والبدن : السمن . بدن (من باب نصر) ، وبدانا و بدانة (بفتح الباء فيهما) . و يقال أيضا : بدن ، بفتح فضم . (٥) (استبقائه) ، أى الاستبقاء منــه . قال فى اللسان : واستبقيت من الشىء ، أى تركت بعضه اهـ أى إنه لم يكن على يقين أنه يأكله كله .

(٦) الجريرة : الذنب والجناية يجنيها الرجل . والكلام على المجاز ، أى ماتجره تلك البقية من الرأس — فى حال استبقائها — عليه من المصائب . (٧) وكان يقول الخ ، توضيح لجناية تلك البقية . والعطب : مصدر عطب ، من باب تعب : هلك . (٨) لهم : لعياله وأهل منزله . (٩) هو محمد المكىّ . من أصحاب الجاحظ الذين لهم شأن فى نوادر هذا الكتاب . وقد مرّ بك بعضها فى الجزء الأوّل . وستمر بك طرائف له أيضا فى هذا الجزء . وكان كاتب أبى محمد الحزامى ، عبد الله بن كاسب . انظر ص ١١٥ — ج ١ (١٠) هل هو المنجاب العنبرى الذى جاء ذكره فى رسالة ابن التوأم فيما يأتى؟ هذا ما لم نصل إليه . (١١) (مزملة) ، أى جرة أو نحوها ملفوفة بثوب مبلول لتبرد . وقد سبق نحو هذا المعنى . (١٢) الحب : الخابية ، والجرة الضخمة . (١٣) حتى يكون شىء بشىء : حتى يحصل أو يأتى شىء بدل شىء . فالباء فى (بشىء) للبدل .

قال المكّىّ : فإذا هو يُريد أن تدفع جَوْهرًا بجوهر ، وعَرَضا بِعَرَض ، حتى لا تَرْبَح أمُّه[١] إلا صَرْفَ ما بين العَرَضين ، الذى هو البَرْدُ والحَـرُّ[٢] . فأما عدد الجواهر والأعْرَاض فَمِثْلًا بِمِثْل[٣] .

وقال المكّىّ : دخلتُ عليه يوما ، و إذا عِنْده جُلّةُ[٤] تَمْر ، و إذا ظِئْرُه[٥] جالسةٌ قُبَالَتَه[٦] . فلمّا أكل تَمْرةً رَمَى بِنَوَاتها إليها ، فأخذتها فمصَّتها ساعة ثم عَزَلَتْها[٧] .

فقلت للمكّىّ : أكان يَدَعُ على النَّواة من جسم التَّمر شيئا ؟

قال : والله لقـد رأيتها لا كتْ[٨] نواةً مرةً بعـد أن مصَّتها ، فصاح بها صَيْحةً لو كانت قتلتْ قتيلا ما كان عنـده أكْثَرُ من ذلك ! وما كانت إلّا فى أن تَنَاوَلَ الأعْرَاضَ ، وتُسَلِّمَ إليه الجَوْهَرَ[٩] . وكانت تأخُذ حلاوة النَّواة ، وتُودِعُها نَدْوَةَ الرِّيق[١٠] .

---

(١) فإذا هو الخ ، هكذا فى نسخة الشنقيطى . وفى نسخة (ليدن) : (جوهرا لجوهر بعرض) . وتخريجها صعب . والجوهر عند الفلاسفة : خلاف العرض . فالماء مثلا مجرّدا عن صفاته جوهر . وما يعرض له من لون أو صفاء أو حرارة أو غير ذلك عرض .

(٢) حتى لا تربح الخ ، الصرف : الفضل . قال فى الأساس : وللدرهم على الدرهم صرف فى الجودة والقيمة ، أى فضل اهـ - وصرف ما بين العرضين ، هو ما زاد من البرودة فى ماء مزماته على حرارة ماء حبها .

(٣) فأما عدد الخ ، (فمثلا بمثل) ، (مثلا) مفعول لفعل محذوف ، أى فتدفع أمه مثلا . والباء فى (بمثل) للبدل ، أى : بدل مثل . يعنى أنه يعطى جوهرا فى نظير جوهر مثله ، وعرضا فى نظير عرض مثله . وهذه العبارة هى فى معنى قوله آنفا : فإذا هو الخ .

(٤) الجلة : وعاء من خوص ، جمعه : جلال (بكسر الجيم) .

(٥) الظئر : العاطفة على غير ولدها ، المرضعة له ، من الناس وغيرهم . فيحتمل أنها كانت ظئره ، كما يحتمل أنها كانت ظئرا لأولاده .

(٦) (قبالته) : أمامه .

(٧) عزلتها : نحتها جانبا ولم ترم بها .

(٨) (لاكت) : مضغت . والفعل عن باب (قال) .

(٩) وما كانت الخ ، هكذا فى نسخة الشنقيطى . وفى نسخة (ليدن) : (وما كانت إلا فى أن تناوله) . وهو تحريف . و(تناول) : تتناول . والمراد بالأعراض ما فى النواة من طعم وحلاوة وغير ذلك ، كما سبق أن أوضحناه . و(الجوهر) هنا : النواة نفسها . ويظهر من هذا أن العنبرى كان له شأن مع النوى بعد مصه .

(١٠) مصدر ندى (بفتح فكسر) ، بمعنى ابتل .

***

قال الخليل[1] : كان أبو قُطْبَةَ[2] يَسْتَغِلُّ ثلاثة آلاف دينـار . وكان مِنَ البخل يُؤخِّر تَنْقية بَالُوعته إلى يوم المطر الشـديد، وسَيْلِ المَثَاعِب[3] ، ليَكْتَرِىَ رجلا واحدا فقط، يُخْرِجُ ما فيها ويَصُبُّه فى الطريق، فيجترفُه السيل، ويؤدِّيه إلى القَناة ! وكان بين موضع بئره[4] والصَّبِّ قَدْرُ مائتى ذِراع . فكان لمكانِ[5] زيادةِ دِرْهمين، يحتمل الانتظارَ شهراً أو شهرين، وإنْ هو[6] جَرَى فى الطريق، وأوذِى به الناس !

وقال[7] : ونَظَرَ يوما إلى الكسَّاحين، وهو معنا جالسٌ فى رجالٍ من قُرَيْش. وهم يُخْرِجون ما فى بَالُوعتـه، ويَرْمُونَ به فى الطريق، وَسَيْلُ المثاعب يحتمله، فقال : أليس البَطُّ والجِداءُ والدَّجاجُ والفِراخُ[8] والدُّرَّاجُ[9] ، وخُبْزُ الشَّـعير والصِّحْناءُ[10] والكُرَّاث والجُوَافُ[11] جميعا ، يصـيرُ إلى ما تَرَوْن ؟ فلِمَ يُغَالَى[12] بشىء يصير هو والرَّخيصُ فى مَعْنًى واحد ؟

قال[13] : وهم[14] ثلاثه إخْوة : أبو قُطْبَةَ والطِّيَلُ[15] وبَابِى[16] ، مِنْ وَلَدِ عَتَّابِ بن أَسِيد[17] ــ واحدٌ منهم

(١) هو الخليل السلولى راوى أعاجيب أبى عبد الرحمن الثورى، فيما تقدّم . (٢) هو أبو قطبة العتابى ، من ولد عتاب بن أسيد، كما سيأتى . (٣) جمع مثعب، (بفتح فسكون ففتح) وهو مسيل الماء فى المدينة اهـ من القاموس وشرحه . ويظهر أن القناة كانت تحتفر لتحمل ماء المدينة إلى خارجها . (٤) (بئره) : بالوعته .

(٥) (لمكان) : من أجل، مصـدر ميمى من كان، كما تقدّم مثله فى غير موضع . وقوله : زيادة درهمين، أى فى حال اكترائه رجلا آخر . (٦) (هو) : ما فى البالوعة . (٧) الخليل . (٨) جمع فرخ، وهو ولد الطائر . وقد استعمل فى كل صـغير من الحيوان والنبات والشجر وغيرها، كما فى اللسان . ولكنه يريد هنا فراخ الطير . (٩) طائر من طير العراق، أرقط، كما فى اللسان . وأرقط : أبيض فيه نقط سواد، أو العكس .

(١٠) الصحناء : فى القاموس : والصحنا والصحناة، ويمدان ويكسران : إدام يتخذ من السمك الصغار، مشه .

(١١) الجواف : ضرب من السمك، وليس من جيده . الواحدة جوافة . (١٢) المغالاة بالشىء : رفع قيمته وثمنه . (١٣) الخليل . (١٤) وهم اخ، ليس لهذا الضمير مرجع فى الكلام . وإنما مرجعه يفهم من المقام . كأنه يقول : هؤلاء الذين أبو قطبة أحدهم هم ثلاثة إخوة . (١٥) الطيل، هكذا فى النسخ . ولم نعثر له على ضبط . ونرجح أن يكون بكسر ففتح . وهو لفظ ذو معنى قبل التسمية ــ راجع القاموس .

(١٦) (بابى) ، وفى نسخة : يابى، بالياء . (١٧) عتاب بن أسيد (كأمير) الأموى ، صحابى . وفى (عيون الأخبار) : ولى رسول الله صلى الله عليه وسلم عتاب بن أسيد مكة وهو ابن خمس وعشرين سنة .

كان يحج عن حمزة(١)، ويقول: استُشْهِدَ(٢) قبل أن يحجّ. والآخر كان يُضَحّى عن أبى بكر وعُمَر، ويقول: أخطأ السُّنّة فى ترك الضَّحيّة(٣). وكان الآخر يُفْطِر عن عائشة أيامَ التشريق(٤)، ويقول: غَلِطَتْ — رحمها الله — فى صَوْمِها أيامَ العيد. فمَنْ صام عن أبيه وأُمِّه(٥)، فأنا أُفْطِر عن عائشة.

* * *

٥ حدَّثتنى امرأة تَعْـرِف الأمور(٦)، قالت: كان فى الحىّ مأتمٌ اجتمع فيـه عجائزُ من عجائز الحىّ. فلمّـا رأين أنّ أهلَ المأتم قد أَقْمَن المَناحة، اعتزلْنَ وتحدَّثْن. فبينا هُنَّ فى حديثهنّ، إذ ذَكَرْنَ بِرَّ الأبناء بالأمّهات، وإنفاقَهم عليهنّ. وذكرتْ كلُّ واحدةٍ منهنّ ما يُوليها ابنُها(٧).

فقالت واحدةٌ منهنّ، وأمُّ فِيلَوَيْه(٨) ساكتةٌ — وكانت امرأةً صالحة، وابنُها يُظْهِرُ النُّسْكَ(٩)، ويَدِينُ بالبُخْل، وله حانوتٌ فى مَقْبَرة بنى حِصْنٍ(١٠)، يَبيع فيها الأسْقَاط(١١). —

١٠ قالتْ(١٢): فأقبلتُ على أمّ فِيلَوَيْه قُلْتُ لهـا(١٣): ما لَكِ لا تحدِّثينَ معنا عن ابنك كما يتحدَّثْنَ؟ وكيف صنع فِيلَوَيْه(١٤) فيما بَيْنَك وبينه؟ قالت: كان يُجْرِى علىّ فى كلِّ أضحًى(١٥) درهما! فقالت(١٦):

---

(١) يحج عن حمزة: يؤدى فريضة الحج بدلا منـه، فيصبح كأنه قد أدّاها هو. والمراد بحمزة هنا حمـزة بن عبد المطلب، عم النبىّ صلى الله عليه وسلم. (٢) قتل فى الحرب. (٣) الضحية: ما ضحيت به كما سبق. فقوله: فى ترك الضحية، أى فى ترك التضحية بالضحية. وفى (عيون الأخبار): فى ترك الأضحية. (٤) يفطر الخ، ١٥ أى يفطر بدلها فى تلك الأيام. وأيام التشريق هى الأيام الثلاثة التى بعد يوم النحر. (٥) صام عن أبيه وأمه: أدى عنهما فريضـة الصوم ليكون لهما ثوابه. وقوله: فأنا أفطر عن عائشـة، أى أصلح عنها غلطها فى صومها تلك الأيام الثلاثة. وفى (عيون الأخبار): فأنا أفطر عن أمى عائشة. (٦) (تعرف الأمور): مجربة عاقلة. (٧) (ما يوليها ابنها)، أى من المعروف والبر. (٨) اسم أعجمى. وقد ضبطناه على نحو ما تضبط أمثاله. (٩) النسك (بسكون السين وضمها): العبادة والطاعة، وكل ما يتقرب به إلى الله. (١٠) جرى على تأنيث ٢٠ الحانوت. وقد يذكر. (١١) جمع سقط (بفتحتين)، وهو ردىء المتاع. ويطلق السقط أيضا على ما يباع من السكر والتوابل ونحوهما، كما فى اللسان. (١٢) كرر القول لطول الفصل. والضمير يرجع إلى (واحدة). (١٣) جملة قلت لها حال من فاعل (أقبلت). (١٤) وكيف صنع الخ، أى وكيف كانت معاملته لك؟ (١٥) المراد به يوم الأضحى. قال فى اللسان: والضحية ما ضحيت به، وهى الأضحاة، وجمعها أضحى (بالتنوين)، يذكر ويؤنث. فمن ذكر ذهب إلى اليوم اهـ وقد أسلفنا هذا الشرح. (١٦) الفاعل يعود إلى أم فيلويه. ٢٥ وقد كان يمكن الاستغناء عن تكرير هذا الفعل. وقولها: (أيضا)، أى كما قطع غيره من الصلات.

وقد قَطعه أيضا ! فقالتْ لها المرأة : وما كان يُجْرى عليك إلّا دِرْهما ؟ قالت : ما كان يُجْرى علىّ إلّا ذاك . ولقد ربَّمـا أدخَلَ أَضْحًى فى أَضْحًى ! فقالت : فقلت : يا أمّ فِيلَوَيْه، وكيف يُدْخِلُ أضحًى فى أَضْحًى ؟ قد يقول الناس : إنّ فلانا أَدخَل شهرًا فى شهر، ويوما فى يوم . فأمّا أضْحًى فى أَضْحًى، فهذا شيء لا يَشْرَكه[1] فيه أحَدٌ !

قِصَّـــة تَمَّـام بنِ جَعْفَـــر[2]

كان تَمَّـامُ بنُ جَعْفَر بخيلا على الطعام، مُفْرِطَ البُخْل . وكان يُقْبِل على كلِّ مَنْ أَكَلَ خُبْزَه بكلّ عِلّة[3]، ويُطَالبُه بكُلّ طَائِلة[4]، وحتّى ربَّمـا استخرج عليه أنّه لابِنٌ[5]، جلّادُ الدم .

وكان إنْ قال له نديمٌ له : ما فى الأرض أَحَدٌ أَمْشَى مِنِّى، ولا على ظهرها أحدٌ أقْوى على الحُضْر[6] منّى ! قال : وما يمنعك مِنْ ذَلك، وأنت تأكُل أكْلَ عشَرة؟ وهل يَحْمِلُ الرَّجلَ إلّا البَطْنُ[7]؟ لا حَمِدَ اللهُ مَنْ يَحْمدُك !

فإنْ قال : لا والله إنْ[8] أقْدِرُ أنْ أمْشِيَ . لأنّى أضعف الخَلْقِ عَنْه، وإنّى لأنْبَهِر[9] مِنْ مَشْيِ

---

(١) لا يشركه، الضمير المفعول يعود إلى الابن . وفى نسخة (ليدن) فى حكاية أم فيلويه شىء يسير من التحريف . ففيها : (قال فأقبلت على) والصواب : (قالت) . وفيها : (قالت لها مالك) والصواب : (قلت)، حتى يستقيم المعنى، وتلتئم المحاورة . (٢) لم نجد له ترجمة فيما لدينا من المراجع . (٣) وكان يقبل الخ : يجنى عليه ويرميه بالمعايب . (٤) ويطالبه الخ، الطائلة هنا : الثأر، أى كأنّ له عنده دما يطلبه به .

(٥) وحتى ربما استخرج الخ، الاستخراج : الاستنباط . والمراد به هنا الاختراع والادّعاء . أى إنه ربما رماه بأنه لابن الخ . ولابن : مستلب . والفعل من باب ضرب، كما فى اللسان . و (جلاد الدم) : قاتل، كما يفهم من المقام، وإن كان المعنى اللفظى لا يؤدى ذلك إلا بشىء من التجوّز . ولعلها كانت عبارة شائعة بين الناس فى السب فى ذلك العهد . والنص هكذا فى نسختى الشنقيطى وليدن . (٦) (الحضر) : العدو . (٧) وهل يحمل الخ، استفهام بمعنى النفى . والكلام على المجاز . يعنى أن البطن بما يحمله من غذاء إلى الجسم يقويه، فتقوى الرجلان على العدو .

(٨) إن نافية . (٩) هكذا فى نسخة الشنقيطى . وفى نسخة (ليدن) : أنبهر . وهذا الفعل غير موجود فى مراجعنا . وفى اللسان : انبهر وبهر، (الثانى على صيغة المبنى للمجهول) فهو مبهور وبهير اهـ — و (أنبهر) : يعترينى النهيج وتتابع النفس من الإعياء .

ثلاثين خَطْوة(١) ! قال : وكيف تمشى وقد جعلتَ فى بطنك ما يَحْمِلُه عِشْرُون حمَّالا ! وهل يَنْطَلِقُ الناسُ إلّا مع خِفَّة الأكْل؟ وأىُّ بَطِنٍ(٢) يَقْدِرُ على الحَرَكة؟ وإنَّ الكَظِيظَ لَيَعْجِزُ عن الرُّكوع والسُّجود، فكيفَ بالمَشْيِ النَّكِير(٣) !

فإنْ شَكَا ضِرْسَه وقال : ما نِمْتُ البارحةَ مع وَجَعِه وضَرَبانه(٤) ، قال : عَجِبْتُ كيف ٥ اشتكيتَ واحدًا، وكيف لم تَشْتَكِ الجميع ! وكيف بَقِيتْ إلى اليوم فى فيك حاكَّة(٥) ! وأىُّ ضِرْسٍ يَقْوَى على الدَّرْس(٦) والطَّحن ! والله إنَّ الأَرْحاء(٧) السُّورِيَّة(٨) لَتَكِلُّ، وإنّ الميجانَ(٩) الغليظ لَيُتْعِبُه الدَّقُّ ! ولقد استبطأتُ(١٠) لك هذه العِلّة ! ارفُقْ(١١)، فإن الرِّفق يُمْن، ولا تَخْرَق(١٢) بنفسك، فإنّ الخُرْق شُؤْم !

وإن قال : لا والله، إنِ(١٣) اشتكيتُ ضِرسًا لى قَطُّ، ولا تَجَلْجَلَ(١٤) لى سِنٌّ عن مَوْضِعه منذُ عرفتُ نَفْسِى، قال : يا مجنون ! لأنّ كثرة المَضْغ تَشُدُّ العُمُورَ(١٥)، وتُقَوّى الأسنان، وتَدْبَغ

---

١٠ (١) الخطـوة بالفتح : مرة من خطا يخطو خطوا . والخطوة بالضم : ما بين الرجلين . ويصح أن يراد هنا كلا المعنيين . (٢) فعيل بمعنى مفعول، أى المملوء من الطعام . وقد سبق الكلام عليه . (٣) فكيف الخ، أى فكيف حال الكظيظ مع المشى النكير . والنكير : الصعب الشديد . نكر الأمر (ككرم)، فهو نكير، كما فى القاموس وشرحه . وفى نسخة الشنقيطى : (الكثير) . (٤) ضرب الجرح ضربانا : اشتد وجعه . مصباح .

(٥) قال فى الأساس : وما فيه حاكّة، أى سن . وجمعها حوالك، لأن الأسنان يحك بعضها بعضا اهـ .

١٥ (٦) درس الحب يدرسه (بضم الراء) درسا ودراسا (بكسر الدال) . (٧) جمـع رحى .

(٨) نسبة الى سورية (بفتح الياء مخففة)، وهى الشام . (٩) المدقة . من وجن القصار الثوب (من باب وعد) . وذكرت المعاجم التى بين أيدينا الميجنة (جمعها مواجن) . ولم تذكر الميجان . وقد سبق الكلام على هذا فى أوائل الكتاب . وفى نسخة ليدن : المنجان . وهو تحريف، كما مرّ . (١٠) ولقد استبطأت الخ، استبطأ الأمر : عدّه بطيئا : أى كان يجب أن يكون المرض أسرع إليك من ذلك، لما ترهق به أضراسك وأسنانك ٢٠ من العمل المتواصل . (١١) (ارفق)، أى بنفسك . (١٢) ولا تخرق الخ، يقال : خرق بالشىء يخرق (كعلم يعلم) : جهله ولم يحسن القيام عليه . وقوله : (فان الرفق يمن) و(فان الخرق شؤم)، هو من حديث له عليه السلام : (الرفق يمن، والخرق شؤم) . الخرق : الجهل والحمق . (١٣) (إن) نافية . (١٤) (تجلجل) : تحـرك . (١٥) جمع عمر (بفتح فسكون) : اللحم الذى بين الأسنان .

اللَّثة، وتَغْذو أُصُولَهَا . وإعفاءُ الأضراس من المَضْغ يُريحها (١) . وإنّما الفَمُ جُزْءٌ من الإنسان . وكما أنّ الإنسان نَفْسَــه إذا تحرَّكَ وَعمِلَ قوِىَ ، وإذا طَال سُكُونُه تَفتَّخَ (٢) واسـترْخَى، فكذلك الأَضْراسُ . ولكنْ رِفقًا! فإنّ الإتْعـاب يَنْقُص القُوّة . ولكلِّ شيء مِقْـدارٌ ونهاية . فهذا ضِرْسُك لا تشتكيه، بطنُك أيضًا لا تَشْتَكيه (٣) ؟

فإنْ قال: والله إنْ أرْوَى من المـاء . وما أظنُّ أنّ فى الدنيا أَحَدًا أَشْرَبَ منِّى للمـاء، قال: لَا بُدَّ للتراب مِنْ ماء، ولا بُدَّ للطين من ماء يَبُلُّه ويُرْوِيه (٤) . أَوَلَيْسَتِ الحاجةُ على قَدْرِ كَثْرته وقِلَّته (٥) ؟ والله لو شَرِبتَ مَاءَ الفُرَاتِ ما استكثرتُه لك ، مع ما أرَى من شِـدَّة أَكْلك، وعِظَمِ لُقْمتِك ! تَدْرِى ما قد تصنع ؟ أنتَ والله تلْعَب ! أنتَ لستَ ترى نَفْسَكَ ! فَسَلْ عنك من يَصْدُقُكَ (٦) ، حتى تَعْلَمَ أنَّ ماء دِجْلَةَ يَقْصُر عمَّا فى جَوْفِك !

فإنْ قال : ما شربتُ اليومَ ماءً البَتَّةَ (٧) ، وما شربتُ أمْسِ بمقـدار نِصْفِ رِطْـل ، وما فى الأرض إنسانٌ أقـلُّ شُرْبا منِّى للمـاء، قال : لأنّك لا تَدَعُ لِشُرب المـاء مَوْضِـعًا !

---

(١) وإعفاء الخ، أى وينشأ من راحتها استرخاؤها وضعفها، كما سيوضح ذلك فيما يلى . (٢) تفتخ : استرخى ولان . (٣) جملة بطنك الخ ، استفهامية محذوفة الأداة ، خرج الاستفهام فيها إلى التقريع والتوبيخ . كأنه يقول له : إن المضغ غير المفرط وإن أفاد الأسنان ، يملأ المعدة . وهناك الضرر ، فاحذر !

(٤) لا بدّ للتراب الخ . الكلام على التمثيل والتشبيه . أى فكما أن التراب والطين يحتاجان إلى ماء يرويهما ، فكذلك الطعام فى المعدة يحتاج الى ما يبله . وفى نسخة (ليدن) : (بدّ) فى الأولى والثانية ، بدون (لا) . وهو تحريف ؛ لأن (بدّ) لا تقع إلا مقرونة بالنفى . إلا أن يكون الجاحظ يريد أن يحكى لفظ الرجل واللهجة الشائعة فى ذلك العصر .

(٥) الضمير فى (كثرته وقلته) يعود إلى الأكل المفهوم من السياق : وفى نسخة (ليدن) : (أوليت الحاجة) . وتخريجه صعب . والتصحيح من نسخة الشنقيطى . (٦) من يصدقك ، أى الخبر . فالمفعول الثانى محذوف للعلم به . و (يصدقك الخبر) : يخبرك به صادقا . (٧) (البتة) ، قال الزبيدى : بقطع الهمزة . وضبط فى الصحاح بوصلها اهـ . و (البتة) منصوب على المفعولية المطلقة ، أى بتا وقطعا .

ولأنك تَكْنِزُ فى جوفك كنزًا[1] لا يجد الماءُ معه مَدْخَلا ! والعجبُ لا تَتَخَّمُ[2]؛ لأنَّ مَنْ لا يشرب الماءَ على الخُوان لا يَدْرى مقدارَ ما أكل، ومَنْ جاوز مِقْدارَ الكفاية كان حَرِيًّا بالتُّخَمَة .

فإن قال : ما أنام الليلَ كلَّه، وقد أهلكنى الأَرَقُ، قال : وتدعُك الكِظَّة والنَّفْخة والقَرْقَرة[3] أن تنام ؟ والله لو لم يكن إلا العَطشُ الذى يُنَبِّهُ الناسَ لَمَا نِمْتَ . وَمَنْ شرِبَ كثيرًا بَالَ كثيرًا . ومَنْ كان الليلَ كلَّه بين شُرْب وبَوْلٍ كيفَ يأخُذُه النوم ؟ ٥

فإن قال : ما هو[4] إلَّا أنْ أضعَ رأْسى ، فإنَّما أنا حَجَرٌ مُلْقًى إلى الصُّبح ، قال : ذلك لأنَّ الطعام يُسَكِّنُ ويُخَدِّر ويُحَيِّر[5]، ويَبُلُّ الدِّماغ، ويَبُلُّ العُرُوقَ، ويَسْتَرْخى عليه جميعُ البدن . ولو كانَ فى الحق[6]، لكان ينبغى أن تنام الليلَ والنَّهارَ !

فإن قال : أصبحتُ وأنا لا أشتهى شيئًا ، قال : إيَّاك أن تأكل قليلًا ولا كثيرًا؛ فإنَّ أكْلَ القليلِ على غَيْرِ شَهْوة، أَضَرُّ من الكثيرِ مع الشَّهْوة . قالَ الخُوانُ[7] : وَيْلٌ لى مِمَّن قال : لا أُرِيدُ ! وبعْدُ، وكيفَ تَشْتَهى الطعامَ اليومَ، وأنتَ قد أكلتَ بالأَمْسِ طعامَ عَشَرة ! ١٠

وكان كثيرًا ما يَقُول لنُدَمائِه : إيَّاكُمْ والأَكْلَ على الخُمَار[8]، فإنَّ دَواءَ الخُمَار الشراب[9] .

---

(١) ولأنك تكنز الخ، المراد الجمع والملء، على المجاز . (٢) والعجب الخ، جملة (لا تتخم) خبر (العجب)، أى عدم تخامك . وهو مما سبك بغير حرف سابك . (٣) (القرقرة) : مصدر قرقر البطن : صوت . (٤) ما هو، أى ما أمرى وشأنى الخ . (٥) لأن الطعام الخ، يحير : يتيه العقل، ويذهب بالحواس . وقوله : ويبل الدماغ الخ، أى ومتى بل الدماغ والعروق استرخت . والكلام على المجاز . ١٥

(٦) ولو كان فى الحق، اسم كان ضمير يرجع إلى المفهوم من المقام، أى أمرك، مثلا . والكلام على حذف مضاف، أى فى سبيل الحق وسننه . (٧) (قال الخوان) : نطق بلسان حاله، على المجاز . أى إن الذى يقول : لا أريد الطعام ولا أشتهيه، أشد على الطعام وأعنف ممن لا يقول هذا — أى فأنت تقول : أصبحت الخ، وأنت إذا جلست إلى المائدة كنت ويلا عليها وحربا . (٨) (الخمار) : ما يأخذ الرأس من سورة (بفتح فسكون) الخمر، أى حدتها، كما تقدم . (٩) فان دواء الخ، مأخوذ من قول أبى نواس : (وداونى بالتى كانت هى الداء) . ٢٠

الحُمَارُ مُحْمَــةٌ (١) . والمُتْخَمُ إذا أَكل مات لا مَحالةَ . وإيّاكم والإكْثارَ فى عَقِب الحِجَامة والفَصْدِ والحَمّامِ . وعليكم بالتخفيف فى الصيف كله . واجتنبُوا اللّحْمَ خاصّةً (٢) .

وكان يقول : ليس يُفسِدُ النّاسَ إلّا الناسُ : هذا الذى يتكلّم بالكلام البارد، وبالطُّرَفِ المُسْتَنكَرَةِ (٣)، لو لم يُصِبْ مَنْ يَضْحَك له، وبعضَ من يَشْكُره ويَتَضاحَكُ له (٤) — أَوَ لَيْسَ هُوَ عِنْدَهُ إلّا أنْ يَظْهَرَ العُجْبُ به؟ — لَمَا تكلَّف النَّوادِر (٥) . أَلَا أَهْلَكَ قولُ النّاس للأَكُول النَّهِم، وللرَّغيب الشَّرِه (٦) : فلانٌ حَسَنُ الأكل ! هو الذى أهلكه، وزادَ فى رَغْبَته، حتى جَعَلَ ذلك صِناعةً (٧)، وحتى ربّما أكل — لمكان قوْلِهم وتَقْرِيبِهم وتعجُّبِهم — ما لا يُطِيقه فَيَقْتُلُ (٨) . فلا يزال قد هَجَمَ على قوم، فأَكَلَ زادهم، وتركهم بلا زاد !

فلو قالوا بَدَلَ قولهم : فلانٌ حَسَنُ الأكل : فلانٌ أقبحُ الناس أكلا، كان ذلك صلاحا لِلفَرِيقين (٩) .

(١) فى القاموس : الحجم : المص . والحجام : المصاص ... والمحجم والمحجمة : ما يحجم به اهـ . وسمى حجاما لأنه يمص الدم بمحجمه . (٢) واجتنبوا الخ ، أى فى الصيف . وهذا ما يقوله الطب الآن .

(٣) (وبالطرف المستنكرة)، (الطرف) جمع طرفة ، وهى هنا : المستطرف الممتع من القول . و (المستنكرة) : البذيئة الفاحشة . (٤) لو لم يصب الخ ، أى لو لم يجد بين جلسائه من يضحك سرورا بهذه الطرف . و (يتضاحك) : مثل يضحك ، ولم تفرق كتب اللغة التى بأيدينا بينهما . ولكنا نلمح فى (يتضاحك) هنا معنى التكلف .

(٥) أوليس الخ، جملة معترضة بين شرط (لو) وجوابها . و (هو) يرجع إلى حال الرجل الذى يتكلم بالكلام البارد الخ . يعنى أن مثل هذا الرجل يتطلع دائما إلى أن يبدى الناس إعجابهم بما يقول . و (عنده) : فى رأيه واعتباره . (٦) الرغيب : الأكول، كما تقدم . وفى نسخة ليدن والشنقيطى : (ألا أهله) . وهو تحريف ظاهر، لا يفهم معه معنى . ونرجح أن الذى استظهرناه هو الصواب، بدليل قوله : هو الذى أهلكه .

(٧) (وزاد فى رغبته) ، أى فى الأكل . وقوله : حتى جعل ذلك الخ، أى حتى جعل الأكل صناعة يجتهد فى إتقانها، ليستثير بها إعجاب الناس . (٨) وحتى الخ، (لمكان قولهم)، سبق أن شرحنا مثل هذا الاستعمال . وقلنا : إن (مكان) فى مثل هذا الوضع مصدر ميمى من (كان) ، أى لوجود قولهم هذا وحصوله . وقوله : (وتقريبهم)، أى إياه، من مجالسهم . و (تعجبهم)، أى من قدرته على الأكل والالتهام . (٩) المراد بالفريقين الأكول والمأكول عنده .

ولا يزال البخيلُ على الطعام قد دعا الرَّغيبَ البَطْنِ، واتَّخذ له الطعامَ الطيِّبَ، لِيَنْفِيَ عن نفسه المَقالةَ، ولِيُكَذِّبَ عن نفسه تلك الظنونَ.[1]

ولو كان شِدَّةُ الضَّرْسِ[2] يُعَدُّ في المَناقب[3]، ويُمْدَحُ صاحبُه في المجالس، لكان الأنبياء آكَلَ الخَلْق، ولَخَصَّهمُ اللهُ – جلَّ ذِكْرُه – من الرُّغْبِ[4] بما لم يُعْطِه أحدًا من العالَمين. وكيف؟[5] وفي مأثور الحديث: "إنَّ المؤمنَ يأكلُ في مِعًى واحد، وإنَّ المُنافِقَ يأكل في سَبْعَة أمعاء."[6]

أوَ لَسْنا[7] قد نراهم يَشْتِمُون بالنَّهَم، وبالرُّغْب، وبكثرة الأكل؛ ويمدحون بالزَّهادة، وبقِلَّة الطعام؟ أوَ لَيْسَ قد قال النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: مَنْ أدُلُّه على الحَسْناءِ القَتِينِ؟[8] وقد سابَّ رَجُلٌ أيُّوبَ بنَ سليمانَ بنِ عبد الملك[9]، فقال في بَعْضِ ما يَسُبُّه: ماتت أمُّكَ بَغَرًا[10]، وأبوكَ بَشَمًا![11]

---

(١) ولا يزال الخ، هذا أيضا من ضروب الفساد الدافعة إلى الشره؛ إذ يظهر البخيل بمظهر الكرم الكاذب. كأنه يقول للناس: هـذا شره رغيب البطن يأكل على خوانى، وأنا لا أباليه. فكيف بغير الأكول وغير البطين؟ و(المقالة) من مصادر (قال). والمراد بها ما يقوله الناس في بخله. (وليكذب عن نفسه): يرد عنها، كما في اللسان.

(٢) (شـدّة الضرس): مصدر ضرس، من باب نصر، وهو المضغ والعض.

(٣) جمع منقبة (بفتح فسكون ففتح)، وهى الصفة الكريمة.

(٤) الرغب (بضم الراء وسكون الغين أو ضمها): كثرة الأكل. والفعل: رغب يرغب (ككرم يكرم)، فهو رغيب. وقد سبق تفسيره. وفي نسخة ليدن: من الرغبة. وهو تحريف.

(٥) (وكيف)، أى وكيف تكون شدّة الضرس من المناقب؟

(٦) إن المؤمن الخ، أورد اللسان الحـديث باختلاف يسير. وجاء فيـه: فالمراد من الحديث في مثل (بفتحتين) الكافر: استكثاره من الدنيا. والزيادة على الشبع في الأكل داخل فيه، ومثل المؤمن: زهده في الدنيا اهـ.

(٧) أولسنا الخ، الضمير المفعول في (نراهم) يرجع إلى النـاس المفهوم من السياق. والزهادة والزهد: قلة الرغبة في الطعام.

(٨) من أدله الخ، قاله عليه السلام حين زوج ابنة نعيم (على صيغة التصغير) النحام. والقتين: القليلة الطعم. قتن يقتن (ككرم يكرم) قتانة: صار قليـل الطعم اهـ ملخصا من اللسان.

(٩) يرجع إلى ترجمتـه في كتب التاريخ. وتجـد له خبرا في الجزء الثـالث من (البيان والتبيين) ص ٢٥٦ – طبع السندوبي.

(١٠) البغر: كثرة شرب المـاء، أو داء وعطش. قاموس.

(١١) بشم بشما (كفرح فرحا): اتخم من كثرة الأكل.

وبعد، فهل سَمِعتم بأحد قطُّ فَخَرَ بشدَّة أكلِ أبيه، فقال : أنا ابن آكَلِ العرب؟ بل قد رأينا أصحاب النَّبيذ[١] والفِتْيانَ يَتمدَّحُونَ[٢] بكثرة الشُّرب، كما يتمدَّحون بقلة الرِّزق . ولذلك قالت العربُ : قال الشاعر :

تكفيــه فِلْذَةُ كِبْدٍ إنْ أَلَمَّ بهــا ... منَ الشِّواءِ ويُرْوِى شُرْبَه الغُمَرُ[٣]

وقال :

لا يتأرَّى لمــا فى القِدْرِ يطلبــهُ ... ولا تراه أمامَ القَــومِ يَقْتَفِــرُ[٤]

وقال :

لا يغْمِزُ الساقَ من أيْنٍ ولا وَصَمٍ ... ولا يَعَضُّ على شُرْسُوفِهِ الصَّفَرُ[٥]

والصَّفَرُ هى حيَّات البطونِ. إنَّمــا تكون من الفُضول والتَّخَم، ومن الفساد والبَشَم[٦] .

وشَرِبَ[٧] مَرَّةً النبيذَ، وغنَّاه المغنِّى، فشقَّ قميصَه مِن الطَّرَب . فقال لِمَوْلًى له[٨] يقال له المَحْلُولُ، وهو إلى جَنْبه : شُقَّ أيضا أنت ــ ويْلَكَ ــ قميصَك ! ــ والمحلول هذا من الآيات[٩] ــ

---

(١) أصحاب النبيذ : شاربوه . والفتيان : جمع فتى . والمراد به هنا السادر فى طوره المستهتر (على صيغة اسم المفعول) بالشراب . (٢) يتمدحون : يفتخرون . وفى نسخة الشنقيطى : (الذوق)، بدل (الرزق) . وقد يكون له تخريج . (٣) هذا البيت لأعشى باهلة . وكذا البيتان بعده، من قصيدة يرثى بها أخاه المنتشر ابن وهب الباهلى . والفلذة : القطعة . والجمع فلذ . والكبد لغــة فى الكبد . و(ألم بها) : أكلها . و(الغمر) : قدح صغير . وقيل : أصغر الأقداح . وهو بضم الغين وفتح الميم، كما فى اللسان . ويراد بالشرب هنا شرب الماء .

(٤) تأرى بالمكان : تحبس . أى لا ينتظر ما فى القــدر ليأكله . و(يقتفر) : يتعرق العظم حتى لا يبقى فيه شيئا . وفى رواية : يرقبه، مكان : يطلبه . (٥) يغمز الساق : يجس ساقه، كما يفعــل التعب إذا مشى طويلا . والأين : مصدر آن يئين أينا : تعب . والوصم : المرض . والشرسوف : غضروف معلق بكل ضلع . وهو الطرف المشرف على البطن، كما فى القاموس . وقد أراد به ما يجاوره من المعدة، إذ الصفر يكون فى المعدة .

(٦) والصفر الخ، هــذا من تعليق الجاحظ . وقال فى اللسان : الواحد والجميع فى ذلك ســواء . وقيل : واحدته صــفرة (بفتحتين) اه . وقال أيضا : الصفر هاهنا (أى فى البيت) : الجوع اه . والتخم : مصدر تخم، بفتح فكسر . (٧) وشرب، أى تمام بن جعفر . (٨) مملوك له . (٩) (من الآيات) : من العجائب فى البخل، كما يظهر .

قال : لا والله، لا أشُقُّه، وليس لى غَيْرُه . قال : فشُقَّه وأنا أ كْسُوك غداً . قال : فأنا أشُقُّه غَدًا . قال : أنا ما أَصْنَعُ بشَقِّكَ له غدًا ؟ قال : وأنا ما أرجُو من شَقِّه الساعةَ ؟

فلم أسمع بإنسان قَطّ يُقايِس ويُناظِرُ (١) فى الوقت الذى إنما يُشَقّ فيه القَمِيصُ مِنْ غَلَبَة الطَّرب، غَيرِه وغيرِ مَوْلاه مخلولٍ .

* * *

دخل علىّ الأعمى على يوسف بن كلّ خَيْر، وقد تغدَّى . فقال : يا جارية ، هاتى لأبى الحَسَن غَدَاءً (٢) . قالت : لم يبق عندنا شىء . قال : هاتى — وَيْلَكِ! — ماكان، فليس من أبى الحَسَن حِشْمَةٌ (٣) !

ولم يشُكّ علىّ أنه سيُؤتَى برغيف مُلَطَّخ (٤) ، و برُقاقة مُلَطَّخة ، و بِسُكَّرٍ ، و بَقِيَّة مَرَقٍ ، و بِعَرْقٍ (٥) ، و بِفَضْلَة شِواء ، و ببقايا ما يَفْضُل فى الجامَات (٦) والسُّكُرُّجات (٧) .

بجاءت بِطَبَق (٨) ليس عليه إلّا رغيف أَرْزٍ قاحِلٍ (٩) ، لا شىءَ غَيْرُه .

فلمّا وضعوا الخِوان بين يديه فأجال (١٠) يَدَه فيه ، وهو أعمى ، فلم يقع إلّا على ذلك الرغيف .

---

(١) يقايس : يوازن . (و يناظر) : يناقش ويحاج . (٢) ما كان ، أى لا تتعملى ، ولا تتكلفى طعاما جديدا . (٣) حياء أو تجمل . (٤) ملطخ ، أى من آثار الغداء السابق .

(٥) العرق : العظم إذا أخذ عنه معظم اللحم وهبره ، و بقى عليه لحوم رقيقة طيبة اهـ من اللسان .

(٦) من اللغويين من يجعل الجام مفردا . ومنهم من يجعله جمع جامة ، وهى الإناء من الفضة . وتجمع الجامة أيضا على جامات . (٧) جمع سكرجة . وقال بعضهم : الصواب فتح الراء . وهى صحفة اختلف فى مقدارها . فقال بعضهم : الكبرى منها تحمل ست أواق ، والصغرى ثلاثا . قال الزبيدى : إن العرب كانت تستعملها فى الكوامخ وأشباهها على الموائد حول الأطعمة ، للتشهى والهضم اهـ ملخصا . (٨) الطبق : ما يؤكل عليه أو فيه . (٩) يابس جاف . (١٠) فأجال : (أجال) جواب (لما) . وقرنه بالفاء غريب . إلا أننا قد نراه فى بعض التعبيرات القديمة .

وقد علم أنّ قوله[(١)] : (ليس منه حِشْمة) لا يكون إلّا مع القليل . فلم يظنّ أنّ الأمرَ بَلَغَ ذلك .
فلمّا لم يجِـد غيره قال : و يلكُمْ ! ولأَكلِ هذا (بمزه) رفعتم الحِشْمَةَ كلَّها ؟ والكلامُ لم يقع إلّا على هذا[(٢)] ؟

❖

حدّثنى محمدُ بنُ حسّان الأَسْوَد، قال : أخبرنى زكريّا القطّان ، قال : كان للغزّال قِطْعَةُ أرض قُدّامَ حانُوتِى، فأَكْرَى نِصْفَها مِنْ سَمّاك يُسْقط عنه ما ٱستطاع من مُؤْنَةِ الكِراء[(٣)] .

قال[(٤)] : وكان الغزّال أُعْجُوبةً فى البُخْل . وكان يجىء من منزله ومعه رغيف فى كُمّه . فكان أَكْثَرَ دَهْرِه يأكُله بلا أُدْم[(٥)] . فإذا أعْيَا عليه الأمرُ[(٦)]، أخذ من ساكِنه[(٧)] جُوَافَةً[(٨)] بِحَبّةٍ[(٩)]، وأثْبَتَ عليها فَلْسا[(١٠)] فى حسابه !

فإذا أراد أن يتغدّى أخذ الجُوَافَةَ فمسحَهَا على وَجْه الرَّغيف، ثم عَضّ عليه ! و ربّما فَتَحَ بَطْنَ الجُوَافة، فيطُرُّ[(١١)] جنبيها و بطنَها باللُّقمة بعد اللُّقمة ! فإذا خاف أن يَنْهَكَها[(١٢)] ذلك، و يَنْضمّ

(١) وقد علم، الواو للحال . (٢) ولأكل هذا الخ، الإشارة إلى الرغيف القاحل . والاستفهامان محذوفا الأداة . وقد خرجا إلى التعجب . وقوله : (بمزه)، نظن الكلمة مقحمة من النساخ . وقد يكون معناها : بما فيه من مرارة ومشقة على النفس . وفى نسخة ليدن : بمرة . (٣) فأكرى الخ، الذى فيما لدينا من المراجع : أكراه كذا، متعديا إلى مفعولين . أما (أكرى الشىء من فلان) فلم نعثر عليه بعد . وقوله : (يسقط)، أى السماك . والضمير فى (عنه) للغزال . والكراء فى الأصل مصـدر كاريته . فظاهر أن قطعـة الأرض لم تكن ملكا للغـزال ، بل كان يكتريها ، وهو يكرى السماك نصفها ، ليخفف عنـه ما استطاع من مؤنة كرائها جميعها . (٤) (قال)، أى زكريا القطان .
(٥) الأدم : ما يؤكل به الخبز، أىّ شىء كان . (٦) (أعيا عليه الأمر) : لم يعد يطيق أكل الخبز بلا أدم .
(٧) (من ساكنه) : من الساكن فى أرضه وهو السماك . (٨) ضرب من السمك ، وليس من جيده ، كما سبق . جمعه جواف . (٩) الحبة تعادل جزءا من ستة عشر جزءا من الدرهم الاسلامى ، كما فى المصباح .
(١٠) وأثبت الخ، الضمير فى (عليها) يعود إلى الجوافة . يعنى أن الغزال أخذ الجوافة التى قيمتها حبة ، وجعلها فى حسابه من أجرة الأرض بفلس . والفلس : جزء من ســتة وتسعين جزءا من الدرهم . أى فيكون قد غش السماك ، بأن أوهمه أنه اشتراها منـه بحبة ، والواقع أنها بفلس فقط . فبدل أن ينقص من السماك عنـد الحساب حبة ، ينقص منه فلسا فقط . (١١) الطرّ هنا : الاختلاس ، وهو أخذ فى حذر وسرعة . (١٢) (ينهكها) : يهزلها ويخل جسمها . والفعل من باب نفع وتعب . وأنهكها أيضا .

بطنُها . طابَ من ذلك السَّماكِ شيئا مِنْ مِلْح السمك ، فحَشَا جوْفها لِينفُخَها ، ولِيُوهِمَ أنَّ هذا دو مِلْحُها الذى مُلِحَتْ به !

ولرّبمـا غلبتْه شَهْوتُه فَكَدَمَ(١) طرفَ أنفها ، وأخَذ من طَرَف الأرْنَبَـة(٢) ما يُسيغُ به لُقْمَته ! وكان ذلك منه لا يكون إلّا فى آخرِ(٣) لُقْمة ، لِيَطيبَ(٤) فَمُهُ بها ! ثم يَضَعُها فى ناحية .

٥ فإذا اشْتَرَى مِنَ امرأةٍ غَزْلا أدخل تلك الجُوَافَةَ فى ثَمَن الغَزْل ، من طريق إدخال العُرُوضِ(٥) ، وحَسَبها عليها بفَلْس . فيسترجعُ رأسَ المـال(٦) ، و يَفْضُل الأُدْمُ .

✤

ورَوَى أصحابُنا عن عبد الله بن المُقَفَّعِ(٧) ، قال : كان ابنُ جُذَامٍ الشَّيُّ يجلس إلىَّ . وكان رّبمـا انصرفَ معى إلى المنزل ، فيتغـدَّى معنا ، و يُقيم إلى أن يُبْرِد(٨) .

١٠ وكنت أعرفه بشـدَّة البُخْل وكثرة المـال . فألَحَّ علىَّ فى الاستزارة(٩) ، وصَمَّمتُ عليـه فى الامتناع(١٠) . فقال : جُعِلتُ فِداكَ ! أنتَ تظنُّ أنِّى مِمَّنْ يتكلَّفُ(١١) ، وأنت تُشْـفِق علىَّ ! لا والله ! إنْ هى إلّا كُسَيْراتٌ يابسةٌ ومِلْحٌ وماءُ الحُبِّ ! فظننتُ أنَّه يريد اختلابى(١٢) بِتَهْوِين

---

(١) كدمه يكدمه (بكسر الدال وضمها) : عضـه بأدنى فمه . (٢) أرنبـة الأنف : طـرفه .

(٣) فى نسخة (ليدن) : (آخرها) . وهو تحريف ظاهر . (٤) (ليطيب) : لينعم و يتفكه .

١٥ (٥) أدخل الخ ، العروض جمـع عرض (بفتح فسكون) ، وهو خلاف النقـد من المـال . يعنى أنه أعطاها الجوافة ، وأضافها إلى ثمن الغزل الذى يدفعه لها ، إضافة عرض إلى نقد ، وجعل ثمنها فلسا . (٦) فيسترجع الخ ، أى فبذلك يسترد رأس المـال وهو الفلس ، الذى ينقصه من السماك عند محاسبته على الكراء . و يتمتع بالأدم بلا ثمن .

(٧) هو عبـد الله بن داذويه المقفع ، الكاتب البليغ ، صاحب (كليلة ودمنة) و (التـاج) و (الأدب الكبير) و (الأدب الصغير) و (اليتيمة) . توفى سـنة ١٤٢ هـ . (٨) يبرد : يدخل فى آخر النهـار . لسان .

٢٠ (٩) السين والتاء للطلب . أى ألح على فى طلب ز يارتى له . (١٠) (وصممت فى الامتناع) : أى مضيت فى امتناعى ، ولم ألتفت إليـه . ففى اللسان : وصمم فى السير وغيره ، أى مضى . (١١) يتكلف : يصنع ما يشق عليه فى دعوتك لطعامه . (١٢) (اختلابى) : خداعى واستمالتى .

الأمرَ عليـه . وقلتُ : إن هـذا كقول الرجلِ : يا غلام ، أطعِمْنا كِسْرةً ، وأطعِم السائلَ خمسَ تمَرَات . ومعْناه[1] أضعافُ ما وقع اللفظُ عليه .

وما أظنُّ أنَّ أحدًا يَدْعُو مِثْلى إلى الحَرْبِيَّة[2] من البَاطِنَة[3]، ثم يأتيه بكِسْرات ومِلْح .

فلمَّا صِرْتُ عنـده وقَرَّبه[4] إلىَّ، إذْ وقفَ سائل بالباب، فقال : أطْعِمُونا ممـا تأكلون، أطْعمكم الله من طَعَام الجنّة ! قال : بُورِك فيك ! فأعَاد الكلَام، فأعَاد عليه مِثْلَ ذلك القَوْلِ . فأعاد عليه السائلُ، فقال : اذهبْ — ويْلَك ! — فقد ردُّوا[5] عليك . فقال السائل : سُبْحان الله ! ما رأيت كاليومِ أحدًا يَرُدّ[6] مِنْ لُقْمة، والطعامُ بين يديه ! قال : اذهبْ — ويْلَك ! — وإلَّا خرجتُ إليكَ والله، فدقَقْتُ ساقَيْكَ ! قال السائل : سُبْحَان الله ! يَنْهَى اللهُ أن يُنْهَر السائلُ، وأنْت تَدُقّ ساقيه ! فقلتُ للسائل : اذهبْ وأَرِحْ نَفْسَك، فإنّك لو تعرِفُ مِنْ صِدْق وَعِيده[7] مِثْلَ الذى أَعْرِفُ، لمـا وقفتَ طَرْفَةَ عين بعد ردِّه إيَّاكَ !

⁂

وكان أبو يعقوبَ الذَّقْنَانُ يقول : ما فاتنى اللَّحمُ مُنْذُ ملكتُ المـال .

وكان إذا كان يومُ الجمعةِ اشْتَرَى لحم بَقَرٍ بِدرْهَم، واشترى بَصَلا بدانِق[8]، وبَاذِنْجانًا بِدانِق،

---

(١) ومعناه الخ، أى إن مثل هذه العبارات لا يقصد بها عادة ما تقتضيه ألفاظها ، بل يعنى بها أضعاف ذلك .

(٢) الحربية : محلة ببغداد بالجانب الغربى، بناها حرب بن عبد الله الراوندى، قائد المنصور بالله العباسى اهـ من القاموس وشرحه .

(٣) قال فى اللسان : الباطنة من البصرة والكوفة : مجتمع الدور والأسواق فى قصبتها اهـ فقد أطلق هنا اللفظ على ذلك فى بغداد أيضا .

(٤) فلما الخ ، (صرت عنده) : وجدت عنده وانتهيت إليه . وقوله : (وقربه إلى) ، الضمير المفعول عائد إلى الطعام المفهوم من المقام .

(٥) فاعل (رد) يعود إلى أهل المنزل .

(٦) مفعول (يردّ) محذوف ، أى سائلا .

(٧) فانك الخ ، الوعيد : مصدر وعد ، إذا كان فى الشر وحده . وأما وعده وعدا وعدة (بكسر العين) ، ففى الخير وفى الشر . ويشير بقوله : فانك الخ ، إلى أن الشيّ قد حقق وعيده حين دعا ابن المقفع ، فلم يزد على : (إن هى إلا كسيرات الخ) .

(٨) سبق أنه سدس الدرهم . وربما قيل : داناق .

وقَرْعَةً بدانِق . فإذا كان أَيَّامُ الجَزَر بجَزَرٍ بدانِق ! وطبَخه كلَّه سِكْبَاجا(١) . فأكَل وعِيالَه(٢) يومئذٍ خُبْزَهم بشيء مِن رأس القِدْر(٣) ، وما يَنقطِعُ فى القِدْر(٤) من البصل والبَاذنجانِ والجَزَر والقَرْع والشَّحْم واللحم . فإذا كان يومُ السبت ثَرَدُوا(٥) خبزَهم فى المَرَق . فإذا كان يومُ الأحَدِ أكلوا البصَل . فإذا كان يوم الاثنَين أكلوا الجزر . فإذا كان يوم الثُّلاثاءِ أكلوا القَرْعَ . فإذا كان يوم الأَرْبِعَاءِ أكلوا الباذنجان . فإذا كان يومُ الخميس أكلوا اللحم .

فلهذا كان يقول : ما فاتنى اللحم مُنذُ ملكتُ المـال !

* * *

قال أصحابُنا : نزلنا بناس من أهل الجَزيرة(٦) . و إذا هُمْ فى بلادٍ باردة . و إذا حَطَبهم شَرُّ حَطَب(٧) . و إذا الأرضُ كلُّها غابةٌ واحدة طَرْفَاءُ(٨) . فقلنا : ما فى الأرض أَكْرَمُ من الطَّرْفَاء(٩) . قالوا : هو كريم . ومن كَرَمِه نَفِرُّ . فقلنا : وما الذى تفرُّون منه ؟ قالوا : دخانُ الطرفاء يَهْضِمُ الطعام . وعيالنا كثيرٌ(١٠) !

(١) قالوا فى تعريف السكباج : إنه لحم طبخ بخل ، وقد تقدّم . (٢) (عياله) منصوب على أنه مفعول معه . ويجوز رفعه على ضعف على أنه معطوف على ضمير الرفع المستتر فى (أكل) . (٣) مما يدانى رأسها . (٤) وما ينقطع فى القدر : ما يتفرق على وجه المرق هنا وهناك . (٥) ثرد الخبز (من باب نصر) : إذا فته ثم بله بمرق . (٦) يريد بالجزيرة هنا ما بين دجلة والفرات . (٧) و إذا حطبهم الخ ، أى لكثرة دخانه أو بطء اشتعاله أو غير ذلك . (٨) قال فى القاموس : الطرفاء : شجر . وهى أربعة أصناف ، منها الأثل (بفتح فسكون) . الواحدة طرفاءة وطرفة محركة اه (وطرفاء) صفة لغابة بعد صفة ، أولت بالمشتق ، فصح الوصف بها ، أى مكوّنة من هذا النوع من الشجر . (٩) فقلنا الخ ، أى فقلنا لهم ، اعتراضا على ما يتخذونه وقودا من ذلك الحطب الردىء ، وعندهم الطرفاء يملأ أرضهم : ما فى الأرض الخ . وقوله : أكرم من الطرفاء ، أى أحسن منه من حيث إنه وقود . (١٠) قالوا : هو كريم الخ ، يريدون بكرم الطرفاء دعوته إلى الطعام بما ينشر من دخانه الهاضم إذا استنشق . والكلام على المجاز . فأنت قد رأيت ما عنوا (بأكرم) فى قولهم : (ما فى الأرض أكرم الخ) ، وما عنى أهل الجزيرة (بكريم) فى قولهم : (هو كريم) .

* * *

وقد عابَ ناسٌ أهلَ المـازِح والمُدَيْبِرِ (١) بأمور : منها أنَّ خُشْكَنَانَهم (٢) من دقيق شعيرٍ ، وحَشْوَه الذى فيه من الجَوْزِ والسّكرِ ، من دَقِيق خُشْكَارٍ (٣) .

وأهلُ المـازِح لا يُعْرَفُون بالبُخْل . ولكنَّهم أسـوأ الناس حالاً . فتقديرُهم على قـدْر عَيْشِهم (٤) . و إنَّمـا نَحْكِى عن البُخَلاء الذين جَمَعُوا بين البُخْلِ واليُسْر ، و بين خِصْبِ البـلاد وعيش أهْـلِ الجَدْب . فأمَّا مَنْ يُضَيِّق على نفســه لأنَّه لا يَعرِفُ إلَّا الضِّـيق (٥) ، فليس سبيلُه سبيلَ القَوْم (٦) .

* * *

قال المكِّىّ (٧) : كان لأبى عمٍّ يقال له سُـلَيْمانُ الكُثْرِىّ (٨) . سُمِّى بذلك لكثرة ماله . وكان يُقَرِّبُنى وأنا صَبِىّ إلى أن بَلَغْتُ . ولم يَهَبْ لى مع ذلك التقريب شيئا قطُّ . وكان قد جاوزَ فى ذلك (٩) حدَّ البُخَلاء .

فدخلتُ عليــه يوما ، و إذا قُدَّامَه قِطَعُ دَارَصِينِىٍّ (١٠) لا تَسْـوَى قِيراطًا (١١) . فلما نَالَ حاجَتَـهُ منهـا ، مَدَدْتُ يَدِى لآخذَ منها قِطْعــةً . فلمّا نَظَر إلىَّ قبضتُ يَدِى ! فقـال : لا تَنْقَبِض

---

(١) (المـازح) ، هكذا فى نسخة (ليدن) وغيرها . والذى فى ياقوت : (المـازحين والمديبر) ، بكسر الزاى والحاء . وهما موضعان قرب الرقة (بفتح الراء وتشديد القاف) على الفرات . (٢) نوع من الكعك ، قريب ممـا يسمى لعهدنا (البسكويت) . ومعناه بالفارسية الخبز الجاف . (٣) وحشوه الخ ، أى وأن حشوه الذى من شأنه أن يتخذ من الجوز والسكر ، يتخذونه هم من دقيق خشكار . وقد سبق أن الخشار ما لا لب له من الشعير . وهو معرب الخشكار الفارسـية ، على ما نرجح . (٤) (تقديرهم) : تضييقهم . (٥) أى فى عيشــه لفقـــره . (٦) (القوم) : البخلاء الذين هم موضع بحث هذا الكتاب . (٧) سبق التعريف به . (٨) قد يكون نسبة إلى الكثر (بضم فسكون) ، وهو الكثير . وقد يكون نسـبة إلى الكثرة ، فيكون حينئذ بفتح فسكون . (٩) فى ذلك : فى معاملته لى . (١٠) (دارصينى) ، هو من الأفاويه المعروفة بهـذا الاسم لعهدنا هذا . وهو شبيه بالقرفة . (١١) القيراط : نصف دانق . وقد أسلفنا قريبا تعريف الدانق .

وانْبَسِطْ[1] واسْتَرْسِلْ[2] . ولْيَحْسُنْ ظَنُّك ، فإنّ حَالَك[3] عِنْدِى على ما تُحِبُّ ! خُذْهُ كلَّه ، فهو لك بِزَوْبَرِه[4] وبِحَذَافِيره[5] ! وهو لك جميعًا ! نفسى بذلك سَخِيّة ! والله يعلم أنّى مَسْرور بما وصل إليك من الخير !

فتركتُه بين يديْه ، وقمتُ من عنده ، وجعلتُ وَجْهِى كما أنا إلى العِراق[6] ! فما رأيته وما رآنى حتى مات .

وقال المكّيّ : سَمِعَنى سُلَيمانُ وأنا أُنشِد شِعْرَ امرئِ القيس :

لَنا غنم نُسَوِّقها[7] غِزَارٌ ... كأنّ قُرُونَ جِلّتِها العِصِىُّ

فتملأ بيْتَنا أَقِطًا وسَمْنًا[8] ... وحَسْبُك من غِنًى شِبَعٌ ورِىُّ

قال : لو كان ذَكَرَ مع هذا شيئا من الكُسْوَة لكان جيّدًا .

وهو الذى قال ليحيى بنِ خَالد[9] حين نَقَبَ فى أبى قُبَيْس[10] ، وزادَ فى داره : عَمَدْتَ إلى شَيْخ الجبال فزَعزَعْتَه ، وثَلَمْتَ[11] فيه .

---

(١) فى نسخة ليدن : (وابتسط) . ونرجح أنه تحريف ، لأنا لم نقف على (افتعل) من هذه المادة . أو لعل الجاحظ يريد أن يحكى لغة درجت على ألسنة الناس فى ذلك العهد ، على فرض أن نسخة (ليدن) هى الصحيحة .

(٢) الاسترسال إلى الإنسان : الاستئناس به والطمأنينة إليه . وقد شرحناه فيما تقدّم .

(٣) يراد بالحال هنا المنزلة والتقدير .

(٤) فى اللسان : أخذ الشىء بزوبره : بجميعه ، فلم يدع منه شيئا اهـ .

(٥) حذافير الشىء : أعاليه ونواحيه . مفرده حذفور (بضم فسكون) ، وحذفار (بكسر فسكون) .

(٦) وجعلت وجهى الخ ، أى وجهت وجهى إلى العراق ، وأنا على حالى التى كنت عليها عنده .

(٧) (نسوقها) : نسوقها . والتفعيل للمبالغة . و (جلتها) : جمع جليل ، وهو المسن .

(٨) سبق أن الأقط يتخذ من اللبن المخيض ، يطبخ ثم يترك حتى يمصل . و (يمصل) : يخرج ماؤه — وحسبك الخ ، أى يكفيك من الغنى أن تشبع وتروى .

(٩) هو يحيى بن خالد البرمكى . وكان رئيس الوزراء والكتاب للرشيد ، يرجع إليه فى سياسة الدولة وتدبير أمورها . وكان كاتبا بليغا ، وخطيبا مصقعا . ثم غضب الرشيد على البرامكة فنكبهم النكبة المشهورة . ومات يحيى فى محبسه سنة ١٩٠ هـ . وحديث البرامكة مشهور .

(١٠) أبو قبيس : جبل بمكة .

(١١) ثلمت (من باب ضرب) : هدمت . — يريد : لم ترع حرمة هذا الجبل .

وقال حين عُوتِبَ فى قلّة الضَّحك، وشـدّة القُطُوب [١] : إنّ الذى يَمْنعنى من الضَّحِك أنّ الإنسان أقربُ ما يكون من البَذْل، إذا ضَحِك، وطابتْ نَفْسُه [٢] !

✣

صَحِبَنى محفوظ النَّقَّاشُ من مَسْجِد الجامع [٣] ليلا . فلمّـا صرت قُرْبَ منزله ـ وكان منزله أقْرَبَ إلى مَسجِد الجامع من منزلى ـ سألنى أَنْ أبيتَ عنده . وقال : أيْنَ تذهبُ فى هذا المَطَر والبَرْد، ومنزلى منزلُكَ، وأنت فى ظُلْمة، وليس معك نار [٤] ؟ وعندى لِبأٌ [٥] لم يَرَ الناس مِثْلَه ، وتمرٌ ناهيكَ به جَوْدَةً [٦]، لا تَصْلُحُ إلا له !

فمِلْتُ معه ، فأبطأَ ساعةً . ثم جاءنى بجَام لِبَإٍ وطَبَق تمر .

فلمّـا مَدَدْتُ [٧] قال : يا أبا عثمان ، إنّه لِبَأ وغِلَظُهُ [٨] ! وهو الليـل ورُكوده [٩] ! ثم لَيْـلَةُ مطَرٍ ورُطوبة . وأنت رجل قـد طعنتَ فى السِّنّ . ولم تزل تَشْـكُو من الفـالج [١٠] طَرَفًا [١١]. وما زال الغَلِيلُ [١٢] يُسْرِع إليك . وأنت فى الأصْـل لستَ بصاحب عَشاء !

---

(١) القطـوب : تزوّى ما بين العينين عنـد العبوس . وهو يقطب (بكسر الطاء) ما بين عينيه قطبا وقطوبا اه من اللسان . (٢) أقرب ما يكون الخ، البذل : العطاء . يعنى أن الذى يمنعـه من الضحك هو أنه يخشى إن هو ضحك وطابت نفسه أن يجنح إلى العطاء والكرم . فهو لذلك دائم القطوب . (٣) المسـجد الجامع : الذى يجمع أهله . وإن شئت قلت : مسجد الجامع ، بالاضافة ، بمعنى مسجد اليـوم الجامع اه من اللسان .

(٤) يريد بالنار هنا مصباحا يستضىء به فى الطـريق . (٥) اللبأ : أول اللبن عنـد الولادة . وأكثر ما يكون ثلاث حلبات . وأقله حلبة . وقد سبق شرحه . (٦) (ناهيك به جودة)، قال فى المصباح : وناهيـك بزيد فارسا : كلمـة تعجب واستعظام . قال ابن فارس : هى كما يقال : حسبك . وتأويلها أنه غاية تنهاك عن طلب غيره اه . (٧) (مددت) ، أى يدى . (٨) يريد بالغلظ ثقله على المعدة .

(٩) ركوده : سكون هوائه وثقله . (١٠) الفالج : مرض يحدث فى أحد شق البدن طولا ، فيعطل إحساسه وحركته ، كما فى المصباح . (١١) طرفا : شيئا منه . (١٢) الغليل : شدة العطش، أو حرارة الجوف .

فإن أكلتَ اللّبأَ ولم تُبالغ ، كنتَ لا آكلا ولا تاركا ، وحَرَّشْتَ[(١)] طِباعَك ، ثم قطعتَ الأكل أشهى ما كان إليك . وإنْ بالغتَ ، بِتْنا فى ليلة سُوءٍ من الاهتمام بأمرك ، ولم نُعِدَّ لك نبيذا ولا عَسَلا[(٢)] .

وإنّما قلتُ هذا الكلام لئلا تقول غدًا : كانَ وكان[(٣)] ! والله قد وقعتُ بين نابَىْ أسَدٍ[(٤)] ! لأنّى لو لم أجِئْكَ به وقد ذكرتُه لك ، قلتَ : بَخِلَ به ، وبَدَا له فيه[(٥)] . وإن جئتُ به ولم أحَذِّرك منه[(٦)] ، ولم أذَكِّرك كلَّ ما عليكَ فيه ، قلتَ : لم يُشْفِق علىَّ ولم يَنْصَحْ . فقد بَرِئتُ إليكَ من الأمرين جميعًا . وإنْ شئتَ فأَكْلَةٌ ومَوْتَةٌ ! وإن شئتَ فبعضُ الاحتمالِ ونومٌ على سلامة[(٧)] !

فما ضَحِكْتُ قَطُّ كضَحِكى تلك الليلةَ . ولقد أكلتُه جميعا ، فما هَضَمَه إلا الضَّحِكُ والنّشاطُ والسُّرورُ ، فيما أظُنّ . ولو كان معى مَنْ يَفْهَمُ طِيبَ ما تكلّمَ به ، لأتَى علىَّ الضَّحِكُ ، أو لقَضَى علىَّ[(٨)] . ولكنّ ضَحِكَ مَنْ كان وحْدَه لا يكون على شَطْرِ[(٩)] مُشارَكة الأصحاب .

---

(١) هكذا فى النسخ . وأصل التحريش الاغراء بين القوم أو الكلاب أو غيرها ، ليقع بعضها ببعض . والمراد هنا : هجت شهوة الأكل فى نفسك ، على ضرب من التجوز . وقد ضمن حرش معنى هيج ، فعداه بنفسه . فانه إنما يقال : حرش بين القوم مثلا . ولا يقال : حرش القوم . والتعبير غريب على كل حال . (٢) ولم نعد الخ : أى وشغلنا حالك عن أن نعدّ لك وسائل الهضم وتخفيف الكظة من النبيذ والعسل . (٣) وإنما قلت الخ ، أى ما أوضحت لك حاليك عند المبالغة وعدمها إلا لينتفى قولك غدا : كان ينبغى أن ينصحنى ، وكان ينبغى أن ينهنى ، مثلا . (٤) والله الخ ، الكلام على الاستعارة التمثيلية . أى إنى فى حالى هذه شبيه بمن وقع بين نابى أسد . فلا خلاص لى من شر على كل حال . (٥) (بدا له فيه) : عنّ له فيه رأى آخر . (٦) يقال : حذره الشىء ، وحذره منه . (٧) وإن شئت فبعض الخ ، أى وإن شئت فاحتمل قليلا جوع هذه الليلة ، لتنام معافى . (٨) الجملتان بمعنى واحد . (٩) ولكن ضحك الخ ، الشطر هنا : الجهة ، أى على وجهها وشاكلتها . فضحك المنفرد من شىء ، قليل ، إذا قيس إلى ضحك جماعة من ذلك الشىء ، لأن السرور يتضاعف بالجماعة ويكثر .

***

وقال أبو القُمَاقِم[١] : أول الإصلاح ألّا يُرَدَّ ما صار فى يَدِى لك ؛ فإنْ كان ما صار فى يَدِى لى فهو لى ، وإن لم يكن لِى فأنا أَحَقُّ به مِمَّنْ صيَّره فى يَدِى ! وَمَنْ أخرجَ من يده شيئا إلى يَدِ غَيْرِه من غير ضَرُورة ، فقد أَباحه لمن صَيَّره إليه ! وتعريفُكَ[٢] إيَّاه مِثْلُ إباحته .

وقالت له امرأة : وَيْحَكَ يا أبا القُمَاقِم ! إنِّى قد تزوَّجتُ زوجا نهاريًا[٣] ، والساعة وقتُه . وليستْ علىّ هَيْئة[٤] . فاشْتَرِ لِى بهذا الرَّغيف آسًا[٥] ، وبهذا الفَلْس دُهْنًا[٦] ، فإنَّك تُؤْجَر ! فعسى اللهُ أن يُلْقِىَ محبَّتِى فى قلبه ، فيرزُقَنِى على يدك[٧] شيئًا أعيش به ؛ فقد والله ساءتْ حَالى ، وبَلَغَ المجهودُ[٨] منى — فأخذهما ، وجَعَله وجْهه[٩] !

فرأته بعد أَيَّام ، فقالتْ : سبحان الله ! أَمَا رَحِمْتَنِى مِمَّا صنعتَ بى ! قال : وَيْحَكِ ! سَقَطَ والله مِنِّى الفَلْسُ ، فَمِنَ الغَمِّ أكلتُ الرَّغيفَ !

وتعشَّق واحدة ، فلم يزل يتْبعُها ويَبْكِى بيْنَ يَدَيْها ، حتى رَحِمتْه . وكانت مُكْثِرةً ، وكان مُقِلًّا . فاسْتَهْدَاها هَرِيسةً[١٠] ، وقال : أنتم أحْذَقُ بها ! فلما كانَ بَعْدَ أيام تَشَهَّى[١١] عليها رُءُوسًا . فلمّـا كان

---

(١) لم نعثر له على ضبط . وربما كان بفتح القاف الأولى وكسر الثانية — منقولا عن جمع قمقم — وربمـا كان بضم القاف الأولى وكسر الثانية — منقولا عن القماقم — وهو السيد الكثير الخير . (٢) وتعريفك الخ ، تعريف الشىء : عرضه ليعرف . أى إن تعريف اللقطة التى صارت إليك مثل إباحتها ، لأنها قد تقع فى يد من يدعيها كذبا .

(٣) (نهاريا) : ويقال أيضا : نهر (بفتح فكسر) ، فى النسبة إلى نهار ، أى صاحب نهار . ومعنى كونه نهاريا أنه يزورها فى منزلها نهارا . فقد جاء فى مقدمة طبعة ليدن ما مؤداه : كان بعض من يعجزون عن إعداد بيت الزوجية والقيام عليه ، يتخذون زوجات نهاريات يزورونهن فى النهار اهـ . وجاء فى هذه المقدمة أيضا عن كتاب الحيوان وكتاب الأغانى ما يأتى : فأما المكىّ فانه تعشق جارية يقال لها سندرة ، ثم تزوجها نهارية . وقد دعانى إلى منزلها غير مرة اهـ . وفى الجزء الثالث من الأغانى ، فى ترجمة بشار ما يأتى : قال الفضل بن أبى سعيد : وحدثنى رجل من أهل البصرة ، ممن كان يتزوج بالنهاريات ، قال : تزوجت امرأة منهن ، فاجتمعت معها فى علو بيت ، وبشار تحتنا الخ — فأنت ترى من هذا أنه كان يقال : زوجة نهارية ، كما كان يقال : زوج نهارى . (٤) (وليست على هيئة) : لست فى منظر حسن . (٥) نوع من الرياحين . (٦) الفلس : جزء من ستة وتسعين جزءا من الدرهم ، كما سبق . والدهن هنا : الطيب (بكسر الطاء) . (٧) (على يدك) : بسبب ما تسـديه إلى من هـذا المعروف .

(٨) (المجهود) : المشقة ، أى بلغ احتيالى للضنك والفقر غايته . (٩) وجعله وجهه ، الضمير المفعول فى (جعـله) يرجع إلى الأخذ المفهوم من (أخذهما) ، أى : وجعـل الفلس والرغيف وجهته التى يقصـد إليها ، وأغفل ما عداها . (١٠) سبق شرحها . (١١) فى الأساس : وتمنى وتشهى علىّ كذا اهـ .

بعد قليل، طاب منها حَيْسَةٌ[1] . فلما كان بعد ذلك، تشهّى عليها طَفَيْشَلِيَّةً[2] . قالت المرأة : رأيتُ عشق الناس يكون فى القلب وفى الكبد وفى الأحشاء . وعشقك أنت ليس يُجاوز معدتك[3] !

وقال أبو الأَصْبَغ[4] : ألحَّ أبو القُماقِم على قومٍ عِنْدَ الخِطْبة إليهـم، يسألُ عن مال امرأةٍ ويُحصيه، ويسألُ[5] عنه . فقالوا : قد أخبرناك بمالها، فأنت أىُّ شىء مالُك؟ قال : وما سؤالُكم عن مالى ؟ الذى لها يكفينى ويكفيها !

* * *

سمعتُ شيخا من مشايخ الأُبُلَّة[6] يزعمُ أنّ فقراءَ أهلِ البَصرة، أفضلُ من فقراء أهل الأُبُلَّة . قلتُ : بأىّ شىء فضّلتَهم ؟ قال : هم أشدُّ تعظيما للأغنياء، وأعْرَف بالواجب .

ووقع بين رجلين أُبُلِّيَّيْن كلامٌ، فأسمع أحدُهما صاحبَه كلاماً غليظا، فردّ عليه مثلَ كلامه . فرأيتُهم قد أنكروا ذلك إنكاراً شديدًا، ولم أر لذلك سببا . فقلتُ : لِمَ أنكرتم أن يقول له مثلَ ما قال؟ قالوا : لأنّه[7] أكثرُ منه مالًا . وإذا جوّزنا هذا له، جوّزنا لفقرائنا أن يكافئوا[8] أغنياءنا، ففى هذا الفسادُ كلُّه !

وقال حَمْدانُ بنُ صَباح[9] : كيف صار رِياحٌ[10] يُسمِعُنى ولا أُسْمِعُه[11] ؟ أفهو أكثرُ مالا منّى ؟ ثم سكت .

---

(١) أصـل الحيس الخلط . وقد أطلق على الأقط (بفتح فكسر) يخلط بالتمر والسمن . والحيسة كالحيس . وقد تقدّم شرح كل هذا . (٢) الطفيشل : نوع من المرق . فالطفيشلية : طعام يعمل بهذا المرق . وقد سبق تفسيره فى قصة الحارثى . وفى نسخة ليدن : طفشيلة . ونظنه محرفا . (٣) جاءت هذه القصّة — بتغيير فى بعض الألفاظ والعبارات — فى كتاب (نثر الدرر) ، للوزير زين الكفاة ، أبى سعد منصور بن الحسين الآبى المتوفى سنة ٤٢٢ هـ . وتجدها فى مقدّمة طبعة ليدن . (٤) هو أبو الأصبغ بن ربعى الذى جاء ذكره آنفا فى قصة زبيدة بن حميد . (٥) عطف يسأل على يسأل يفيد الشغف والإلحاح . (٦) بلد قرب البصرة من جانبها البحرى ، كما فى اللسان . (٧) الضمير يعود على المردود عليـه . (٨) أن يساووا .

(٩) ضبطه فى نسخة ليدن بتشديد الباء . (١٠) سيذكر عما قريب فى قصة الرجل الذى كان يغشى طعام الجوهرى ، وكان يلعن القدرية . ولم نعثر على اسمه كاملا . (١١) أى يسمعنى المؤلم من الكلام .

قال : ويكون الزائر من أهل البَصْرة عنـد الأُبُلِّىّ مقيما مطمئنا . فإذا جاء المـدُّ قالوا : ما رأينا مدًّا قطُّ ارتفع ارتفاعَه . وما أطيبَ السَّيرَ فى المدّ! والسيرُ فى المدّ إلى البَصْرة، أطيبُ من السيرِ فى الجَزْر إلى الأُبُلَّة! فلا يزالون به حتى يَرى أنَّ من الرأى أن يغتنم ذلك المدَّ بعينه!

* * *

كان أحمد بن الخارَكىّ بخيلا ، وكان نَفَّاجا[1] . وهذا أغيظُ ما يكون . وكان يتّخذ لكلّ جُبّة أربعةَ أزرار ، ليُرِىَ الناسَ[2] أنّ عليه جُبّتين[3] ، ويشترى الأعْذاق[4] والعَراجين[5] والسَّعَف من الكَلَّاء[6] ؛ فإذا جاء الحمَّـال إلى بابه تركه ساعةً ، يُوهِمُ النـاس أنّ له من الأَرَضِين ما يحتمل أن يكون ذلك كلُّه منها .

وكان يكترى قُدُور الحمَّـارين التى تكون للنبيذ ، ثم يتحرَّى أعظمَها[7] ، ويهرُبُ من الحمّالين بالكِراء ، كى يصيحوا بالباب : يشترون[8] الدّاذىَّ والسَّكَرَ[9] ، ويحبِسون الحمّالين بالكِراء !

وليس[10] فى منزله[11] رطل دِبْس !

(١) فى النسخ الحارَكىّ بالحاء . وقد صححناه بالمعجمة ، وهو منسوب إلى خارَك (كهاجر) ، جزيرة فى وسط البحر الفارسىّ . ذكر ياقوت من رجالها أحمد بن الخارَكى البصرىّ . ولعله هذا . والنفاج : من يفتخر بما ليس عنـده ، كما سـبق . (٢) ليرى الناس الخ ، ليس من المعقول أن يخدع الناس هـذا الخداع إلا إذا رأوه عن بعد ، أو كان مارّا مسرعا . (٣) الأعذاق : جمع عذق (بكسر فسكون) ، وهو قنو (بكسر فسكون) النخلة الذى به البلح . (٤) جمع عرجون ، وهو العذق إذا يبس واعوج . (٥) السعف : أغصان النخل ما دامت بالخوص . الواحدة : سعفه . كقصبة وقصب . (٦) سوق الكلاء : موضع بالبصرة ، لأنهم يكلئون سفنهم هناك ، أى يحبسونها ويحفظونها . (٧) أى يجتهد أن يكترى أكبرها وأضخمها . (٨) أى يصيح الحمالون بالباب قائلين : يشترون الخ . أى فيتوهم الجيران أنه قد اشترى الداذىّ والسكر حقيقة . وفى نسخة الشنقيطى : يشربون . (٩) هكذا فى نسخة الشنقيطى . وفى القاموس وشرحه فى مادة (دوذ) الداذى : شراب الفساق ، وهو الخمر . وهو على صيغة المنسوب وليس بنسب . وقد سبق شرحه فى ص ١١٦ ج١ — وفى النسخ الأخرى : الدادى ، بمعجمة فمهملة . وأما السـكر فهو الخمر ، ونبيذ يتخذ من التمر ، وكل ما يسكر ؛ كما فى القاموس . (١٠) فى نسخة ليدن : (وليس له) . (١١) وليس الخ ، هذا من كلام الجاحظ . والملائم هنا من معانى الدبس : أنه عصارة التمر ، أو عصارة الرطب من غير طبخ .

وسمع[1] قولَ الشاعر :

رأيتُ الخُبزَ عزَّ لديك حتّى … حسبتُ الخُبزَ في جوِّ السحابِ

وما روّحتنا لتَذُبَّ عنا … ولكن خفتَ مَرْزِئةَ الذُّبابِ[2]

فقال : ولِمَ ذَبَّ عنهم ؟ لعنه الله ! ما أعلم إلّا أنّه شهّى إليهم الطعامَ . ونظف لهم القِصاعَ ، وفرّغهم له[3] ، وسخّرهم عليه ! ثم ألّا تركها تقع في قِصاعهم . وتسقط على آنافهم وعيونهم ! هو والله أهلٌ لما هو أعظمُ من هذا ! كم تَرَوْن من مرّة[4] قد أمرتُ الجارية أن تُلقِيَ في القصعة الذّبابةَ والذّبابتين والثلاثة ، حتى يتقزّز[5] بعضهم ، و يكْفِيَ اللهُ شرَّه !

قال : وأمّا قوله : (رأيتُ الخبزَ عزَّ لديك حتّى) قال[6] : فإن لم أُعِزَّ[7] هذا الشيءَ الذي هو قِوامُ أهل الأرض ، وأصلُ الأقواتِ ، وأميرُ الأغذيةِ ، فأيَّ شيءٍ أُعِزُّ ؟ إي واللهِ ، إنّي أُعِزّه وأُعِزّه وأُعِزّه وأُعِزّه ، مدى النّفَس[8] ، ما حملتْ عيني الماءَ .

و بلغ من تَفَجّه مع ذلك ، ما أخبرني به إبراهيم بنُ هانئٍ ، قال : كنتُ عنده يومًا إذْ مرّ به بعض الباعة . فصاح الخوْخَ الخوخَ ! فقلت : وقد جاء الخوخ بعدُ ؟ قال : نعم ، قد جاء وقد أكثرنا منه . فدعاني الغيظُ عليه إلى أن دعوتُ البيّاعَ ، وأقبلتُ على ابن الحارَكي . فقلت : ويحك ! نحن لم نسمع به بعدُ ، وأنتَ قد أكثرتَ منه ! وقد تعلمُ أنَّ أصحابنا أترَف منك !

---

(١) البيتان لمروان بن محمد الشاعر المعروف بأبي الشمقمق ، قالهما في جعفر بن أبي زهير ، وكان ضيفا عنده ، كما سبق .

(٢) المرزئة : النقص . يقول : ما روحتنا بالمروحة لتذب عنا الذباب ، ولكنك فعلت ذلك خوفا من أن ينال الذباب شيئا من طعامك فينقصه . وقد سبق شرح هذين البيتين في ص ١٣٢ ، ج ١

(٣) الضمير يعود إلى الطعام .

(٤) كم ترون الخ ، كم للتكثير : أي كثيرا من المرات فيما تعلمون قد أمرت الخ . والجاحظ مولع بهذا التعبير .

(٥) تقزز : امتنع عن الشيء كراهة له .

(٦) كرر (قال) ، على أسلوبه . وقد تقدم نحوه غير مرة في هذا الكتاب .

(٧) يفرض هنا فرضا أن البيتين قد قيلا في هجائه هو ، ويشمر للرد على الشاعر .

(٨) كناية عن أمد الحياة .

ثم أقبلتُ على البيّاع فقلتُ : كيف تبيع الخوخ؟ فقال: ستّةٌ بدرهم . قلت: أنت ممن يشترى ستّ خَوْخَاتٍ بدرهم ، وأنت تعلم أنه يباع بعد أيام مائتين بدرهم ؟ ثم تقولُ : وقد أكثرنا منه ، وهذا يقول : ستّة بدرهم ؟ قال : وأىُّ شىء أرخصُ من ستّةِ أشياءَ بشىء ؟

* * *

كان غلامُ صالحِ بنِ عفّان[1] يطلبُ منـه نِفْطًا لبيت الحِمار بالليل[2] . فكان يعطيه كلَّ ليلةٍ ثلاثةَ أفلُس — والفُلُوسُ أربعةٌ طَسُّوجٌ[3] — ويقول : طَسّوجٌ يفضُل وحبّةٌ تنقُص . وبينهما يرمى الرّامى[4] !

وكان يقول لابنه : تُعطى صاحبَ الحمّـام وصاحبَ المِعْبَر لكلّ واحد منهما طَسُّوجا ، وهو إذا لم يرَ معك إلّا ثلاثةَ أفلُسٍ لم يردَّك ؟

* * *

قال أبو كعب[5] : دعا موسى بنُ جَناح جماعةً من جيرانه ليُفطروا عنده فى شهر رمضان . وكنتُ فيهم . فلمّا صلّينا المغربَ ، ونَجَز ابنُ جَناح[6] ، أقبل علينا ثم قال : لا تَعْجَلوا ، فإنّ العجلة من الشيطان . وكيف لا تعجلون[7] وقد قال الله جلّ ذِكره : ﴿ وكان الإنسانُ عَجُولا ﴾ ، وقال : ﴿ خُلِق الإنسانُ من عَجَل ﴾ ؟ — اسمعوا ما أقول ، فإنّ فيما أقول حُسْنَ المُؤاكلة ، والبعدَ من الأَثَرَة .

(١) سبقت لصالح بن عفان قصة فى ص ٨٤ ، ج ١ . (٢) لإضاءته بالليل .

(٣) قوله : والفلوس أربعة طسوج : أى أربعة منها تعادل طسوجا . ثم إن الدرهم ستة دوانق ، والدانق أربعة طساسيج ، والطسوج حبتان . فيكون الطسوج جزءا من أربعة وعشرين جزءا من الدرهم ، ويكون الفلس جزءا من ستة وتسعين جزءا من الدرهم . (٤) أى لو أعطيت طسوجا لزادت قيمته على ما يحتاج إليه من النفط ، ولو أعطيت حبة لنقصت قيمتها عن ذلك . والفرق بين الطسوج والحبة ، فى زعمه ، شاسع يتسع لرمية الرامى .

(٥) هو أبو كعب الصوفى . وقد مر له ذكر فى ص ٣٢ ، ج ١ (٦) نجز ابن جناح : قضى حاجته . والفعل من باب نصر (لسان) . (٧) هكذا فى (عيون الأخبار) . وفى النسخ : وكيف تعجلوا . وهو تحريف ظاهر .

والعاقبةَ الرَّشيدةَ، والسِّيرةَ المحمودة . وإذا مدّ أحدكم يَده إلى الماء فاستسقَ[1] — وقد أتيتم بِهَطّة[2]، أو بجُوذابة[3]، أو بعَصيدة، أو ببعض ما يجرى فى الحلق ولا يُساغ بالماء، ولا يُحتاج فيه إلى مضغ، وهو طعامُ يدٍ لا طعامُ يدين[4]. وليست على أهل اليد منه مُؤْنةٌ، وهو ممّا يذهب سريعا — فأمسكوا[5]، حتى يفرُغَ صاحبُكم[6]؛ فإنّكم تجمعون عليه خِصالا : منها، أنكم تنغّصُون عليه بتلك السرعة[7]، إذا علم أنه لا يفرُغ إلّا مع فراغكم[8]. ومنها، أنّكم تُخْنِقُونه[9] ولا يجدُ بُدًّا من مكافأتكم[10]؛ فلعلّه أن يتسرّع إلى لُقْمة حارّة فيموتَ وأنتم ترَوْنه . وأدنى ذلك أن تبعثوه على الحِرص، وعلى عِظَم اللُّقَم[11]. ولهذا ما قال الأعرابىّ حين قيل له : لِمَ تبدأ بأكل اللحم الذى فوق الثّريد ؟ قال : لأنّ اللحمَ ظاعنٌ، والثريدَ مقيمٌ !

وأنا وإن كان الطعامُ طعامى فإنّى كذلك أفعلُ . فإذا رأيتم فعلى يخالفُ قولى، فلا طاعة لى عليكم .

قال أبو كعب : فربّما نَسِى بعضُنا، فمدَّ يده إلى القصعة، وقد مدَّ يَده صاحبُه إلى الماء، فيقولُ له موسى : يَدَكَ يا ناسِى! ولولا شىءٌ[12] لقلت لك : يا مُتَغافِلُ !

---

(١) فى (عيون الأخبار) : (إذا)، بلا واو قبلها . (٢) الهط : الأرز يطبخ باللبن والسمن . معرب عن الهندية، كما فى القاموس . (٣) الجوذاب بالضم : طعام يتخذ من سكر وأرز ولحم . (٤) طعام اليدين : الذى يحتاج فيه إلى القطع والشد : كاللحم ونحوه . وقد تقدم شرحه . (٥) جواب إذا . (٦) أى إن لم تمسكوا عن الأكل . (٧) فى النسخ : تلك السرعة . وهو تحريف . وفى (عيون الأخبار) : منها أنكم تنغصون عليه فى شربه . (٨) لا يفرغ الخ، أى لا يفرغ من شربه الا مع فراغكم من الأكل، وإتيانكم على ما على المائدة . (٩) تخنقونه : تسببون له الغصص (بفتحتين) بالطعام . والكلام على المجاز . وقد أوضح ذلك بقوله : فلعله أن يتسرع الخ . (١٠) أى مجازاتكم على اغتنام فرصة شربه الماء، والمسارعة إلى الأكل دونه . (١١) أى وأقل ما فى الأمر من الضرر . (١٢) ولولا شىء من الذوق والأدب .

قال : وأتانا بأرُزّةٍ [١] . ولو شاء إنسان أن يعدّ حَبّها لعدّه ، لتَفَرّقه ولِقلّتِه . قال : فنثروا عليها ليلة من ذلك مِقْدارَ [٢] نصفِ سُكَّرةٍ [٣] . فوقعتْ ليلتئذٍ فى فمى قطعةٌ ، وكنت إلى جنبه ، فسمع صوتها حين مضغتُها ، فضرب يده على جنبي ، ثم قال : اجْرُش يا أبا كعب اجرشْ [٤] ! قلت : ويلك ! أما تتّقى الله ! كيف أجْرُش جزءًا لا يتجزّأ ؟ .

قصـــة ابن العُقْــدِىّ [٥]

كان ابن العقدىّ ربّما استزار أصحابَه إلى البستان . وكنت لا أظنّهُ ممن يحتمل قلبهُ ذلك على حال . فسألتُ ذاتَ يوم بعضَ زُوّاره ، فقلت : احكِ لى أمرَكم . قال : وتستُرُ علىّ ؟ قلت : نعم ، ما دمتُ بالبَصرة .

قال : يشــترى لنا أرُزّا بقشره ، ويحملُه معــه ، ليس معه شيء ممـا خلق اللهُ إلّا ذلك الأَرُزّ ! فإذا صرنا إلى أرضه ، كلَّف أكّارَه [٦] أن يجشّــه [٧] فى مِجَشّــةٍ له ، ثم ذَرّاه ، ثم غربله ، ثم جَشّ الواشّ [٨] منه . فإذا فرغ من الشراء والحمـل ، ثم من الجشّ ، ثم من التـذرية ، ثم من الإدارة والغربلة ، ثم من جَشّ الواشّ ، ثم من تذريته ، ثم من إدارته وغربلته ، كلّف

---

(١) هكذا فى نسخة الشنقيطى . وهى طعام يتخذ من الأرز والسكر . وفى النسخ بأرز .

(٢) هكذا فى النسخ التى بأيدينا . ولعل (من) هنا زيادة من النساخ . (٣) السكرة : القطعة من السكر . ولعلها كانت قطعة صغيرة محدودة الحجم عندهم . وفى عيون الأخبار ، بعد قوله : لتفرقه ولقلته : وهى مقدار نصف سكرجة . (٤) جرش الشىء : لم ينعم دقه . والمراد هنا الطحن بالأسنان .

(٥) لم نقف على اسمه كاملا ، ولا رأينا ضبطا (للعقدى) . إلا أننا رجحنا أن يكون بضم فسكون ، نسبة إلى (العقدة) ، ولها معان كثيرة . (٦) الأكار : الحراث . والمراد العامل فى مزرعته . (٧) جشه : دقه وكسره ، كأجشه . (٨) لم نجد فيما بين أيدينا من المعجمات معنى ملائما للواش . وفى صلب نسخة الشنقيطى : الواش : الأرز الصحاح الذى ينفلت من أن تصيبه الرحا ويخرج سليما ، فيعاد عليه الجش ، ثم يذرى ثانية ويغربل .

الأكّار أن يطحنه على ثوره وفى رَحاه. فإذا طحنه، كلّفه أن يُغْلِيَ له الماءَ، وأن يحتطبَ له. ثم يكلّفهُ العجْنَ؛ لأنّه بالماء الحارّ أكثر نَزَلًا[1]. ثم كلّف الأكّارُ أن يخبزه.

وقبل ذلك ما قد كلّفهم[2] أن ينصبوا له الشُّصُوص[3] للسمك. ويَسْكُروا[4] الدرْياجة[5] على صغار السمك، لا يَدْخلوا[6] فى السواق[7]. فيُدخلوا أيديَهم فى جِحَرة الشلابى[8] والرُّمّان[9]. فإن أصبنا من السمك شيئا جعله كَبَابًا على نار الخبز تحت الطابَق[10]. حتى لا يحتاج من الحطب إلى كثير.

فلا نزال منذ غُدْوةٍ إلى الليل فى كدّ وجوع وانتظار. ثم لا يكون عَشاؤنا إلّا خُبْزَ أُرز أسودَ غير منخول — بالشلابىّ. ولو قدَرَ على غير ذلك فعل.

قلت له: فَلِمَ لا يتّخذ موضعَ (مذارٍ) من بعض (دُقَاقِ) أرضه، فيذرّيَ لكم الأرزّ[11]؟ ثم يكون الخيارُ فى يده، إن أراد أن يعجّل عليكم الطعامَ أطعمكم الفَرْدَ[12]. أو إن أحبّ أن يتأنّى ليطعمكم الجوهرىّ[13].

(١) النزل هنا: البركة. والمراد الزيادة والريع. (٢) الضمير يرجع إلى عمال المزرعة. (٣) الشص (بالكسر): حديدة عقفاء يصطاد بها السمك، و يفتح. (٤) سكر النهر (من باب نصر): سدّ فاه.

(٥) لم نجد بعد طول البحث معنى للدرياجة. ولعلها الدريجة (بفتح فكسر). وفى القاموس فى مادة "درق": والدرقة محركة الجحفة ...، والخوخة فى النهر، معرب دريجة اه. وهذا هو المراد هنا. أى إنهم يسدّون درقة النهر: أى فتحته. فلعل الجاحظ مما كان يروى عبارة مخاطبه الشائعة فى عصره و بلده، كما هو دأبه فى كثير مما يروى.

(٦) الصواب: لا تدخل، أو لا يدخلن. ولعل الجاحظ يحكى عبارة محادثه هنا أيضا. (٧) السواق: جمع ساقية، من سواقى الزرع: نهير صغير، كما فى اللسان. (٨) الشلابى: لعلها جمع شلبية، وهى من صغار السمك. وهذا الصنف معروف الآن بمصر بهذا الاسم. ولكنا لم نقع له على ذكر فيما لدينا من المراجع. وقد سبقت الاشارة إلى هذا اللفظ فى هذا الجزء، فى نوادر عبد الأعلى القاص. (٩) رمان الأنهار: ضرب من السمك.

(١٠) الطابق بفتح الباء: إناء يطبخ فيه. (١١) العبارة غير مستقيمة فى جميع النسخ. فلعله يريد أن يقول: فلم لا يتخذ من موضع مذراه بعض دقاق أرضه فيذرى الخ. وفى النسخ: (من بعض زقاق أرضه) ونرجح أنها محرفة عن (دقاق). والمعنى: لماذا يتكلف شراء الأرز وجشه وغربلته؟ ألم يكن من السهل أن يعمد إلى مكان التذرية فى أرضه، فيأخذ فتات الأرض المختلط بفتات الأرز، أى كساره المختلط بالتراب، فيذرى لكم الأرز، الخ. (١٢) يقصد بالفرد خبز الأرز وحده قفارا، كما نظن. (١٣) لا نجد توجيها صحيحا لمعنى الجوهرى هنا، إلا أن يتمحل للمعنى فيقال: إن جوهر الشىء: أساس تكونه، و إنه يقصد بالجوهرى هنا الطعام الأساسى الجامع لعناصر التغذية، وهو الخبز المأدوم بسمك أو غيره. ولعل ذلك كان من اصطلاحاتهم. ولعله تحريف. وجواب إن الشرطية محذوف والتقدير: "فعل".

قال : والله لئن سمِـع هذا وعَرَفه ليتكلَّفنَّه . اللهَ اللهَ فينا ، فإنّا قوم مساكين ! ولو قَدَرْنا على شيء لم نحتمل هذا البلاء !

* * *

حدّثنى المكّىّ قال : بتُّ عند إسماعيلَ بنِ غَزْوان[1] . و إنّما بيّتنى عنده حين علم أنى تعشّيتُ عند مُوَيْس ، وحملتُ معى قِرْبةَ نبيذ[2] . فلمّـا مضى من الليل أكثرُه ، وركِبنى النومُ ، جعلتُ فِراشى البِساطَ ، ومِرْفقتى[3] يدى ، وليس فى البيت إلّا مصلًّى[4] له ومِرْفقةٌ ومِخدّة . فأخذ المِخدّة فرمَى بهـا إلىّ ، فأبيتُها ورددتُها عليه ، وأبَى وأبَيْتُ . فقال : سبحانَ الله ! يكون أن تتوسّد مِرْفقك ، وعندى فَضْلُ مِخدّة ؟ فأخذتُها فوضعتُها تحت خَدّى ، فمنعنى من النوم إنكارى للوضع[5] ، ويُبْس فِراشى .

وظنّ أنّى قد نمتُ . فجـاء قليلًا قليلًا ، حتى سلّ المخدّة من تحت رأسى . فلمّـا رأيتُه قد مضَى بهـا ضحِكتُ ، وقلتُ : قـد كنتَ عن هـذا غنيًّا ! قال : إنّمـا جئتُ لأُسوِّىَ رأسَك ! قلتُ : إنّى لم أكلّمك حتّى ولّيْتَ بها . قال : كنتُ لهذا جئتُ ، فلمّا صارت المخدّة فى يدى نسيتُ ما جئتُ له ! والنبيذُ — واللهِ يَذهبُ بالحِفظ[6] أجمعَ — ما علمتَ !

وحدّثنى الحِزامىّ والمكّىّ والعَروضىّ[7] ، قالوا : سمعنا إسماعيلَ يقول : أوَ ليس قد أجمعوا على أنّ البخلاء فى الجُمْلة ، أعقلُ من الأسخياء فى الجملة ؟ ها نحن أُولاء عندكَ جماعةً ، فينا من

---

(١) محمد المكى و إسماعيل بن غزوان من أصحاب الجاحظ . وللقارئ عهـد بهما فى مواضع عدّة فيما سلف من هـذا الكتاب . وانظر ص ١٨ ، ج ١ (٢) هو مويس بن عمران ، كما سبق . وفى نسخة ليدن : قرابة نبيذ . وهو تحريف . (٣) المرفقة : المتكأ . (٤) المصلى : مكان الصلاة . والمراد ما يصلى عليه من بساط ونحوه . (٥) إنكارى للوضع : عدم اعتيادى النوم فيه . (٦) بالحفظ : بالذاكرة .

(٧) هو عبد الله العروضى — كما سبق — انظر ص ١٠٤ ، ج ١

يزعمُ الناسُ أنه سخيٌّ . وفينا من يزعمُ الناسُ أنه بخيل . فانظر أيَّ الفريقين أعقلُ ؟ هأنذا وسهلُ بنُ هارونَ وخاقانُ بنُ صُبَيْح[1] وجعفرُ بنُ سعيد[2] والحِزاميّ والعَروضيّ وأبو يعقوبَ الخُرَيْمي[3]، فهل معك إلا أبو إسحاق[4] ؟

وحدّثني المكّيّ، قال : قلت لإسماعيلَ مرّةً : لم أرَ أحدًا قطُّ أنفق على الناس من ماله، فلمّا احتاج إليهم آسَوْه[5] . قال : لو كان ما يصنعون[6] لله رضًا، وللحقّ موافقا، لمـا جمع الله لهم[7] الغدرَ واللؤمَ من أقطار الأرض . ولو كان هذا الإنفاقُ في حقّه[8] لمـا ابتلاهم الله ـ جلّ ذِكْره ـ من جميع خلقه[9] .

* * *

حدّثني تمـامُ بنُ أبي نُعَيْم، قال : كان لنا جار وكان له عُرْسٌ . فجعل طعامَه[10] كلّه فالُوذقا . فقيـل له : إنّ المُؤْنة تعظُم، قال : أحتملُ ثِقَل الغُـرْم بتعجيل الراحة، لعن الله النساء ! ما أشكّ أنّ مَنْ أطاعهنّ شرٌّ منهنّ[11] .

---

(١) صاحب حديث المسرجة . انظـر ص ٤٨ ، ج ١ (٢) من أغنياء البخلاء . وكان منزله منتدى لهم، كما مر في هذا الجزء . (٣) هو أبو يعقوب إسحاق بن حسان الأعور الخريمي، بالراء المهملة، كما ذكره ابن قتيبة في كتابه (الشعر والشعراء)، ص ٥٤٢ من طبعة (ليدن) . وفي النسخ : الخزيمي . وهو تحريف . وتجـد للخريمي حديثا في (عيون الأخبار)، ج ٢، ص ١٢٨ (٤) هو أبو إسحاق إبراهيم بن سـيار النظام . وقد سـبق التعريف به . ص ٥٥ . ج ١ . وقوله : فهـل معك إلا أبو إسحاق، أي من الفريق الذي يزعم الناس أنه من الأسخياء . (٥) آساه بماله مؤاساة : أناله منه وجعله فيه أسوته . (٦) الضمير يعود إلى من ينفقون على الناس من أموالهم . (٧) لمـا جمع الخ، اللام في (لهم) بمعنى (على)، كقوله تعالى : (وإن أسأتم فلها) . وقوله : والغدر، أي بهم . (٨) في موضعه . (٩) أي من بين جميع خلقه . (١٠) طعامه : أي طعام العرس . الفالوذق والفالوذ : حلواء تعمل من لب الحنطة، فارسي معرّب . (١١) يقول : إن الذي حمله على هـذا الإسراف إطاعته لأمر النساء، حتى يستريح من عاقبة مخالفتهن .

* * *

وحديثٌ سمعناه على وجه الدهر [(١)] : زعموا أن رجلا قد بلغ فى البخل غايتَه ، وصار إماماً ، وأنه كان إذا صار فى يده الدرهمُ ، خاطبه وناجاه ، وفدّاه [(٢)] واستبطنه [(٣)] .

وكان ممّا يقول له : كم من أرض قد قطعتَ ! وكم مِن كِيس قـد فارقتَ ! وكم من خامل رفعتَ ! ومن رفيع قـد أخملت ! لك عندى ألّا تعْرَى ولا تَضْحَى [(٤)] ! — ثم يلقيـه فى كيسه ، ويقـول له : اسكُن على اسم الله فى مكان لا تُهانُ ولا تُذَلُّ ولا تُزْعَجُ منه ! — وأنّه [(٥)] لم يُدخل فيه درهما قطُّ فأخرجه ، وأنّ أهله ألحُّوا عليه فى شَهْوةٍ ، وأكثروا عليه فى إنفاق درهم ، فدافعهم ، ما أمكن ذلك . ثم حمل درهما فقط . فبينا هو ذاهب [(٦)] إذ رأى حَوّاءً [(٧)] قد أرسل على نفسه أفْعًى لِدرهم يأخذُه . فقال فى نفسه : أتْلِفُ شيئا تُبذل فيه النفسُ ، بأكلةٍ أو شَرْبة [(٨)] ؟ والله ما هذا إلّا موعظةٌ لِى من الله ! فرجَع إلى أهله ، وردّ الدِّرهمَ إلى كيسه — فكان أهلُه منه فى بَلاءٍ . وكانوا يتمنّون موْتَه والخلاصَ بالموت أو الحياة [(٩)] .

---

(١) سـبق تفسير هـذا التعبير فى ص ٥٣ ، ج ١ . (٢) فداه : قال له : جعلت فداك .

(٣) استبطن الشيء : عرف باطنه وألم بكل أمره . والمراد هنا : عرف كل ما يتصـل بهذا الدرهم من فوائد ومزايا . وقد يريد الجاحظ باستبطنه : جعله ملاصقا لبطنه حرصا عليه وضنا به . ولكن الفعل الذى يستعمل فى هـذا المعنى (تبطن) . وفى نسخة الشنقيطى : «واستبطأه» ، أى رأى أن الدرهم تأخر فى الوصول إليه . (٤) تعرى : تخرج من الكيس ، كأن الكيس كان له كساء . و (تضحى) : تصيبك الشمس . (٥) وأنه الخ ، (أنه) معطوف على (أن رجلا الخ) . و (شهوة) : شىء يشتهونه . وفى بعض النسخ : فى سهوة بالسين . وفى نسخة ليدن : فى سهوه . ونظن أنهما تحريف . (٦) ذاهب ليشترى شيئا بالدرهم . وفى نسخة ليدن : (فبيناه) . ولعلها لغة ، أو لهجة كانت شائعة إذ ذاك . (٧) الحواء والحاوى : من يجمع الحيات . والمراد من يتخذ عرض الحيات على الناس سبيلا لرزقه . (٨) أتلف الخ ، استفهام محذوف الأداة وقوله : تبذل فيه النفس ، أى كما يصنع هذا الحواء من تعريض نفسه تخطر لدرهم يناله . و (فيه) : من أجله . (٩) فى النسخ : والحياة . ونحسبها محرفة .

فلما مات وظنّوا أنهم قد استراحوا منه، قدِم ابنه فاستولَى على ماله وداره. ثم قال: ما كان أُدْمُ أبى؟ فإنّ أكثرَ الفساد إنّما يكون فى الإدام. قالوا: كان يأْتَدِمُ[1] بجُبنة عنده. قال: أَرُونِيها. فإذا فيها حَزٌّ كالجدول، من أثر مسح اللقمة! قال: ما هذه الحفرةُ؟ قالوا: كان لا يقطعُ الجُبْنَ، وإنّما كان يمسح على ظهره فيحفرُ، كما ترى! قال: فبهذا أهلكنى، وبهذا أقعدنى هذا المَقْعَدَ[2]! لو علمتُ ذلك ما صلّيتُ عليه!

قالوا: فأنت كيف تريد أن تصنع؟ قال: أضعُها من بعيدٍ، فأشيرُ إليها باللُّقْمة[3]!

ولا يُعجبنى هذا الحرفُ الأخيرُ[4]، لأن الإفراطَ لا غايةَ له. وإنّما نحكى ما كان فى الناس، وما يجوزُ أن يكون فيهم مثلُه، أو حُجّةً أو طريقةً[5]. فأمّا مثلُ هذا الحرفِ فليس مما نذكره. وأمّا سائرُ[6] حديث هذا الرجل فإنّه من البابة[7].

* * *

قال ابن جُهانةَ الثَّقفيَّة[8]: عجبْتُ ممن يمنع النبيذَ طالِبَهُ، لأنّ النبيذَ إنما يُطلب ليوم فَصْد، أو يومِ حِجامة، أو يوم زيارة زائر، أو يوم أكل سمك طرىّ، أو يوم شَرْبة دواء. ولم نرَ أحدًا طلبه وعنده نبيذٌ. ولا ليدّخره ويحتكرَه، ولا ليبيعه ويعتقد[9] منه. وهو شىءٌ يَحسُن طلبُه، وتحسُن

(١) فى نسخة ليدن: (يتأدّم). ولا نعرفها. (٢) أى بإسرافه وسوء تدبيره، صيرنى إلى هذه الحال من الفقر! (٣) تشبه حكاية هذا الابن من بعض الوجوه، حكاية ابن خالد بن يزيد. انظر ص ٩٦، ٩٧ ج ١ (٤) يقصد بالحرف الخبر والحكاية. وهو يعنى قوله: (أضعها من بعيد الخ).

(٥) وإنما نحكى الخ. يقول: إنما نحكى فى هذا الكتاب ما كان، وما يمكن أن يقع من البخلاء، كما نحكى أيضا احتجاجاتهم لما يصدر عنهم، وطرقهم فيه. ويظهر أن الجاحظ اضطر إلى ذكر هذا (الحرف الأخير)، ليكمل به حكاية الرجل. ولذا عقب بقوله: ولا يعجبنى الخ. (٦) (سائر) هنا بمعنى بقية.

(٧) البابة: القبيل والنوع. وقد سبق تفسيرها فى ص ٨١، ج ١، أى من نوع ما نقصه من الأحاديث.

(٨) ضبط فى نسخة ليدن بضم الجيم. ولم نعثر على هذا الاسم فى مراجعنا. (٩) يعتقد: يقتنى ويجمع.

هِبتُه، ويحسُن موقعُه . وهو فى الأصل كثير رخيص، فما وجه منعه؟، ما يمنعه عندى إلّا مَنْ لاحظّ له فى أخلاق الكرام! وعلى أنّى لست أَوْجَلُ — بما أَهَبُ منه — على نبيذى النقصانَ[1]؛ لأنّى إذا احتجبْتُ عن نُدَمائى بقدْر ما أخرجتُ من نبيذى ، رجع إلىَّ نبيذى على حاله . وكنت قد تحمَّدتُ[2] بما لا يضرُّنى؛ فمن ترك التحمُّدَ بما لا يضُرُّه، كان من التحمُّد بما يضرُّه أبعدَ .

فذكَر ابنُ جُهانَةَ ماله من الكرم بهبة نبيذِه ، ولم يذكُرْ ما عليه من اللؤم[3] بحَجْبِ نُدَمائه .

* * *

قال الأَصْمعِىُّ[4] أو غيرُه : حَمَل بعضُ الناسِ مَدِينيا[5] على بِرْذَوْنٍ[6]، فأقامه على الآرِىِّ[7] . فانتبه من نومه، فوجده يعتلفُ . ثم نام فانتبه ، فوجده يعتلفُ . فصاح بغلامه: يابنَ أمٍّ! بِعْهُ، و إلّا فَهَبْه، و إلّا فَرُدّه، و إلّا فاذبحه! أنامُ ولا ينامُ! يذهب بحُرِّ مالى! ما أراد إلّا استئصالى !

* * *

قال أبو الحسن المدائنىُّ[8]: كان بالمدائن[9] تمّارٌ، وكان بخيلا . وكان غلامُه إذا دخل الحانوتَ يحتال[10]؛ فربما اختبس[11] . فاتّهمه بأكل التمر. فسأله يومًا فأنكر . فدعا بقطنةٍ بيضاءَ، ثم قال : امضُغْها . فمضغها . فلمّا أخرجها وجد فيها حلاوةً وصُفْرة ، قال : هـذا دأبُك كلّ يوم وأنا لا أعلم! اخرج من دارى !

---

(١) أى ولست أخاف على نبيذى النقصان بسبب ما أهب منه لأصحابى . ففى العبارة تقديم وتأخير .

(٢) تحمدت : امتننت، كما فى اللسان . (٣) اللؤم هنا : الشح ودناءة النفس . وقد تكون (اللؤم) محرفة عن (اللوم) . (٤) هو عبد الملك بن قريب (بضم ففتح فسكون) بن على بن أصمع الباهلى . راوية العرب، والعالم اللغوى الثقة، ذو التصانيف البارعة . ولد سنة ١٢٢، وتوفى سنة ٢١٦ هـ . وكان مولده ووفاته بالبصرة . قال الأخفش : ما رأيت أحدا أعلم بالشعر من الأصمعى . وكان الأصمعى يقول : أحفظ عشرة آلاف أرجوزة . وقد جلس الجاحظ إلى الأصمعى وسمع منه . وروى له فى (البيان والتبيين) شيئا كثيرا . (٥) حمله على برذون : وهبه له ليركبه . ويقصد بالمدينى رجلا من سكان المدن . (٦) البرذون : فرس ضخم الجسم والقوائم، غير عربى السلالة . (٧) ما يوضع فيه العلف لتأكله الدواب . وقد سبق تعريفه . (٨) سبق التعريف به فى ص ١٠٧، ج ١ (٩) المدائن : مدينة كسرى قرب بغداد، سميت لكبرها . قاموس .

(١٠) أى على سرقة التمر لأكله . (١١) دخل الحانوت فغاب فيه .

* * *

وكان عندنا رجلٌ من بنى أَسَد ، إذا صعِد ابنُ الأكّار(١) إلى نخلة له ليلقُط له رُطبا ، ملأ فاه ماء ، فسخِروا به ، وقالوا له : إنّه يشربُه ، ويأكُل شيئا على النخلة . فإذا أراد أن ينزل بالَ فى يده(٢) ، ثم أمسكه فى فيه! (والرطبُ أهونُ على أولاد الأكَرة ، وعلى أولادِ غيرِ الأكرة ، من أنْ يحْتَمِلَ فيه أحدٌ شَطْرَ هذا المكروهِ ولا بعضَه(٣)) . قال(٤) : فكان بعدَها يملأُ فاه من ماء أصفرَ أو أحمرَ أو أخضرَ ، لكى لا يقدِرَ على مِثْلِه فى رءوس النخل !

* * *

وحدّثنى المِصْرىُّ(٥) ، وكان جار الداردريشىّ(٦) ، ومالُه لا يُحْصَى . قال : فانتهرَ سائلا ذاتَ يوم وأنا عنده ، ثم وقف عليه آخرُ فانتهره ، إلّا أنّ ذلك بغيظ وحَنَق . قال : فأقبلتُ عليه فقلت له : ما أبغضَ إليك السؤّالَ ! قال : أجَلْ ، عامّةُ من تَرَى منهم أيسرُ منى . قال : فقلتُ : ما أظنُّك أبغضتَهم لهذا . قال : كلُّ هؤلاء لو قَدَروا على دارى لهدموها ، وعلى حياتى لنزعوها ! أنا لو طاوعتهم فأعطيتُهم كما سألونى كنتُ قد صرتُ مثلهم منذ زمانٍ ! فكيف تظنُّ بغضى يكون لمن أرادنى على هذا(٧) ؟

---

(١) الأكار : الزراع ، كما سبق . (٢) أى أمسك البول . (٣) العبارة التى بين قوسين تعقيب من الجاحظ ، يستبعد به صحة هذه الحكاية . فهو يقول : إن التمر كثير مبذول لأولاد الزراع وغيرهم . وهو أقل من أن يحتمل فى الحصول على قليل منه بعض هذا العنت . وشطر الشىء : نصفه . ولكن هذا المعنى غير مقصود كما رأيت . (٤) أى الراوى . (٥) لم يسبق لهذا الرجل ذكر فيما مر من هذا الكتاب . ولن يذكر فيما يأتى . ولم نقع له على خبر فى مراجعنا . (٦) هذا أيضا لم يذكر فى هذا الكتاب إلا هنا . وفى حاشية نسخة ليدن ما يفيد أنه فى نسخة هكذا : الداردر يشى (وضبطه بضم الدال وسكون الراء الثانية) . وكتبه بعضهم هكذا : الدزاز ريشى . (٧) أى لمن دفعونى إلى هذا البلاء العظيم ، وهو أن أصير مثلهم مستجديا .

وكان أخوه شريكَه فى كلّ شىء . وكان فى البخل مثلَه . فوضع أخوه فى يوم جُمُعةٍ بين أيدينا، ونحن على بابه، طبقَ رُطب يساوى بالبَصْرة دانِقَيْن[1] . فبينا نحن نأكل إذ جاء أخوه، فلم يسلِّم ولم يتكلّم، حتّى دخل الدارَ . فأنكرنا ذلك . وكان يُفرط فى إظهار البِشر[2]، و يجعـل البِشرَ وقايةً دون ماله . وكان يعلم أنّه إن جمع بين المنع والكِبْر قُتِل[3] .

قال : ولم نعرف علّته ، ولم يعرفها أخوه . فلمّا كان الجُمُعـةُ الأخرى ، دعا أيضا أخوه بطبق رُطب . فبينا نحن نأكل، إذ خرج من الدار ولم يسلِّم ولم يقف . فأنكرنا ذلك. ولم ندرِ أيضا ما قصّتُهُ . فلمّا أن كان فى الجُمُعة الثالثة، ورأى مثل ذلك، كتب إلى أخيه :

يا أخى ! كانت الشركة بيني و بينك حين لم يكثُر الوَلَدُ[4] ، ومع الكثرة يقع الاختـلافُ . ولست آمَنُ أن يخرج ولدى وولدُك إلى مكروه . وها هنا أموالٌ باسمى ولك شطرُها، وأموال باسمك ولى شطرُها ، وصامتٌ[5] فى منزلى، وصامت فى منزلك، لا نعرف فَضْلَ بعضِ ذلك على بعض . و إن طرَقنا أمرُ الله، ما ركَدتِ[6] الحرب بين هؤلاء الفِتْيَة، وطال الصخَبُ بين هؤلاء النسوةِ . فالرأى أن تتقدّم اليومَ فيما يحسِم منهم هذا السَّبب .

فلمّـا قرأ أخوه كتابه تعاظَمَهُ[7] ذلك وهاله ، وقلَّب الرأىَ ظهـرًا لبطن، فلم يَزِده التقليب إلّا جهلا . فجمع وَلَده وغلُظ عليهم، وقال: عسى أن يكونَ أحدٌ منكم قد أخطأ بكلمة واحدة، أو يكونَ هذا البلاءُ من جرائر[8] النساء .

---

(١) الدانق : سدس درهم، كما سبق . (٢) أى يبالغ فى إظهار السرور بالناس ، و يغرق فى حسن مقابلتهم .

(٣) قتل ، لما يثيره فى صدور الناس من الضغن عليه ، لكبره مع منع بره ومعونته . (٤) فى نسخة ليدن : تكثر . (٥) الصامت من المال : الذهب والفضة . (٦) الركود : الاستقرار والوقوف ، أى : ما وقفت الحرب وما انتهت . (٧) عظم عليه . ووجده شديدا على نفسه . (٨) جمع جريرة : ما يجره الانسان من ذنب ، فعيلة بمعنى مفعولة . كذا فى المصباح .

فلمّا عرَف براءَةَ ساحة القوم، تمشَّى إليـه حافيا راجلا . فقال : ما يدعوك إلى القسمة والتميـيز ؟ أدْعُ صُلَحاءَ أهلِ المسجد الساعةَ ، حتى أُشهدَهم بأنّى وكيل لك فى هذه الضِّياع ، وحوِّل كلَّ شيء فى منزلى إلى منزلك . وجرِّب ذلك منّى الساعةَ . فإن وجدتَنى أرُوغ وأعتلُّ فَدُونَك — فخاجتى الآن أن تخـبرَنى بذنبى [1] . قال : مالك من ذنب . وما من القسمة من بدّ . فأقام عنـده يُناشده إلى نصف النهار [2] . ثم أقام يومَه ذلك إلى نصف الليـل يُناشدُه، ٥ ويطابُ إليه [3] .

فلمّـا طال عليـه الأمر . وبلغ منه الجَهْـدَ . قال له : حدّثنى عن وضـعك أطباق الرُّطب، وبسْـطِك الحُصُرَ [4] فى السِّكك، وإحضارِك المـاءَ الباردَ، وجمعـك الناسَ على بابى فى كل جُمُعـة ! كأنّك ظننتَ أنّا كنّا عن هذه المَكْرُمة عُمْيا ! إنّك إذا أطعمتَهم اليومَ البَرْنِىَّ [5]، ١٠ أطعمتَهم غدًا السُّكَّرَ [6]، وبعد غد الهِلْبَاثَ [7] . ثم يصيرُ ذلك بعد أيّام الجُمَع، فى سائر أيّام الأسبوع . ثم يتحوّل [8] الرطب إلى الغَداء، ثم يؤدّى الغَداءُ إلى العَشاء . ثم تصير إلى الكِساء، ثم الأَجْداء [9]،

(١) أى إن رأيت أنى أحيد عن النزول لك عما أملك ، أو أتكلف العلل للرجوع عن ذلك ، فدونك ما تريد : أى فاشرع في عزمت عليه من القسمة ، وتخصيص كل منا بنصيبه . (٢) فى الأساس : وناشدتك الله ... أى سألتك به . وفى اللسان : وناشـدتك الله وبالله : أى سألتك وأقسمت عليك . (٣) ويطلب إليه : ١٥ أى العدول عما اعتزمه من القسمة والتميز . (٤) الحصر : جمع حصير ، كبريد وبرد . وتأنيث الحصير بالتاء عامى . (٥) البرنى : نوع من أجود التمر . ونقل السهيلى أنه أعجمى ، ومعناه : حمل مبارك . قال : بر : حمل ، ونى : جيد . وأدخلته العرب فى كلامها وتكلمت به . (٦) نوع من الرطب الجيد الطيب الشديد الحلاوة .
(٧) الهلباث بالكسر : ضرب من التمر ، عن أبى حنيفة . قال : أخبرنى شيخ من أهل البصرة فقال : لا يحمل شىء من تمر البصرة إلى السلطان إلا الهلباث . كذا فى اللسان . وفى النسخ : الهلياثا . (٨) وفى نسخة ليدن : ٢٠ تحول . وهو صحيح أيضا . (٩) ثم تصير الخ ، التفت إلى خطاب أخيه . وقوله : الى الكساء ، أى إلى أن تعطيهم الأكسية . والأجداء : كأنه جمع جدى . والمعروف من المعجمات أنه لم يسمع فى جمعه إلا أجد (بفتح فسكون) وجداء وجديان (بكسر الجيم فيهما) .

ثم الحُمْلانِ(١)، ثم اصطناع الصنائع(٢)! والله إنّى لَأَرْثِى لبيوت الأموال وخَراج المملكة من هـذا، فكيف بمال تاجر جَمَعه من الحَبّات والقراريط والدّوانيق(٣)، والأرباع والأنصاف؟

قال: جُعِلْتُ فِداك! تريد ألّا آكُلَ رُطَبَةً أبدًا، فضلًا على غير ذلك(٤)؟ وأخرى، فلا والله لا كلّمتهم أبدا! قال: إيّاك أن تُخطئَ مرّتين: مَرَّةً فى إطعامهم فيك، ومرّة فى اكتساب عَداوتهم. أُخرُج من هذا الأمر على حساب ما دخلتَ فيه(٥)، وتَسَلَّمْ تَسلَمْ(٦). ٥

* * *

كان أبو الهُذَيْل(٧) أهدَى إلى مُوَيْسٍ(٨) دَجاجةً. وكانت دَجاجتُه التى أهداها دون ما كان يُتّخَـذُ لمويس. ولكنّه بكرمه و بحسن خُلُقه أظهر التعجّبَ من سِمَنها وطيبِ لحمها. وكان(٩) يُعْرَفُ بالإمساك الشديد. فقال: وكيف رأيت يا أباعمران تلك الدّجاجة؟ قال: كانت عَجَبًا من العَجَب! فيقول: وتدرى ما جنسُها؟ وتدرى ما سنُّها؟ فإنّ الدجاجَة إنّما تطيبُ ١٠ بالجنس والسنّ. وتدرى بأىّ شىء كنا نسمّنها؟ — فلا يزال فى هذا، والآخَرُ يضحك ضحكا نعرفه نحن، ولا يعرفه أبو الهذيل.

وكان أبو الهذيل أسلمَ النـاسِ صدرًا، وأوسعَهم خُلُقا، وأسهلَهم سُهُولة. فإن ذكروا دَجاجةً، قال: أيْنَ كانت يا أبَا عِمرانَ من تلك الدّجاجةِ؟ فإن ذكروا بطّةً أو عَناقا(١٠) أو جَزُورا(١١)

(١) جمع حمل (بفتحتين)، وهو الصـغير من أولاد الضأن. (٢) جمع صنيعة: ما اصطنعته من خير ١٥ أو معروف، كالعطاء أو الهبة أو نحوهما. (٣) سبق تعريف كل هذا. (٤) كان مقتضى الظاهر أن يقول: فضـلا عن غير ذلك. وقد تقدم مثل هذا التعقيب فى هذا التركيب. على أننا لا نرى فى اللغة ما يمنع من هذا التعبير.

(٥) اخرج الخ، يقول: اخرج من هذه الورطة على النظام والتقدير الذى دخلت به فيها. فتخلص منهم بالتدريج، بحيث لا يحسون أنك مللت إكرامهم. (٦) أى انقد واخضع لنصيحتى تسلم. ولو كان النص: وتسلل، لكان أظهر. وفى نسخة ليدن: وتسلم بسلام. (٧) هو أبو الهذيل العلاف. وقد سبق التعريف به فى ص ١١٩، ج ١ ٢٠

(٨) مويس بن عمران. (٩) وكان: أى أبو الهذيل. وفى نسخة ليدن: وكان يعرفه بالإمساك الشديد. فالضمير فى (كان) على هذا يرجع إلى مويس. (١٠) العناق: الأنثى من أولاد المعز، جمعه أعنق وعنوق.

(١١) الجزور: البعير، أو خاص بالناقة المجزورة. جمعه: جزائر وجزر وجزرات (بضمتين فيهما).

أو بقرة، قال : فأين كانت هذه الجَزورُ فى الجُزُر، من تلك الدّجاجة فى الدجاج؟ و إن استسمن أبو الهذيل شيئا من الطير والبهائم، قال : لا والله، ولا تلك الدّجاجة![1] و إن ذكروا عُذوبة الشحم، قال : عُذوبةُ الشحم فى البقر والبطّ و بطونِ السمك والدّجاج، ولا سيّما ذلك الجنسُ من الدّجاج . و إن ذكروا ميلاد شيء أو قدومَ إنسان، قال : كان ذلك بعد أن أهديتُها لك بسنة، وما كان بين قدوم فلان وبين البَعْثة[2] بتلك الدّجاجة إلّا يومٌ .

وكانت مَثَلا فى كلّ شىء، وتاريخا فى كلّ شىء !

وأقبل مرّة على محمد بن الجَهْم[3]، وأنا وأصحابُنا عنده، فقال : إنّى رجل منخرق الكفّين، لا أُلِيق[4] شيئًا . و يدى هذه صَناعٌ[5] فى الكسب، ولكنّها فى الإنفاق خرقاء ! كم تظنُّ من مائة ألفِ درهم قسَمْتُها[6] على الإخوان فى مجلسٍ؟ أبو عثمانَ يعلمُ ذلك ! أسألُك بالله يا أبا عثمانَ هل تعلمُ ذلك؟ فقلت : يا أبا الهُذيل، ما نشكُّ فيما تقول — فلم يرض باحتضارى[7] هذا الكلامَ حتى استشهدنى، ولم يرض باستشهادى حتى استحلفنى .

* * *

وكان أبو سعيد المَدائنىُّ[8] إماماً فى البخل عندنا بالبَصْرة، وكان من كِبار المُعْتَنِين ومياسيرهم . وكان شديدَ العقل، شديدَ العارضة[9]، حاضرَ الحجّة، بعيد الرّويّة .

(١) لعلها كانت فى الأصل : ولا كتلك الدجاجة . على أنه يمكن تخريجها . (٢) أى إرسالها إليك .

(٣) من أصحاب الجاحظ . روى له كثيرا فى (البيان والتبيين) . وهو محمد بن الجهم البرلكى . كان علامة أديبا راوية للأشعار . وكان فى خاصة المأمون . وقد ولاه جهات كثيرة . (٤) يقال : فلان ما يليق درهما من جوده : أى ما يمسكه . (٥) سبق تفسير (صناع) و (خرقاء) فى ص ٤١، ج ١ (٦) كم هنا استفهامية، وتمييزها محذوف، وتقدير الكلام : كم مقدارا مؤلفا من مائة ألف درهم قسمتها على الاخوان فى مجلس واحد، فيما تظن؟

(٧) أى بحضورى وسماعى هذا الكلام، والسكوت عن تكذيبه . وفى نسخة ليدن : باحضارى . وهو تحريف .

(٨) هو أبو سعيد المدائنى القاص . وقد سبق أن أشير إليه فى قصة خالد بن يزيد فى ج ١ . وسيأتى له حديث عجب فيما يلى من هذا الجزء . (٩) العارضة هنا : البديهة .

وكنت أتعجّبُ من تفسير أصحابنا لقول العرب فى لُؤْمِ اللئيم الراضع :

قال أصحابنا : كلُّ لئيم بخيلٌ، وليس كلُّ بخيل لئيما؛ لأنّ اسمَ اللئيم يقع على البخل، وعلى قلّة الشكر، وعلى مَهانة النفس، وعلى أنّ له فى ذلك عِرْقا متقدّما [(١)] .

قال أبو زَيْد [(٢)] : هو لئيم ومَلْأَم [(٣)] . فاللئيم ما فسّرتُ، والمَلْأَمُ الذى يقوم بعـذر اللئيم .

فأمّا اللئيمُ الراضعُ، فالذى لا يحلُب فى الإناء، ويرضَعُ الخِلْفَ [(٤)] ، مخافةَ أن يضيعَ من اللبن شىءٌ . ٥

قال ثَوب بنُ شَحْمَةَ العَنْبَرِىُّ [(٥)] فى امرأته الهَمْدانيّة :

وحديث لا مجـةَ [(٦)] التى حدّثتنى تدعُ الإناءَ تَشَـرُّبًا للقـادِمِ

القادمان : الخِلْفان المقدّمان .

فلمّا بلغه ذلك عنها طلّقها . فلمّـا طلّقها [(٧)] قيل له : إنّ البخلَ إنّمـا يَعيبُ الرجالَ، ومتى سمعْتَ بامرأة هُجِيَتْ فى البخل [(٨)] ؟ قال . ليس ذلك بِى [(٩)] . أخاف أن تَلِدَ لى مثلَها . ١٠

قال رافع بنُ هُرَيْم [(١٠)] :

... ... تحلُبُ قاعـدًا وتَلْمُجُ أحيـانا وقَعْبُك [(١١)] حاضِرُ

---

(١) أصلا قديما ووراثة متأصلة . (٢) سبق التعريف به فى ص ١٤٠، ج ١ (٣) يذب عنه، ويدفع عنه الذم . (٤) حلمة ضرع الناقة، ومنه تحلب . وقيل : هو الضرع نفسه . وقال اللحيانى : الخلف فى الخف والظلف . (٥) فى القاموس وشرحه : ثوب بن شحمة التميمى . وكان يلقب مجير الطير . وهو الذى أسر حاتم طيْ، زعموا اهـ . وإنما لقب مجير الطير، لأنه كان يضع سهمه فى الأرض، فلا يصاد من تلك الأرض شىء . وفى (المشتبه فى أسماء الرجال) للذهبى : ثوب بن سحمة . (بسين مهملة مضمومة لحاء ساكنة) . وفى (المؤتلف والمختلف) للآمدى : ثوب بن صحمة بن المنذر اهـ . والهمدانية : نسبة إلى همدان : قبيلة باليمن . (٦) اللامجة : التى تتناول الطعام بأدنى الفم . والمراد : التى تمتص اللبن من الخلف بشفتيها . والفعل من باب نصر . وكان مقتضى الظاهر أن يقول : اللامجة . ولكنه أخرج الصفة مخرج العلم . بجردها من التعريف، ومنعها من الصرف . هذا ما فهمناه . (٧) فى سياق العبارة شىء من الاضطراب، لأنه لم يهجها بالبيت السابق قبل أن يبلغه ما تفعل من امتصاص خلف الناقة، حتى لا يضيع من اللبن شىء . واستقامة العبارة أن يقال : وقد بلغه ذلك عنها فطلقها وهجاها . (٨) فى البخل : بسبب البخل . (٩) أى لا أخاف ذلك على نفسى . (١٠) هو رافع بن هريم بن سعد اليربوعى . شاعر قديم . قال أبو زيد فى نوادره : أدرك الإسلام . (١١) القعب : القدح الكبير . وكانوا يحلبون فيه عادة . ١٥ ٢٠

يدعو الله عليه أن يجعلَه صاحبَ شاءٍ[١]، ولا يجعلَه صاحبَ إبل، وأن يرتضع من الخِلْف، وإنْ كان معه إناء. والعربىّ يُمارِى (على)[٢] صاحبه فيقول: إنْ كنتَ كاذبا، فاحتلبتَ قاعدا: أى أبدلك الله بكرمِ الإبلِ لؤمَ الغنم.

فكيف يُتَعَجَّبُ من لؤم الراضع، وصنعُ[٣] أبو سعيد المدائنىُّ أعظمَ من ذلك؟ اصْطَبَغ[٤] من دَنِّ خَلٍّ، وهو قائم حتى فَنِىَ[٥]، ولم يُخرِج منه قليلًا ولا كثيرًا.

وكانت له حَلْقةٌ يقعد فيها أصحابُ الغُنْية والبخلاءُ الذين يتذاكرون الإصلاحَ[٦]. فبلغهم أن أبا سعيد يأتى الحَرْبيّة[٧] فى كلّ يوم، ليقتضىَ رجلا هناك خمسةَ دراهمَ فضلَت عليه، وقالوا: هذا خطأ عظيم، وتضييع كثير. وإنّما الحزمُ أن يتشدّد فى غير تضييع. وصاحبُنا هذا قد رجَع على نفسه بضروب من البَلاء.

فاجتمعوا عليه على طريق التفرّغ له، والاستفادة منه[٨]. قالوا: نراك تصنعُ شيئا لا نعرفه، والخطأ منك أعظمُ منه من غيرك. قد أشكل علينا هذا الأمرُ، فأخبِرْنا عنه؛ فقد ضاقت صدورُنا به: خبِّرنا عن مُضِيِّك إلى الحربيّة، لتقتضى خمسة دراهم. فواحدةٌ[٩]:

(١) جمع شاة. أصله شاه. قاموس. (٢) هكذا فى النسخ. ونرجح أن (على) هنا فى غير موضعها. ويمارى صاحبه: يجادله ويلاجه (بتشديد الجيم)، من اللجاج، وهو تماحك الخصمين، أى تماديهما.

(٣) هذا الكلام متصل بقوله آنفا: وكنت أتعجب من تفسير أصحابنا لقول العرب الخ. أى فكيف يتعجب من لؤم الراضع، مع أن أبا سعيد فعل ما هو أعجب منه. والمبرد والفارسى يوجبان الواو وقد فى مثل هذا التعبير، ويحتمان أن يقال: وقد صنع أبو سعيد الخ، لأنها جملة حالية ماضوية مثبتة. ويرى أبو حيان جواز وقوعها من غير قد، لكثرة ورود ذلك: قال تعالى: (هذه بضاعتنا ردت إلينا). ويرى أن الكثير المسموع من ذلك حذف الواو وقد. ويصح أن تكون الواو للحال، وصنع مصدر صنع مبتدأ مرفوع، وأبو سعيد مضاف إليه، وبقيت الواو فى (أبو) لحكاية الوضع الأول. وهذا جائز، وكثيرا ما يستعمله الجاحظ. (٤) ايتدم. وفى (عيون الأخبار): ارتضع.

(٥) أى لئلا يضيع منه شىء فى الآنية أو غيرها. (٦) أى طرق البخل. (٧) الحربية: محلة ببغداد، بناها عبد الله الراوندى قائد المنصور، كما سبق. (٨) أى لغرض التفرغ له، ودراسة موضوعه والاستفادة منه. (٩) هى بمنزلة: (فأولا).

أنّا لا نأمَن عليك انتقاضَ بدنك[1]. وقد خلا ما خلا من سِنّك، وأن تعتلّ. فتدعَ التّقاضِىَ الكثير بسبب القليــل . وثانيةٌ : أنّك إن تَنْصَب هذا النَّصَبَ ، فلا بدّ لك من أن تزداد فى العَشاء إن كنتَ ممن يتعشّى ، أو تتعشّى إن كنتَ ممن لا يتعشّى . وهذا إذا اجتمع كان أكثرَ من خمسةِ دراهم .

وبعــدُ ، فإنّك تحتاجُ أن تشُقّ وسَط الســوق وعليك ثيابُك، والحَمُولة[2] تستقبلك . فمن هاهنا نَتْرةٌ[3]، ومن هاهنا جَذْبةٌ[4]، فإذا الثوبُ قد أودَى . ومن ذلك أنّ نعلك تنقَبُ وترِقّ، وساقَ سراويلك تتّسخُ وتَبْلَى، ولعلّك أن تعثُرَ فى نعلك فتقدّها قدّا، ولعلّك أن تَهرِتَها[5] هَرْتا .

وبعدُ ، فاقتضاءُ[6] القليل أدْلَى بك إلى هذا [لو] بلغت منه شيئا . وإنّك أفضل، إلّا أنّا نحبُّ أنك تُجلِّى[7] عن الأمر بشىء، فليس كلُّنا يثقُ لك بالصوابِ فى كلّ شىء .

قال أبو سعيد : أمّا ما ذكرتم من انتقاض البدن، فإنّ الذى أخافُ على بدنى من الدّعة ومن قلّة الحركة أكثرُ . وما رأيتُ أصحّ أبدانا من الحمّالين والطوّافين[8] . والقومُ قَبلى إن يموتوا[9]، لم يكن لهم تلك عادةً[10] . أوَلَيْسَ يقول الناس : واللهِ لَفلانٌ أصحُّ من الجَلاوِزة[11]؟ (يعنى اختلافَ

---

(١) اضمحلاله وضعفه . (٢) ما يحمل عليه الأثقال من بعير وحمار ونحوهما . والمراد هنا الدواب المحملة .
(٣) الجذبة بجفاء . (٤) نقب الخف (كفرح) : تخرّق . (٥) الهرت هنا : التمزيق . وفعله من بابى نصر وضرب . (٦) أى إن سعيك فى المطالبة بالدراهم الخمســة هوى بك إلى جميع المضار التى ذكرناها ، ولو حصلت على شىء مما تطالب به . ونحن نعتقــد أنك أفضل منا رأيا . إلا أنا الخ . وأصــل العبارة فى النسخ : «وبعــد فاقتضاء القليل أولى بك إلى هذا بلغت منه شيئا» . وهى غير مستقيمة كما ترى . (فأولى) محرفة عن (أدلى)، كما هو ظاهر . وقد وضعنا (لو)، لأن المعنى عليها . (٧) هكذا فى بعض النسخ . وفى نسخة ليدن : تحكى . وفى اللسان : وجلا الأمر وجلاه (بتشديد اللام) وجلى عنه : كشفه وأظهره . (٨) يريد بالطوافين العسس، لأنهم يطوفون طول الليل لحراسة . (٩) والقوم الخ، أى ومن كانوا قبلى . إن يموتوا : أى إن كان قد أسرع إليهم الموت . لم يكن لهم الخ : أى فذلك لأنهم لم تكن كثرة الحركة عادة لهم . (١٠) جمع جلواز، بالكسر، وهو الشرطى . (١١) يعنى اختلاف الخ، أى بسبب اختلاف الخ . والاختلاف : تكرار الحركة مقبلين ومدبرين .

الجلاوزة في العَدْو)[١] . ولربما أقمتُ في المنزل لبعض الأمر، فأُكْثِرُ الصعودَ والنزولَ، خوفا من قلّة الحركة .

وأمّا التشاغلُ بالبعيد عن القريب، فإنّي لا أعرِضُ للبعيد، حتى أفْرُغَ من القريب .

وأمّا ما ذكرتم من الزيادة في الطعام[٢] ، فقد أيْقَنَتْ نفسى ، واطمأنّ قلبي ، على أنّه ليس لنفسى عندى إلّا ما لها ، وأنها إنْ حاسبتنى أيّامَ النَّصَب ، حاسبتُها أيّامَ الراحة ، فستعلمُ حينئذ أينَ أيّامُ الحربيّة من أيّام ثَقيف[٣] ؟

وأمّا ما ذكرتم من تَلَقِّ الحُمُولة ، ومن مزاحمة أهل السوق ، ومن النَّتْرِ والجَذب ، فأنا أقطعُ عَرْضَ السوق[٤] من قبلِ أن يقومَ أهلُ السوق لصلاتهم ، ثم يكونُ رجوعى على ظَهْرِ السوق .

وأمّا ما ذكرتم من شأن النعل والسراويل ، فإنّي من لَدُنْ خروجى من منزلى ، إلى أن أقْرُبَ من باب صاحبي ، فإنّما نعلى في يدى وسراويلى في كُمّى ! فإذا صرتُ إليه لبستُهما ! فإذا فَصَلْتُ[٥] من عنده خلعتُهما ! فهما في ذلك اليوم أوْدَعُ[٦] أبداننا ، وأحسنُ حالا !

بقى الآنَ لكم ممّا ذكرتم شيء ؟ قالوا : لا ، قال : فهاهنا واحدةٌ تفي بجميع ما ذكرتم . قالوا : وما هى ؟ قال : إذا علِم القريبُ الدارِ ، ومَنْ لى عليه ألوفُ الدنانير ، شدّةَ طالبتى للبعيد الدارِ ، ومَنْ ليس لى عليه إلّا الفلوسُ ، أتى بحقّ ، ولم يُطْمِع نفسَه في مالى ، وهذا تدبيرٌ

---

(١) في نسخة ليدن : (العدوى) ، وضبطت بضم فسكون ، وهو تحريف . (٢) في نسخة : (الطعم) بضم فسكون ، وهو الطعام . (٣) ثقيف : قبيلة من هوازن ، وقد كانت منازلها بالطائف ، على نحو اثنى عشر فرسخا من مكة ، وأيام ثقيف كانت أيام دعة وراحة له ، وإن مشقة أيام الحربية إذا وزنت بدعة أيام ثقيف كان جانب الدعة أرجح . (٤) أى من طريق إلى خلف السوق ، ليس به زحام . (٥) فصل من البلد فصولا : خرج . (٦) أودع أبداننا : أعظم راحة وأسكن ، من ودع الشيء يدع (بفتح الدال فيهما) : سكن .

يجمع لى إلى رجوع مالى طولَ راحة بدنى (١) . ثم أنا بالخيار فى ترك الراحة ؛ لأنى أَقْسِمُها على الأشغال حينئذ كيف شئتُ (٢) . وأخرى ، أنّ هذا القليلَ (٣) لو لم يكن فضلةً من كثير ، ومُوصَّلا بدَيْن لى مشهورٍ (٤) ، لجاز أن أتجافَى عنه . فأمّا أنْ أدعَ شيئا يُطْمِع فى فُضولِ (٥) ما يبقَ على الغُرماء ، فهذا ما لا يجوز .

فقاموا وقالوا بأجمعهم : لا والله ، لا سألناك عن مشكلة !

حدّثنى أحمدُ المكّىُّ ، أخو محمدٍ المكىّ — وكان متّصــلا بأبى سعيد — (نَسيتُ القُنْيَة ، ونَسيتُ صنعةَ المــال ، لأعاجيب أبى سعيد وحديثِه (٦)) ، قال أحمدُ : قلت له مرّةً : واللهِ إنّك لكثيرُ المــال ، وإنّك لتعرِف ما نجهلُ ، وإنّ قميصَك وَسِخٌ ، فلِمَ لا تأمُر بغسله ؟

قال : فلو كنتُ قليلَ المــال ، وأجهلُ ما تعرف ، كيف كان قولُك لى (٧) ؟ إنّى قد فكّرتُ فى هــذا منذُ ستّةِ أشهر ، فمــا وضَح لِى بعدُ وجهُ الأمر فيه . أقول مرّةً : الثوبُ إذا اتّسخ أكلَ البدَنَ ، كما يأكلُ الصدأ الحديدَ ، والثوبُ إذا ترادَفَه (٨) العرقُ وجَفَّ ، وتراكم عليه الوسَخُ ولَبِدَ (٩) ، أكلَ السِّلْكُ (١٠) ، وأحْرقَ الغزْل . هذا مع نَتْن ريحه ، وقُبح منظَره .

---

(١) أى إذا سارع المدينون إلى أداء الدين لى بفضــل هذا التــدبير ، عاد إلىّ مالى ، وطالت راحة جسمى بسبب عدم السعى للطالبــة .

(٢) أى إذا رجعت إلىّ أموالى وتمتعت بالراحة ، أخذت فى تقسيمها على الأشغال بالمقــدار الذى أريده : فبعضها يكون مقدار الراحة فيه كثيرا ، وبعضها يكون مقــدارها فيه قليلا .

(٣) الدين القليل .

(٤) معروف لجميع المدينين لى .

(٥) جمع فضل ، وهو البقية .

(٦) نسيت الخ ، وضعنا هذه العبارة بين قوسين ؛ لأنها من كلام الجاحظ . فهو يقول : إن أحاديث أبى سعيد العجيبة قد أنستنى ، لفرط غرابتها ، الكلام فى صنعة المــال وطرق اقتنائه . والقنية (بضم فسكون ، أو بكسر فسكون) : اقتناء المــال وكسبه . وفى نسخة ليدن : الغنية ، وهو تحريف .

(٧) أى إنك تجبهنى بسؤالك ، مع علمك بغناى وسعة معرفتى . فكيف كنت تصنع لو كنت فقيرا قليل المعرفة ؟

(٨) تتابع عليه وتوالى . والذى يفهم من كتب اللغة التى بين أيدينا أن (ترادف) لازم ، ففى اللسان : وترادف الشىء : تبع بعضه بعضا . وفى الأساس أمثلة متنوعة له . فإما أن يكون هنا مضمنا معنى فعل متعد ، وإما أن يكون الجاحظ قد عرف فيه التعدى .

(٩) لبــد (من باب تعب) : لصق .

(١٠) السلكة (بالكسر) : الخيط يخاط به ، وجمعه سلك ، وجمع الجمع أسلاك وسلوك .

وبعدُ، فإنّى رجل آتى أبوابَ الغُرَماء، وغِلْمانُ غرمائى جبابرةٌ . فما ظنُّكَ بهم إذا رَأَوْنى فى أَطْمارٍ وسِخةٍ[1]، وأسْمالٍ دَرِنة[2]، وحالِ حدّادٍ ؟ جَبَهوا مرّةً[3]، وحَجَبوا مرّة، فيرجعُ ذلك علينا بمَضَرّة . من إصلاح المال أنْ يُنفَى عنه كلُّ ما أعان على حبْسه[4]، مع ما يَدْخُل من الغيظ، ويَلْقَى مَنْ كان كذلك من المكروه[5] .

٥ فإذا اجتمعتْ هذه الخواطر هَمَمْتُ بغسلها، فإذا هممتُ به، عارضنى مُعارِضٌ[6] يُوهمنى أنه أتانى من جهة الحزم، ومن قِبَل العقل، فقال : أوّلُ ذلك الغُرْمُ الذى يكون، فى الماء والصابون . والجاريةُ إذا ازدادت عناء، ازدادت أَكْلا[7] . والصابونُ نُورةٌ[8]، والنُّورةُ تأكل الثوب . وإن انحَزَق[9]، لا يزال الثوب على خطر، حتى يُسْلَم إلى العَصْر والدّق . ثم إذا أُلْقِيَ على الرَّسَن[10]، فهو بِعَرَض[11] الجَذْبَة والنَّتْرَة والعَلَق[12] .

١٠ ولا بُدّ من الجلوس يومئذ فى البيت . ومتى جلستُ فى البيت، فتحوا علينا أبوابا من النفقة، وأبوابا من الشهوات . والثيابُ لا بدَّ لها من دَقّ . فإن نحن دققناها فى المنزل

(١) الأسمال : جمع سَمَل (بالتحريك)، وهو الثوب البالى، كالأطمار . ودرنة : وسخة . (٢) أى وحال تشبه حال حدّاد، فى اتساخ الملابس وتمزقها . (٣) جبهوا الخ، جواب شرط محذوف . أى : إذا رأونى فى أطمار وسخة ... جبهوا الخ . (٤) يقول : إن من أسباب تنمية المال أن يجتنب كل ما يساعد على احتباسه

١٥ فى أيدى الغرماء . أى ومن ذلك الأطمار الوسخة الخ . (٥) مع ما يدخل الخ، كأنّ هذه العبارة مؤخرة من تقديم، إذ موضعها فى الحقيقة بعد قوله : بمضرة . و(من الغيظ) . أى بسبب الجبه، وهو الردّ والتحقير، وبسبب الحجب عن لقاء المدين، ثم حبس المال وتعطيله . (٦) عارضنى معارض : أى من الفكر والرأى . (٧) زيادة العناء بسبب تكليفها غسل الثياب . (٨) النورة : أخلاط من حجر الكلس وغيره، تستعمل لإزالة الشعر، وفى صناعة الصابون . (٩) الحزق : الضغط والشدّ . والمعنى : وإن انحزق الثوب، أى ضغط

٢٠ وشدّ فى أثناء الغسل، فإنه بعد ذلك يصير إلى أخطار أخرى : هى العصر والدق الخ . (١٠) الرسن : الحبل . والمراد الحبل الذى تجفف عليه الثياب . (١١) العرض : الآفة تعرض فى الشىء، كما فى اللسان . فقوله : فهو بعرض الجذبة الخ، أى فى آفة هى ما يتعرض له من الجذبة الخ . فالباء بمعنى (فى)، والإضافة بيانية .
(١٢) العلق : الخرق يصيب الثوب من شىء علق به .

قطّعناها . وإن نحن أسلمناها إلى القصّار(١) ، فَغُرْمٌ على غُرْم . وعلى أنّه ربّما أنزل بها من المكروه ما هو أشدّ(٢) . وما جلستُ فى المنزل قطّ إلّا أُرجِفَ بى الغرماء(٣) ، وادّعَوْا علىّ الأمراضَ والأحداثَ . وفى ذلك لهم فسادٌ والتواء ، وطمع لم يكن عندهم(٤) .

فإذا أنا لبستُها ، وقد ابيضّتْ وحسُنت وخفّت وطابت ، تبيّنتُ عند ذلك وَسَخَ جَسَدِى ، وكثرةَ شَعَرى(٥) ، وقد كان بعضُ ذلك موصولًا ببعض ، فعرفته ، فاستبان لى ما لم يكن يستبين ، وا كترثت لما لم أكن اكترثتُ له ؛ فيصيرُ ذلك مَدْعاةً إلى دخول الحمّام . فإن دَخَلْتُه فَغُرْمٌ ثقيلٌ ، مع المخاطرة بالثياب(٦) . ولى امرأة جميلة شابّة . فإذا رأتنى قد اطّليْتُ(٧) وغسلتُ رأسى وبيّضت ثوبى ، عارضتنى بالتطيّب ، وتلبس أحسنَ ثيابها !

مع أمور كثيرة ، نسى بعضها أحمد ، وبعضَها أنا .

وكان أبو سعيد هذا مع بخله أشدَّ الناس نفسًا ، وأحماهم أنفًا(٨) . بلغ من أمره فى ذلك ، ومن بلوغه فيه(٩) ، أنّه أتى رجلا من ثقيف يقتضيه ألفَ دينار ، وقد حلّ عليه المالُ . فكان ربّما أطال عنده الجلوسَ . ويحضُرُ عنده الغَداءُ ، فيتغدّى معه . وهو فى ذلك يقتضيه .

فلما طال عليه المَطْل ، قال له يوما ، وهو على خِوانه : إنّ لهذا المال زكاةً مؤدّاةً ، وقد علمنا [أنّا](١٠) حين أخرجنا هذا المالَ من أيدينا أنّه معرَّض للذهاب ، وللمنازعة الطويلة ، ولأن يقع

---

(١) القصار : مبيض الثياب . (٢) أى أشدّ مما يصيبها من التقطيع لو غسلت فى المنزل . (٣) أرجف القوم فى الشىء وبه : أكثروا من الأقوال السيئة . (٤) أى وفى بقائى بالمنزل فساد للغرماء بسبب تثاقلهم عن أداء الدين وطمعهم فى مالى . (٥) أى كان اتساخ ثيابى متفقا مع اتساخ جسمى . وإذا غسلت ثيابى تجلى وسخ جسمى ، وزادت بشاعته . (٦) يظهر أن الثياب كانت تسرق كثيرا فى الحمامات . (٧) أى بالنورة لإزالة شعرى . (٨) أشدّ الناس الخ ، أعظمهم أنفة ، وأبعدهم من احتمال الذل . (٩) البلوغ هنا معناه الوصول إلى الغاية البعيدة . (١٠) كان الأولى حذف "أنا" حتى يستقيم الكلام .

فى الميراث . ثم رضينا منك بالربح اليسير[١]، بالذى ظننّاه بك من حسن القضاء[٢] . ولولا ذلك لم نرض بهذا المال[٣] . وهذا المالُ إذا كان شرطُه أن يرجع بعد سنة، فرفّهتُ[٤] عنك بحسن المطالبة شهرًا أو شهرين، ثم مكث عندى إلى أن أَصبتُ له مثلَك[٥]، شهرًا أو شهرين، يُحقّ فضْلُه[٦]، وخرج علينا فضلٌ . ومثلُك يكتفى بالقليل[٧] . وقد طال اقتضائى، وطال تغافُلك .

٥ يقولُ هذا الكلامَ، وهو فى ذلك لا يقطع الأكلَ — فأقبل عليه رجل من ثَقِيف، فعرّض له بأنّه لو أراد التقاضىَ مَحْضًا، لكان ذلك فى المسجد، ولم يكن فى الموضع الذى يحضُر فيه الغَداء . فقطع الأكلَ، ثم نزا[٨] فى وجهه الدم، ونظر إليه نظرَ الجمل الصَّئُول، ثم كاد يطير[٩] !

ثم أقبل عليه فقال : لا أمَّ لك! أنا إنّما اصطبغتُ من دَنِّ خَلٍّ حتى فَنِىَ، من حسن العقل[١٠] . وأحببتُ الغِنَى، بفضل بُغْضِى للفقر، وأبغضْتُ الفقرَ، بفضل أَنَفَتى من احتمال الذلّ .

١٠ تُعرِّض لى — لا أمّ لك! — بأنّى أرغب فى غَدائه؟ . والله ما أكلتُ معه إلّا ليَستَحْيِيَ من حُرْمة المؤاكلة، وليصيرَ كرمُه سببًا لتعجيل الحاجة[١١] .

ثم نهض بالصَّك وعليه طِينتُه[١٢] . فاعترض بها الحائطَ حتّى كسرها . ثمّ تفل فى الكتاب، وحكّ بعضه ببعض . ثمّ مزّقه ورمَى به . ثمّ قال لكلّ من شهِد المجلسَ : هذه ألفُ دينار كانت لى على أبى فلان، اشهدوا جميعا أنّى قد قبضتُ منه، وأنّه برَىء من كلِّ شىء أطالبه . ثمّ نهض .

١٥ (١) أى بن من أخطار الدين أن يموت المدين ، فيقع الدين على الورثة . وذلك قد يكون سببا فى ضياع الدين كله أو بعضه . (٢) (بالذى) : بسبب الذى ظنناه الخ . (٣) بهذا المال ، أى بذلك الربح اليسير . (٤) رفهت عنك : نفست وخففت . (٥) مثلك : مقترضا مثلك . (٦) (يحق فضله) جواب إذا . ويحق فضله : ضاع ربحه . وقوله : (وخرج علينا فضل) ، أى زاد ما ننفقه فى سبيل تميته على ما يجىء من ربحه . (٧) أى بالقليل من المطالبة . (٨) نزا : وثب . (٩) ثم كاد يطير ، أى من الغضب .

٢٠ ففى الأساس : واستخفته طيرة (بفتح فسكون) الغضب . (١٠) من حسن العقل : لجودة تدبيرى وفهمى . (١١) لتعجيل الحاجة : لتعجيل أداء الدين . (١٢) طينة الصك : طين خاص يلصق بالصك ليختم عليه .

فلمّا صنع ما صنع، أقبل الغريمُ على صاحبه فقال : ما دعاك إلى هذا الكلام؟ ثم تقولُ لهـذا الرجل على مائدتى ! وتُقْدِمُ بهـذا الكلام علَى من لا تعرفُ كيف موقعُ الأمور منـه ؟ وبعـدُ، فقد واللهِ أردتُ مَطْلَه إلى أن أبيع الثمرَ، ورجوْنا حلاوتَه (١) . فقـد أحسنتَ إليه، وأسأتَ إلينا، وعجّلتَ عليه مالَه (٢) . اذهب يا غلامُ، فاضرب بذلك الثمرِ السوقَ فبعه بما بلغ! فأخذ مالَه كَمَلاً (٣) ثم ركب إليه، فأبى أن يأخذَه . فلمّا كثُر الأمرُ فى ذلك قال : أظنُّ الذى دعا صاحبَك إلى ما قال أنّه عربىٌّ وأنا مولًى (٤) . فإن جعلتَ شفعاءَك من الموالى أخذتُ هذا المـال، وإن لم تفعل فإنّى لا آخذُه . فجمَعَ الثقفىُّ كُلَّ شُعُوبِىٍّ (٥) بالبَصْرة، حتى طلبوا إليه، حتى أخذَ المـال (٦) .

وكان أبو سعيد يَنْهَى خادمَه أن تُخرِجَ الكُساحةَ من الدار، وأمَرَها أن تجمَعَها من دور السكّانِ، وتُلقيَها على كُساحتهم (٧) . فإذا كان فى الحِينِ (٨)، جلس وجاءت الخادمُ ومعها زَبِيلٌ، فعَزَلَتْ بين يديه من الكُساحة زَبيلا (٩)، ثم فتّشتْ واحدًا واحدًا . فإن أصاب قِطَعَ دراهمَ، وصُرَّةً فيها نفقةٌ، والدينار (١٠)، أو قطعة حَلْىٍ — فسبيلُ ذلك معروفٌ . وأما ما وُجِد فيه من الصوف، فكان وَجْهُه

(١) يقصـد بحلاوة الثمر هنا ما ينتظر منه من كسب عنـد ارتفاع ثمنه فى السوق — وفى نسخة : التمـر .

(٢) تعبير جميل لاقتحام السوق بالبضاعة فى وقت غير ملائم . (٣) كاملا . وفى الأساس : وأعطاه حقه كَمَلا : وافيا . وقوله : فأخذ ماله كملا : أى بعد ما باع الغلام الثمر . (٤) المولى هنا : المعتق (بفتح التاء) من غير العرب، أو من كان من ذرية هؤلاء . (٥) مذهب الشعوبية أساسه بغض العرب . وفى التاج : [والشعوبية] فرقة لا تفضـل العرب على العجم، ولا ترى لهم فضـلا على غيرهم اهـ . وللجاحظ فى (البيان والتبيين)، فى الجزأين الثانى والثالث، كلام مليح فى الشعوبية والرد عليهم . (٦) أى فألحوا عليه فى أخذ المـال حتى أخذه .

(٧) على كساحتهم : على الكساحة التى فى دار أبى سعيد . (٨) أى فاذا وجد (بالبناء للمفعول) أبو سعيد فى الوقت المعين للبحث فى الكناسة والانتفاع بمحتوياتها . (٩) أى زبيلا زبيلا . (١٠) فان أصاب الخ، تركيب العبارة يلوح غير مألوف، وإن كان صحيحا . فوله : (وصرة فيها نفقة)، أى كيسا أو نحوه مما توضع فيه نفقة المنازل عادة . وقوله : (والدينار)، كان مقتضى الظاهر أن يقول : أو دينارا .

أن يُباعَ — إذا اجتمع — من أصحاب البرازِع. وكذلك قِطَعُ الأكسية[(١)]. وما كان من خِرَق الثياب فمن أصحاب الصينيّات والصلاحيّات[(٢)]. وما كان من قشور الرمّان فمن الصبّاغين والدبّاغين. وما كان من القوارير فمن أصحاب الزجاج. وما كان من نَوَى التمر فمن أصحاب الحُشُوف[(٣)]. وما كان من نَوَى الخَوْخ فمن أصحاب الغَرْس[(٤)]. وما كان من المسامير وقطع الحديد فللحدّادين. وما كان من القراطيس فللطِّراز[(٥)]. وما كان من الصُّحف فلرءوس الجِرار[(٦)]. وما كان من قِطع الخشب فللأكّافين[(٧)]. وما كان من قِطَع العِظام فللوَقود. وما كان من قِطع الخِرق فللتنانير الجُدُد[(٨)]. وما كان من إشْكَنْج[(٩)] فهو مجموعٌ للبناء؛ ثم يُحرَّك ويُثار ويُخَلَّل حتى يجتمعَ قُماشُه. ثم يعزلُ للتَّنُّور. وما كان من قِطع القارِ بيع من القيّار. وإذا بقي التراب خالصًا، وأراد أن يضرب منه

---

(١) أي إن قطع الأكسية تباع أيضا من أصحاب البراذع. المفرد: كساء. والذى يفهم من المقام ومن كتب اللغة أن الكساء يتخذ من الصوف غالبا. (٢) جمع صلاحية، وهى إناء من الخزف يطلى داخله بطلاء لسدّ مسامه. ويستعمل هذا الإناء فى قرى مصر، وفى الشام. وهو معروف هناك بهذا الاسم. وقد تقدم شرح الصينيات والصلاحيات فى هذا الجزء، ص ١١. (٣) الحشف: أردأ التمر. وجمعه على حشوف على غير قياس. وقد يكون بيع النوى من هؤلاء، لأن الفقراء يشترونه منهم للوقود أو لغيره من الأغراض.

(٤) الغرس: الشجر الذى يغرس. والمراد أصحاب البساتين. (٥) الطراز هنا: الموضع الذى تنسج فيه الثياب الجيدة. فاذا أريد بالقراطيس الصحف التى يكتب فيها، فالمعنى لا يستقيم؛ إذ ما فائدة هذه القراطيس الوسخة للطراز. وإذا أريد بها أحد معانيها — كما فى اللسان — وهو: ضرب من برود مصر، فالمعنى ضعيف أيضا. وفى مقدمة طبعة ليدن ما يفهم منه أن الطراز هنا مصنع الورق. وهو ما لم نقف عليه.

(٦) أى تغطى بها رءوس الجرار، جمع جرّة. (٧) إكاف الحمار: برذعته، والأكاف صانعه. (٨) التنور: الكانون يخبز فيه. وإنما تستعمل الخرق للتنانير الجدد، لمسحها وتنظيفها.

(٩) كلمة إشكنج غير عربية. وقد وضعوا لتفسيرها فى هامش نسخة ليدن: (Fragmenta laterum) ومعناها باللاتينية: قطع الحجارة الصغيرة والحصى وما شاكلها. وقوله: ويخلل، أى بالأصابع، ليتميز بعضه من بعض. والمراد بالقماش هنا فتات الأشياء القابلة للاحتراق. ومعنى عزل ذلك القماش للتنور: استعماله وقودا.

اللّبِنَ للبيع وللحاجة إليــه، لم يتكلّف المــاءَ، ولكنْ يأمرُ جميعَ مَنْ فى الدّار ألّا يتوضّـئوا ولا يغتسلوا إلّا عليه . فإذا ابتلّ ضَرَبه لِبنًا !

وكان يقول : من لم يتعرّف الاقتصادَ تعرّفى فلا يتعرضْ له .

وذهب من ساكنٍ له شيءٌ، كبعض ما يُسْرَق من البيوت، فقال لهم: اطرَحوا الليلةَ ترابا، فعسى أن يندم مَنْ أخذه فيُلقيَه فى التراب . ولا يُنْكَرُ مجيئُه إلى ذلك المكان، لكثرةِ من يجيء لذلك[1] . فاتّفق أنْ طُرِح ذلك الشيءُ المسروقُ فى التراب — وكانوا يطرحونه على كُناسته[2] — فرآه قبلَ أن يراه المسروقُ منه . فأخذ منه كِراء الكُساحةِ[3] !

فهذا حديث أبى سعيد !

قِصَّـــة الأَصْمَـــعىّ[4]

تمشّى قوم إلى الأصمَعىّ مع تاجر كان اشترى ثمرتَه بخسران كان ناله، وسأله حسنَ النظرِ والحطيطةَ[5] . فقال الأصمَعىّ : أسمعتم بالقسمة الضِّيزَى[6] ؟ هى واللهِ ما تريدون شيخَكم[7] عليه ! اشترَى منّى على أن يكون الخسرانُ علىّ والربحُ له ! هــذا وأبيكم تجارةُ أبى العَنْبَس[8] ! اذهبوا فاشتروا علىّ طعامَ العِراق على هــذا الشرط[9] ! على أنّى واللهِ ما أدرى أصادقٌ هو أم كاذب .

(١) (لذلك): لالقاء الكناسة . (٢) الضمير المفعول يرجع إلى الشىء المسروق . (٣) كراء الكساحة : أى أجر ما أدته إليه الكساحة من صنيع، لأنها كانت سببا فى ردّ المسروق . (٤) سبق التعريف به فى ص ٥٩ من هذا الجزء . (٥) تمشى الخ، فى (عيون الأخبار) : (مع رجل اشترى منه ثمرة نخله، فناله فيها خسران، وسألوه حسن النظر له) . وقوله : وسأله الخ، أى سأله أن يحسن النظــر فى أمره، وأن يرحمــه بالنزول له عن شىء من الثمن . (٦) القسمة الضيزى : الناقصة غير العادلة . (٧) يريد (بشيخكم) نفسه . أى إن القسمة الضيزى هى ما تريدون إلزامى إياه . (٨) لم نهتد بعد طول المراجعة والبحث إلى حقيقة هذا الرجل، ولم نجد من أشار إلى تجارته هذه . ومن المشهورين بهذا الاسم أبو العنبس حجر (بضم فسكون) بن العنبس الحضرمى الكوفى . عدوه فى الثقات من التابعين . وذكره ابن حجر العسقلانى فى (تهذيب التهذيب) . وأشار إليه الزبيدى فى التاج . ولكنا لا ندرى أهو ذلك الذى يعنيه الجاحظ أم غيره . (٩) فى (عيون الأخبار) : (اذهبوا فاشتروا لى طعام السواد على هذا الوجه والشرط) . والمراد بالسواد هنا سواد العراق؛ لخضرة أشجاره وزروعه .

وها هنا واحدةٌ [(١)]، وهى لكم دونى، ولا بُدّ من أن أحتمل لكم، إذ لم تحتملوا لى . والله ما مشَيْتم معه إلّا وأنتم تُوجبون حَقَّه، وتوجبون رِفْدَه [(٢)]. لو كنتُ أُوجبُ له مثلَ ما توجبون، لقد كنت أغنيتُه عنكم . وأنا لا أعرِفه، ولا يَضْرِبنى بحقّ [(٣)]. فَهَلُمُّوا نتوزعْ هذه الفضلةَ بيننا بالسويّة [(٤)]. هذا أحسنُ ممن احتمل حقًّا لا يجب عليه، فى رِضا مَنْ يجب ذلك عليه [(٥)].

٥ فقاموا ولم يعودوا . فخرج إليه التاجر من حقّه، وأيِسَ ممّا قِبَله [(٦)].

* * *

حدّثنى جعفر ابنُ أختِ واصلٍ، قال : قلت لأبى عُيَيْنَةَ [(٧)]: قد أحسنَ الذى سأل امرأته عن اللحم، فقالت : أكله السِّنَّورُ . فوزن السنورَ، ثم قال : هـذا اللحمُ، فأين السنورُ ؟ قال : كأنك تُعَرِّضُ بى !

١٠ قال : قلتُ : إنّك واللهِ أهـلُ ذلك : شـيخٌ قد قارب المـائةَ، وعليه فاضـلةٌ [(٨)]، وعيالُه قليلٌ، ويُعْطَى الأموالَ على مذاكرة العلم، والعلمُ لذّتُه وصناعتُه [(٩)]. ثم يَرْقى إلى جوف

---

(١) وهاهنا الخ، يريد بقـوله : واحدة (مسألة)، أى (أمر) . وقوله : (وهى لكم دونى)، أى فى خيركم وصالحكم . وقوله : ولا بدّ الخ، أى ولا بد من أن أعينكم مع أنكم لم تعينونى . وطـريق إعانته إياهم أن يشاركهم فى تحمل ما يطالب المدين بـإسـقاطه من الدين، فيقسم ما يراد حطه من الدين عليـه وعليهم بالسـوية، كما سيقترح .

١٥ (٢) (وتوجبون رفده)، فى (عيون الأخبار) : (وتحبون) . والرفد : الإعانة أو العطاء .

(٣) يضربنى : يدفعنى ويمنعنى عن مطالبته . وهو ما استظهرناه فى الكلمة . وفى النسخ : "ولا يضربنى بحق". وهو غير واضح . وفى (عيون الأخبار) : ولا يضرنى بحق — والمعنى أن التاجر لا يستطيع ضرر الأصمعى بحق له عليه .

(٤) فهلموا الخ، فى (عيون الأخبار) : فهلموا فلنتوزع هذا الخسران بيننا بالسواء — أى تعالوا نوزع مقدار الخطيطة الذى يطلبه علينا بالسوية . (٥) أى فى رضا المدين وشفعائه . (٦) أى فخرج التاجر للأصمعى

٢٠ من الحق الذى عليه، بدفعه الدين كاملا، ويئس من كل رفق من ناحيته . (٧) لا ندرى من هو هذا الرجل . ولم يذكر فى هذا الكتاب إلا هنا . ولا بد أن يكون من أصحاب الجاحظ غير المشهورين . (٨) وعليه فاضلة : وله أموال تزيد على حاجاته . فعلى بمعنى اللام . (٩) أى إنه يؤجر على مدارسة العلم، مع ما يشعر به فى ذلك من اللذة والميل . فكأنه ينال أجرا على عمل شئ محبوب، لا ألم فيه ولا مشقة .

منزله[١] ! وأنت رِجْلٌ لك فى البستان ، ورِجْلٌ فى أصحـاب الفَسِيل[٢] ، ورِجْلٌ فى السـوق ، ورِجْلٌ فى الكَلّاءِ[٣] : تطلبُ من هـذا وِقْرَ جِصٍّ[٤] ، ومن هذا وِقْرَ آجُرٍّ ، ومن هذا قطعةَ ساج[٥] ، ومن هذا هكذا[٦] !

ما هـذا الحرصُ؟ وما هـذا الكدُّ؟ وما هذا الشُّغلُ؟ لو كنتَ شاباً بعيد الأمل ، كيف كنتَ تكون؟ ولو كنتَ مَدِينا كثيرَ العيال ، كيف كنتَ تكون؟ وقد رأيتك فيما حَدَث[٧] تلبس الأطمار ، وتمشى حافيا نصفَ النهار[٨] — قال : ثم أُجَمْجِمُ[٩] .

بلغنى أنك فقدتَ قطعـةَ بِطِّيخ ، فألححتَ فى المَسْألَةِ عنها ، فقيل لك : أكلها السِّنَّوْرُ[١٠] ، فرميتَ بباقى القطعـة قُدّامَ السِّنَّوْر ، لتمتحنَ صدقَهم[١١] من كذبهم ! فلمّا لم يأكله غرَّمتَهم ثمن البِطِّيخة كما هى[١٢] ! قالوا لك : كان الليلُ[١٣] . فإن لم تكن التى أكلته من سـنانير الجيران ،

(١) أى ثم بعد كل هـذا تصعد إلى منزلك ، وتختفى فى جوفه ، حتى لا يراك أصـدقاؤك ، فتأمن دعوتهم إلى طعامك . هذا ما فهمناه من هذه العبارة . (٢) الفسيل جمع فسيلة ، وهى النخلة الصغيرة ، تقطع من الأم ، أو تقلع من الأرض فتغرس . يريد أنه يشترى هذه الفسلان (بضم فسكون) لبستانه . (٣) وأنت رجل فى البستان الخ ، أى إنك كثير التنقـل والحركة فى طلب المـال ، كأن لك عدة أرجل ، تنتقل بكل رجل إلى مكان فى آن معا ، لسرعة حركتك ، وشدة جشعك فى الجمع وتحصيل المـال . والكلاء : مرفأ السفن ، وساحل كل نهر . وذلك للشراء ممـا تحمله السفن . (٤) الوقر : الحمل الثقيل ، أو أعم . (٥) الساج : نوع من الخشب . قال فى المصباح : الواحدة ساجة . ولا ينبت إلا بالهند . وقد سبق شرحه . (٦) أى ومن هذا مثل ذلك ، أى : وهلم جرا . (٧) فيما حدث : فيما مضى . والأطمار : جمع طمر (بالكسر) : الثوب الخلق ، أو الكساء البالى من غير الصوف . (٨) نصف النهار : أى فى شدة الحر وسخونة وجه الأرض . (٩) أجمجم : أخفى ألمى فى صدرى . يقول : وقد رأيتك تلبس الأطمار وتقاسى الشدائد ، فتألمت وأخفيت آلامى فى صدرى . و «قال» هنا زائدة . ولكنه من أساليب الجاحظ . وقد سبق نظيره غير مرة فى هـذا الكتاب . وفاعله يعود إلى جعفر ، كما هو ظاهر . وفى نسخة الشنقيطى : كم أجمجم ! (١٠) السنور : الهر . والأنثى سنورة . (١١) الضمير فى صدقهم يعود على من أخبروه من أهل بيته . (١٢) كاملة . (١٣) كان الليل : كان الوقت ظلاما ، فلم نعرف أى هر قد أكل قطعة البطيخ .

وكان الذى أكله سِنَّوْرَنا هذا ، فإنك رميتَ إليه بالقطعة وهو شبعانُ منه . فأنْظِرْنا [١] ولا تُغَرِّمنا ، نمتحنه فى حالٍ غيرِ هذه . فأبيتَ إلا إغرامهم !

قال : ويلك ! إنّى واللهِ ما أصِلُ إلى منعهم من الفساد ، إلّا ببعض الفساد [٢] . وقد قال زيادٌ [٣] فى خطبتــه : إنّى واللهِ ما أصِل منكم إلى أخذ الحقّ ، حتى أخوضَ البــاطلَ إليكم خَوْضًا .

وأمّا ما لمتنى عليه اتفاقا [٤] ، فإنّما [٥] ذهبتُ إلى قوله [٦] : لو أنّ فى يدى فَسيلةً ، ثم قيل لى : إنّ القيامةَ تقومُ الساعةَ ، لبادرتُها فغرستُها . وقد قال أبو الدَّرْداءِ [٧] فى وجعه الذى مات فيه : زوِّجُونى ، فإنّى أكره أنْ ألقَ اللهَ عَزَبًا . والعربُ تقول : مَنْ غَلَى دِماغُه فى الصيف ، غَلَتْ قِدْرُه فى الشتاء . قال مِكْرَزٌ [٨] : العَجْزُ فراشٌ وطىءٌ ، لا يستوطئه إلّا الفَشْلُ [٩] الدَّثورُ . وقال عبد الله بنُ وَهْب [١٠] : حبُّ الهُوَيْنَى يَكسِبُ النَّصَبَ [١١] . وقال عُمَرُ بنُ الخطّاب (رضى الله عنه) : إيّاكم والراحةَ ، فإنّها غفلةٌ . وقال : لو أنّ الصبرَ والشكرَ بعيرانِ ما باليتُ أيَّهما أركبُ . وقال : تَمَعْدَدُوا [١٢] واخْشَوْشِنوا ،

(١) أنظرنا : أخرنا وأمهلنا . (٢) المراد بالفساد الثانية الظلم والعسف . (٣) هو زياد ابن أبي سفيان . ويريد (بخطبته) خطبته البتراء المشهورة التى خطبها بالبصرة ، لما قدم واليا عليها لمعاوية بن أبى سفيان . وقد تقــدم التعريف به ، ص ٣٧ — ج ١ (٤) اتفاقا : أى مصادفة . ونظنها محرفة عن (آنفا) .

(٥) فى نسخة ليدن وغيرها : (وربما) . وهو تحريف . (٦) إلى قوله : قول القائل الحكيم . والفسيلة سبق شرحها فى صدر هذه الحكاية . (٧) سبق التعريف به . (٨) مكرز [بفتح الميم أو كسرها وسكون الكاف] بن الأخيف . كان من أحد رجالهم وفرسانهــم . وهو الذى قتل عامر بن يزيد بن عامر بن الملوح الليثى اهـ من كتاب (الاشتقاق) ، للامام أبى بكر بن الحسن بن دريد الأزدى . (٩) الفشل ، بسكون الشين وكسرها : الضعيف المتراخى . والدثور : الرجل البطىء الخامل . (١٠) هو عبــد الله بن وهب الراسبى ، من الأزد . كان ذا علم ورأى وفصاحة وشجاعة . أدرك النبى صلى الله عليه وسلم . وشهد فتوح العراق مع سعد ابن أبى وقاص . توفى ســنة ٣٨ هـ . (١١) يكسب النصب : ينيل المــرء النصب . فالمفعول الأول محذوف . وفى المصباح : وكلهم يقول : كسبك فلان خيرا ، إلا ابن الأعرابى ، فإنه يقول : أكسبك ، بالألف .

(١٢) تمعددوا : تشبهوا بعيش معد (بفتح ففتح فدال مشددة) بن عدنان . وكانوا أهل قشف وغلظ فى المعاش . يقول : كونوا مثلهم ، ودعوا التنعم وزى العجم . واخشوشنوا : عيشوا عيشا خشنا .

واقطعوا الرُّكُبَ[٢]، واركبوا الخيل نَزْوا[١] . وقال لعَمْرِو بنِ مَعْدِيكَرِبَ حين شكا إليـه الحِقاءَ : كَذَبَتْ عليك الظهائرُ[٣] . وقال : احتفُوا ، فإنّكم لا تدرون متى تكون الجَفْلَةُ[٤] . وقال : إنْ يكن الشُّغْلُ مَجْهَدَةً ، فإنّ الفراغَ مَفْسدةٌ . وقال لسعيدِ بن حاتم : احذَرِ النعمةَ كَحَذَرِك من المعصية ، ولَهِيَ أخوَفُهما عليكَ عندى . وقال : أُحَذِّرُكم عاقبةَ الفراغ ، فإنّه أجمعُ لأبواب المكروه من الشُّغْل . وقال أكْثَمُ بنُ صَيْفِيّ[٥] : ما أحِبُّ أنّى مَكْفِيٌّ كلَّ أمرِ الدنيا . قالوا : و إنْ أسمنتَ وألبنتَ[٦] ؟ قال : نعم . أكره عادةَ العجز .

أفتَرَانى أدعُ وصايا الأنبياء ، وقولَ الخلفاءِ ، وتأديبَ العرب ، وآخذُ بقولك[٧] ؟

---

(١) واقطعوا الخ ، الركب : جمع ركاب ، وهو ما توضع فيه القدم عند الركوب . وقد أمرهم بقطع الركب ، لأنها من ضروب الرفاهيـة والنعيم . واركبوا الخيـل نزوا : ثازين نزوا ، أى واثبين وثوبا . وفى الأساس : ونزا الفارس على فرسه . (٢) وقال الخ ، سبق التعريف بعمرو بن معـد يكرب . والحقاء : وجع فى البطن يصيب الرجل من أكل اللحم بحتا ، فيأخذه لذلك سـلاح (بضم السين) . وفى النسخ : الحفاء ، بالفاء ، ومعناها لا يناسب هنا ، فهى محرفة . (٣) كذبت عليك ، بمعنى وجبت . والظهائر : جمع ظهيرة ، وهى شدة الحر . وجاء فى لسان العرب : وفى حديث عمـر : شكا إليه عمرو بن معديكرب أو غيره النقرس ، فقـال : كذبتك الظهائر ، أى : عليك بالمشى فيها ... وفى رواية : كذب عليـك الظواهر ، جمع ظاهرة ، وهى ما ظهر من الأرض وارتفع . وفى حديث له آخر : أن عمرو بن معديكرب شكا إليه المعص ، فقال : كذب عليك العسل ، يريد العسلان (بفتحتين) ، وهو مشى الذئب ، أى : عليك بسرعة المشى . والمعص بالعين المهملة [والتحريك] : التواء فى عصب الرجل اهـ . (٤) احتفوا الخ ، الاحتفاء : المشى بلا نعـل . والجفـلة : الإسراع فى الذهاب فى الأرض . والمعنى : استعدوا لسرعة العدو بالاحتفاء ، فانكم لا تدرون متى يحين وقت الإسراع فى تعقب العـدو ، أو الفرار من عدو ، فى حرب أو غيرها . أو لعـل الغرض الدعوة إلى التقشف ، حتى إذا نزل الفقـر لم يكن مؤلما ، على المجاز . (٥) حكيم من حكماء العرب ، وخطيب من خطبائهم : أدرك البعثة ، وخرج فى مائة من قومه يريد الاسلام ، فمات فى الطريق ، ولم ير النبى . توفى سنة ٩هـ . (٦) أسمنت : كثر سمنك ، وألبنت : كثر لبنك . (٧) أفترانى الخ : أى أتظن أنى تارك وصايا الأنبياء بالعمـل والكد ، وآخذ بقولك من استمراء الراحة والدعة عند الغنى .

*
* *

وتغدّى محمدُ بنُ الأشعث[١] عند يحيَى بنِ خالد . فتذاكروا الزيتَ وفضلَ ما بينه وبين السمن، وفضلَ ما بين الأنْفاق وزيتِ الماء[٢] . فقال محمد : عندى زيتٌ لم يرَ الناسُ مثلَه . قال يحيى : لا نُؤْتَى منه بشىء؟ فدعا يحيى غلامَه . فقال[٣] : إذا دخلتَ الخِزانةَ فانظر الجَرّةَ الرابعةَ عن يمينك إذا دخلتَ، فجئنا منه بشىء .

٥

قال يحيى : ما يُعجبنى السيّدُ يَعرِفُ موضعَ زيتِه وزيتونه .

*
* *

وقرّب خبّازُ أسدِ بنِ عبد الله[٤] إليه، وهو على خُراسان، شِواءً قد أنضَجَه نُضْجاً[٥] . وكان يُعجبه ما رطُبَ[٦] من الشِّواء . فقال لخبّازه : أتظنُّ أنّ صنيعَك يخفَى علىّ؟ إنّك لستَ تبالغ فى إنضاجه لتطييبه، ولكنْ تستحلبُ جميعَ دَسَمِه، فتنتفعُ بذلك منه !

١٠

فبلغتْ أخاه[٧]، فقال : رُبَّ جهلٍ خيرٌ من علم[٨] !

---

(١) هو أبو الأشعث محمد بن الأشعث المروزى الشاعر . كان منقطعا إلى آل طاهر . ومن شعره يرثى أخاه :

مات من قد كنت آمله ... ومضى من كنت أذخر
ما أبالى بعد مصرعه ... أىّ نفس خانها العمر

١٥

انظر (معجم الشعراء) ص ١٤١ ، ١٤٢ ، و (المؤتلف والمختلف) للآمدى .

(٢) وفضل ما بين الخ، هكذا فى النسخ . والأنفاق : جمع نفق، وهو مكان تحت سطح الأرض يكون له مخرج من موضع آخر . أى إنهم كانوا يتذاكرون مزايا الزيت الذى يوضع فى الأنفاق، لتحفظه البرودة من الفساد، والزيت الذى يحيط الماء بآنائه حتى لا تفسده الحرارة . هذا ما أمكن تخريج هذه العبارة عليه . ولعلهم كانوا فى العراق يعملون هذا من حرارة الجو فى الصيف . وقد يكون هنا تحريف . (٣) فقال، أى محمد بن الأشعث .

٢٠

(٤) هو أسد بن عبد الله القسرى البجلى . لد ونشأ فى دمشق، ومات فى بلخ . وكان شجاعا فاضلا . ولاه أخوه خالد بن عبد الله خراسان سنة ١٠٨ هـ . توفى سنة ١٢٠ هـ . (٥) أى بالغ فى إنضاجه . وفى النسخ : نضجه . وهو تحريف . (٦) رطب : لان، ولم يبالغ فى إنضاجه . (٧) بلغت أخاه : أى هذه الحادثة، أو هذه القولة . (٨) رب جهل الخ، أى لأن علم أخيه بدقائق الطهو وطبائع الناس، دفعه إلى قول ما لا يليق بالرجل الكريم .

* * *

وكان رجل يغشَى طعامَ الجوهرىّ ، وكان يتحرّى وقتَـه ولا يخطئ ، فإذا دخل والقومُ يأكلون، وحينَ وَضْعِ الخوان ، قال : لعن اللهُ القَدَرِيَّةَ[(١)] ! مَنْ كان يستطيعُ أن يصرفَنى عن أكل هذا الطعامِ، وقدكان فى اللوح المحفوظ أنّى سآكُلُه ؟

فلمـّا أكثَرَ من ذلك ، قال له رِياحٌ : تعالَ بالعشىِّ أو بالغداةِ . فإن وجدتَ شيئًا فالعن القَدَرِيّةَ، والعن آباءَهم وأمهاتِهم[(٢)] !

* * *

وجاء غلامٌ إلى خالدِ بنِ صَفْوانَ[(٣)] بطَبَقِ خَوخ — إمّا أن يكونَ هـديّةً ، وإمّا أنّ غلامه جاء به من البستان — فلمّا وضـعه بين يديه قال : لولا أنّى أعلم أنّك قد أكلتَ منـه لأطعمتك واحدةً !

* * *

وقال رمضانُ : كنت مع شيخ أهْوازىٍّ فى جَعْفَرِيّةٍ[(٤)] . وكنتُ فى الذَّنَبِ ، وكان فى الصدر . فلمـّا جاء وقتُ الغَداء ، أخرج من سَـلّةٍ له دَجاجةً ، وفَرْخا واحدًا مُبَرَّدًا . وأقبـل يأكُلُ ويتحـدّثُ ، ولا يَعْرِضُ علىّ . وليس فى السفينة غيرى وغيرُه ! فرآنى أنظرُ إليـه مرّةً ،

---

(١) القــدرية : طائفة تجحد القدر ، وترى أن للمرء اختيارا فيما يعمل وفيما يترك . ويقصــد بلعن القدرية أنهم أخطئوا فى دعواهم ، لأنهم لو صدقوا لاستطاع أن يصرف نفسه عن حضور الطعام .   (٢) يقول : لا شأن هنا للقــدرية ، لأنك تتعمد المجىء وقت الطعام . فتعال فى غير أوقات الطعام . فإن وجدت طعاما فالعن القدرية . ولست بمستطيع ، لأنك لا تجد طعاما .   (٣) هو خالد بن صفوان بن عبــد الله بن عمــرو بن الأهتم التيمى المنقرى . من فصحاء العرب المشهورين . كان يجالس عمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك . وله معهما أخبار . ولد ونشأ بالبصرة . وكان أيسر أهلها مالا . ولم يتزوج . مات نحو سـنة ١١٥ هـ . من (الأعلام) للزركلى .

(٤) أهوازى : منسوب إلى الأهواز ، تسـع كور (بضم الكاف وبفتح الواو) بين البصرة وفارس . ليس لها مفرد . وقد سبق الكلام عليها فى الحواشى . والجعفرية هنا : السفينة . ولعلها منسوبة إلى الجعفر وهو النهر، فتكون سفينة نهرية أو صغيرة .

و إلى ما بين يديه مرّة . فتوهّم أنّى أشتهيه واستبطئه[1] . فقال لى : لِمَ تُحدِّق النظر؟ من كان عنده، أكَلَ مثلى، ومن لم يكن عنده، نَظَرَ مثلك ! .

قال : ثم نظر إلىّ وأنا أنظرُ إليه . فقال : يا هناه[2] ، أنا رجل حَسَن الأكلِ، لا آكلُ إلا طيّبَ الطعـام . وأنا أخافُ أن تكون عينُك مالحةً[3] ، وعينُ مثلكِ سريعـة[4] . فاصرف عنّى وجهَك .

٥

قال : فوثبتُ عليه، فقبضتُ على لحيته بيدى اليسرى . ثم تناولت الدجاجةَ بيدى اليمنى . فما زلتُ أضرب بها رأسَه، حتى تقطعتْ فى يدى !

ثم تحوَّل إلى مكانى فمسح وجهَه ولحيتَه . ثم أقبل علىّ فقال : قـد أخبرتُك أنّ عينَك مالحة . وأنك ستصيبنى بعين! قلتُ : وما شَبَهُ هذا من العين[5] ؟ قال إنّما العينُ مكروهٌ يحدثُ . فقد أنزلتْ بنا عينُك أعظمَ المكروه[6] !

١٠

فضحكتُ ضَحِكًا ما ضحكتُ مثلَه . وتكالمنا حتّى كأنّه لم يقـل قبيحا ، وحتّى كأنّى لم أُفْرِطْ عليه[7] .

* * *

هذه مُلْتَقَطاتُ أحاديث أصحابنا وأحاديثنا ، وما رأينـا بعيوننا . فأمّا أحاديثُ الأَصْمَعى وأبى عُبَيْدَة[8] وأبى الحسن[9] . فإنّى لم أجد منها ما يصلح لهذا الموضع . إلّا ما قد كتبتُه فى هذا الكتاب . وهى بِضْعَةَ عَشَرَ حديثًا .

١٥

(١) أشتهيه : أشتهى ما بين يديه . وأستبطئه : أى فى دعوتى إلى مشاركته فى الأكل . (٢) يا هناه : يا فلان . والهاء فى آخره زائدة . وتصير تاء عند الوصل . وقد تقدّم شرحها . (٣) عينك مالحة : تركيب مولد، معناه : عينك شريرة ، سريعة التأثير السيء . (٤) سريعة : أى سريعة التأثير الضار ، كما هو الشأن فى عين العائن . (٥) أى وما صلة هذا بتأثير العين ؟ (٦) يريد (بأعظم المكروه) ما أصابه من الضرب وحرمانه الدجاجة، لانتشارها على الأرض، وتفرق أجزائها . (٧) لم أعجل بعقوبته . (٨) تقدّم التعريف بهما . (٩) هو أبو الحسن المدائنى . وقد تقدّم التعريف به .

٢٠

✦
✦ ✦

قالوا : كان للمُغيرَة بنِ عبد الله بنِ أبى عَقِيل الثَّقَفِىِّ[١]، وهو على الكوفةِ، جَدْىٌ يُوضع على مائدته بعـد الطعام . ولم يكن أحدٌ يَمَسُّه ، إذ كان هو لا يمسُّه ! فأقْدَم عليه أعرابىٌّ يوماً ، ولم يعرف سِيرةَ أصحابِنا فيه[٢]، فلم يرضَ بأكل لحمه، حتى تعرَّق[٣] عظمَه . فقال له المغيرةُ : يا هذا ! تطالب عِظام هذا الجدى بذَحْل[٤]؟ هل نطحتْك أمُّه ؟

وكان الأَصْمَعىُّ يقول : إنَّما قال : يا هـذا ! تطالبُ عظام هذا البائسِ بذَحْل؟ هـل نطحتك أمّه ؟ .

قال[٥] : وكان على شُرْطَتِه عبـدُ الرحمن بنُ طارق ، فقال لرجل من الشُّرَط[٦] : إنْ أقدمتَ على جَدْيِ الأمير أسقطتُ عنك نَوْبةَ سَنَةٍ[٧] . فبلغه[٨] ذلك ، فشكاه إلى الحَجّاج ، فعزله ، وولّى مكانَه زيادَ بنَ جُدَيد . فكان أثقلَ عليه من عبد الرحمن . ولم يقدر على عزله ، إذ كان من قِبَل الحَجّاج . فكان المُغيرةُ إذا خطب قال : يأهلَ الكوفة ! مَنْ بغاكم الغوائلَ[٩]، وسعى بكم إلى أميركم، فلعنه اللهُ ، ولعن أمَّه العوراءَ ! وكانت أمُّ زيادٍ عوراءَ . فكان الناس يقولون : ما رأينا تعريضًا قطُّ أطيب من تعريضه ! .

---

(١) كان على الكوفة من قبل الحجاج بن يوسف الثقفى . وله نادرة ظريفـة فى (عيون الأخبار) ، ج ١ ، ص ٥٢ (٢) سيرة أصحابنا فيـه : أى عادة ضيوف المغيرة فى عدم الأكل من الجدى ، وفى تركه دون أن يمس . (٣) عرق العظم عرقا وتعرقه : أكل ما عليه من اللحم . (٤) الذحل : الثأر .

(٥) الضمير فى (قال) قـد يرجع إلى الأصمعى . وقد يكون محـرفا عن (قالوا) . وقـد يعود إلى الراوى .

(٦) الشرط (بضم ففتح) : أعوان الوالى . والواحد شرطة ، مثل غرف ، جمع غرفة . وإذا نسب إلى هـذا قيل : شرطى ، بالسكون ، ردّا إلى واحده . كذا فى المصباح . (٧) أسقطت عنك الخ : أعفيتك سنة من نوبات حراستك . (٨) أى بلغ المغيرة ذلك . (٩) فى اللسان : بغاه الشىء : طلبه له . والغوائل : جمع غائلة ، وهى الفساد والشر .

* * *

قالوا : وكان لزياد الحارثى[1] جَدْى لا يمسه، ولا يمسه أحد ! فعشّى فى شهر رمضان قوماً فيهم أَشْعَب[2] . فعرض أشعبُ للجَدْى من بينهم . فقال زيادٌ : أمّا لأهل السجن إمامٌ يصلّى بهم؟ قالوا : لا . قال : فَلْيُصَلِّ بهم أشعبُ . فقال أشعبُ : أو غيرُ هذا[3] — أصلح الله الأمير — قال : وما هو ؟ قال : أحْلِفُ بالمُحْرِجات[4] ألّا آكُلَ لحمَ جَدْى أبدًا !

٥

* * *

قالوا : دعا عبدُ الملك بنُ قَيْس الذِّئْبىّ رجلا من أشراف أهل البَصْرة . وكان عبدُ الملك بخيلا على الطعام ، جوادًا بالدراهم . فاستصحب الرجلُ ساكنًا[5] . فلما رآه عبدُ الملك ضاق به ذَرْعًا . فأقبل عليه فقال له : ألفُ دِرْهمٍ خيرٌ لك من احتباسك علينا[6] ! واحتملَ غُرْمَ ألف درهم ، ولم يحتمل أكلَ رغيف !

١٠

* * *

وتناول أعرابىٌّ من بين يَدَىْ سليمانَ بنِ عبد الملك[7] دَجاجةً ، فقال له : يكفيك ما بين يديك وما يليك . قال الأعرابىّ : ومنها شىءٌ حِمًى[8] ؟ قال : فخذها ، لا بُورِكَ لك فيها !

(١) فى (الأعلام) للزركلى : من أمراء الدولة المروانية ، وأحد القادة الشجعان ، كان والى الكوفة عند قيام العباسيين فى خراسان والعراق ، توفى سنة ١٣٥ هـ . ووردت هذه الحكاية فى (عيون الأخبار) ، واسمه فى الجزء الثالث : زياد بن عبد الله الحارثى . واسمه فى (الأعلام) : زياد بن صالح الحارثى ، فليحرر .

١٥

(٢) قال فى (الأعلام) : أشعب بن جبير الطامع ، ظريف من أهل المدينة ، كان مولى لعبد الله بن الزبير . تأدب وروى الحديث ، وكان يحب الغناء ، يضرب المثل بطمعه ، عاش عمرا طويلا ، قيل : أدرك زمن عثمان رضى الله عنه ، توفى سنة ١٥٤ هـ . (٣) أى غير هذا خير منه وأولى . (٤) فى الأساس : وحلف فلان بالمحرجات ، وهى الأيمان التى تضيق مجال الحالف اهـ . (٥) الساكن : المسكين ، يقال : سكن الرجل يسكن سكونا : إذا صار مسكينا . وفى اللسان : وسكن الرجل وأسكن وتمسكن : إذا صار مسكينا اهـ . (٦) من احتباسك علينا : من حبس نفسك علينا ، وانقطاعك لمجالستنا . (٧) هو سليمان بن عبد الملك بن مروان ، الخليفة الأموى ، مولده بدمشق ، ولى الخلافة يوم وفاة أخيه الوليد سنة ٩٦ هـ ، وكان عاقلا فصيحا ، جهز جيشا كبيرا ، وسيره فى السفن بقيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك ، لحصار القسطنطينية ، توفى سنة ٩٩ هـ . (٨) يقال : كلأ حمًى ، كرضا ، أى محمى لا يرعاه غير أهله . يقول الأعرابى : أفى مائدتك شىء محمى من أن يتناوله أحد ؟

٢٠

٢٥

⁂

قال[1] : وكان مُعاويةُ تُعجبه القِبَّةُ[2] . وتغدَّى معه ذات يوم صَعْصَعَةُ بنُ صَوْحانَ[3]، فتناولها صعصعةُ من بين يَدَىْ معاويةَ . قال معاويةُ : إنّك لبعيدُ النُّجْعةِ[4] ! قال صعصعةُ : مَنْ أجْدَبَ انتجع[5] !

⁂

وقال : دخل هِشامُ بنُ عبد الملك[6] حائطًا[7] له ، فيــه فاكهةٌ وأشجار وثمار ، ومعه أصحابُه . فجعلوا يأكلون ويدعُون بالبركة ! فقال هشام : يا غلامُ ! اقلَع هذا ، واغرِس مكانَه الزيتونَ[8] !

⁂

قال : وكان المُغيرةُ بنُ عبــد الله بنِ أبى عَقِيــلٍ الثَّقَفِىُّ يأكل تمرا هو وأصحابُه . فانطفأ السِّراج . وكانوا يُلقُون النَّوى فى طَست . فسمِع صوتَ نواتين ، فقال : مَنْ هــذا الذى يلعب بكَعْبين[9] ؟

⁂

وقالوا : باع حُوَيْطِبُ بنُ عبــد العُزَّى دارا من معاويةَ بخمسةٍ وأربعين ألفَ دينــار . فقيل له[10] : أصبحتَ كثيرَ المــال . قال : وما منفعةُ خمسةٍ وأربعين ألفًا مع ستّة من العيال؟

---

(١) الضمير فى (قال) يعود إلى الراوى ، وهو مفهوم من المقــام ، إذ ليس له مرجــع فى الكلام .
(٢) القبة : الكرش . (٣) هو صعصعة بن صوحان العبدى ، من سادات عبد القيس . كان خطيبا بليغا عاقلا . شهد صفين مع معاوية . توفى سنة ٦٠ هـ . (٤) النجعة : طلب الكلأ فى موضعه . والكلام على المجاز . (٥) يقول : إنمـا عمدت لتناول القبة من بين يديك ، لأنه ليس أمامى شىء . (٦) هو هشام ابن عبــد الملك بن مروان ، من ملوك الدولة الأموية فى الشام . بويع له بالخلافة فى دمشق بعد وفاة أخيــه يزيد سنة ١٠٥ هـ . توفى سنة ١٢٥ هـ . (٧) بستانا . (٨) ياغلام اقلع الخ ، أمر هشام من أكلهم لبخله ، ورأى أن دعوتهم بالبركة لم تكن إلا لمـا نالوه من الثمـار . فطلب إلى غلامه أن يغرس مكان أشجار الفاكهة زيتونا ، حتى لا يستطاع أكله . (٩) الكعب هنا : فص النرد . وفى الكلام مجاز غير خفى . (١٠) باع الخ ، يقال : باع فلان فلانا داره ، وباع منه . وحويطب بن عبد العزى القرشى ، عده الجاحظ فى (البيان والتبيين) فى أربعة من قريش كانوا رواة الناس للأشعار ، وعلماءهم بالأنساب والأخبار . والضمير فى (له) يرجع إلى حويطب ، كما هو ظاهر .

* * *

وقالوا : سأل خالدَ بنَ صَفْوانَ رجلٌ فأعطاه دِرْهمًا . فاستقلّه السائل ، فقال : يا أحمقُ ! إنّ الدّرهمَ عُشْرُ العشرة (١) ، و إنّ العشَرةَ عُشرُ المائة ، و إنّ المائةَ عُشر الألف ، و إنّ الألف عشر العشرة الآلاف (٢) . أما ترى كيف ارتفع الدرهمُ إلى دِيَةِ (٣) مسلم !

* * *

قالوا : كان بِلالُ بنُ أبى بُرْدَة (٤) قد خاف الجُذَامَ ، وهو والى البَصْرة . فوصفوا له الاستنقاعَ (٥) فى السَّمْن . فكان إذا فَرَغ من الجلوس فيه ، أمر ببيعه . فاجتنبَ النـاسُ فى تلك السـنة أكلَ السمن .

وكان يُفَطِّر النـاسَ فى شهر رمضانَ . فكانوا يجاسون حَلَقًا ، وتوضـع لهم الموائد . فإذا أقام المؤذّنُ ، نهض بِلالٌ إلى الصـلاة ، و يَسْتَحِى الآخرون . فإذا قاموا إلى الصلاة ، جاء الخبّازون فرفعوا الطعام (٦) !

* * *

قال : واحتقن عُمَرُ بنُ يزيدَ الأسَدىّ (٧) بحقنة فيها أدْهانٌ . فلما حرّكته بطنُه (٨) كره أن يأتى الخَـلاء ، فتذهبَ تلك الأدهانُ . فكان يجاس فى الطَّسْت ، ويقول : صَفُّوا هـذا ، فإنّه يصلح للسراج !

(١) أى عشر عشرة الدراهم . (٢) فى النسخ : عشر العشرة آلاف . ونظنه محرفا . (٣) الدية : ما يأخذه ولى القتيل من المال الذى هو بدل النفس ! . ولا يخفى ما فى كلام خالد بن صفوان من المغالطة والتمويه . (٤) سبق التعريف به فى ص ١٢٩ ، ج ١ (٥) قال فى المختار : واستنقع فى الغدير : نزل فيه واغتسل ، كأنه ثبت فيه ليتبرد اهـ . (٦) فإذا أقام المؤذن الخ ، أى فاذا أقام المؤذن الصلاة ، بعد فترة قصيرة جدا من تناول الطعام ، نهض بلال الخ . ويراد بالخبازين هنا من يتولون تهيئة الطعام ووضعه على الخوان ورفعه من فوقه ، بضرب من التجوز . (٧) كان من الشجعان الرؤساء المقدّمين فى أيام بنى مروان . ذكره يزيد بن عبد الملك يوما ، فقال : "هذا رجل العراق" . قتله مالك بن المنذر بن الجارود اهـ من (الأعلام) . (٨) هكذا فى النسخ ، على لغة فى تأنيث البطن ، حكاها أبو عبيدة ، كما فى المختار .

قال : وخبَّرنا جارٌ له قال : رأيته يتخلّل من الطعام بخِلالٍ واحدٍ شهراً ، كلّما تغدّى حذف من رأسه شيئاً ، ثم تخلّل به ، ثم وضعه فى مَجْرَى دواته [(١)] .

وقالوا : كان ذِراعُ الذرّاعِ مع خالدِ بنِ صَفْوان . فوضعوا بين يديه دَجَاجة ، و بين يديه شىءٌ من زيتون . فجعل يلحَظُ الدَّجاجةَ [(٢)] . فقال : كأنك تَهُمُّ بها ! قال : ومَنْ يمنعنى؟ قال : إذًا أصير أنا وأنت فى مالى سواءً [(٣)] !

٥

* * *

قال : ومدَّ يده أبو الأشهب إلى شىء بين يدَىْ نُمَيْلةَ بنِ مُرّةَ السَّعْدىِّ . فقال : إذا أفْرِدْتَ بشىء فلا تعترضْ لغيره .

قالوا : ومات وعليه للدَّقاق وحدَه ثمانونَ ألفَ درهم ، لكثرة طعامه [(٤)] !

١٠

* * *

وقالوا : كان الحَكَمُ بنُ أيّوبَ الثَّقفِيُّ [(٥)] عاملا للحجّاج على البَصْرة . واستعمل على العِرْق [(٦)] جريرَ بنَ بَيْهَسٍ المازنىَّ ، (ولَقَبُ جريرٍ العَطَرَّق) [(٧)] . فخرج الحَكَمُ يتنزّه ، وهو باليمامة . فدعا العَطَرَّق

---

(١) فى مجرى دواته ، فى بعض النسخ : فى مخزن دواته . وهو ما توضع فيه الأقلام أو نحوها من أدوات الكتابة ، وهو متصل بها . ولقد كان يجلب إلى مصر إلى عهد قريب — من بلاد الترك ، دوىّ من النحاس على هذا الوضع .

(٢) فوضعوا الخ ، الضمير فى (يديه) الأولى يرجع إلى خالد بن صفوان . وضمير (يديه) الثانية يعود إلى ذراع الذراع . والضمير فى (جعل) يعود على ذراع الذراع . وفى نسخة ليدن : فجعل يلقط . ونرجح أنها محرفة عن (يلحظ) .

١٥

(٣) أى مع أن الحق يقضى بتفضيل صاحب المال وتمييزه .

(٤) يريد الجاحظ بهذا أن يشير إلى أن البخل لا ينافى كثرة الإنفاق ، لأنه نوبات من اللؤم تكشف عن صاحبها ، وإن كثر ما ينفق على نفسه .

(٥) كان من العقلاء الدهاة ، ذوى الرأى والفطنة . دخل عليه ، وهو على البصرة ، جرير الشاعر ومدحه . وكان من ذلك نادرة طريفة بين جرير والحجاج ، تجدها فى الجزء الثانى من (البيان والتبيين) ص ١٦٩ — ١٧٠ ، فى حاشية للسندوبى . وللحكم مع إياس بن معاوية حكاية ، تجدها فى (عيون الأخبار) ج ١ — ص ٢٠٢

٢٠

(٦) موضع بالبصرة .

(٧) موضع على ست عشرة مرحلة من البصرة ، وعن الكوفة مثلها . كذا فى القاموس .

إلى غَدائه . فأكل معه . فتناول دُرَّاجةً[1] كانت بين يديه . فعزله ، وولّى مكانه نُوَيْرةَ المازنيَّ .

فقال نويرةُ ، وهو ابنُ عمِّ العَطَرَّق :

قد كان في العِرْق صيدٌ لو قنِعتَ به … فيه غِنًى لك عن دُرَّاجةِ الحَكَمِ

وفي عَوارِضَ لا تنفكُّ تأكلُها … لو كان يشفيك لحمُ الجُزْرِ من قَرَمِ![2]

وفي وِطابٍ مُمَلَّاةٍ مُثَمَّمَةٍ … فيها الصريحُ الذي يَشْفِي من القَرَمِ[3]

ولمّا ولّى مكانَه نُوَيرةَ، بلغه أنّه ابنُ عمٍّ له فعزله . فقال نويرة :

أبا يوسف لو كنتَ تَعرِف طاعتي … ونُصْحِي إذًا ما بِعتَني بالمُحَلَّقِ[4]

ولا سَاقَ سُرَّاقُ العُراقةِ صالحٌ … بَنِيَّ ولا كُلِّفْتُ ذنبَ العَطَرَّقِ[5]

فذهبت مثلا .

*
* *

وتناول رجلٌ من قُدّام أميرٍ كان لنا[6]، ضَخْمٍ، بَيْضَةً، فقال : خذها فإنّها بيضة العُقْرِ[7] .

فلم يزل محجوبا حتى مات .

---

(١) الدراجة : طائر يؤكل لحمه . وفي اللسان : من طير العراق أرقط اﻫ . جمعه : دراج . وقد سبق شرحه .

(٢) العوارض : جمع عارض أو عارضة ، وهي الناقة أو الشاة يصيبها داء أو كسر فتنحر . والعرب تعير بذلك .
والجزر (سكنت الزاي من ضم) : جمع جزور ، وهي الناقة المجزورة ، والقرم : شدة شهوة اللحم . وقد تقدّم شرحه .

(٣) الوطاب : جمع وطب (كنهر) ، وهو سقاء اللبن . مملاة : مملوءة . أصله مملأة ، سهلت الهمزة . ومثممة :
مغطاة بالثمام ، وهو نبت معروف بالبادية . والعرب تقول للشيء الذي لا يعسر تناوله : هو على طرف الثمام . وذلك أن
الثمام لا يطول فيشق تناوله . وفي اللسان : ثممت السقاء : إذا فرشت له الثمام وجعلته فوقه ، لئلا تصيبه الشمس فيتقطع
لبنه اﻫ . والصريح : اللبن الخالص . وفي قوله (القرم) إيطاء . ولعلها النهم .   (٤) أبو يوسف : كنية الحكم .
والمحلق : نقب من حل مكانه بعد عزله .   (٥) هكذا البيت في كتاب (عصر المأمون) . وهو في النسخ محرف هكذا :

ولا انحل سراق العراقة صالح … على ولا كلفت ذنب العطرق

والعراق بالضم : العظم عليه لحم . والتاء فيه للوحدة . والمعنى : لو كنت تعرف طاعتي ونصحي ما مكنت صالح
سراق العراقة من أن يسوق أولادي ، كما تساق العبيد ، ولا آخذتني بذنب ابن عمي فعزلتني .   (٦) كان لنا :
كان أميرا علينا .   (٧) آخر بيضة للدجاجة ، أو بيضة الديك ، يبيضها في السنة مرة ، في زعمهم .
كأنه يقول له : خذها ، فإنها آخر ما تنال على مائدتي .

وأتى ضَيْعَةً له يتنزّه إليها، ومعه خمسةُ رجال من خاصّته، وقد حملوا معه طعامَ خمسمائة[1]. وثقُل عليه أن يأكلوا معه، واشتدَّ جوعُه، فجلس على مَشَارةِ بَقْل[2]. فأقبل ينتزع الفُجْلةَ فيَطْوِى جَزَرتها[3] بِعرْقِها، ثم يأكُلها، من غير أن تُغْسَل، من كَلَب الجوع[4]، ويقول لواحدٍ منهم كان أقربَ الخمسةِ إليه مجلسًا: لو قد ذهب هؤلاء الثقلاءُ لقد أكلْنا!

* * *

قالوا: وأكل عبـدُ الرحمن بنُ أبى بَكْرَةَ[5] على خِوانِ معاويةَ، فرأى لَقْمَ[6] عبـدِ الرحمن. فلمّا كان بالعَشِىّ، وراح إليه أبو بَكْرَةَ[7]، قال: ما فعل ابنُك التِّلْقامةُ[8]؟ قال: اعتلّ. قال: مثلُه لا يعدَم العلّة!

* * *

وأكل أعرابىٌّ مع أبى الأسود الدُّؤَلِىّ[9]، فرأى له لَقْمًا مُنْكرًا، وهاله ما يصنع. قال له: ما اسمُك؟ قال لُقْمان[10]. قال: صدق أهلُك، أنت لقمان!

قالوا: وكان له دُكّانٌ[12] لا يسَع إلّا مقعَده، وطُبَيْقًا[11] يوضع بين يديه، وجعله مرتفعا، ولم يجعل له عَتَبًا، كى لا يرتقِىَ إليه أحدٌ. قالوا: فكان أعرابىٌّ يتحيّنُ وقتَه[13]، ويأتيه على فرس،

---

(١) هـذه مبالغة الجاحظ. يقول: إنه يضن بالطعام مع كثرته. (٢) المشارة: المزرعة.
(٣) جزرتها: أرومتها (بضم الهمزة والراء) التى تشبه الجزرة. (٤) من كلب الجوع: لشدته. والفعل من باب فرح. (٥) هو عبد الرحمن بن أبى بكرة الثقفى: من أعيان التابعين. وفى (البيان والتبيين): قيل لعبد الرحمن بن أبى بكرة: أى الأمور أمتع؟ قال: الأمانى. توفى سنة ٩٦ هـ. (٦) اللقم: مصدر لقم (من باب فهم)، وهو الأكل السريع. (٧) هو نفيع بن الحارث بن كلدة بن عمرو بن علاج الثقفى — أو هو نفيع بن مسروح، والحارث بن كلدة مولاه، الصحابى المشهور بالبصرة. تدلى يوم الطائف من الحصن ببكرة، فكناه النبى صلى الله عليه وسلم أبا بكرة لذلك اهـ من القاموس وشرحه. (٨) التلقامة: عظيم اللقم (جمع لقمة).
(٩) سبق التعريف به فى ص ٤٤ — ج ١ (١٠) يقول له: قد طابق الاسم المسمى. أى كأن لقمان مشتق من (اللقم). (١١) (طبيقا): تصغير طبق، وهو ما يؤكل فيه أو عليه. والضمير فى جعله يعود إلى الدكان.
(١٢) المراد بالدكان هنا المكان العالى. والظاهر أنه كان بجانب منزله. (١٣) وقته: وقت أكله.

فيصيرُ كأنّه معه على الدكان . فأخذ دَبَّةً[1] وجعل فيها حَصًى، واتّكأ عليها . فإذا رأى الأعرابىَّ قد أقبل، أراه كأنّه يُحوِّل مُتَّكأه . فإذا قعقعتِ الدَّبَّةُ بالحصى نَفَرَ الفرسُ .

قالوا : فلم يزل الأعرابىُّ يُدنيه[2]، ويُقعقع هو به[3]، حتى نفَر منه[4] فصرعه . فكان لا يعود بعد ذلك إليه .

رسالة أبى العاصِ[5] بنِ عبدِ الوهّابِ بنِ عبدِ المجيد الثَّقَفىِّ إلى الثَّقَفِىِّ :

بسم الله الرحمن الرحيم

أمّا بعدُ فإنّ جلوسَك إلى الأصمعىّ، وعُجْبَك[6] بسهل بنِ هارونَ، واسترجاحَك إسماعيلَ ابنَ غَزْوانَ[7]، وطعنَك على مُوَيْسِ بنِ عِمْرانَ[8]، وخِلْطَتَك[9] بابنِ مُشارِكٍ، واختلافَك إلى ابنِ التَّوْأمِ[10]، وإكْثارَك من ذكرِ المالِ وإصلاحِه، والقيامِ عليه واصطناعِه[11]، وإطْنابَك فى وصفِ التَّرويج[12]

(١) الدبة : القرعة . وقد كانت جوفاء . (٢) الضمير فى (يدنيه) يعود إلى الفرس . (٣) الضمير فى (به) يعود إلى الحصى . (٤) نفر به، الضمير فى (منه) يعود إلى صوت القعقعة المفهوم من المقام .

(٥) أبو العاص بن عبد الوهاب : ذكره صاحب الأغانى فى خلال ترجمة محمد بن مناذر، إذ كان أخوه عبد المجيد ابن عبد الوهاب صديقا حميا لابن مناذر — انظر ج ١٧ — ص ١٢ (٦) سبق التعريف به فى ص ١٨ — ج ١ (٧) واسترجاحك الخ : عدك إياه راجحا . والكلام على حذف مضاف، أى استرجاح مذهبه . وتجد فى حاشية ص ١٨ — ج ١ شيئا عن إسماعيل بن غزوان . (٨) وطعنك الخ، لأن مويس ابن عمران كان من الكرماء ذوى اليسار . راجع ص ١٣٠ — ج ١، عند قوله : "وهذا أبو شعيب القلال" إلى "الكثير" . وقد ذكر مويس بن عمران سبع مرات فى هذا الكتاب ليس فيها ما يدل على بخله . وذكره الجاحظ فى موضع واحد فى (البيان والتبيين) فقال : وكان مويس بن عمران يقول : لم أر أنطق من أيوب بن جعفر ويحيى ابن خالد اهـ . ورواية الجاحظ عنه تشهد له بالعلم والرأى وجودة الفهم . (٩) الخلطة (بالكسر) : العشرة، (وبالضم) : الشركة . (١٠) ابن التوأم الرقاشى، من العقلاء ذوى الرأى واللسن، ومن البخلاء ذوى الفلسفة والجدل . أورد له الجاحظ فى (البيان والتبيين) كلاما فى غير موضع . ومن كلامه : الروح عماد البدن، والعلم عماد الروح، والبيان عماد العلم . وذمه رجل بالبخل فقال : رأيته مشحم النعل، درن الجورب، دقيق الجربان . وقيل له : تكلم . فقال : ما أشتهى الخبز إلا بائتا . وتجد له فى ج ٣، ص ١٧٠ من (عيون الأخبار) كلاما بليغا . (١١) اصطناعه : اتخاذه . (١٢) فى الأساس : روّجت الدراهم والسلعة : جوّزتها .

والتثمير، وحسنِ التعهُّدِ والتَّوْفير — دليلٌ على خَبِيء سوءٍ، وشاهدٌ على عيبٍ و إدبار[١]؛ بعد أن كنتَ تستثقلُ ذِكرَهم، وتستشنِعُ فِعلَهم، وتتعجبُ من مذهبِهم، وتُسرِفُ فى ذمِّهم .

وليس يلهَجُ بذكرِ الجَمْع[٢]، إلّا من قد عزم على الجمع، ولا يأنَس بالبخلاء، إلّا المستوحِشُ من الأسخياء .

وفى تحفُّظِك قولَ سهلِ بنِ هارونَ : " فى الاستعدادِ[٣] فى حال المُهْلة، وفى الأَخْذ بالثقة، وأن أَقبَح التفريطِ ما جاء مع طول المدّة[٤]، وأنّ الحَزْمَ كلَّ الحزمِ، والصوابَ كلَّ الصواب، أنْ يُستَظْهرَ على الحَدَثَان[٥]، وأن يُجعلَ ما فَضَل عن قِوام الأَبدان، رِدْءًا دونَ صروف الزمانِ، وأنّا لا نُنْسَب إلى الحكمة، حتى نَحُوطَ أصل النِّعْمةِ، بأن نجعل دون فضولها جُنَّة[٦]" — شاهدٌ[٧] على عُجْبِك بمذهبه، و برهانٌ على ميلك إلى سبيله .

وفى استحسانك روايةَ الأَصْمَعِىِّ فى " أنّ أكثرَ أهلِ النـار النساءُ والفقـراءُ، وأنّ أكثرَ أهل الجنّة البُلْه والأغنياءُ، وأنّ أربابَ الدُّثُور، هم الذين ذهبوا بالأجور[٨]" — برهانٌ على صحّة حكمِنا عليك، ودليلٌ على صواب رأْينا فيك .

(١) إدبار الأمر : انتهاؤه إلى الفساد والتدهور. وفى بعض النسخ : دبر (بضم فسكون)؛ وهو اسم من الإدبار .

(٢) جمع الأموال . (٣) فى الاستعداد الخ، أى فى وجوب الاستعداد لحوادث الزمان بجمع المال، فى وقت القوّة والشـباب . و(فى الأخذ بالثقة)، أى إحكام الأمر والتثبت فيه، والاحتياط له بأخذ العدة له .

(٤) أى مدّة القدرة على الجمع والاستعداد، وهى مدّة الصحة والقوّة . (٥) استظهر عليه بالأمر : استعان . وحدثان الدهر : نوبه . (٦) الجنة : الوقاية . أى إن الحكمة إنما تكون بالمحافظة على الثروة، وبوضع سد منيع من الحرص وحسن التدبير، يحول دون ذهاب ما فضـل عن الحاجة منها . (٧) شاهد : مبتـدأ مؤخر، خبره : فى تحفظك . (٨) إنما استحسن رواية الأصمعى، لأنه رأى فيها ما يلائم ميله إلى جمع الأموال؛ إذ أن كثرة النساء فى النـار بسبب تبذيرهن . وكذلك الفقراء؛ لأن تبذيرهم أوقعهم فى هوة الفقـر . وأن كثرة البله والأغنياء فى الجنة؛ لأن الأولين أشبه بالأطفال؛ ولأن الآخرين فازوا بالجنة، لحرصهم وحسن تدبيرهم . وقوله : وأن أرباب الدثور الخ، الدثور : جمـع دثر (بفتح فسكون)، وهو المـال الكثير . أى إن أصحاب الأموال جمعوا أنواع الثواب، لأن مالهم يمكنهم من عمل الخير .

وفى تفضيلك كلامَ ابنِ غَزْوانَ[(١)]، حين قال :

” تنعَّمتُمْ بالطعامِ الطيِّبِ ، وبالثياب الفاخرة ، وبالشراب الرقيق ، وبالغناء المطرب ؛ وتنعَّمنا بعزِّ الثروةِ ، وبصواب النظر فى العاقبة ، وبكثرة المال ، والأَمْن من سوء الحال ، ومن ذُلِّ الرغبة إلى الرجال[(٢)]، والعجزِ عن مصلحة العيال —

فتلك لذّتُكم ، وهذه لذّتنا . وهذا رأيُنا فى التسلُّم من الذم[(٣)]، وذاك رأيُهم فى التعرُّض للحمد . وإنّما ينتفع بالحمد السليمُ الفارغُ البالِ ، ويُسَرُّ باللذات الصحيحُ الصادقُ الحِسّ . فأمّا الفقيرُ فما أغناهُ عن الحمد ، وأفقرَه إلى ما به يجد طَعْمَ الحمد[(٤)] !

والطعامُ الذى آثرتموه يعود رَجيعا ، والشرابُ يصير بَوْلا ، والبناءُ يعود نقْضًا[(٥)] ، والغناءُ[(٦)] ريحٌ هابّةٌ ، ومُسقِط للمُرُوءة ، وسَخافةٌ تُفسِدُ ، ورَنَّة تَسير[(٧)] . فلذَّتُكم فيما حوَى لكم الفقرَ ، ونقَضَ المروءةَ ؛ ولذّتُنا فيما حوى لنا الغِنَى ، وبَنَى المُرُوءَةَ . فنحن فى بناءٍ ، وأنتم فى هدْم ؛ ونحن فى إبرام ، وأنتم فى نَقْضٍ ؛ ونحن فى التماس العزِّ الدائم[(٨)] ، مع فَوْت بعض اللَّذةِ ، وأنتم فى التعرّض للذّل الدّائم ، مع فَوْت كلّ مُرُوءةٍ “ .

وقد فهمنا معنى حكايتك ، وما لهِجْتَ به من رواياتك . والدليلُ على انتقاض طباعِك[(٩)] ، وإدبارِ أمرِك ، استحسانُك ضدَّ ما كنتَ تَستحسن ، وعشقُك لِما لم تزل تمقُت . فبُعْدًا وسُحْقًا ! ولا يُبعد اللهُ إلا من ظَلَم !

(١) وفى تفضيلك كلام ابن غزوان الخ ، أى شاهد أو برهان آخر . (٢) فى اللسان : يقال : رغبت إلى فلان فى كذا وكذا ، أى سألته إياه اهـ . أى ومن ذل سؤال الرجال . (٣) التسلم : السلامة ، مطاوع سلمه . وقوله : (رأيهم) ، هكذا فى النسخ . وكان مقتضى الظاهر أن يقول : (رأيكم) . وقوله : (فى التعرض للحمد) ، أى فى تعرضهم (أى الأسخياء) . وفى النسخ : التعريض . وهو خلاف الظاهر . (٤) وإنما ينتفع الخ ، يدعى أن نهايتهم إلى الفقر والسقم والهموم ، وأنهم حينئذ لا يغنيهم ما نالوه من الحمد أيام إسرافهم ، وأنهم يكونون فى حاجة إلى الثروة التى يتذوقون بها لذة الحمد والمديح . (٥) النقض : المنقوض ، وهو البناء المهدوم . (٦) فى بعض النسخ : والثناء . وهو تحريف ، بقرينة المقام . (٧) تذهب فى الهواء وتزول . (٨) هكذا فى نسخة الشنقيطى . وفى نسخة ليدن وغيرها : الغنى . (٩) انتقاض طباعك : انحلالها وتداعيها .

والشاعرُ أبصرُ بكم حيث يقول :

فإن سَمِعْتَ بِهُلْكٍ للبخيلِ فقلْ : بُعدًا وسُحْقًا له من هالك مُودِى ! (١)

تُراثُه جَنّــةٌ للوارثيــن إذا أَوْدَى ، وجُثْمانه للــتُّرْبِ والدُّود

وقال آخــــر :

تَبْلَى محاسنُ وجهــه فى قــبره والمــالُ بيــن عدوِّه مقسومُ

والحمد لله الذى لم يُمِتْنِى حتى أَرانيك وكيلًا فى مالك ، (٢) وأجيرًا لوارثك .

وأمّا أنت فقد تعجّلْتَ الفقْرَ (٣) قبل أوانه ، وصرتَ كالمجلودِ فى غير لذّة (٤) .

وهــل تزيد حالُ من أَنفقَ جميعَ مالِه ، ورأى المكروهَ فى عياله ، وظهــر فقْرُه ، وشمِت به عدوُّه ، على أكثرَ من انصراف المُؤْنسين عنــه ، وعلى بُغْض عياله (٥) ، وعلى خُشونة الملبَس ، وخُشُونة المأكل ؟ وهــذا كلّه مجتمع فى مَسْك (٦) البخيل ، ومصبوبٌ على هامةِ (٧) الشــحيح ، ومُعجَّل للئيم (٨) ، وملازم للمَنوع ؛ أَلَا إنّ المُنفِقَ قــد ربح المَحْمَدَةَ ، وتمتّع بالنعمةِ ، ولم يعطِّل المقدُرةَ (٩) ، ووفّى كلّ خَصْلَةٍ من هذه حقّها ، ووفّر عليها نصيبَها ؛ والممسكُ معذّبٌ بحصْرِ نفسه ، وبالكدِّ لغيره ؛ مع لزوم الحُجّــة (١٠) ، وسقوط الهمّــة (١١) ، والتعرّض للذمّ والإهانة ، ومع تحكيم المِرّة (١٢) السوداء فى نفسه ، وتسليطِها على عِرضه (١٣) ، وتمكينِها من عيشه وسرورِ قلبه .

(١) من أودى : إذا هلك . (٢) أى وكيلا فى مالك لورثتك ، لا تنتفع به انتفاع المالك .
(٣) وأما أنت الخ ، أى بحرمانك نفسك وتقتيرك وتضييقك . وفى نسخة ليدن : وما أنت ، وهو تحريف ظاهر .
(٤) أى وكانت حالتك فيما تلاقى من الآلام فى الحرص على المال من غير أن تمتع به ، كحالة من يجلد لا لارتكابه إثما لم يتلذذ به . (٥) وعلى بغض عياله ، أى له . (٦) خشونة الملبس والمأكل : خلوهما مما يسبب النعم والرفاهية . والمسك : الجلد والمراد : النفس والشخص . (٧) الهامة : الرأس . والجمع : هام .
(٨) اللئيم : الشحيح النفس . (٩) أى لم يعطل المقدرة على فعل الخير ، وكسب الثناء . (١٠) مع لزوم الحجة : مع قيام الحجة عليه فى بخله ، وعجزه عن المدافعة عن نفسه . (١١) الهمة : ما هم به من أمر ليفعل . وسقوط الهمة : العجز عن جلائل الأعمال . (١٢) المرة : خلط (بكسر فسكون) من أخلاط البدن . والمزاج الأسود : هو المزاج المضطرب الكثير المخاوف والوساوس . (١٣) وتسليطها الخ ، يعنى أنه بمخاوفه ووساوسه يستهدف للذم ، وتمكن هذه المرة من نفسه ، فتنغص عليه عيشه ، وتعبث بسروره .

ولقد سرَى إليك عِرقٌ[1]. ولقد دخل أعراقَك جَوْرٌ[2]، ولقد عمِل فيها قادِحٌ[3]، ولقد غالها غُولٌ[4]؛ وما هذا المذهبُ من أخلاقِ صميمِ ثقيف[5]. ولا من شِيَمٍ أعرقَتْ فيها قُرَيش[6]. ولقد عَرَض لك إقرافٌ[7]، ولقد أفسدَتْك هُجْنةٌ[8]. ولقد قال معاويةُ: من لم يكن من بني عبد المُطّلب جوادًا فهو دخيلٌ[9]، ومن لم يكن من آل الزُّبَيْر شجاعًا فهو لَزِيقٌ[10]، ومن لم يكن من بني المُغيرة تَيّاهًا فهو سَنِيد[11]. وقال سَلْمُ بنُ قُتَيْبة[12]: إذا رأيتَ الثقفيَّ يَعِزّ من غير طعام[13]، ويكسِبُ لغير إنفاق. فبهرِجْه ثم بهرِجْه ثم بهرِجْه[14]. وقال بلالُ بنُ أبي بُرْدَةَ[15]: لولا شبابُ ثقيف وسفهاؤهم ما كان لأهل البَصْرة مال[16].

إنّ الله جوادٌ لا يبخَل، وصَدُوق لا يكذِب، ووَفيٌّ لا يغدِر، وحليمٌ لا يعجَل، وعَدْل لا يظلِم. وقد أمَرَنا بالجود، ونهانا عن البخل، وأمرنا بالصدق، ونهانا عن الكذب، وأمرنا بالحلم، ونهانا عن العَجَلة، وأمرنا بالعدل، ونهانا عن الظلم، وأمرنا بالوفاء، ونهانا عن الغدر.

---

(١) اندس في أعراق نفسك عرق خسيس ليس منها. (٢) الجور: الابتعاد عن الطريق القويم.

(٣) القادح: أكال (بالضم) يقع في الشجر والأسنان. والقادح: العفن. يقول: أصيبت هذه الأعراق والصفات بعلة قضت عليها. (٤) الغول: كل ما اغتال. (٥) أي إنك شذذت وابتعدت عن ثقيف قبيلتك وعشيرتك. وقد سبق الكلام عليها. (٦) أعرقت فيها: صارت فيها ذات عروق، أي تأصلت فيها. يقال ذلك في الكرم واللؤم جميعا، كما في اللسان. يقول: إن هذا المذهب كما أنه ليس من شيم ثقيف، كذلك هو أيضا ليس من شيم قريش التي هي أصل ثقيف. (٧) المقرف: الذي أمه عربية وأبوه ليس كذلك. والمراد بالإقراف هنا ما يشين. أي كأنك لم تكن عربيا صحيحا. (٨) الهجنة: أن تكون الأم غير عربية والأب عربيا. (٩) الدخيل: النزيل بين القوم وليس منهم. وفي نسخة ليدن: بخيل. وهو تحريف لا شك فيه. (١٠) الذي لزق بنسب قوم وليس منهم. ونرجح أنه يريد بالزبير هنا الزبير بن العوام الصحابي الشجاع، أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأول من سل سيفه في سبيل الإسلام. قتل غيلة سنة ٣٦ هـ. ومن أولاده عبد الله ومصعب وعروة. (١١) ومن لم يكن الخ. سبق في ص ١٣٢، ج ١، أن بني المغيرة أخوال عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأنهم كانوا أكثر قريش طعاما. و(تياها): فخورا بكرم أصله. والسنيد: الدعي، وهو من ينتمي إلى غير أهله. (١٢) سبق له ذكر في ص ١٢٩، ج ١ (١٣) من غير طعام: من غير أن يطعم الناس. (١٤) بهرجه: أهمله. وقد سبق الكلام على هذه اللفظة في ص ١٢٢، ج ١

(١٥) سبق التعريف به في ص ١٢٩، ج ١ (١٦) أي لكثرة ما ينفقون في البصرة ويبذلون.

فلم يأمرْنا إلا بما اختار لنفسه، ولم يزجرْنا إلا عمّا لم يرضه لنفسه . وقد قالوا بأجمعهم (١) :
إنّ الله أجودُ الأجودِين، وأمجدُ الأمجدِين؛ كما قالوا: أرحمُ الراحمين، وأحسنُ الخالقين . وقالوا
فى التأديب لسائليهم، والتعليم لأجْوادِهم: لا تُجاوِدُوا الله (٢)، فإنّ الله — جلّ ذكرُه — أجودُ وأمجدُ.
وذكرَ نفسَه — جلّ جلالُه، وتقدّسَتْ أسماؤه — فقال: "ذو الفضل العظيم" و"ذى الطَّوْل (٣)،
لا إله إلّا هو". وقال: "ذو الجلال والإكرام". ٥

وذكروا النبيّ (صلّى الله عليه وسلّم)، فقالوا: لم يضع دِرْهما على دِرْهمٍ، ولا لَبِنَةً على لَبِنَة،
ومَلَك جزيرةَ العرب، فقبض الصدقاتِ، وجُبِيَتْ له الأموالُ، ما بين غُدْرانِ العراقِ إلى شِحْر (٤)
عُمانَ، إلى أقصى مَخاليفِ (٥) اليمن . ثم تُوفّى وعليه دَيْنٌ، ودرعُه مرهونةٌ . ولم يُسْأَلْ حاجةً قطّ
فقال: لا . وكان إذا سُئِل أعْطى، وإذا وعَد أو أطْمَعَ كان وعدُه كالعِيان (٦)، وإطْماعُه كالإنجاز .
ومدحته الشعراءُ بالجُود، وذكرته الخطباءُ بالسَّماح . ولقد كان يَهَبُ للرجل الواحدِ الضاجعةَ (٧) ١٠
من الشَّاءِ، والعَرْجَ (٨) من الإبِل — وكان أكثرُ ما يهبُ الملكُ من العرب مائةَ بعير، فيقال: وهَب
هُنَيْدةً (٩) . وإنّما يقال ذلك، إذا أريد بالقول غايةُ المدح — ولقد وَهَب لرجل ألْفَ بعير .
فلما رآها تزدحمُ فى الهوادِى (١٠) قال: أشْهَدُ أنّك نبيٌّ . وما هذا ممّا تجودُ به الأنفُس .

---

(١) أى قال العرب، أو العقلاء، جميعا . (٢) أى لا تحاولوا أن تصلوا فى الجود إلى مثل جود الله .
(٣) الإفضال والإنعام . (٤) ساحل البحر بين عمان وعدن . قاموس . (٥) المخلاف (بكسر الميم) : ١٥
الكورة . وهو عند أهل اليمن : واحد المخاليف، وهى كورها (بضم ففتح) . وقدم تقدم شرح المخاليف
فى ص ٩٩، ج ١ (٦) مصدر عاين الشىء: أبصره . والمعنى أن وعده — فى الوثوق بتحققه — كالشىء المشاهد .
(٧) الضاجعة : الغنم الكثيرة . (٨) العرج من الإبل : ما بين السبعين إلى الثمانين . وقيل : هو ما بين
الثمانين إلى التسعين . وقيل : مائة وخمسون وفويق ذلك . وقيل : من خمسمائة إلى الألف . (٩) هند وهنيدة :
اسم للمائة من الإبل خاصة . (١٠) الهادية والهادى : العنق . والهادية من كل شىء : أوّله وما تقدم منه . ٢٠
فيكون معنى : تزدحم فى الهوادى : تزدحم بأعناقها . وهذا ما يشاهد فى الإبل . أو يكون المعنى : تزدحم فى أوائلها .
وهذا مشاهد أيضا فى كل قطيع . وفى النسخ : القوادى . ولا معنى لها .

ونَفَـرت هاشم على سائر قريش فقـالوا : نحن أطْعمُ للطعام، وأضربُ لِلْهام . وذكرها بعض العلماء فقالوا : أجوادٌ أمجادٌ، ذوو السـنة حِدادٍ[1] . وأجمعت الأمم كلُّها بخيلُها وسخيُّها ومُمَزوجُها[2]، على ذمِّ البخل، وحمد الجود، كما أجمعوا على ذمِّ الكذب وحمد الصدق . وقالوا : أفضـلُ الجودِ، الجودُ بالمجهودِ[3] . وحتّى قالوا فى جُهْدِ المُقِلّ[4]، وفيمن أخرج الجُهـد وأعطى الكُلّ[5] . وحتّى جعلوا لمن جاد بنفسه، فضيلةً على من جاد بماله، فقال الفرزدق :

على ساعةٍ لو كان فى القوم حاتمٌ ... على جوده ضَنّتْ به نَفْسُ حاتم[6]

ولم يكن الفرزْدقُ لِيضربَ المثَلَ فى هذا الموضع بكعبِ بن مامةَ، وقد جاد بحَوْبائه عند المُصافنةِ[7] . فما رأينا عربياً سـفّه حلمَ حاتم بجوده بجميع ماله . ولا رأينا أحداً منهم سفّه حِلْمَ

---

(١) حداد : جمع حديد : أى ذات حدة ومضاء وفصاحة . (٢) من امتزج فيه السخاء والبخل، فكان وسطاً بين الكريم والبخيل . (٣) المجهود هنا : الجهد . أى الجود بقدر الجهد والطاقة، ولو كان المعطى مقلا .

(٤) أى قالوا فى الثناء على الفقير الذى يجود بما يستطيع . ففى الأثر : « أفضـل العطية جهد المقل » وقالوا : « جهد المقل، أفضل من غنى المكثر » . (٥) أى وقالوا فيمن بذل جهده على إقلاله، وفيمن خرج عن كل ماله فى بذل المعروف . والجهد هنا بمعنى المبذول بالجهد . (٦) كان الفرزدق قد صافن رجلا من بنى العنبر ابن عمرو بن تميم . فطلب منه العنبرى أن يؤثره على نفسه ففعل . والمصافنة فى السفر : أن يقاسم الرفيق رفيقه الماء، حتى لا يغبن أحدهما الآخر . ومعنى البيت : آثرت العنـبرى على نفسى فى ساعة اشـتد فيها ظمئى . حتى لو أن حاتما المشهور بالكرم كان معنا، لضنت نفس حاتم بما بذلت فى تلك الساعة العصيبة . ويروى البيت :

على ساعة لو أن فى القوم حاتما ... على جـوده ما جاد بالماء حاتم

بكسر ميم حاتم، على أنه بدل من الضمير فى جوده . والفرزدق هو همام بن غالب التميمى أبو فراس، الشاعر الفحل . وكان هو وجرير والأخطل ممن كان لهم السبق فى عهد بنى مروان على سائر الشعراء . توفى سنة ١١٠ هـ .

(٧) الحوباء : النفس . وقد كان كعب بن مامة الإيادى أحد أجواد العـرب . وكان مسـافرا . وكان رفيقه رجلا من النمر بن قاسط . فقل عليهما الماء . فتصافنا . فجعل النمرى يشرب نصيبه . فإذا أخذ كعب نصيبه قال له : اسق أخاك النمرى . فيؤثره . حتى جهد كعب ونزل به ضعف شديد . فلما ظهرت أعلام الماء قيل له : رد كعب، فلم يستطع . فمات عطشا . وفى ذلك يقول أبو دؤاد الإيادى :

أوفى على الماء كعب، ثم قيل له : ... رد كعب إنك وراد، فما وردا

وقوله : لم يكن الفرزدق الخ . أى ليتشبه بكعب بن مامة، لأنه آثر هو أيضا رجلا من بنى العنبر على نفسه . وفى الكلام حذف . والتقدير : لم يكن الفرزدق ليضرب المثل الخ ... إلا ليبلغ غاية كرم النفوس .

كعبٍ على جوده بنفسه، بل جعلوا ذلك من كَعْبٍ لإيادٍ مفْخَرًا . وجعلوا ذلك من حاتم طَيِّئٍ مَأثُرةً لقَحْطانَ على عَدْنانَ [١]، ثم للعرب على العجم، ثم لسكّان جزيرة العرب ولأَهلِ تلك البَرِّيّة على سائرِ الجزائر والتُّرَب .

فمن أراد أن يخالف ما وصف اللهُ ــ جلّ ذكْرُه ــ به نفسَــه، وما مَنَحَ من ذلك نبيَّه (صلّى الله عليه وسـلّم)، وما فَطَر على تفضيله العربَ قاطبةً، والأُمَمَ كافّةً، لم يكن عندنا فيه إلا إكفارُه واستسقاطُه [٢] .

ولم نرَ الأمّةَ أبغضت جوادًا قطّ، ولا حقَرتْه، بل أحبّتْــه وأعْظَمَتْه، بل أحبَّتْ عَقِبَه وأعْظَمَتْ من أَجْله رَهْطَه . ولا وجَدْناهم أبغضوا جوادًا، لمجاوزته حدَّ الجود إلى السَّرَف، ولا حَقَرتْه . بل وجَدْناهم يتعلّمون مناقِبَه، ويتَدارسون محاسنَه . وحتى [٣] أضافوا إليه من نوادر الجميــلِ [٤] ما لم يفعله، ونَحَلُوه [٥] مِن غرائب الكرم ما لم يكن يبلغُه . ولذلك زعموا أنَّ الثناءَ في الدنيا يُضَاعَفُ [٦]، كما تُضاعَفُ الحسنَاتُ في الآخرة . نعم، وحتى أضافوا إليه كلَّ مديحٍ شارِدٍ [٧]، وكلَّ معروف مجهولِ الصاحب . ثم وجدنا هؤلاء بأعيانهم [٨] للبخيل، على ضِــدِّ هذه الصفة،

(١) بل جعلوا ذلك الخ، إياد : قبيلة كعب، كما سبق . قال في اللسان : وإياد : اسم رجل، هو ابن معد . وهم اليوم باليمن اهـ . وقحطان : أبو اليمن . وطيئ : أبو قبيلة من اليمن . وحاتم الطائى غنى عن التعريف . وهو أبو عدى، حاتم بن عبــد الله بن سعد بن الحشرج الطائى . وكانت وفاته نحو سنة ٤٥ ق هـ . وعدنان : أحد من تقف عنــدهم أنساب العرب . والمؤرخون متفقون على أنه من أبناء إسماعيل بن إبراهيم . وإلى عدنان ينتسب معظم أهــل الحجاز . وفي بعض النسخ : لعدنان على قحطان . وهو غير صحيح كما رأيت . (٢) في اللسان : وأكفرت الرجل : دعوته كافرا اهـ . واستسقاطه : إسقاطه من بين العقلاء . (٣) قالوا : إن الواو ليست داخلة في الحقيقة على (حتى)، بل هى داخلة على جمــلة مفهومة من المقام . أى : وظلوا كذلك حتى أضافوا الخ . وقد سبق لنا مثل هذا التعليق . (٤) الفعل الجميل . (٥) نحلوه : نسبوا إليه . (٦) يضاعفه الناس أضعافا كثيرة، بما يضيفون إليه ويزيدون عليه . (٧) شارد : نافر . يريد المديح الغريب الذى لا يخطر عادة بالبال . (٨) في النسخ : بأنعاتهم . وما هنا مطابق لنسخة الشنقيطى .

وعلى خلاف هـذا المذهب : وجدناهم يُبغضونه مرّة ويحقّرونه مرّة ، ويُبْغِضون بفضل بُغْضه[1] وَلَده ، ويحتقرون بفضل احتقارهم له رهْطَه[2] ، ويضيفون إليه من نوادر اللؤم ما لم يبلُغْه[3] ، ومن غرائب البخل ما لم يفعله . وحتّى ضاعفوا عليه من سوء الثناء ، بقدر ما ضاعفوا للجواد من حسن الثناء .

٥ وعلى أنّا لا نجدُ الجوائحَ[4] إلى أموال الأسخياء ، أسرعَ منها إلى أموال البخلاء ، ولا رأينا عددَ من افتقر من البخلاء أقلّ .

والبخيلُ عند الناس ليس هو الذى يبخَلُ على نفسه فقط ، فقد يستحق عندهم اسمَ البخيل ، ويستوجب الذم ، من لا يدَع[5] لنفسه هوًى إلّا ركبَه ، ولا حاجةً إلّا قضاها ، ولا شهوةً إلّا ركبها وبلغ فيها غايتَه . وإنّما يقع عليه اسم البخيل ، إذا كان زاهدًا فى كلّ ما أوجبَ الشكرَ ، ونوّه بالذكر ، وادّخر الأجرَ . ١٠

وقد يُعلِّق[6] البخيلُ على نفسه من المُؤَن ، ويُلزمها من الكُلَف ، ويتخذ من الجوارى والخَدَم ، ومن الدوابّ والحشَم[7] ومن الآنية العجيبة ، ومن البِزّة[8] الفاخرة ، والشارة[9] الحسَنة ، ما يُرْبِى[10] على نفقة السخىّ المُثْرى ، ويَضْعُف[11] على جود الجواد الكريم . فيذهبُ مالُه وهو

---

(١) بفضل بغضه : بسبب زيادة بغضه . (٢) سبق أن قلنا إن (اللؤم) يفيد دناءة الأصل والشح .

(٣) فى اللسان : والثناء ما تصف به الإنسان من مدح أو ذم . وخص بعضهم به المدح . (٤) جمع جائحة : وهى الآفة . (٥) فى بعض النسخ : ولا يدع . وهو تحريف . (٦) يعلق : يوجب ويكلف . ١٥

(٧) الحشم : الخدم . وهى كلمة فى معنى الجمع ، ولا واحد لها من لفظها . (٨) الهيئة : يقال : هو حسن البزة . (٩) الشارة : هنا الزينة واللباس . (١٠) يقال : أربى الشىء على كذا : زاد عليه . وفى نسخة ليدن : يرمى (مضارع أرمى) . وأربى وأرمى لغتان فى هذا المعنى . وفى نسخة : يربو . وهى صحيحة أيضا .

٢٠ (١١) ضعف يضعف (من باب كرم) زاد . وفى الحديث : تضعف صلاة الجماعة على صلاة الفذ خمسا وعشرين درجة ، أى تزيد عليها . وفى نسخة ليدن : الجواد الكهم . ولم نجد لهذا اللفظ معنى ملائما . فهو تحريف .

مذمومٌ، ويتغـير حالُه وهو مَلُوم . وربمـا غلَب عليـه حبُّ القِيَان[١]، واستُهتِر بالخِصْيان[٢].
وربّمـا أفرط فى حبّ الصيد، واستولى عليه حبُّ المراكب[٣]. وربمـا كان إتلافه فى العُرْس
والخُـرْس[٤] والوليمة، وإسرافُه فى الإعذار[٥] وفى العَقِيقَـة[٦] والوَكِيرة[٧]. وربمـا ذهبت أمواله
فى الوضائع[٨] والودائع .

ورُبّمـا كان شـديدَ البخل، شديدَ الحبّ للذِّكر[٩]، ويكونُ بخلُه أوشَجَ[١٠]، ولؤمُه أقبَح ؛ ٥
فينفقُ أموالَه ويُتلف خزائنَه، ولم يَخْرُج كَفافًا[١١]، ولم ينْجُ سليما .

كأنّك لم تَرَ بخيلًا مخدوعًا[١٢]، وبخيلًا مضْعُوفًا[١٣]، وبخيلا مِضْياعًا، وبخيلًا نفّاجا[١٤]، وبخيلًا
ذهب مالُه فى البناء، وبخيلًا ذهب مالُه فى الكيمياء[١٥]، وبخيـلًا أنفقَ مالَه فى طمع كاذب،
وعلى أمل خائب، وفى طلب الولايات، والدخول فى القَبالات[١٦]، وكانت فتنتُه بمـا يؤمِّل
من الإمْرة[١٧]، فوق فتنته بمـا قد حواه من الذهب والفضّة . ١٠

---

(١) جمع قينة (بفتح فسكون)، وهى الأمة البيضاء، مغنية أو غير مغنية . (٢) استهتر (بالبناء للمفعول) بالشىء : أولع به . والولع بالخصيان نوع من الإسراف كان شائعا إذ ذاك . (٣) جمع مركب . والمراد ما يركب من الخيل ونحوها . (٤) الخرس (بالضم) والخراس (بالكسر) : طعام يصنع ابتهاجا بالولادة .

(٥) الإعذار والعذار والعذير والعذيرة : وليمة الختان، وطعام البناء . (٦) الشاة تذبح فى اليوم السابع من ولادة المولود . (٧) الطعام يتخذه الرجل ويدعو إليه عند انتهاء ما كان يبنيه . (٨) جمع وضيعة . ١٥ وهى ما يرفعه الدائن عن المدين من الدين . (٩) شديد الحب لأن يذكر بمـا ينفقه من مال فى هذه السبيل .

(١٠) أعلق بنفسه وأدخل . والفعل من باب وعد . وفى نسخة : أوسخ . (١١) الأصل فى معنى الكفاف : ما يكف عن سـؤال الناس ويغنى . ومعنى لم يخرج كفافا هنـا : لم يخرج خاليا من الذم . وقد فسر ذلك بقوله : ولم ينج سليما . (١٢) يخيل الكاتب أن المخاطب منكر دعواه لمـا فيها من الغرابة . فهو يتجه إليه قائلا : كأنك لم تر بخيلا مخدوعا ... الخ . (١٣) المضعوف : ضعيف الرأى . (١٤) النفاج : المدعى المتباهى بما ليس له . ٢٠ وقد سـبق تفسيره . (١٥) الكيمياء فى زعمهم : تحويل المعادن الخسيسة بالصناعة إلى معادن نفيسـة .

(١٦) القبالة (بالفتـح) : الكفالة، واسم لمـا يلتزمه الإنسان من عمل ودين ونحوهما . والقبيـل : الكفيـل والضامن . وفى اللسان : وقبـل (بالضم) : إذا صار قبيلا : أى كفيلا . وتقبـل به : تكفـل .

(١٧) اسم مصدر من : أمر علينا : إذا ولى .

قد رأيناه[1] ينفق على مائدته وفاكهته ألفَ دِرْهم فى كلّ يوم. وعنده فى كلّ يوم عُرْسٌ[2]؛ ولَأَن يَطْعنَ طاعنٌ فى الإسلام، أهونُ عليه من أن يَطعنَ طاعنٌ فى الرغيف الثانى، ولَشَقُّ عصا الدين، أهونُ عليه من شقِّ رغيف. لا يَعُدُّ الثُّلْمَةَ فى عِرْضه ثُلْمةً[3]، و يَعُدُّها فى ثريدته من أعظم الثُّلَم.

وإنّما صارت الآفاتُ إلى أموال البخلاء أسرعَ. والجوائحُ عليهم أكْلَبَ[4]؛ لأنّهم أقلّ توكّلا. وأسوأ بالله ظنًّا. والجوادُ إمّا أن يكون متوكِّلا، و إمّا أن يكون أحسنَ بالله ظنًّا. وهو على كلّ حال بالمتوكِّل أشْبهُ، وإلى ما أشبهه أنزعُ[5]. وكيفما دار أمْره، ورجَعَت الحالُ به[6]، فليس ممّن يتكل على حزمه، و يلجأ إلى كَيْسه[7]، و يرجع إلى جَوْدَةِ احتياطه، وشدّة احتراسه.

واعتلالُ البخيل بالحَدَثان[8]، وسوءِ الظنّ بتقلّب الزمان، إنّما هو كِنايةٌ عن سوء الظنّ بخالق الحَدَثان، و بالذى يُحدِث الأَزْمانَ، وأهلَ الزمان. وهل تجرى الأَحْداثُ إلّا على تقدير المحدث لها؟ وهل تختلف الأزمنةُ[9] إلّا على تصريف من دبّرها؟ أوَ لَسنا، و إن جهلنا أسبابها، فقد أيْقَنَّا[10] بأنّها تجرى إلى غاياتها؟

---

(١) يريد بخيلا من البخلاء. (٢) العرس من معانيه الوليمة. (٣) الثلمة: فرجة المكسور والمهدوم. (٤) أشد. والفعل من باب فرح. (٥) الضمير فى (أشبهه) يعود إلى المتوكل. (وأنزع) من نزعت نفسه إلى الشيء نزاعا ونزوعا: مالت واشتاقت. (٦) تعاقبت الحوادث عليه متشابهة بخيرها وشرها. (٧) كيسه: عقله وفطنته. (٨) حدثان الدهر: نوائبه، كما سبق. والمعنى واعتلال البخيل، أى تمحله العلل والأعذار، بالخوف من نوائب الدهر، وسوء الظن الخ، إنما هو الخ. (٩) اختلاف الأزمنة: أن يكون هذا خلف من هذا، أو هذا يأتى خلف هذا. (١٠) الفاء فى (فقد) زائدة، لأن جملة (فقد أيقنا) خبر ليس.

والدليـلُ على أنّه ليس بهـم خوفُ الفقر[1] ، وأنّ الجمعَ والمنع إمّا أن يكون عادةً منهـم ، أو طبيعةً فيهـم ، أنّك قد تجدُ الملك بخيلا ، ومملكتُه أوسعُ ، وخَرْجُه أدرُّ[2] ، وعدوُّه أسكنُ . وتجدُ أحزم منه جواداً[3] ، و إن كانت مملكتُه أضيقَ ، وخَرْجُه أقلَّ ، وعدوُّه أشدَّ حركةً .

وقد علمنا أنّ الزَّنْجَ أقصرُ النـاس مِرَّةً[4] ورَوِيَّةً[5] ، وأذهلُهم عن معرفة العاقبـة . فلو كان سخاؤُهم إنّما هو لكلَال حَدِّهم[6] ، ونقص عقولهم ، وقلّةِ معرفتهم ، لكان ينبغى لفارسَ أن تكونَ أبخلَ من الروم ، وتكونَ الرومُ أبخلَ من الصقالبة[7] ، وكان ينبغى فى الرجال فى الجمـلة ، أن يكونوا أبخـل من النساء فى الجمـلة ، وكان ينبغى للصبيان أن يكونوا أسخَى من النساء ، وكان ينبغى أن يكونَ أقلُّ البخلاء عقـلًا ، أعقلَ من أشـدِّ الأجواد عقـلًا ، وكان ينبغى للكلب — وهو المضروبُ به المثَـلُ فى اللؤم — أن يكون أعرفَ بالأمور من الديك ، المضروبِ به المثلُ فى الجود[8] .

قالوا : " هو أسخَى من لا فظـة[9] " و " ألأَمُ من كلبٍ على جِيفـة " و " ألأَمُ من كلبٍ على عَرْقٍ[10] " . وقالوا : " أجِع كلبـك يتْبَعْك[11] " ، و " نِعمَ كلبٌ فى بؤس أهـله[12] " ،

(١) أى والدليل على أن ما بالبخلاء ليس ناشئا من خوف الفقر . (٢) الخرج والخراج : ما يحصل من غلة الأرض . و (أدر) : من درّ (من بابى ضرب وقتل) : كثر . وقوله : وعدوه أسكن ، أى غير متحفز لقتاله . فالمال موفور لديه . وقوله : (أوسع) و (أدر) و (أسكن) ، التفضيل فيها على غير بابه . فهو إنما يريد مجـرد الصفة ، كما هو ظاهر . (٣) هكذا فى النسخ . وهو مفهوم . وقد تكون العبارة محرفة عن : وتجد آخرا أكثر منه جودا . (٤) المرة : العقل والأصالة والإحكام . وفى الأصل : «مدة» وهو تحريف . (٥) أى وهـم تخيـلا . (٦) كلال الحد : أصله فى السيف والسكين ونحوهما . والمراد هنا قلة الذكاء . (٧) الصقالبة : جيل تتاخم بلادهم بلاد الخزر (فى الروسيا) . و بحر الخزر (بالتحريك) هو بحر قزوين . (٨) وصف الديك بالجود ، لأن من عادته أن يدعو الدجاج و يثير لها الحب . (٩) من أمثال العرب : أسمح من لافظة . وقد فسر الميدانى اللافظة بمعان ، منها الديك ، لأنه يأخذ الحبة بمنقاره ، فلا يأكلها ، بل يلقيها إلى الدجاجة . والتاء فى لافظة للمبالغة . وفى النسخ : لاقطة . ولعل فى المثل روايتين . (١٠) العرق : العظم أكل لحمه أو لم يؤكل . والمراد هنا نحو ما يرمى للكلب من العظم ، أو يجده فى القمامات . (١١) مثل يضرب فيما ينبغى أن يعامل به اللئام . (١٢) وذلك أن الجدب والبؤس يكثر الموتى والجيف . وذلك نعيم الكلب . وذلك أن رجلا كان له بعير يكريه فينتفع بما يعود منه . وله كلب يقصر فى إطعامه . فمات البعير ، فصار الرجل إلى سوء حال ، والكلب إلى خصب — يضرب مثلا لمن ينتفع بضرر غيره .

و"سمّن كلبَك يأكُلْك"[١]، و"أحرصُ من كلب على عِقْيِ صبيّ"[٢]، و"أجوعُ من كلبة حَوْمَلٍ"[٣]،
و"لهو أبْذأ من كلب"[٤]، و"حَشَّ فُلانٌ من خُرْءِ الكلب"[٥]، و"اخْسَأْ!". كما يقال للكلب،
و"كالكلب في الآرِيّ[٦]: لا هو يعتلِفُ، ولا هو يترك الدّابّةَ تعتلف".

وقال الشاعر:

سَرَتْ ما سَرَتْ من ليلها ثم عَرّسَتْ على رَجُلٍ بالعَرْجِ ألأَمَ من كلب[٧]

وقال الله جلّ ذِكْره: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ، إنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾.
وكان ينبغي في هذا القياس أن يكون المَرَاوِزَةُ[٨] أعقلَ البَرِيّة، وأهلُ خُرَاسَانَ أدْرَى البريّة.

ونحن لا نجد الجواد يفرّ من اسم السَّرَف إلى الجود، كما نجد البخيلَ يَفِرُّ من اسم البخل
إلى الاقتصاد[٩]. ونجد الشجاعَ يَفِرُّ من اسم المنهزم، والمستحِي يفرّ من اسم الخَجِل. ولو قيل

---

(١) قيل إن رجلا ارتبط كلبا، فكان يسمنه ويطعمه رجاء أن يصيد به. فدخل عليه يوما فوثب عليه فافترسه.
(٢) العِقْي: ما يخرج من بطن الصبي حين يولد. أي إن الكلب حريص مولع بأكل العذرة. وقد ورد المثل هكذا في لسان العرب. وفي بعض النسخ: عقبي ظبي. وهو تحريف.
(٣) حومل: اسم امرأة كانت تجيع كلبة لها. فكانت تربطها بالليل لحراسة، وتطردها بالنهار. وتقول: التمسي لنفسك، لا ملتمس لك. فلما طال عليها ذلك أكلت ذنبها من الجوع. قال الكميت يذكر بني أمية، ويذكر أن رعايتهم للأمة كرعاية حومل لكلبتها:

كما رضيت جوعا وسوء رعاية لكلبتها في سالف الدهر حومل

(٤) بذا وبذئ وبذؤ: فحش. وبذاءة الكلب هنا: كثرة هريره لسبب ولغير سبب. وحش المال: جمعه وكثره أي: كثر فلان ماله من أدنأ الوجوه التي تشبه خرء الكلب.
(٥) أي ويقال لمن تطرده: اخسأ، كما يقال للكلب.
(٦) الآري: محبس الدابة. وقد سبق تفسيره في ص ٦٠، جزء ١. وهذا مثل يضرب لمن يتدخل فيما لا يفيده، ويضيع فائدة غيره. يقال: فلان كالكلب في الآري الخ.
(٧) الضمير يعود إلى الناقة. والتعريس: نزول المسافر في آخر الليل للراحة. والعرج: بلدة باليمن، وواد بالحجاز ذو نخيل، وموضع ببلاد هذيل، ومنزل بطريق مكة. و(ألأم من كلب): أشح وأدنأ.
(٨) المراوزة: أهل مرو، أشهر مدن خراسان وقصبتها، جمع مروزي، نسبة إلى مرو، على غير قياس. كأشاعرة جمع أشعري. واشتهر المراوزة بالبخل. وقد سبقت أخبار المراوزة والخراسانيين في صدر الجزء الأول، ص ٥٤ إلى ص ٦٢.
(٩) ونحن الخ، وذلك لأن الجواد لا يخاف من اسم السرف، خوف البخيل من اسم البخل. لأن السرف — في رأي الجواد — يكاد يلحق بالجود.

لخطيب ثابتِ الجَنان : وَقَاحٌ[1]، بِجَزِعَ — فلو لم يكن من فضيلة الجود إلّا أنّ جميع المتجاوزين لحدود أصناف الخير يكرهون اسم تلك الفَضْلَةِ[2] — إلا الجوادَ[3]، لقد كان فى ذلك ما يُبين قَدْرَه[4]، و يُظْهِرُ فضلَه .

المـالُ فاتنٌ، والنفسُ راغبة[5]، والأموالُ ممنوعة[6]، وهى على ما مُنِعَتْ حريصةٌ . وللنفوس فى المُكاثرة[7] علّةٌ معروفة؛ لأنّ من لا فِكرة له ولا رَوِيّة، مُوَكَّلٌ[8] بتعظيم ذى الثروة، و إن لم تكن منه مَنالةٌ[9] . وقد قال الأوّل :

وزادها كَلَفًـا بالحبّ أن مُنِعَتْ ... أحبُّ شىء إلى الإنسـان ما مُنِعا[10]

وفى بعض كتب الفُرْس : كلُّ عزيز تحت القدرة فهو ذليل . وقالت مُعاذةُ العَدَوِيّةُ[11] : كلّ مقدور عليه مَقْلِيٌّ[12] أو محقور .

---

(١) الرجل الصلب الذى قل حياؤه . (٢) الفضلة هنا : تجاوز الحدّ فى الفضيلة . (٣) إلا الجواد، أى فإنه لا يكره أن يلقب بالمسرف كما رأيت . (٤) فى نسخة : قدرته . (٥) راغبة : حريصة على المـال، طامعة فيه . ففى اللسان : رغب يرغب رغبة : إذا حرص على الشىء وطمع فيه . وممنوعة : عسيرة المنال . (٦) أى النفس . (٧) المكاثرة : المغالبة بالكثرة . والمراد هنا كثرة المـال . (٨) أى جاعل تعظيم ذى الثروة من شغله، كأنه مولع به مفتون . (٩) النال والمنالة والمنال : مصدر نلت أنُال . و يقال : نلت له بشىء أى جدت . فالمنالة : العطاء . وفى نسخة ليدن : و إن لم يكن منه مناله . (١٠) هكذا ورد هذا البيت فى النسخ . ولعل الضمير فى زادها يعود إلى نفسه . وجاء البيت فى لسان العرب هكذا :

وزاده كلفا فى الحب أن منعت ... وحب شيئا إلى الانسان ما منعا

و (منعت) فى هذه الرواية على البناء للفاعل . وحب فيها — على رأى الفراء — أصله : حبب (بفتح فضم) . ثم أسكنت وأدغمت فى الثانية . وموضع (ما) رفع بحب . اهـ ملخصا من اللسان . وجاء البيت فى (عيون الأخبار) هكذا :

وزاده كلفا بالحب أن منعت ... أحب شىء إلى الإنسان ما منعا

(١١) أوردها الجاحظ فى (البيان والتبيين) بين النساك والزهاد من أهل البيان . وهى بنت عبد الله العدوى . وكانت تكنى أم الصهباء . روت عن على وعائشة . وروى عنها الشيوخ . توفيت سنة ٨٣هـ . (١٢) قلاه يقليه قلى (بكسر القاف) وقلاء (بفتح القاف) . و يقلاه لغة طيئ : أبغضه غاية البغض . وحكى ابن جنى قلاه وقليه (كرضيه) . وفى النسخ : فمقلو . وهو تحريف ، فإنه يقال : قليت الحب على المقلى وقلوته . أما فى البغض فلا يقال إلا قليت، كما نقل فى اللسان عن ابن السكيت .

ولو كانوا لأولادهم يجمعون ، ولهم يكُدُّون ، ومن أجلهم يَحرِصون ، لجعلوا لهم كثيرا مما يطلبون ، ولتركوا محاسبتَهم فى كثير مما يشتهون . وهذا بعضُ ما بغَّض بعضَ المورِّثين إلى الوارثين ، وزهّد الأخلافَ (١) فى طول عُمُرِ الأسلاف .

ولو كانوا لأولادهم يُمهِّدون ، ولهم يجمعون ، لمَا جمع الخِصيانُ الأموالَ ، ولمَا كنَزَ الرهبانُ الكنوزَ ، ولاستراح العاقرُ من ذلِّ الرغبة (٢) ، ولسلِم العقيمُ من كدِّ الحِرْص . وكيف ؟ ونحن نجده بعد أن يموتَ ابنُه الذى كان يعتلُّ به (٣) ، والذى من أَجله كان يجمع ، على حاله (٤) فى الطلب والحرص ، وعلى مِثْل ما كان عليه من الجمع والمنع .

والعامّةُ لم تُقصِّر فى الطلب والحُكْرة (٥) ، والبخلاءُ لم يَجِدُوا (٦) شيئا من جُهْدهم ، ولا أعْفَوا (٧) بعد قدرتهم ، ولا قصَّروا فى شىء من الحِرْص والحَصَر (٨) ؛ لأنهم فى دارِ قُلْعَةٍ ، وبِعَرَض نُقْلةٍ (٩) . حتى لو كانوا بالخلود موقنين ، لأغفلوا تلك الفُضُولَ (١٠) .

---

(١) الأخلاف : جمع خلَف (بالتحريك) . وهم أبناء الإنسان الذين يخلفونه بعد موته . (٢) ذل الرغبة : ذل الطمع والحرص . انظر شرح (٥) من الصفحة السابقة . (٣) يعتل به : يتخذه علة وسببا للجمع والمنع . (٤) متعلق الجار والمجرور مفعول ثان لنجد . (٥) والعامة الخ ، كأنه ألحق العامة بالبخلاء ، لصفات البخل فيهم . والحكرة هنا : الجمع والإمساك ، كما فى اللسان . (٦) فى النسخ : لم يجدوا . وهو تحريف . والصواب : لم يجدوا ، أى لم يحبسوا جهودهم فى سبيل جمع الأموال . (٧) أعفى : أنفق العفو من ماله ، وهو ما يفضل عن النفقة . وفى نسخة الساسى : ولا عفوا (بفتح فسكون فواو منونة مفتوحة) . وهو تحريف . وقوله : بعد قدرتهم : أى بعد اقتدارهم ويسارهم . (٨) الحصر : البخل . (٩) يقال : الدنيا دار قلعة ، أى انقلاع وارتحال . وقوله : وبعرض نقله ، أى إن الدنيا دار يعرض فيها الانتقال ، فلا تدوم على حال . (١٠) حتى لو كانوا الخ ، هذا من الترقى فى الدليل . يقول : حتى لو كتب لهم الخلود ، لوجب أن يغفلوا طلب ما يزيد على عيشتهم وحاجتهم ، ويجادوا به لو حصل فى أيديهم . ولكنهم لا يفعلون ، بسبب ما ركب فيهم من الحرص والجشع .

فالبخيلُ مجتهــد ، والعــامىّ غير مقصِّر (١) . فمن لم يستعِن على ما وصــفنا بطبيعةٍ قويّة ، وبشهوةٍ شديدة ، وبنظرٍ شافٍ ، كان إمّا عامياً ، وإمّا بخيلاً شقياً (٢) — ففِيمَ اعتلالُهم بأولادهم ، واحتجاجُهم بخوف التلوّن من أزمنتهم (٣) ؟

قال رسول الله (صلّى الله عليه وسلم) لوافدٍ كذَب عنده كَذْبةً ، وكان جواداً : لولا خَصْلةٌ وَمِقَكَ (٤) الله عليها ، لشَرَّدْتُ بك من وافدِ قوم . وقيل للنبىّ (صلّى الله عليه وسـلّم) : هل لك فى بِيضِ النســاء وأُدْمِ الإبل (٥) ؟ قال : ومَنْ هم ؟ قال : بنو مُدْلِج (٦) . قال : يمنعنى من ذاك قِراهم الضيفَ ، وصلتُهم الرَّحِمَ . وقال لهم أيضًا : إذا نَحَرُوا ثَجُّوا (٧) ، وإذا لبَّوْا عَجُّوا (٨) . وقال للأنصار : مَنْ سيّدُكم ؟ قالوا : الحُرُّ بنُ قيس (٩) ، على أنه يُزَنُّ (١٠) فينا بخل ، فقال : وأىُّ داء أدْوأُ من البخل ؟ ثم جعله من أدْوإِ الداء . وقال للأنصار : أمّا واللهِ ما علِمتكم إلا لتكثُرون عند

(١) معنى اجتهاد البخيل هنا أنه يفعــل ما يفعل عن احتجاج واقتناع بصواب ما يفعــل — أما العامى فليس له من العقل ما به يقيم الحجــة على حكرته . وإنمــا هو مسوق إلى ذلك بطبيعته . فهو ملحق بالبخلاء .

(٢) فمن لم يستعن الخ ، على ما وصفنا : على ما بينا من تمكن البخل والجشع من النفوس . والطبيعة القوية : السليمة من العلل النفســية . ويقصــد بالشهوة الشــديدة : الميل الشــديد للتخلص من هــذا الضعف . وقوله : وبنظر شاف ، يقصد به التفكير الصحيح المؤسس على البرهان القويم ، لا السفسطة .

(٣) تلون الأزمنة : تقلبها وتنكرها . وفى نسخة ليدن : (فيقيم) بدل : (ففيم) . وهوتحــريف .

(٤) ومقه يمقه (كوثق يثق) : أحبــه . و(شردت بك) : أبعــدتك وطردتك . وقوله : (من وافد قوم) هو بيان للكاف فى (بك) . ونص هذا الحديث فى اللسان كما يأتى : وفى الحديث أنه اطلع من وافد قوم على كذبة . فقال : لولا سخاء فيــك ومقك الله عليــه ، لشردت بك اهـ .

(٥) الأدم : جمــع آدم وأدماء . والأدمة فى الإبل : لون مشرب سوادا أو بياضا ، أو هو البياض الواضح . والتقدير : هل لك فى قوم الخ ، أى هل لك فى غزو قوم ، كما يفهم من المقام .

(٦) بنو مدلج : قبيلة من كنانة .

(٧) وقال لهم : قال فى حقهم . وثجوا : أسالوا دماء الذبائح فى الحج . وفى نسخة ليدن : (نحوا) وهو تحريف نشأ من عدم الفهم .

(٨) التلبية فى الحج قول : لبيك اللهم لبيك . وعج يعج (بالكسر والفتح) : صاح ورفع صوته .

(٩) هكذا فى العقد الفريد . وفى النســخ : جد بن قيس . وهو تحــريف . وفى القاموس وشرحه : الحر بن قيس بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزارى ... وكان من جلساء عمر .

(١٠) يزن : يتهم .

الفَزَع، وتَقِلّون عند الطمع[١]. وقال: كفى بالمرء حِرصا ركوبُه البحرَ[٢]. وقال: لو أنّ لابن آدم وادِيَيْن[٣] من مال لابتغى ثالثًا، ولا يُشْبع ابنَ آدم إلّا الترابُ، ويتوبُ اللهُ على مَنْ تاب. وقال: السخاءُ من الحَياء، والحياءُ من الإيمان. وقال: إنّ الله جوادٌ يُحبّ الجود. وقال: أنْفِقْ يا بلالُ، ولا تخش من ذى العرش إقلالًا[٤]. وقال: لا تُوكِى فيُوكَى عليك[٥]. وقال: لا تُحْصِ فيُحصَى عليك[٦]. وقالوا: لا ينفَعُك من زادٍ ما تبقّى[٧].

ولم يُسَمِّ الذهبَ والفضّةَ بالحجرين[٨] إلّا وهو يريد أن يضَع من أقدارهما، ومن فتنة الناس بهما. وقال لقَيْس بنِ عاصم[٩]: إنّما لك من مالك ما أكلتَ فأفنيْتَ، وما لبِستَ فأبلَيْتَ، أو أعطيْتَ فأمْضَيْتَ. وما سوى ذلك فللوارث.

---

(١) لتكثرون الخ، أى لتجتمعون بجموعكم للنجدة والذود. وقلتهم عند الطمع: لسماحتهم وكرمهم وعدم حرصهم. والمراد الطمع فى مغنم حرب أو نحوه. وفى بعض النسخ: (الفراغ)، بدل الفزع. وهو وهم. (٢) كفى بالمرء الخ، يذم صلى الله عليه وسلم الجشع والحرص على جمع المال. ولا سيا عند توقع الخطر، كركوب البحر فى تلك الأيام. وليس المراد ذمّ السعى على الرزق الحلال من أى وجه كان، كما هو ظاهر. (٣) واديين: نهرين.

(٤) أنفق الخ، بلال هو بلال بن حمامة الحبشى، مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم. وفى مقدمة طبعة ليدن: وفى الحديث أنه صلى الله عليه وسلم دعا بلالا بتمر فجعل يجىء به قبضا قبضا (بضم ففتح: جمع قبضة، بضم فسكون: قدر ما تقبض عليه الكف). فقال صلى الله عليه وسلم: انفق بلال، ولا تخش من ذى العرش إقلالا اهـ. وفى (النهاية) لابن الأثير: أنه دعا بتمر. فجعل بلال يجىء به قبصا قبصا اهـ والقبص التناول بأطراف الأصابع. وهو دون القبض، كما فى اللسان. والقبصة بوزن القبضة. والجمع كالجمع. وفى العقد الفريد: أنفق بلالا، ولا تخش من ذى العرش إقلالا. (٥) أوكأ السقاء: شد فمه بحبل. وفى اللسان: وفى حديث أسماء: قال لها: أعطى ولا توكى، فيوكى عليك. أى لا تدخرى، وتمنعى ما فى يدك، فتنقطع مادة الرزق عنك اهـ. (٦) المعنى، على ما يظهر لنا: لا تكثر من إحصاء مالك وعده، حرصا عليه وخوفا، فيحصى عليك، أى فيحصى الله تعالى عليك، أى بأن يقتّر عليك ويمسك سابغ فضله. (٧) فى المصباح: وبقى من الدين كذا: فضل وتأخر. وتبقى مثله.

(٨) فى اللسان: والحجران: الذهب والفضة. والمراد بتسميته لهما، اختياره هذا الاسم لهما، لأنه وضع عربى أصيل. (٩) هو أبو على قيس بن عاصم بن سنان المنقرى. كان سيد بنى تميم. وهو شاعر فارس شجاع. يضرب به المثل فى الحلم. أدرك الإسلام وأسلم. وصحب النبى حياته، وعمر من بعده. وله أخبار كثيرة فى المروءة والحلم. وكان ممن حرم الخمر على نفسه فى الجاهلية. توفى سنة ٢٠ هـ.

وقال النَّمِرُ بنُ تَوْلَبٍ (١) :

وحثّتْ على جَمْعٍ ومنعٍ ونفسُها ... لها فى صُروف الدهرِ حَقُّ كذوبِ (٢)

وكائِنْ رأينا من كريمٍ مُرَزَّإٍ ... أخى ثِقةٍ طَلْقِ اليدين وَهُوبِ (٣)

شهِدْتِ وفاتونى . وكنتُ حسِبْتُنى ... فقيرًا إلى أن يشهدوا وتغيبى (٤)

أعاذلُ إن يُصْبِحْ صَداىَ بقفْرةٍ ... بعيدًا نآنى صاحبى وقريبى (٥)

تَرَىْ أنّ ما أبقيتُ لم أكُ ربَّه ... وأنّ الذى أمضيتُ كان نصيبى (٦)

وذى إبلٍ يسعَى ويحسَبُها له ... أخى نَصَبٍ فى رعيِها ودُءُوبِ (٧)

غدتْ وغدا ربٌّ سواه يسوقُها ... وبُدِّل أحجارًا وجالَ قَليبِ (٨)

---

(١) هو النمر بن تولب بن زهير بن أقيش العلكى : شاعر مخضرم . وكان من ذوى النعمة ، جوادا وهابا لماله . ويعد فى الطبقة الثانية من شعراء الجاهلية . أدرك الاسلام وهو كبير السن . وكان من كبار الصحابة . رضى الله عنه .

(٢) الضمير فى (حثت) يعود إلى زوجته . يقول : حثتنى على جمع الأموال ومنع السائلين ، والحال أن نفسها تكذبها الحديث حقا ، عندما تصور لها الخوف من صروف الدهر وأحداثه .

(٣) كائن : من اللغات الخمس فى (كأين) . أى كثيرا ما رأينا من كريم الخ . والكريم المرزأ : من يصيب الناس من ماله ونفعه .

(٤) يقول : قد شهدتنى وغاب عنى هؤلاء الكرماء . وكنت أظننى فى حاجة إلى أن يحضرونى ؛ لأنهم على شاكلتى فى الكرم والجود ، وتغيبى أنت عنى ؛ لأنك تأمريننى بما لا يلائم شيمتى من الجمع والمنع .

(٥) من معانى الصدى : ما يبقى من الميت فى قبره . وهو جثته . وهو المراد فى البيت . ونآنى : نأى عنى ، كما فى اللسان . ورواية اللسان : ناصرى ، بدل صاحبى .

(٦) أى بعد موتى ترين أن ما تركته لم أكن صاحبه . وإنما هو مال الوارث ، وأن الذى أنفقته فى حياتى كان مالى . أى إن المال لا ينتفع منه إلا من أنفقه . وفى (البيان والتبيين) : أنفقت ، بدل أمضيت .

(٧) أى ورب رجل غنى ذى إبل يظن أنه ملك له ، فينصب فى رعيها ويدأب . و(فى رعيها) رواية المبرد فى (الكامل) . وفى الأصل : « فى شَفِّها » ، أى مشقتها . ويمكن تخريجه على تكلف . والدءوب : مصدر دأب فى عمله : إذا جدّ وتعب فيه .

(٨) أصبحت هذه الإبل بعد موته يسوقها مالك غيره . وبدل صاحبها بها أحجار القبر . والجال : ناحية القبر . والقليب : البئر . والمراد هنا القبر .

وقال أيضًا :

قامت تَبَاكَى أن سَبَأْتُ لِفِتْيَةٍ ... زِقًّا وخابيةً بعَوْدٍ مُقْطَعِ [١]

وقَرَيْتُ فى مِقْرًى قلائصَ أربعًا ... وقريتُ بعد قِرًى قلائصَ أربعِ [٢]

أتَبَكِّيًا من كلِّ شىءٍ هيِّنٍ؟ ... سَفَهٌ بكاءُ العين ما لم تدمَعِ [٣]

فإذا أتانى إخوتى فدعيهمُ ... يتعلَّلُوا بالعيش أو يَلْهُوا معى [٤]

لا تطرديهم عن فراشى؛ إنَّهُ ... لا بُدَّ يومًا أن سيخلو مضجَعى [٥]

هلَّا سألتِ بعادياءَ وبيتِهِ ... والخيلِ والخمرِ التى لم تُمْنَعِ [٦]

وقال الحارثُ بن حِلِّزَة [٧] :

بينا الفتى يسعَى ويُسعَى له ... تاحَ له من أمره خالجُ [٨]

---

(١) تباكى : تتباكى أسفا ، لكثرة ما أبذل للضيوف . وسبأت زقا وخابية : اشتريتهما لأشرب مع هؤلاء الفتية . واستبأ مثله . ولا يقال ذلك إلا مع الخمر ، كما فى اللسان . والزق : وعاء من جلد للخمر وغيره . والخابية : الجرة الضخمة . والعود : البعير المسن . والمقطع : البعير قام من الهزال . و (بعود) متعلق بسبأت . أى جعلت ثمن الزق والخابية عودا .

(٢) قريت الضيف : أضفته (وهو هنا على معنى أطعمت) . والمقرى والمقراة : الوعاء يقرى فيه الضيف . والقلائص : جمع قلوص ، كصبور ، وهى الناقة الشابة القوية يقول : إنى أطعمت أضيافى أربع قلائص فى مقرى واحد . وذلك كناية عن الكرم وسعة الوعاء . ثم إنى لم أكتف بهذا ، بل قريتهم بعد ذلك . فقوله : (قلائص الأولى) هو مفعول ثان لقريت والمفعول الأول محذوف للعلم به ، كما رأيت .

(٣) التبكى : البكاء . ويظهر أنه يقصد بالتبكى التباكى ، وهو تكلف البكاء ، بدليل قوله : (سفه بكاء العين ما لم تدمع) .

(٤) تعلل بالشىء : تلهى به . والمراد المرح والطرب . فقوله أو يلهوا معى : بيان أو تفسير لما قبله . وفى الأصل : « فى العيش » ولعله محرف .

(٥) الضمير فى إنه للشأن . والجملة التالية خبر . وخلو مضجعه : موته .

(٦) عادياء : أبو السموءل ، وبيته : قومه وقبيله ، والباء فى قوله : بعادياء ، بمعنى (عن) . وقد سبق لنا الكلام فى مثل هذا . أى هلا سألت عن كرم هؤلاء الناس ، وأنهم لا يمنعون شيئا . والسموءل : شاعر جاهلى حكيم ، من أهل الحجاز ، يضرب به المثل فى الوفاء . وأشهر شعره لاميته التى مطلعها : (إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه) . وهى من أجود الشعر . مات نحو سنة ٦٥ ق . هـ . ورواية صاحب اللسان : والخل ، بدل والخيل .

(٧) هو الحارث بن حلزة اليشكرى الوائلى : شاعر جاهلى من أهل العراق . وهو أحد أصحاب المعلقات . ومطلع معلقته : (آذنتنا ببينها أسماء) . وقد افتخر فيها كثيرا . مات نحو سنة ٥٠ ق . هـ .

(٨) تاح له الشىء يتوح ويتيح : تهيأ . والخالج : القاطع المنتزع . والمراد الموت .

يترُكُ ما رقَّحَ من عيشِـه ... يعبَثُ فيـه همَـجٌ هـامُجُ(١)

لا تكسَـعِ الشَّـوْلَ بأغبـارها ... إنَّك لا تدرى مَن النـاتِج(٢)

وقال الهُـذَلىُّ :

إنّ الكرامَ مُناهِبُـو ... كَ المجـدَ كلّهـمُ فنَاهِبْ(٣)

أَخْلِفْ وأَتْلِفْ ، كلُّ شَىْ ... ءٍ ذرَّعَتْـه الـريحُ ذاهبْ(٤)

وقالت امرأة :

أنتَ وهبتَ الفِتْيـةَ السَّلاهِبْ ... وإبلاً يَحـارُ فيهـا الحـالبْ(٥)

وغنَماً مثـلَ الجـراد الهـاربْ ... متـاعُ أيامٍ ، وكلٌّ ذاهب(٦)

وقال تميم بن مُقْبِل(٧) :

فأَخلِفْ وأَتلِفْ ، إنّما المالُ عارةٌ(٨) ... وكُلْه مع الدهرِ الذى هو آكلُه

وقال أبو ذَرٍّ : لك فى مالِك شريكان : الوارثُ والحَدَثان(٩) .

---

(١) ترقيح المـال : إصلاحه والقيام عليه . والهمج : الحمق . وهمج هامج : ضرب من التوكيد . (٢) الشائلة من الإبل : ما أتى على حملها أو وضعها سبعة أشهر بخف لبنها . جمعها شـول ، على غير قياس . والأغبار : جمع غبر ، كقفل ، وهو بقيـة اللبن فى الضرع . وكسع الناقة بغبرها (كمنع) : ترك فى خلفها بقيـة من اللبن ، يريد بذلك تغزيرها ، وهو أشـد لها : يقول لا تبق ذلك اللبن لسمن الأولاد ؛ فانك لا تدرى من ينتجها . فلعلك تموت أو يغار عليها . ونتج الناقة (من باب ضرب) : تلق ولدها عند الولادة ، وأصلح من شأنه . (٣) ناهبه : سابقه وباراه . ومناهبوك المجد ، أى مسابقوك فى إحرازه . (٤) ذرعته : حركته . وفى (البيان والتبيين) : زعزعته الريح . وقد نسب الشعر إلى عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود المسعودى . (٥) السلاهب : مفعول ثان لوهبت ، على رأى من يجيز تعدية (وهب) بنفسه إلى مفعولين . انظر المصباح والقاموس . جمع سلهب كجعفر ، وهو من الخيل ما عظم وطال عظامه . وحيرة الحالب فى الإبل : كناية عن كثرتها ، أو غزارة لبنها . وفى (البيان والتبيين) : (وهجمة) بدل : (وإبلا) ، وهى القطعة من الإبل ، قيل : من أربعين إلى مائة . (٦) رفع متاع على أنها خبر لمبتدأ محذوف : أى هذا متاع أيام قليلة . (٧) هو تميم بن أُبَىّ بن مقبل ، من بنى العجلان . شاعر جاهلى أدرك الإسلام وأسلم . توفى نحو سنه ٢٥ هـ . كذا فى (الأعلام) . (٨) العارة : العارية ، وهى الشىء يستعار ، ثم يرد إلى صاحبه . (٩) نوائب الدهر ، كما سبق .

وقال الحُطَيْئَةُ [١] :

مَن يَفْعَلِ الخيرَ لا يعدَمْ جوازِيَهُ ... لا يذهبُ العُرْفُ بين اللهِ والناس

وجاء فى الأَثَر : إن أهلَ المعروف فى الدنيا أهلُ المعروف فى الآخرة . وفى المَثَل : اصنَع الخيرَ ولو إلى كلب : وقال [٢] فى الحثّ على القليل ، فضلًا [٣] على الكثير : قال الله جلّ ذكره : ﴿فَمَن يَعمَلْ مِثقَالَ [٤] ذَرَّةٍ خَيرًا يَرَه، وَمَن يَعمَلْ مِثقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه﴾ . وقالت عائشة فى حبّة عنب : إن فيها لمثاقيلَ ذَرّ . ولذلك قالوا فى المَثَل : من حَقَر حَرَم [٥] . وقال سَلْمُ ابنُ قُتَيْبَةَ [٦] : يستحِى أحدُهم من تقريب القليل من الطعام، ويأبَى أعظَمَ منه . وقال : جُهْدُ المرءِ أكثرُ من عَفْوِه [٧] . وقدّم [٨] رسولُ الله (صلى الله عليه وسلّم) جُهْدَ المُقِلّ على عَفْو المُكْثِر، وإن كان مبلغُ جُهْدِه قليلًا، ومَبْلَغُ عَفْو المُكْثِر كثيرًا . وقالوا : لا يمنعْكَ من معروف صِغَرُه . وقال النبيّ (صلّى الله عليه وسلّم) : اتقوا النارَ ولو بِشِقّ [٩] تمرة . وقال : لا تردُّوا السائلَ ولو بِظِلْفٍ [١٠] مُحْرَق، وقال : لا تردّوه ولو بفِرْسِن [١١] شاة . وقال : لا تحقِروا اللقمةَ، فإنها تعود كالجبل العظيم [١٢]، لقول الله جلّ ذِكْره : ﴿يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ . وقال : لا تردّوه ولو بِصِلَةِ [١٣] حبل .

---

(١) هو جرول بن أوس العبسى، شاعر مخضرم، من فحول الشعراء . وكان هجّاء . حتى تناول بالهجاء أباه وأمه وزوجته . مات سنة ٥٩ هـ . وأخباره كثيرة، مبسوطة فى كتب الأدب والتراجم .

(٢) مرجع الضمير فى قال يعود على الله تعالى . و(قال) الثانية تكرار . وقد سبق للجاحظ كثير من هذا النوع .

(٣) المعروف فى اللغة : فضل عن كذا : زاد . وقد سبق مثل هذا التعبير . وسبق لنا مثل هذا التعقيب .

(٤) المثقال هنا : المقدار والزنة .

(٥) أى من حقر القليل الذى لديه فلم يبذله، حرم كثيرا من ذوى الحاجة . أو (حرم) مبنى للمفعول : أى حرم الأجر .

(٦) سبق التعريف به فى ج ١، ص ١٢٩

(٧) عفو المال : ما يفضل عن النفقة، كما تقدم . أى ما يبذله المرء عن جهد وقلة، أكثر ثوابا مما يبذله عن زيادة وسعة .

(٨) قدم : فضل .

(٩) الشق : النصف .

(١٠) الظلف : ظفر كل ما اجترّ . وهو للبقر والشاء والظباء ونحوها بمنزلة القدم للإنسان . والمقصود عدم حرمان السائل، ولو بتافه الزاد .

(١١) الفرسن : طرف خف البعير . وقد يستعار للشاة .

(١٢) يعود ثوابها يوم القيامة فى عظمه كالجبل العظيم .

(١٣) الصلة ما تصل به غيره أى بصلة من حبل .

وقالت العـرب : أتاكم أخوكم يَسْتَتِمُّكم، فأتمّـوا له (١) . وقالوا : مانع الإتمـام ألْوَمُ (٢) .
وقالوا : البخيـلُ إن سأل أَلْحَفَ (٣) ، وإن سُـئِل سَوّف . وقالوا : إن سُـئِل جَحَد ، وإن
أعطى حَقَـد . وقالوا : يردّ قبل أن يسمَع ، ويغضَبُ قبـل أن يَفْهم . وقالوا : البخيلُ
إذا سُئِل ارْتَزّ (٤) ، وإذا سُئِل الجوادُ اهْتَزّ . وقال النبيّ (صلّى الله عليه وسلّم) : ينادى كلَّ يوم
مناديان من السماء : يقولُ أحدُهما : اللّهمّ عجِّل لمنفقٍ خَلَفًا ، ويقول الآخر : اللّهم عجِّل لمُمْسِكٍ ٥
تَلَفًا . وقالوا : شرُّ الثلاثة المُلِيم (٥) ، يمنَع دَرّه ودَرّ غيرِه (٦) . وقال الله جلّ ذِكرُه : ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ
وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ . وقالوا فى المَثَل — إن أَلجأكَ الدّهرُ إلى بخيل : شرٌّ ما أَلْجأكَ إلى
مُخَّةِ عُرْقوب (٧) . وقال النبيّ (صلّى الله عليه وسلّم) : قُلِ العَدْلَ ، وأَعْطِ الفَضْلَ . وقال النبيُّ
(صلّى الله عليه وسلّم) : أنهاكم عن عقوق الأمهاتِ ، وَوَأْدِ البناتِ (٨) ، ومنعٍ وهاتِ . وقال الله
عزّ وجلّ : ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ (٩) مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ . وقال : ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى ١٠
تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ . وقال : ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ . وَمَنْ يُوقَ شُحَّ

(١) أتاكم الخ ، المستتمّ هنا : هو الذى يطلب الصوف والوبر ليتمّ به نسج كسائه . والموهوب تَمّة (بضم فيم مشدّدة مفتوحة) . راجع اللسان . (٢) مانع الإتمام : من يمنع المستتمّ مايطلبه من صوف أو وبر . و(ألوم) : أحق بأن يلام ، كما فى الأساس . والمقصود : حقيق باللوم . وفى بعض النسخ : ألأم .

(٣) ألحف : أكثر من السؤال وبالغ فيه . (٤) ارتز : أمسك . (٥) الثلاثة هم : الآخذ والمعطى ومن يلوم المعطى . والمليم : من يلوم المعطى . (٦) الدر : اللبن . والمراد هنا الخير عامة . ١٥

(٧) ألجاك : اضطرك . والمعنى : ما ألجأك إلى مخة عرقوب إلا شر . والعرقوب من الدابة فى رجلها : بمنزلة الركبة فى يدها . والمخة : القطعة من المخ . والشر هنا : الفقر والفاقة . وذلك لأن العرقوب لا مخ فيه ، فالذى يضطر إلى تلمس المخ فيه بائس لا يجد شيئا . والمثل فى القاموس : (شرما أجاءك إلى مخة عرقوب) . و(أجاءك) : ألجأك . وفى مجمع الأمثال للميدانى : «شرما يجيئك» . (ويجيئك) : يلجئك ، مضارع (أجاءك) . وهو مثل يضرب للمضطر جدا يطلب من اللئيم . ٢٠ (٨) وأد البنات : دفنهن حيات بعد ولادتهن ، خوف العار ، كما كانوا يفعلون فى الجاهلية . (ومنع) ، أى للبر والمعروف . (وهات) ، أى وعن قول (هات) . والمراد الإلحاف فى السؤال .

(٩) (على حبه) : مع حب الطعام .

نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [١] . وقالوا فى الصبر على النائبة، وفى عاقبة الصبر : عند الصباح يَحْمَدُ القَوْمُ السُّرَى [٢] . وقالوا : الغَمَرات ثم يَنْجَلِينَ [٣] .

وقال الخُــرَيْمِى [٤] :

وَدُونَ النَّـدَى فى كلِّ قَلْبٍ ثَنِيَّـةٌ بهـا مَصْـعَدٌ حَزْنٌ ومُنْحَدَرٌ سهلُ [٥]

وَوَدّ الفتى فى كـلّ نَيْلٍ يُنيـلُه —إذا ما انْقَضَى— لو أنّ نائلَه جَزْلُ [٦]

وقالوا : خير الناس، خيرُ الناس للناس ؛ وشرُّ الناس، شرّ الناس للناس . وقالوا : خير مالِك ما نَفَعَك . وقالوا : عَجَباً لِفَرْط الكَبْرَة، مع شباب الرغبة [٧] !

وقال الراجــز :

كلُّنـا يأمُلُ مـدًّا فى الأجل والمنـايا هى آفات الأمــل [٨]

وقال عُبَيْــد الله بنُ عِكْراش : زمنٌ خئونٌ [٩] ، وَوَارِثٌ شَـفُون [١٠] ، وكاسبٌ زَوُن [١١] .

---

(١) يؤثرون على أنفسهم : يقــدمون غيرهم على أنفسهم بالــبر . والخصاصة : الحــاجة والفقــر .

(٢) مثل يضرب لمن يحتمل المشقة رجاء الراحة . قال المفضل : إن أول من قاله خالد بن الوليــد . وفى نسخة ليدن : وقال، بدل : (وقالوا) . (٣) يقال : إن المثل للأغلب العجلى . يضرب فى احتمال الأمور العظام والصبر عليها . والغمرات : واحدها غمرة، وهى الشدة . ويروى : غمرات ثم ينجلين — والمتأمل يرى العلاقة بين المثلين الأخيرين والكرم، وإن كانت تخفى بادى الرأى . (٤) انظر ص ١١ من هذا الجزء . (٥) الثنية : المكان المرتفع الصعب المطلع . أى إن الكرم شاق على النفس، لأن الفضيلة شاقة . ولولا مشقتها لساد الناس جميعا . (٦) النيل : المعروف والعطاء . و (ينيله) : يسديه . والجزل : العظيم . (٧) يتعجبون للهرم له رغبة الشاب فى الجمع والكدح .

(٨) هكذا فى نسخة الشنقيطى . وفى غيرها : آفات الأجل . (٩) روى له هذا الكلام فى (عيون الأخبار) بإسقاط : (وكاسب حزون) . وعبيد الله بن عكراش شاعر أيضا . وله فى (عيون الأخبار) هذان البيتان :

وإنى لأرثى للكريم إذا غــدا على طمع عنــد اللئيم يطالبه

وأرثى له من مجلس عنــد بابه كرثيتى للطرف والعلج راكبــه

الطرف (بالكسر) : الكريم من الخيل .

(١٠) الشفون فى الأصــل : الناظر بمؤخر عينه كراهة أو عجبا . ويقصد هنا الكارد، المترقب وفاة مورثه .

(١١) فى اللسان : الحزون : الشاة السيئة الخلق . فيكون المعنى على التشبيه بها فى ســوء خلق هــذا الكاسب الذى دعا إليه الجشع والطمع . ويجوز أن تكون «حزون» محرفة عن «حرون» بالراء . وفى اللسان : وحرن فى البيع إذا لم يزد ولم ينقص . ويكون المعنى أن هذا الكاسب كثير الحرص والتشدد فى المعاملة .

فلا تأمنِ الخـُونَ ، وكن وارثَ الشَّفُون[1] . وقال : يهْـرَمُ ابنُ آدمَ و يشِبُّ معــه خَصْلتان : الحِرْصُ والأَمَلُ .

وكانوا يَعِيبُونَ مـن يأكُلُ وحْدَهُ ، وقالوا : ما أَكَلَ ابن عُمَــر[2] وحدَه قطّ . وقالوا : ما أكل الحَسَنُ[3] وحدَهُ قطُّ . وسَمِـع مُجاشِعُ الرَّبَعِىُّ قولَهم : الشحيحُ أعذرُ من الظالم[4] ، فقال : أخزَى اللهُ أمرين خيرُهما الشُّحّ[5] . وقال بكرُ بنُ عبـد الله المُزَنِىُّ[6] : لو كان هــذا المسجد مُفْعَمًا بالرجال ، ثم قيل لى : مَنْ خيرهم ؟ لقلتُ : خيرُهم لهم[7] . وقال النبىّ (صلّى الله عليه وسـلّم) : ألَا أُنبِئُكم بِشِرارِكُم ؟ قالوا : بَلَى يا رســولَ الله . قال : من نَزَلَ وَحْدَه[8] ، ومَنَـعَ رِفْدَه ، وجَلَدَ عَبْــده . وقالت امرأة عنــد جَنازةِ رجل : أَمَا والله ما كان مالُكَ لبَطْنِكَ ، ولا أَمْرُكَ لِعِرْسِكَ[9] .

* * *

فلمّـا بلغت الرسالةُ ابنَ التَّوْأَم[10] ، كرِه أن يُجيبَ أبا العاص ، لِمَـا فى ذلك مـن المناقشة والمباينة[11] ، وخاف أن يترقَّى الأمرُ إلى أكْثَرَ من ذلك . فكتب هذه و بعثَ بها إلى الثَّقَفِىِّ :

---

(١) أى أنفق بحيث لا تترك شيئا لوارثك . فاذا مات استفدت مـن إرثه ، ولم يستفد من إرثك .

(٢) يريد عبد الله بن عمـر بن الخطاب العــدوى الصحابى الجليل . من أعز بيوتات قريش فى الجاهليــة . نشأ فى الإســلام . وهاجر إلى المدينة مع أبيه . وأفتى الناس فى الإســلام ستين ســنة . وهو آخر من توفى بمكة من الصحابة . له فى صحيحى البخارى ومسلم ٢٦٣٠ حديثا . توفى سنة ٧٣ هـ .

(٣) يعنى الحسن البصرى .

(٤) أى إن للشحيح فى شحه من العذر أكثر مما للظالم فى ظلمه .

(٥) فقال الخ ، وفى (البيان والتبيين) : فقال : إن شيئين خيرهما الشح لناهيك بهما شرا .

(٦) سبق التعريف به فى ص ٣١ ، ج ١ و ص ٢١ ، ج ٢ . وذكر خطأ فى الجزء الأوّل أنه ولد سنة ١٠٨ هـ . والصواب أنه مات فى تلك السنة .

(٧) أى خيرهم أكثرهم إسداء خير لهم .

(٨) هكذا فى النسخ . و(نزل) هنا من نزول الضيف على النزل (بضم فضم ، أو بضم فسكون) . فمعنى (نزل وحده) : أكل طعامه وحده . كأنه أضاف نفســه وانفرد بطعامه دون غيره ، على ضرب من التجوز . وقد يكون معنى (نزل وحده) : أقام بمفرده ، لا يأذن لغيره أن يخالطه فيشركه فى زاده .

(٩) أى كنت كريما مســتقلا بتصريف أمورك . والعرس : الزوجة .

(١٠) هكذا فى نسخة الشنقيطى . وفى نسـخة ليدن : المنافسة .

(١١) المباينة : الابتعاد والتهاجر .

بسم الله الرحمن الرحيم

أمّا بعدُ ، فقد بلغني ما كان من ذكر أبي العاص لنا ، وتنويهه (١) بأسمائنا ، وتشنيعه علينا . وليس يمنعنا من جوابه إلّا أنّه إن أجابنا لم يكن جوابُنا إياه على قوله الثاني ، أحقَّ بالترك من جوابنا له على قوله الأوّل . فإن نحن جعلنا لابتدائه جوابا ، وجعلنا لجوابه الثاني جوابا ، خرجنا إلى التهاتر (٢) وصِرنا إلى التخابر (٣) . ومَنْ خرج إلى ذلك فقد رضيَ باللَّجاج (٤) حظًّا ، وبالسُّخْف (٥) نصيبا .

وليس يحترس من أسباب اللَّجاج إلّا منْ عَرَف (٦) أسبابَ البَلْوَى . ومن وقاه الله سوءَ التَّكَفِّي (٧) وسُخْفَه ، وعصمه من سوء التصميم (٨) ونكَدِه ، فقد اعتدلت طباعُه ، وتساوت خواطره (٩) . ومن قامت أخلاطُه (١٠) على الاعتدال ، وتكافأَتْ خواطرُه في الوزن (١١) ، لم يَعْرِف من الأعمال [إلّا] الاقتصادَ (١٢) ، ولم يَجِدْ أفعاله أبدًا (١٣) إلّا بين التقصير والإفراط ، لأنَّ الموزونَ لا يولِّد

---

(١) يقال : نوه بالشيء : رفع ذكره وعظمه . ولكن التنويه هنا مجرد الذكر ، لقرينة المقام . يشير إلى قول أبي العاص في أوّل رسالته إلى الثقفي : «واختلافك إلى ابن التوأم» . (٢) التهاتر : ترامي الرجلين بالتهم ، وبما لا يجب من الكلام . (٣) التخابر : مصدر تخابر الرجلان : تغالبا في العلم والمعرفة . يقال : خابره في العلم فخبره ، أي : غالبه فغلبه . وفي النسخ : «التجابر» بالجيم . ولم نجد لها معنى . (٤) التمادي في الخصومة . (٥) السخف : ضعف العقل . (٦) أي لأن اللجاج يؤدي حتما إلى شر ومصيبة . فمن تجنب أسبابه تجنب أسباب المصائب . (٧) التكفؤ : التمايل : يهمز وبلا همز . والأصل الهمز . تكفأ تكفؤا : كتقدم تقدما . فإذا خففت الهمزة التحق بالمعتل ، وصار : تكفى تكفيا ، كتسمى تسميا . والمراد هنا : الميل عن جادة الحق والصواب ، والتشبث بالرأي . (٨) التصميم في الأمر : المضي فيه . (٩) المراد بالتساوي التكافؤ في الاعتدال والإصابة . ويستأنس لذلك بقوله بعد ذلك : وتكافأت خواطره في الوزن . (١٠) أخلاط البدن عند الأقدمين من الأطباء : الدم والبلغم والصفراء والسوداء . الواحد خلط (بكسر فسكون) . (١١) في الوزن : في القدر . فلا يخرج بعضها عن الاعتدال . (١٢) ومن قامت الخ . هكذا في نسخة الشنقيطي ، إلا أنا زدنا (إلا) بين قوسين ليستقيم الكلام . وفي نسخة ليدن : ومن ليس قامت الخ . وهو تحريف من النساخ . (١٣) ولم يجد أفعاله الخ ، أي وهذا هو الاعتدال .

إلّا موزونًا ، كما أنّ المختلف لا يُولِّد إلّا مختلفا . فالمتتايِعُ[(١)] لا يَثْنِيه زَجْرٌ[(٢)]، وليست له غاية دونَ التلف . والمتكفّى ليس له مَأْتًى ولا جِهَة، ولا له رُقْيَة[(٣)]، ولا فيه حيلة . وكل متلوِّنٍ[(٤)] فى الأرض فمنحلّ العَقْد، مُيسَّرٌ لكلّ ريح .

فَدَعْ عنك خِلْطَةَ الإِمَّعَة[(٥)]، فإنّه حارص[(٦)] لاخير فيه ؛ واجتنب ركوب الجَمُوح ذى النَّزَوات، فإنّ غايته القَتْلُ الزُّؤَافُ[(٧)] ؛ ولا فى الحَرُون[(٨)] ذى التصميم . والمتلوِّنُ شرٌّ من المصمِّم، إذْ كنت لا تعرف له حالًا يقصد إليها، ولا جهةً يعمَل عليها . ولذلك صار العاقلُ يَخْدعُ العاقلَ، ولا يَخْدَعُ الأحمقَ[(٩)] ؛ لأنّ أبْواب تدبير العاقل وحِيَلَه معروفةٌ، وطرقَ خواطره مسلوكةٌ، ومذاهِبَه محصورةٌ معدودةٌ . وليس لتدبير الأحمق وحِيَلِه جِهَةٌ واحدةٌ مَنْ أخطأها كَذَبَ[(١٠)] . والخبر الصادقُ عن الشيء الواحد واحدٌ . والخبرُ الكاذبُ عن الشيء الواحد لا يُحْصَى له عددٌ، ولا يوقَفُ منــه على حدّ . والمصمِّمُ قتلُه بالإجهاز[(١١)]، والمتلوِّنُ قتلُه بالتعذيب[(١٢)] . فإن قلنا، فليس إليــه[(١٣)] نقصِد، وإن احتججنا، فلسنا عليه نَرُدُّ . ولكنّا[(١٤)] إليك نقصِد بالقول، وإليك نريد بالمشورة .

(١) أى لأن الأفعال آثار الأمزجة . فاذا كانت الأمزجة معتدلة متزنة، أنتجت أفعالا متزنة . وإذا كانت مضطربة غير متلائمة، أنتجت أفعالا كذلك . (٢) المتتايع : المتهافت على الشر المتمادى فيه المسرع إليه، من غير تثبت أو نظر فى الأمور . (٣) أى إن المتكفى وهو المستبد برأيه (كما سبق) لا تجد منفذا لهدايته وإرشاده، ولا تنفع فيه الوسائل . وهو أشــبه بمن مسه الجنّ، لا تنفع فيه رقية . والرقية : كلمات مأثورة تقرأ للمحموم والمصروع ليشفى .

(٤) المتلون : المتقلب فى الرأى، له فى كل ساعة رأى . (٥) الإمع والإمعة : الرجل يتابع كل إنسان على رأيه، لا يثبت على شىء . (٦) الحارص : المتهم لا يكاد يترك شيئا . (٧) الجموح : الفرس يستعصى على صاحبه حتى يغلبه . والنزوات : جمع نزوة، وهى الوثبة . والقتل الزؤاف : السريع . وعبارة النسخ : (واجتنب ركوب الجموح، فان غايته قبل الذواق ذى البدوات) . وهى غير مفهومة . فنرجح أن تكون قد تبعثرت هكذا من النساخ الجهلاء . ثم رجعنا إلى نسخة الشنقيطى، فاذا هى تقرأ هكذا — مع إشارة من المصحح : واجتنب ركوب الجموح ذى البدوات، فان غايته قتل الذواق اهـ . والذواق (بفتح الدال وتشديد الواو) : الملول، كما فى اللسان . فتأمـــل . (٨) عطف على المجـــرور فى (لا خير فيـــه) أى ولا خير فى الحرون . والحرون : الدابة تعصى صاحبها، فتقف ولا تمشى . (٩) الأحمق : الفاسد العقل، المشتت الرأى والتدبير . (١٠) أى ليس للأحمق اتجاه واحد فى تدبيره، حتى إذا لم يهتد إليه إنسان قيل إنه أخطأ . وفى نسخة ليدن : ومن أخطأها كذب .

(١١) المراد أن الضرر الذى يصل من المصمم يصل دفعة واحدة، فهو كالقتل بالإجهاز . وهو من قولهم : أجهز على الجريح : أسرع قتله وتممه . (١٢) أى إن المتلون يأتيك منــه الضرر فى نوبات متقطعة، فكأنه يقتل بالتعذيب . (١٣) الضمير فى (إليه) يعود إلى المتلون . (١٤) ولكنا الخ، يخاطب المتقفى، إذ هو قد اجتمعت فيه صفات العاقل الجدير بالخطاب والمشورة . وقد ضمن (نريد) معنى (نتوجه)، فعداه (بإلى) .

وقد قالوا : احفظ سِرَّك، فإنّ سِرّك من دمك . وسواءٌ ذهابُ نفسك، وذهابُ ما به يكونُ قِوامُ نَفْسك[1] . قال المُنْجابُ العَنْبَرِىّ : " ليس بكثيرٍ ما أصلحه المال[2] " . وفَقْدُ الشىء الذى به تَصْلُحُ الأمور أعظمُ من الأمور[3] . ولهذا قالوا فى الإبل : " لو لم يكن فيها إلّا أنّها رَقوءُ الدم[4] " — فالشىء الذى هو ثمن الإبل وغيرِ الإبل أحَقّ بالصَّوْن . وقد قَضَوْا بأنّ حفظَ المال أشدُّ من جمعه . ولذلك قال الشاعر :

وحِفْظُكَ مالاً قد عُنِيتَ بجمعه   أشدُّ من الجمع الذى أنت طالبُهْ

ولذلك قال مشترى الأرض لبائعها ، حين قال له البائع : دفعتُها إليك بطيئةَ الإجابة ، عظيمةَ المَئُونَة[5] . — قال[6] : دفعتُها[7] إليك بطيئةَ الاجتماع ، سريعةَ التَّفَرُّق .

والدِّرهمُ هو القُطْبُ الذى تدور عليه رحَى الدنيا . واعلم أنّ التخلُّص من نَزَواتِ[8] الدِّرْهم وتقلُّبِه — من سُكْرِ الغِنَى — وتفلّتِه شديدٌ[9] . فلو كان إذ[10] تفلّت ، كان حارسُه صحيحَ العقل ،

(١) أى ما دام السر جزءا من الدم — وهو قوام النفس — ففقده فقد النفس . ويشير من بعيد إلى أن المال قوام النفس . فتضايه ذهابها . وقد أخذ بذلك يعدد فضائل المال، ويدخل فى موضوع مقالته . (٢) كل ضرر يستطيع المال أن يصلحه لا يكون كبيرا . (٣) أى إن فقد المال الذى يصلح اختلال الأمور، أعظم من أى أمر فى هذه الدنيا . (٤) رقأ الدم (من باب نفع ، و رقوءا — بضم الراء — أيضا) : انقطع جريانه . والرقوء كصبور : ما يوضع على الدم ليرقئه (مضارع أرقأه) . قال أكثم بن صيفى : لا تسبوا الإبل ، فإن فيها رقوء الدم . أى إنها تحقن الدم ، لأنها تدفع فى الديات ، فيعرض صاحب الثأر عن طلبه ، فيحقن دم القاتل — وجواب (لو) محذوف أى ، لكفاها فضلا . (٥) الضمير فى دفعتها يعود للأرض . أى إنها لا تثمر إلا بعد حين . وهى تحتاج إلى نفقات كثيرة لتثمر . (٦) الضمير فى (قال) يعود للمشترى . وكرر (قال) على أسلوبه . (٧) الضمير فى (دفعتها) يعود للدراهم أو الدنانير، وهى ثمن الأرض . (٨) جمع نزوة ، وهى الوثبة ، كما سبق . (٩) تقلب الدرهم : انتقاله من يد إلى يد ، ويكون أكثر تقلب الدرهم بسبب الاغترار بالغنى ، أى إن رياضة الدرهم ومنعه من التقلب والفرار ، عند ما تدرك صاحبه نشوة الغنى والاستهانة بالمال — ليست بالأمر الهين . فقوله : (من سكر الغنى) ، أى بسبب نشوة الغنى وغروره — وفى نسخة ليدن : فتقلبه ، بفاء العطف . وهو صحيح أيضا . (١٠) فى النسخ : (إذا) . والمقام يعين (إذ) .

سـليمَ الجوارح ، لرَدّه فى عِقاله ، ولشـدّه بِوَثاق[(١)] . ولكنّا وجدْنا ضـعْفَه عن ضبطه ، بقدر قَلَقه فى يده[(٢)] .

ولا تغترّ بقولهم : " مالٌ صامتٌ[(٣)] "؛ فإنّه أنطقُ من كلّ خطيب ، وأنَمّ من كل نَمّـام . فلا تكترِث بقولهم : " هذين الحجرين[(٤)] " ، فتتوهّمَ جُمودَهما وسكونَهما ، وقلّةَ ظَعْنِهما ، وطولَ إقامتهما ؛ فإنّ عملَهما ، وهما ساكنان ، ونَقْضَهما للطبائع ، وهما ثابتان ، أكثرُ من صنيع السّمّ الناقع ، والسبُع العادِى . فإن كنت لا تكتفى بصنيعه حتّى تُمِدّه[(٥)] ، ولا تحتالُ فيه حتّى يحتالَ له[(٦)] ، فالقبرُ خيرٌ لك من الفقر ، والسجنُ خيرٌ لك من الذلّ .

وقولى هذا مُرّه يُعقِبُ حلاوةَ الأبد . نخذ لنفسك بالثقة[(٧)] . فقولُكَ الماضى[(٨)] ، حُلْو يُعقِب مَرارةَ الأبد . نخـذ لنفسك بالثقة . ولا ترض أن يكونَ الحِرْباءُ الراكبُ العودِ أحزمَ منك ؛ فإنّ الشاعرَ يقول :

أنّى أُتِيح لهـا حِرْباءُ تَنْضُـبَةٍ   لا يُرسل السّاق إلاّ مُمسِكا ساقا[(٩)]

---

(١) عقل البعير (من باب ضرب) ، وهو أن تثنى وظيفه مع ذراعه ، فتشدهما جميعا فى وسط الذراع بحبل . ذلك الحبل هو العقال — والوثاق (بفتح الواو وكسرها) : القيد والحبل . والكلام على المجاز . (٢) أى إننا شاهدنا أن ضعف مالك الدرهم عن حبسـه ، مساو لقلق الدرهم ورغبتـه فى الفرار . أى وذلك فى الغالب الأكثر .

(٣) المـال الصامت : الذهب والفضـة ونحوهما . والمـال الناطق : الحيوان . (٤) الحجران : الذهب والفضة . (٥) الضمير فى صنيعه يعود إلى الدرهم — أى عمله وتأثيره وهو ساكن — و (حتى تمده) أى تساعده على التفلت . من قولهم : مدّ فى السـير : مضى ، كما فى اللسان . فتمده : مضارع أمده : أطلقـه .

(٦) ولا تحتال فى حبسه ومنعه عن الحركة ، حتى يكاد له ، فيخرج من مكمنه . (٧) أى حصن تمسك بالثقة فى أمرك ، وأن تكون على بينة مما تفعل . (٨) قولك المـاضى : أى قول أبى العاص . ونسبه إليه ، لأنه يظن أنه يرى رأى أبى العاص . (٩) الحرباء مذكر . والأنثى الحرباءة . والجمع : حرابىّ . والتنضبة : شجرة حجازية شائكة تألفها الحرابىّ . جمعها : تنضب . وهو شجـر ضخام ليس له ورق . ويخرج له أفنان كثيرة . ونمـا ورقه قضبان . تأكله الإبل والغنم . والبيت لأبى دواد الإيادى ، يصف ظعنـا (بضمتين) ساقهـا وزعجها سائق مجد . فتعجب كيف أتيح لهـا هـذا السائق المجـد الحازم . لأن الحرباء لا يفارق الغصن الأول ، حتى يثبت على الغصن الآخر . وهذا مثل يضرب لمن لا يترك شيئا إلا ليأخذ شيئا آخر اهـ ملخصا من اللسان .

واحذَر أن تُخرِج من مالك درهما ، حتى ترى مكانَه خيرًا منه . ولا تنظرْ إلى كثرته ؛ فإنّ رملَ عالِجٍ[1] لو أُخِذ منه ولم يُرَدَّ عليه ، لذهب عن آخره .

إنّ القومَ قد أكثروا فى ذكر الجود وتفضيلِه ، وفى ذكر الكرم وتشريفِه ، وسمَّوا السَّرَفَ جودًا ، وجعلوه كرما . وكيف يكون كذلك وهو نِتاجُ ما بين الضعف والنَّفْج[2] ؟ وكيف ، والعطاءُ لا يكون سَرَفًا إلّا بعد مجاوزة الحقّ ؛ وليس وراء الحقّ إلى الباطل كرمٌ . وإذا كان الباطلُ كَرَمًا كان الحقُّ لؤما . والسَّرَفُ — حفظَك الله — معصيةٌ . وإذا كانت معصيةُ اللهِ كرمًا ، كانت طاعتُه لؤما . ولئن جمعهما[3] اسم واحد ، وشمِلهما حكم واحد ، (ومضادَّةُ الحقّ للباطل ، كمضادّةِ الصدق للكذب ، والوفاءِ للغدر ، والجَوْرِ للعدل ، والعلمِ للجهل)[4] لَيَجْمعَنّ هذه الخصالَ[5] اسمٌ واحد ، ولَيَشْمَلَنّها حكم واحد .

وقد وجدنا اللهَ عاب السَّرَف ، وعاب الحَمِيَّةَ[6] ، وعاب المعصية . ووجدناه قد خَصَّ السَّرف بما لم يخُصَّ به الحميّة ؛ لأنّه ليس حبُّ المرء رَهْطَه من المعصية ، ولا أَنَفَتَه من الضيم من حميّة الجاهليّة . وإنّما المعصيةُ ما جاوز الحقّ ، والحميّةُ المَعِيبةُ ما تعدّى القصد . فوجدنا اسم الأَنَفةِ قد يقع محمودًا ومذمومًا[7] ، وما وجدنا اسمَ المعصية ، ولا اسمَ السَّرَف يقع أبدًا إلّا مذموما .

---

(١) عالج : اسم موضع بالبادية به رمل كثير . (٢) النفج : التفاخر الكاذب بالمال ، كما سبق . والنتاج (بكسر النون وفتحها) ولادة البهائم ووضعها . والكلام على المجاز . (٣) جمعهما : جمع السرف والكرم . والاسم الواحد هو الكرم أو الجود ، كما سبق فى قوله : (وسموا السرف جودا) . (٤) هذه الجملة معترضة بين القسم وهو (لئن جمعهما) ، وجوابه ، وهو (ليجمعن) . (٥) أى الخصال التى ذكرها فى الجملة المعترضة . أى : وهذا ظاهر البطلان . (٦) الحمية : شدة الأنفة ، وهى الغضب والإباء . قال تعالى : (إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحميةَ حميةَ الجاهلية) . (٧) مع أن الله عاب الحمية حمية الجاهلية — وهى منشأ شرور وسفك دم — فإن هناك ضربا من الحمية محمودا ، وهو الأنفة للعرض والدين والشرف ، مع الاعتدال والقصد . أما السرف والمعصية فمذمومان على الإطلاق ، وليس فى أحدهما نوع محمود . وقوله : ووجدناه قد خص السرف الخ ، أى من الذم والعيب .

وإنّما يُسَرُّ باسم السَّرَف جاهـلٌ لا علمَ له ، أو رجل إنّمـا يُسَرُّ به ، لأنَّ أحدًا لا يُسمّيه مُسرفا حتى يكونَ عنده قد جاوز حدَّ الجود، وحَكَم له بالحقّ، ثم أرْدَفه بالباطل (١) .

فإن سُرَّ من غيرِ هـذا الوجهِ ، فقـد شارك المـادحَ فى الخطإ ، وشاكَلَه فى وضـع الشىء فى غير موضعه (٢) .

وقـد أكثروا فى ذِكْر الكرم . وما الكرمُ إلا كبعض الخصال المحمودةِ التى لم يعدَمها بعضُ الذمّ (٣) . وليس شىءٌ يخلو من بعض النقص والوهْن . وقد زعم الأوّلون أنّ الكرم يسبّب الغَبَا (٤) ، وأنّ الغبَا يُسبِّب البَلَه (٥) ، وأنّه ليس وراءَ البَلَه إلّا العتَه (٦) . وقد حَكَوْا عن كِسْرى أنّه قال :

" احذروا صَـوْلةَ الكريم إذا جاع ، واللئيم إذا شبِـع " — وسـواءٌ جاع فظَلَم وأَحْفَظَ وعسَف ، أم جاع وكذب وضَرَع وأَسَفَّ (٧) . وسواءٌ جاع فظلم غيرَه ، أم جاع فظلم نفسَه .

والظلمُ لؤمٌ . وإن كان الظـلمُ ليس بلؤم ، فالإنصافُ ليس بكرم . وإن كان الجودُ على مَنْ لا يستحقّ الجودَ كرما ، فالجودُ لمن وجب له ذلك ليس بكرم . فالجودُ إذا كان لله كان شكرًا له ، والشكرُ كرمٌ . وأن (٨) يكونَ الجودُ — إذا كان معصـيةً — كرما . فكيف يتكرّم من

---

(١) أى إنه يسر بوصفه بالسرف ، لأن هذا الوصف يتضمن معنى الجود ، ثم مجاوزة الحدفيه . فواصفه فى هذه الحال حكم له بالجود ضمنا . وهذا حق . ثم أردفه بالباطل وهو مدح السرف .

(٢) فان سر من غير هـذا الوجه ، أى بأن ظن مثلا أن مادحه إنمـا يصفه بالجود المحمود ، فقد شارك المـادح الخ .

(٣) أى لم يفقد منها بعض الذم ، بمجاوزها القصد ، أو بالمغالاة فيها .

(٤) الغبا : عدم الفطنة . غبى الشىء ، وعنه غبا وغباوة . وعبارة النسخ : «أن الكرم يسبب الغنى وأن الغنى الخ» . ونرجح أنه محرف .

(٥) البله : ضعف العقل . وبابه فرح . وله مصدر آخر ، وهو بلاهة .

(٦) فى النسخ : «المعتوه» ، بدل العته . وهو تحريف ظاهر . والعته : نقص العقل أو فقده . وهو هنا يريد فقده .

(٧) أحفظ : أغضب . وعسف : ظلم . وضرع : ذل وخضع ، فهو ضارع . وأسف : انحط إلى دنيئات الأمور .

(٨) فى النسخ : (وأن) ، بدل : (ولن) . ولا يستقيم المعنى عليه . فرجحنا تحريفه .

يتوصّل بأياديك إلى معصيتك ؟ وبنعمك إلى سُخطك؟ فليس الكرمُ إلّا الطاعةَ . وليس اللؤمُ إلّا المعصيةَ، وليس بجود ما جاوز الحقَّ، وليس بكرم ما خالف الشكر . ولئن كان مُجاوِزُ الحقّ كريمـا ، ليكوننّ المُقصّرُ دونَه كريمـا[1] .

فإن قضيتم بقول العامّة[2]، فالعامّةُ ليست بقُدْوَة . وكيف يكونُ قدوةً من لاينظُر ولا يُحصّل ، ولا يُفكّر ولا يمثّل[3] ؟ وإن قضيتم بأقاويل الشـعراء ، وما كان عليه أهلُ الجاهليّة الجهـلاء ، فما قبّحوه ممـا لا يُشكّ في حسنه ، أكثرُ من أن نقفَ عليه[4] ، أو نتشاغلَ باستقصائه .

على أنّه ليس بجودٍ إلّا ما أوجبَ[5] الشكر ، كما أنّه ليس ببخـل إلا ما أوجب اللؤم . ولن تكونَ العطيّـةُ نعمةً على المعطَى ، حتى تُراوِدَ[6] بها نفسُ ذلك المعطِى . ولن يجب عليـه الشكرُ إلّا مع شَرِيطة القصد[7] .

وكلّ من كان جودُه يرجع إليـه ، ولولا رجوعُه إليه لمـا جاد عليـك ، ولو تهيّأ له ذلك المعنى في سواك لمـا قصد إليك — فإنّمـا[8] جعلك معْبرًا لدَرْك حاجتـه ، ومَرْكبًا لبُلُوغ محبّته . ولولا بعضُ القولِ[9] ، لَوجَبَ لك عليه حقٌّ يجب به الشكر . فليس يجب لمن كان كذلك شكرٌ ، وإن انتفعتَ بذلك منه ، إذ كان لنفسه عمِلَ ، لأنّه لو تهيّأ له ذلك النفعُ في غيرك ، لمـا تخطّاه إليك .

---

(١) أى إذا عد مجاوز الحق إلى الباطل كريما ، جاز أن يعد المقصر دون حد الكرم كريما ، ما دام معنى الكرم لا يدرك إدراكا صحيحا . فصاحب الرسالة — من قوله : وقد أكثروا في ذكر الكرم ، إلى هنا — يضع أمام القارئ مقدمات يستنبط منها نتائج . ثم يبنى على هذه النتائج مقدمات أخرى . وهكذا .
(٢) وهو عدهم كل مسرف كريما .
(٣) لا يمثل : لا يصور الحقائق تصويرا صادقا .
(٤) نقف عليه : نقف عنده ونعنى به وندرسه .
(٥) أوجب هنا بمعنى أوجد وسبب .
(٦) راوده على الشيء : طلب منه فعله . والمعنى هنا التقرب والتحبب . أى : لا تكون العطية خالصة من الذم ، إلا إذا أريد بها نفس الآخذ وحدها ، لا ما ينتظر منه من فائدة .
(٧) شريطة القصد : هذه الشريطة التي ذكرها بقوله : ولن تكون العطية الخ .
(٨) جملة فإنما خبر للمبتدأ وهو : (وكل من كان جوده) . وقرن الخبر بالفاء ، لدلالة المبتدإ على العموم .
(٩) أى ولولا الخوف من بعض القول ، وهو أن نتهم بالمغالاة ، لقلنا بوجوب شكر الجواد للجود عليه . إذ هو قد أدرك حاجته بسببه .

وإنّمـا يوصف بالجود فى الحقيقـة ، ويُشكَرُ على النفع فى حجّةِ العقل — الذى إن جاد عليك ، فلك جاد، ونفْعَك أراد، من غير أن يرجعَ إليه جودُه بشىء من المنافع، على جهة من الجهات، وهو اللهُ وحدَه لا شريكَ له .

فإنْ شكرنا للناس على بعض ما قد جرَى لنا على أيديهم ، فإنمـا هو لأمرين : أحدُهما التعبُّدُ ، وقد نعبُد الله بتعظيم الوالدين[1] ، وإن كانا شَيْطانين ، وتعظيم مَنْ هو أسَنُّ منّا ، وإن كنّا أفضلَ منْه[2] . والآخر، لأنّ النفس ما لم تحصّل الأمورَ وتميّز المعانى[3]، فالسابق إليها حبُّ من جرَى لها على يده خيرٌ[4]، وإن كان لم يُرِدْها، ولم يقصِد إليها .

ووجدنا عطيّةَ الرجل لصاحبه لا تخلو أن تكون لله ، أو لغير الله . فإن كانت لله ، فثوابُه على الله . وكيف يجب علىّ فى حجّة العقل شكرُه، وهو لو صادف ابنَ سبيلٍ غيرى لمـا حمَلَنى[5] ولا أعطانى؟ — وإمّا أن يكون إعطاؤه إيّاى للذِّكْر[6] . فإذا كان الأمرُ كذلك، فإنّمـا جعلنى سُلّما إلى تجارته، وسببا إلى بُغْيته، أو يكونَ إعطاؤه إيّاى من طريق الرحمة والرقّة، ولمـا يجد فى فؤاده من الغُصّة والألَم[7] . فإن كان لذلك أعطَى، فإنّمـا داوَى نفسَه من دائه، وكان كالذى رفّه من خِناقه[8] . وإن كان إنّما أعطانى على طلب المجازاة وحبِّ المكافأة، فأمرُ هذا معروفٌ . وإن كان إنّمـا أعطانى من خوف يدى أو لسانى ، أو اجْترارِ معُونتى ونُصْرتى[9]، فسبيلُه سبيلُ جميع ما وصفنا وفَصَّلْنا[10] .

(١) فى (عيون الأخبار) : وقد أمر الله تعالى بتعظيم الوالدين .
(٢) كذا (فى عيون الأخبار) . وفى النسخ : من هو شر منا وإن كنا أفضل منهم .
(٣) تحصل الأمور وتميز المعانى : تدرك عِلما وتجربة .
(٤) فالسابق الخ ، كذا فى (عيون الأخبار) . وفى النسخ : بالسابق إليها أحبت من جرى لها الخ . وهو تحريف .
(٥) حمله : أعطاه ظهرا يركبه . وفى (عيون الأخبار) : لمـا أعطانى .
(٦) لذيوع الصيت والمحمدة .
(٧) أى لحاجتى وسوء حالى . وفى عيون الأخبار : من العصر والألم .
(٨) رفه : خفف ونفس .
(٩) كذا فى عيون الأخبار . وفى النسخ : أو صرف معونتى ومضرتى . وهو تحريف .
(١٠) فسبيله الخ ، أى فهو ناشئ من غرض ، لا لمحض البر .

فلاسم الجود موضعان :

أحدهما حقيقة، والآخر مجاز . فالحقيقةُ ما كان من الله، والمجازُ المشتقُّ له من هذا الاسم (١) . وما كان لله كان ممدُوحًا، وكان لله طاعة . فإذا لم تكن العطيّة من الله ولا لله، فليس يجوز هذا فيما سَمَّوْه جُودا . فما ظنّك بما سَمَّوه سَرَفا ؟

٥ افهم ما أنا مُورِدُه عليك، وواصفُه لك : إنّ الترَبُّحَ (٢) والتكسُّبَ والاستِئكال بالخديعة والطُّعَم (٣) الخبيثة فاشيةٌ غالبةٌ، ومستفيضةٌ ظاهرة . على أنّ كثيرًا ممن يضافُ اليومَ إلى النزاهة والتكرّم، وإلى الصيانة والتوقّى، لَيأخُذ من ذلك بنصيب وافر، وبمُدّ (٤) وافٍ . فما ظنّك بدَهْماء (٥) الناس وجُمهورهم؟ بل ما ظنُّك بالشعراء والخطباء الذين إنّما تعلموا المنطق لصناعة التكسب؟ وهؤلاء قومٌ بودّهم أنّ أربابَ الأموال قد جاوزوا حدّ السلامة إلى الغفلة، حتى لا يكون للأموال

١٠ حارسٌ، ولا دونها مانع .

فاحذَرْهم، ولا تنظر إلى بِزّة (٦) أحدهم، فإنّ المسكينَ أقنعُ منه . ولا تنظر إلى موْكِبه، فإنّ السائلَ أعفُّ منه . واعلم أنّه فى مَسْك (٧) مِسكين، وإن كان فى ثيابِ جواد (٨)، ورُوحَه رُوحُ نَذْلٍ، وإن كان فى جِرْم مَلِك (٩) . وكلّهم، وإن اختلفت وجوه مسألتهم، واختلفت أقدار مطالبهم، فهو مِسكين . إلّا أنّ واحدًا يطلب العِلْقَ (١٠)، وآخرَ يطلُب الخِرَق (١١)، وآخرَ

١٥ (١) قسم الجود قسمين : حقيقيا، وهو ما كان من الله مباشرة، ومجازيا، وهو ما كان مشتقا ومتفرعا من جود الله، وآتيا على يد مخلوق . (٢) تربح : طلب الأرباح وتكسب، كما فى الأساس . واستأكل : أخذ أموال الضعفاء كالنساء واليتامى وغيرهم، وعاش عليها . (٣) الطعم : جمع طعمة (بضم فسكون)، وهى المأكلة . كما فى اللسان . (٤) المد : مكيال مقداره رطل وثلث، عند أهل الحجاز . والمراد به هنا مطلق مقدار . والكلام على المجاز . (٥) دهماء الناس : جماعتهم وسوادهم . (٦) البزة : الهيئة

٢٠ والشارة واللبسة (بكسر اللام) . والمراد هنا حسن اللباس . (٧) المسك : الجلد . (٨) فى بعض النسخ : جداد، على أنه صفة لثياب . ولم يعرف جمع جديد على جداد . فاستظهرنا أن تكون محرفة عن (جواد) . (٩) جرم ملك : جسد ملك . (١٠) النفيس من كل شىء . (١١) جمع خرقة : القطعة من الثوب . والمراد : ما يستتر به .

يطلب الدوانيق[١]، وآخرَ يطلُبُ الألوفَ . فجِهةُ هذا هى جهةُ هذا، وطُعْمةُ هذا هى طُعْمةُ هذا[٢] .
وإنّمـا يختلفون فى أقدار ما يطلبون، على قدر الحِذْقِ والسببِ[٣] . فاحذَر رُقاهم[٤] وما نَصَبُوا لك
من الشَّرَك، واحرُس نعمتك وما دسّوا لها من الدواهى[٥] . واعمل على أنّ سحرَهم يسترِقُ الذهنَ،
ويختطف البصرَ . قال رسـول الله (صلّى الله عليه وسـلّم) : إنّ من البيان لسحرًا . وسمع
عمرُ بنُ عبد العزيز رجلا يتكلّم فى حاجة فقال : هذا واللهِ السحرُ الحلالُ . وقد قال رسولُ الله
(صلّى الله عليه وسلّم) : لا خِلابةَ[٦] — واحذَر احتمالَ مديحهم، فإنّ محتمِلَ المديح فى وجهه،
كمادح نفسه .

إنّ مالَك لا يسَعُ مُريديه، ولا يبلُغ رضا طالبيه . ولو أرضيتهم بإسخاط مِثْلهم، لكان ذلك
خُسرانا مبينا . فكيف وَمَنْ يسخَط أضعافُ مَنْ يرضَى ؟ وهِجاءُ الساخط أضرُّ من فَقْد مديح
الراضى . وعلى أنّهم إذا اعتوَروك بمشاقصهم، وتداوَلوك بسهامهم[٧]، لم ترَ ممّن أرضيتَه بإسخاطهم
أحدًا يناضِل عنك، ولا يُهاجِى شاعرًا دونك . بل يخلّيك غَرَضًا لسهامهم، ودَرِيئةً[٨] لِنبالهم .
ثم يقول : وما كان عليه لو أرضاهم ! فكيف يُرضيهم ورضا الجميع شىءٌ لا يُنال ؟ وقد قال
الأوّل : وكيف يتّفق رضا المختلفين ؟ وقالوا : مَنْعُ الجميع أرْضَى للجميع .

---

(١) جمع دانق، وهو سدس درهم، كما تقدم . (٢) الطعمة : وجه المكسب . يقـال : فلان عفيف الطعمة، وخبيث الطعمة : إذا كان ردىء المكسب اهـ من المختار . (٣) السبب : الوسـيلة .

(٤) الرقى : جمع رقيـة (بضم فسكون)، وهى كلمات تقرأ للمحموم والمصروع ليشفى، بزعمهم . والمراد أن لهم كلاما وحيلا كالسحر . (٥) لا يجوز أن يكون (ما) معطوفا على (نعمتك)، كما هو ظاهر . وإنمـا هو مفعول لفعـل محذوف . أى : واحذر ما دسـوا . اللهم إلا أن يضمن (احرس) معنى (راقب) مثـلا .

(٦) الخلابة : الخداع . وفى الحديث : « إذا بايعت فقل : لا خلابة » . (٧) المشاقص : جمع مشقص (كمنبر)، وهو النصـل العريض . و (اعتـوروك) و (تداولوك) : أصابوك واحدا بعـد آخر .

(٨) الدريئة : الحلقة يتعلم الطعن والرمى عليها . والكلام على المجاز .

إنى أحذّرك مصارعَ المخدوعين، وأرفعك عن مضاجع المغبونين. إنك [لستَ][1] كمن لم يزل يقاسى تعذّرَ الأمور، ويتجرّع مرارة العيش، ويتحمّل ثقل الكدّ، ويشرب بكأس[2] الذّلّ، حتى كان يمرُن على ذلك جلدُه، ويسكُن عليه قلبُه. وفقرُ مثلك مضاعَفُ الألم، وجزَع من لم يعرف الألمَ أشدّ. ومَنْ لم يزل فقيرًا فهو لا يعرف الشامتين، ولا يدخله المكروه من سرور الحاسدين، ولا يُلام على فقره، ولا يصيرُ موعظةً لغيره، وحديثا يبقَى ذِكْرُه، ويلعنُه بعد الممات وَلَدُه.

ودعنى من حكايات المستأكِلين، ورُقَى الخادعين[3]؛ فما زال الناسُ يحفظون أموالَهم من مواقع السَّرف، ويخبّئونها من وجوه التبذير. ودعْنى ممّا لا نراه إلّا فى الأشعار المتكلَّفة، والأخبار المولَّدة، والكتبِ الموضوعة[4]. فقد قال بعضُ أهل زماننا: ذهبت المكارمُ إلّا من الكتب!

فخذ فيما تعلم، ودعْ نفسَك ممّا لا تعلم. هل رأيت أحدًا قطُّ أنفق ماله على قوم كان غناهم سببَ فقره، أنّه[5] سلّم عليهم حين افتقر، (فردّوا عليه)[6] — فضلًا على غير ذلك؟ أوَ لستَ قد رأيتَهم بين مُحمِّقٍ[7]، ومحتجِبٍ عنه، وبين من يقول: فهلّا أنزل حاجتَه بفلان الذى كان يفضّله ويقدّمه ويؤثره ويخصّه؟ — ثم لعلّ بعضَهم أن يتجنّى عليه ذنوبا، ليجعلها عذرًا

---

(١) فى النسخ: إنك كمن الخ ... وهو غير مناسب لسياق المعنى. لأنه يريد أن يقول: إنك لم تعتد الفقر حتى يكون ألمه هينا. بل فقر مثلك بعد الغنى يكون مضاعف الآلام، شديد الوقع. (٢) بكأس: من كأس. فالباء بمعنى (من). (٣) تقدم معنى المستأكل. وحكاياتهم: ما يخترعونه من أخبار مكذوبة فى الكرم الذى تجاوز الحدّ، تخدعا ضعفاء العقول. وفسرنا (الرقى) آنفا فى قوله: فاحذر رقاهم. (٤) ودعنى الخ، أى من أخبار الكرم المفرط والإسراف. والمولدة: المصنوعة المفتعلة. والموضوعة: المؤلفة لهذا الغرض. (٥) المصدر المؤول بدل من (أحدا). (٦) ما بين القوسين من نسخة الشنقيطى. وليس فى غيرها. وقوله: فضلا على غير ذلك، أى فضلا عن الإيذاء والتشنيع وعدم الوفاء له. وقد سبق لنا فى غير موضع أن قلنا: إنهم يقولون: فضلا عن كذا؛ لا فضلا على كذا. فلعله تعبير قديم. (٧) محمق: ناسب له إلى الحمق.

فى منعـه ، وسببًا إلى حِرْمانه . قال الله جلّ ذِكْرُه : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ . خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ، وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴾ (١) .

فأنا القائمُ عليك بالموعظـة والزَّجْر، والأمر والنهى، وأنت سالمُ العقـل والعِرْض ، وافرُ المـال، حَسَنُ الحال . فاتّقِ أن أقومَ غدًا على رأسك بالتقريع والتعيير، والتوبيخ والتأنيب، وأنت عليلُ القلب، مُخْتَلُّ العِرْض (٢) ، عديمٌ من المـال، سيِّئُ الحال .

ليس جُهْدُ البـلاء (٣) مدَّ الأعناق ، وانتظارَ وَقْع السـيوف ؛ لأنّ الوقتَ قصيرٌ ، والحسّ مغمورٌ (٤) . ولكنَّ جُهْدَ البلاءِ أن تَظهرَ الخَلَّةُ (٥) ، وتطولَ المدّة ، وتعجِزَ الحيلة ؛ ثم لا تَعْدَمَ صديقًا مؤنِّبًا ، وابنَ عمٍّ شامتا ، وجارًا حاسِرًا (٦) ، ووليـًّا (٧) قد تحوَّل عدوًّا ، وزوجةً مُخْتَلِعـةً (٨) ، وجاريةً مُستبِيعةً (٩) ، وعبدًا يحقِرُك، وولدًا ينتهرك .

فانظر أين موقِـعُ فَوْتِ الثناء (١٠) ، من موقع ما عَدَدْنا عليك من البلاء ؟ على أنّ الثناء طُعَمٌ (١١) ، ولعلّك ألّا تُطْعَمه (١٢) ، والحمدَ أرزَاق، ولعلّك ألّا تُحرَمه (١٣) .

---

(١) يسوق الآية الكريمة ، ليبين أن من استطاع أن يعمل شيئا ولم يعمله ، أسف عنـد فوات الفرصة على عجزه عن عمله . وقوله : يوم يكشف عن ساق : إنمـا يريد به شدة الأمر . و يقال للأمر الشـديد ساق : لأن الإنسان إذا دهمته شدّة شمر لها عن ساقيه . اه من اللسان . (٢) عليل القلب : حزينه . و (مختل العرض) : كثير العيوب ، يسهل على أعدائه أن ينالوه بالذم . (٣) جهد البلاء : غاية ما تصل إليه المصيبة . (٤) لأن الوقت الخ ، أى فى تلك الحال ، حال انتظار وقع السيوف . ومغمور : مستور من هول الموقف ، كأنه لا إحساس أصلا . (٥) الخلة : الحاجة والفاقة . (٦) الحاسر فى الحرب : خلاف الدارع . وفى اللسـان : و يقال للرجالة فى الحرب الحسر ، وذلك لأنهـم يحسرون عن أيديهم وأرجلهم . وقيل : سموا حسرا ، لأنه لا دروع عليهم ولا بيض اه . فيريد بقوله : (جارا حاسرا) جارا محاربا مناوئا ، على المجاز . ولا يمكن أن يكون من الحسرة واللهفة ، لأن المقام يأباه ، كما هو واضح . (٧) وليـا : صديقا . (٨) المختلعة : من دفعت لزوجها مالا فطلقها . أى إنه فى هذه الحال لا يعدم أن يرى زوجه تريد مخالعته . (٩) استباعه الشىء : سأله أن يبيعه إياه . والجـارية المستبيعة : هى التى سألت سـيدها أن يبيعها . (١٠) فوت الثناء : أى من المتملقين طالبى المـال ، إذا حرمتهم ولم تعطهـم . وقوله : من موقع الخ : أى فى حال ذهاب مالك فى السرف والإعطاء . (١١) جمع طعمة ، وهى المأكلة . (١٢) أى مع السرف . (١٣) أى مع الاقتصاد وعدم الإعطاء .

وما يَضيعُ من إحسانِ الناس أكثرُ[1] . وعلى أنّ الحِفْظَ[2] قد ذهب بموت أهله . ألَا ترَى أنّ الشِّعْر لمّا كسَدَ[3] أُفْحِمَ أهلُه ، ولمّا دخل النقصُ على كلّ شيء أخذ الشِّعرُ منه بنصيبه ، ولمّا تحولت الدولةُ فى العجم — والعجَمُ لا تحوط الأنسابَ[4] . ولا تحفَظُ المقاماتِ[5] — لأنّ من كان فى الرِّيف والكفاية ، وكان مغموراً بِسُكْرِ الغِنَى[6] ، كثُرَ نسيانه ، وقلّت خواطره . ومن احتاج تحرّكت همّتُه ، وكثُرَ تنقيره .

وعَيْبُ الغِنَى أنّه يورّثُ البلادةَ ، وفضيلة الفقر أنّه يبعث الفِكْرَ . وإنْ أنت صحبت الغنى بإهمال النفس ، أسكرك الغنى . وسُكْرُ الغِنَى سُبَّةُ المستأكلين ، وتُهَمَةُ الخدّاعين[7] . وإن كنتَ لا ترضى بحظّ النائم ، وبعيش البهائم ، وأحببتَ أن تجمعَ مع تمام نفس المثرِى ، ومع عزّ الغِنَى وسرور القدرة ، فِطنةَ المُخِفِّ[8] ، وخواطرَ المُقِلّ ، ومعرفةَ الهارب ، واستدلالَ الطالب — اقتصدت فى الإنفاق ، وكنت مُعِدًّا للحدَثان ، ومحترِسًا من كلّ خِداع .

---

(١) إحسان الناس : الإحسان إليهم . أى إن الضائع من أخبار الإحسان أكثر مما يبقى منها . فلا تغتر بأن الإحسان يبقى لك حسن الذكر ، فإنه عرضة للنسيان . أو أن المراد بالضائع : الذى يذهب سدى ، ولا يشكر عليه ولا يعترف به .
(٢) أى حفظ أخبار الكرماء . (٣) كسد : أى بموت الكرماء الممدوحين به . (٤) جواب (لمّا) محذوف ، أى : ازداد انحطاطه — كما هو ظاهر . (٥) لا تحوط الأنساب : لا تعنى بحفظ أنسابها ، فلا تهتم بأن تمتدح أصولها وكريم عناصرها . والمقامات : مجالس العرب وخطبها . أى إن العجم لا يأبهون لتسجيل مجالس فصحائهم ولا لحفظ خطبهم ، كما يفعل العرب . (٦) لأن من كان فى الريف الخ ، يقول : إن هؤلاء العجم الذين تحولت إليهم الدولة الاسلامية ، أقاموا ملكهم فى بلاد خصبة ، كثيرة الثروة والخيرات ، فأنساهم النعيم البحث عن الأنساب ، والتغنى بالماضى . بخلاف العرب ، فإنهم فى بداوتهم حين أقاموا بالجدب ، لم تجد هممهم ما يشغلها إلا أن تبحث وتنقر عن هذه المعنويات من الأنساب وغيرها من وسائل الفخر ، فأشاد بها الشعراء وتغنى بها المادحون .
(٧) وسكر الغنى الخ ، يعنى أن نشوة الأغنياء بالغنى ، التى تؤدى إلى أن يستأكلهم الخادعون ، إنما هى سبة لهم . وفى نسخة الشنقيطى : (نُهزة) ، بضم فسكون ، بدل (تُهمة) . والنهزة : الفرصة . (٨) فطنة المخف الخ ، أى صفات هؤلاء جميعا من الحذر والاحتياط وبعد النظر .

لستَ تبلغُ حِيَلَ لصوص النهـار ، وحِيَلَ سُرّاق الليـل ، وحِيلَ طُرّاق البُلْدَان ، وحِيلَ أصحاب الكيمياء[1] ، وحِيلَ التُّجّار فى الأسواق ، والصنّاع فى جميع الصناعات ، وحِيلَ أصحاب الحروب[2] ، وحِيلَ المستأ كاين والمتكسّبين .

ولو جمعتَ الخُبْرَ[3] والسِّحْرَ والتمائم[4] والسِّمَّ ، لكانت حِيلُهم فى الناس أشدّ تغلغلا ، وأعْرَضَ[5] ، وأسرَى فى عُمق البدن ، وأدخلَ إلى سُوَيداء القلب ، و إلى أمّ الدِّماغ[6] ، و إلى صَمِيم الكبِد .

وهى أدقّ مَسْلَكا ، وأبعدُ غايةً من العِرْق[7] السارى ، والشَّبَه النازع[8] ، ولو[9] اتّخذتَ الحيطانَ الرفيعة الثخينة ، والأقفالَ المُحكَمَةَ الوثيقة ، ولو اتّخذتَ المَارِقَ[10] والجَواسِق[11] ، والأبوابَ الشِّداد ، والحَـرَس المتناوبين بأغلظ المُؤَن[12] ، واشـدِّ الكُلَف ، وتركتَ التقـدّمَ فيما هو أحْضَرُ ضررًا وأدْوَمُ شرّا[13] ، ولا غُرْم[14] عليك فى الحراسة فيه ، ولا مَشَقّةَ عليك فى التحفّظ منه .

(١) الكيمياء فيما يزعمون : جعل المعادن الخسيسة كريمة بالصناعة ، كما تقدم . (٢) حيل أصحاب الحروب : ما يدخلون به على الناس كذبا من حاجتهم إلى المـال للغزو . (٣) الخبر : تمام المعرفة . وفى نسخة الشنقيطى : الخـمـر . (٤) التمائم : جمع تميمة ، وهى خرزة أو نحوها ، تعلق على الإنسان لدفع الشر بزعمهـم . (٥) من التعبيرات النادرة . ويراد به العظم والشمول . (٦) سواد القلب وأسوده وسـوداؤه وسـويداؤه : حبته . وقيـل : دمه . يقـال : رميته فأصبت سـواد قلبه . وأما (أم الدماغ) ، ففى الأساس : و بلغت الشـجة أم الدماغ ، وهى الجـلدة التى تجمعـه . (٧) العـرق هنا : جذر النبات . (٨) أى شبه الأبناء بآبائهم وأجدادهم . فان الشبه قد يسرى إلى غاية بعيدة فى النسب . و يقال نزع إلى أبيه : أشبهه . ونزع العرق : أى مال بالشـبه . (٩) (لو) وصلية : والواو للحال . أى ولو اتخذت كل أولئك دونهم . (١٠) جمع مرق . وهو هنا المكان الخفى للفرار . والفعل من باب دخل . وفى اللسان : والمروق : الخروج من شىء من غير مدخله . (١١) جمع جوسق (بفتح فسكون) ، وهو الحصن . وقد تقدم شرحه . (١٢) المؤن : جمع مؤنة ، وهى الثقل والعدة (بضم العين) . والكلف : جمع كلفة ، وهى ما يتكلف على مشقة . والباء فى قوله : (بأغلظ) بمعنى (مع) . يعنى أن هؤلاء الحرس المتناوبين معهم أشدّ أنواع العدد وما يحتاج إليه المدافع عن تلك المارق والجواسق والأبواب . ووصف الحرس بالمتناوبين ، لأنهم يكونون أنشط وأشد يقظة . (١٣) وتركت التقدّم : أى ثم تركت العناية والاهتمام . و (ما هو أحضر ضررا وأدوم شرا) هو حيل هؤلاء المستأكلين والمتكسبين . (١٤) ولا غرم الخ ، الواو للحـال . أى والحال أنك فى كل هذا الاحتياط مرتاح لا غرم عليك الخ — وهذا غاية فى المبالغة .

إنك إن فتحتَ لهم على نفسك مِثْلَ سَمِّ الخِياط جعلوا فيه طريقًا نَهْجًا[١]، ولُقًى رحبًا. فأَحْكِم بابَك، بل أَدِم إصْفاقه[٢]، فهو أولَى بك. بل إن قدَرْتَ على مُصْمَتٍ[٣] لا حيلةَ فيه، فذلك أشبهُ بحزمك.

ولو جعلتَ البابَ مُبْهَمًا والقُفْلَ مُصْمَتًا، لتسوّروا عليك من فوقك. ولو رفعتَ سَمْكه إلى العَيُّوق[٤]، لنقبوا عليك من تحتك. قال أبو الدَّرْداء: نِعْمَ صَوْمعةُ المؤمن بيتُه. وقال ابنُ سِيرين[٥]: العُزلةُ عبادةٌ.

وحلاوةُ حديثهم تدعو إلى الاستكثار منهم[٦]، وتدعو إلى إحضار غرائب شهواتهم[٧]. فمن ذلك قولُ بعضهم لبعض أصحابه: كُلْ رِخْلَةً[٨]، واشرَب مِشْعلا[٩]، ثم تَجَشَّأ واحدةً، لو أنّ عليها رحًى لطَحنتْ[١٠]!

١٠ ومن ذلك قولُ الآخر، حين دخل على قوم وهم يشربون، وعندهم قِيانٌ[١١]، فقالوا: اقترحْ أيَّ صوتٍ شئتَ. قال: أَقترحُ نَشِيشَ مِقْلًى[١٢]!

---

(١) نهجًا: واضحا. و (لُقًى): من مصادر (لقيه) والمراد مكان اللقاء. (٢) إصفاق الباب: ردّه بعد أن كان مفتوحا. (٣) المصمت والمبهم: الباب أو القفل لا يهتدى إلى طريقة فتحه إلا صاحبه. (٤) السمك: الطول. والعيوق: نجم أحمر مضيء في طرف المجرّة الأيمن يتلو الثريا. (٥) سبق ١٥ التعريف به في ص ١٠٤، ج ١ (٦) حديثهم: حديث المستأكلين والمتكسبين. (٧) وتدعو رب الدار إلى أن يحضر لهم الغريب من المآكل والمشارب التي يشتهونها: فالشهوات هنا: المشتهيات. (٨) الرخلة: الأنثى من أولاد الضأن. (٩) المشعل: شيء يتخذه أهل البادية من جلود يخرز بعضها إلى بعض، ثم يشد إلى أربع قوائم من خشب. قصير كالحوض ينبذ فيه (أي يعمل فيه النبيذ). يقول: اشرب قدر ما في مشعل من نبيذ. (١٠) واحدة: أي تجشئة واحدة. والتجشئة: التجشؤ، كما في القاموس. ٢٠ يقول: إن هذه التجشئة كافية لإدارة رحى، لشدتها وقوتها. (١١) القينة الأمة: مغنية كانت أو غير مغنية. (١٢) النشيش: صوت غليان القدر والمقلى ونحوهما. يعني أنه لا يريد غناء، بل أكلا.

ومن ذلك قولُ المَدِينيّ[1] : من تصبَّح بسبع مَوْزات، و بقدَحٍ من لبن الأَوارِك[2]، تجشَّأَ بُخُورَ الكعبة[3] .

ومن ذلك قولُهم لبعض هؤلاء[4] وقدّامَهم خَبِيصٌ[5] : أيُّما أطيب ؟ هـذا أو الفَالُوذَج[6] أو اللَّوْزِينج[7]؟ قال : لا أقضى على غائب[8] .

ومنْ ذلك كلامُ الجارُودِ بن أبى سَـبْرة[9]، لِبِـلالِ بن أبى بُرْدَة[10]، حين قال له : صِفْ لى عبدَ الأعلى[11] وطعامَه . قال : يأتيه الخبّازُ فيمثُل بين يديه، فيقولُ : ما عندك؟ فيقول : عندى جَدْىٌ كذا، وعَناقٌ كذا[12]، وبطّةُ كذا[13] — حتى يأتىَ على جميع ما عنده . قال : وما يدعوه إلى هذا؟ قال : ليقتصرَ كلُّ امرئ فى الأكل ؛ حتى إذا أُتِىَ بالذى يشتهى، بلغ منـه حاجتَهُ . قال : ثم ماذا ؟ قال : ثم يُؤْتَى بالمـائدة فيتضايقون[14]، حتى يُخَوِّى تخويةَ الظَّليم[15] . فَيجِدُّون ويهزِل[16] ؛ حتى إذا فتَروا أكل أَكْلَ الجائع المَقْرُور[17] .

(١) لم نهتد إلى من يقصد بالمدينى بعـد البحث . ونرجح أنه دوسر المدينى . وسـيأتى ذكره بعـد قليل .

(٢) الإبل الأوارك : التى اعتادت أكل الأراك . وفى النسخ : من لبن (بيـاء مشدّدة) الأوداك . وهـو تحريف . والأراك : شجرة طويلة خضراء ناعمة، كثيرة الورق والأغصان، تتخـذ منها المساويك، كما فى اللسان .

(٣) فى النسخ : (بحوز)، وهى غير مفهومة . ومعنى : تجشأ بخور الكعبة : أن تطيب منه رائحة الجشاء (بضم الجيم) . فقد قال أبو حنيفة فى وصف الأراك : أطيب مارعته الماشية رائحة لبن، كما فى اللسان .

(٤) بعض هؤلاء : بعض هؤلاء المستأكلين والمتكسبين .

(٥) الخبيص : نوع من الحلواء معمولة من التمر والسمن، كما فى القاموس .

(٦) تقـدم تعريفه .

(٧) اللوزينج : حلواء تعمل باللوز . وقد انفردت نسخة الشنقيطى بزيادة (أو اللوزينج) — وفى بعض النسخ : (أم) بدل (أو) .

(٨) أى إن هذا المستأكل يريد أن يتذوق الفالوذج واللوزينج، حتى يمكنه أن يحكم عن حس وتجربة .

(٩) تكلمنا عليه فى ج ١، ص ١٢٩

(١٠) له ترجمة فى ص ١٢٩، ج ١ .

(١١) هو عبد الأعلى بن عبـد الله بن عامر، كما فى (عيون الأخبار) .

(١٢) فى (عيون الأخبار) : فيقول : بطة بكذا، ودجاجة بكذا وكذا — والظاهر أن (بكذا) معناها : مع كذا من الخضر أو الأرز أو نحو ذلك . ومع الاضافة تخرج على هـذا الوجه أيضا . والعناق : الأنثى من ولد المعـز .

(١٣) بلال بن أبى بردة .

(١٤) أى يأخذ كل واحد يضيق مكانة حول المـائدة .

(١٥) الضمير فى يخوى يعود إلى عبـد الأعلى . والتخوية : الجلوس مائلا مع بعد البطن عن الأرض . والظليم : الذكر من النعام .

(١٦) فيجدون ويهزل : يقبلون على الأكل فى جد، أما هو فيظهر الفتور فى الأكل كأنه غير جائع . وفى (عيون الأخبار) : فيجد و يهزل — وهو وجيه .

(١٧) المقرور : الذى أصابه القر، وهو البرد . وقد سبق هذا التركيب فى غير موضع . وزاد فى عيون الأخبار : حتى ينشطهم بأكله .

وقال آخرُ: أشتهى ثريدةً دَكْناءَ (١) من الفُلْفُل، ورَقْطاءَ (٢) من الحِمّص، ذاتَ حفافين من اللحم، لها جناحان من العُراق (٣)، أضرِبُ فيها ضَرْبَ اليتيم عند وصيّ السَّوء (٤)!

وسئل بعضُهم عن حُظوظ البُلدان فى الطعام، وما قُسِم لكلّ قوم منه، فقال: ذهبت الرومُ بالجُشَم (٥) والحَشْو، وذهبت فارسُ بالبارد والحُلو. وقال عُمر: لفارسَ الشُّفارِجُ (٦) والحُمُوض (٧). فقال دَوْسَرٌ المَدينى: لنا الهَرائسُ (٨) والقَلايا، ولأهل البَدْوِ اللِّبأ (٩) والسِّلاءُ (١٠)، والجرادُ والكَمْأة (١١)، والخُبْزة (١٢) فى الرائب، والتمرُ بالزُّبْد.

وقد قال الشاعر:

ألا ليتَ خُبْزًا قد تَسَرْبل رائبًا ... وخيلًا من البَرْنىّ فُرسانُها الزُّبْدُ (١٣)

ولهم البُرْمَةُ (١٤) والخُلاصةُ (١٥) والحَيْس (١٦) والوطِيئة (١٧).

---

(١) دكناء: يضرب لونها إلى السواد، مما فيها من الأبازير والتوابل. (٢) الرقط: أن يكون الشىء أسود به نقط بيض، أو أبيض به نقط سود — والمقصود انتشار الحمص فوقها. والحفاف: الجانب.

(٣) العراق (بالضم): جمع عرق (بفتح فسكون)، وهو هنا العظم بلحمه، وهو من معانيه والمقام يقتضيه. (٤) فى العقد الفريد وعيون الأخبار: (كما يضرب ولى السوء فى مال اليتيم).

(٥) الجشم: الجوف، أو الصدر يضلوعه المشتملة عليه. وفى (عيون الأخبار): أما الروم فذهب بالحشو والأحشاء. اهـ. وأما الحشو فنظن أن المراد به ما يعالج من الأطعمة بحشوها، كما يعمل الآن. وكان ذلك مما أدخله الفرس من ألوانهم. (٦) فى النسخ: «الشفارق» — والشفارج: الطبق فيه الفيخات والسكرجات. قال صاحب (التاج) فى السكرجة: إن العرب كانت تستعملها فى الكوامخ وأشباهها من الجوارش على الموائد حول الأطعمة للتشهى والهضم. وقد شرحنا السكرجة فى ص ٣٨ من هذا الجزء، كما شرحنا الجوارشن فى ص ٧١ ، ج ١

(٧) الحموض: جمع حمض (بفتح فسكون)، وهو هنا: ما ملح من المأكول وكان مثلها. (٨) الهرائس: جمع هريسة، وهى طعام يعمل من الحب المدقوق واللحم. والقلايا: جمع قلية، وهى مرقة تتخذ من لحوم الجزر وأكبادها، وقد شرحناها من قبل. (٩) اللبأ: أول اللبن بعد الولادة. وقد سبق شرحه. (١٠) السلاء: ما طبخ وصفى من السمن. وقد تقدم تفسيره. (١١) نبات يخرج كالفطر، يقال له: شحم الأرض. وقد سبق بيانه.

(١٢) فى اللسان: الخبزة ... عجين يوضع فى الملة حتى ينضج. والملة (بفتح الميم): الرماد والتراب الذى أوقد فيه النار. (١٣) البرنى: نوع من أجود التمر أصفر مدور. (١٤) قدر من حجارة، جمعها برم (كغرف) وبرام (بكسر الباء). ولعلها تطلق أيضا على اسم طعام يطبخ فيها. (١٥) الخلاصة: التمر والسويق يلق فى السمن. (١٦) الحيس: تمر يخلط بسمن وأقط [وهو شىء يتخذ من المخيض الغنمى]، ثم يطرح منه نواه.

(١٧) الوطيئة: تمر يخرج نواه ويعجن بلبن، أو الأقط بالسكر.

وقال أعرابىّ : أتينا ببرٍّ كأفواه البُعْران[1]، فخبزنا منه خُبْزَةَ زيتٍ[2] فى النار، فجعل الجَمْر يتحدّر عنها تحدُّرَ الحشْو عن البِطان[3]. ثم ثَرَدْناها، فجعل الثريدُ يجول فى الإهالة[4] جَوَلان الضِّبْعان[5] فى الصَّفِرة[6]. ثم أتينا بتمر كأعيان الوِرْلان[7]، يَوْحَل فيه الضِّرْس.

ونُعِت السَّوِيق[8] بأنّه من عُدَدِ المسافر، وطعامُ العَجْلان، وغِذاءُ المبكِّر[9]، وبُلْغةُ المريض[10]. يشدُّ فؤادَ الحزين[11]، ويرُدُّ من نَفْس المحدُود[12]. وجيدٌ فى السمين[13]، ومنعوتٌ فى الطيِّب. قَفَاره[14] يجلو البلغم، ومَسْمُونه[15] يصفِّى الدم، إن شئتَ كان ثريدًا، وإن شئتَ كان خَبِيصًا، وإن شئتَ كان طعامًا، وإن شئتَ كان شرابًا.

وقيل لبعض هؤلاء اللَّعامظة[16] والمستأكلين والسقّافين[17] المقفَّعين[18]، ورُئِىَ سمينا: ما أسمَنَك؟ قال: أكلى الحارّ، وشربى القارّ[19]، والاتِّكاءُ على شِمالى، وأكلى من غير مالى.

---

(١) يشبه البر فى بياضه بأفواه البعران، لما يعلوها من الرغوة والزبد. (٢) أى خبزة عجنت بزيت.

(٣) البطان: حزام قتب البعير. ويمكن أن يفهم من تحدر الحشو عن البطان أن الحزام إذا شدّ على البطن تحدّر عنه حشو البطن. (٤) الإهالة: الشحم المذاب. (٥) ذكر الضباع. (٦) الصفرة: ما عظم من الرمل وتجمع، أو ما يعقد بعضه على بعض. (٧) (أعيان): من جموع العين الباصرة. والورلان: جمع ورل (محركة)، وهو زاحف كالضب، طويل الذنب صغير الرأس. ووجه الشبه الصفاء أو اللمعان. وقوله: يوحل فيه الضرس، أى من فرط لينه. وفى النسخ: ثم أتانا. والسياق يقتضى: أتينا، حملا على (أتينا) السابقة.

(٨) السويق: طعام يتخذ من الحنطة والشعير. (٩) من يقوم فى بكرة النهار، ويكون على عجل، لأمر حافز، لسهولة إعداده. وفى النسخ: المنكر. ونرجح أنها محرفة. ويؤنس استظهارنا قوله قبله: وطعام العجلان.

(١٠) ما يتبلغ به المريض ويكتفى به. (١١) يقويه ويعينه على آلامه. (١٢) المحدود: المحروم. فى اللسان: وحد الإنسان: منع من الظفر. وكل محروم محدود. (١٣) أى إنه خير أنواع الطعام السمين. وعبارة (عيون الأخبار): وهو جيد فى التسمين. (١٤) أصل القفار: الخبز بلا أدم. والمراد هنا: السويق بلا سمن — ومسمونه: الذى وضع فيه السمن. (١٥) تقدم تعريفه قريبا.

(١٦) جمع لعمظ (بفتح فسكون) وهو النهم الشهوان. ويقال له العموظ أيضا. ومن معانيه المتطفل، كما سبق فى ج ١، ص ١٢٣. (١٧) فى النسخ: السفقيف. ولعله يحكى اللفظ الشائع على الألسن إذ ذاك.

(١٨) المقفع: المنكس الرأس دائما. وهو بفتح الفاء مشددة، كما فى شرح القاموس. ولم نهتد إلى علة وصفهم بذلك. (١٩) القار: البارد. وفى اللسان: قيل لرجل: ما نثر أسنانك؟ فقال: أكل الحار، وشرب القار.

وقد قال الشاعر :

وإنّ امتلاءَ البطن فى حَسَبِ الفتى قليـلُ الغَنَـاءِ وهو فى الجسم صالحُ[١]

وقيل لآخر : ما أسْمَنَك؟ قال : قلّةُ الفِكرة، وطولُ الدَّعة، والنومُ على الكِظَّة .

وقال الحجّاجُ للغضبانِ بن القَبَعْثَرى[٢] : ما أسْمَنَك؟ قال : القيدُ والرَّتْعة[٣] . ومن كان فى ضيافة الأمير سَمِن .

وقيل لآخَر : إنّك لحَسَنُ السِّمْنة . قال : آكُلُ لُبابَ البُرّ، وصِغارَ المَعْز، وأدَّهِنُ بِخَامِ[٤] البَنفْسَج، وألبَس الكَتّان .

والله لو كان مَنْ يُسْأَل يُعطِى ، لما قام كَرَمُ العطيّـة بلؤم المسألة . ومَدارُ الصواب على طِيب المَكْسَبَة[٥] ، والاقتصادِ فى النفقـة . وقد قال بعضُ العرب : اللّهم إنى أعوذ بك من بعض الرزق، حين رأى نَاجِخَةً[٦] من ماله من صَداق أمّه .

وأىُّ سائل كان ألحفَ مسألةً من الحُطَيْئـةِ[٧] وألأَم ؟ ومَنْ ألأَمُ من جَريرِ بن الخَطَفَى[٨] وأبْخَـلُ ؟ ومَنْ أمنعُ من كُثَيِّر[٩]؟ وأشَحُّ من ابن هَرْمة[١٠] ؟ ومن كان يَشُـقُّ غُبَـارَ

(١) يعنى أن كثرة الأكل لا تفيد فى اعلاء شرف الفتى . ولكنها تفيد الجسم . وفى النسخ : « الغنى » ، بدل (الفتى) وهو تحريف . (٢) من خبره أنه لما هلك بشر بن مروان ، وولى الحجاج العراق ، بلغ ذلك أهل العراق . فقام الغضبان خطيبا بالكوفة ، يؤلبهم على الحجاج . فكان فيما قال لهم : « فاعترضوا هذا الخبيث فى الطريق فاقتلوه . فأطيعونى ، وتغدوا به قبل أن يتعشى بكم » . فلما قدم الحجاج الكوفة بلغته مقالته : فأمر به فأقام فى حبسه ثلاث سنين .

(٣) الرتعة : الاتساع فى الخصب والسعة . وهو مثل . (٤) الخام : الريح الطيبة تعبق بالثوب .

(٥) المكسبة : الكسب . (٦) يقال للابل التى يرثها الرجل فتكثر بها إبله : « ناجخة » . والمراد هنا زيادة من الإبل جاءت إليه من مهر أمه . فهو يعوذ بالله منها ، لأنها جاءت إليه بلا كسب . ويتضح من المقام أن أمه قد ماتت ، وكان على أبيه مؤخر صداقها . فهذه الناجخة هى نصيبه فيه . (٧) سبق التعريف به فى ص ١١٠ من هذا الجزء . (٨) هو أبو حرزة جرير بن عطية بن حذيفة الخطفى الكلبى اليربوعى . كان أشعر أهل عصره . وكان هجاء مرا . وكان أرق الناس شعر غزل . توفى سنة ١١٠ هـ . (٩) هو كثير بن عبد الرحمن بن الأسود ابن عامر الخزاعى . شاعر من أهل الحجاز . وكان أكثر إقامته بمصر . وكان يهوى عزة بنت جميل الضمرية . وكان عفيف الحب . وأخباره معها مستفيضة . توفى سنة ١٠٥ هـ . (١٠) هو إبراهيم بن على بن هرمة الخلجى القرشى . شاعر مجيد . توفى فى عهد الرشيد سنة ١٥٢ هـ . وسيستشهد الجاحظ بشعره فى مواضع مما يلى من هـذا الكتاب .

ابنِ أبى حَفْصَةَ[1]؟ ومَنْ كان يصْطَلى بنار أبى العتاهية[2]؟ ومَنْ كأبى نُواسٍ فى بخـله[3]؟ أو كان كأبى يعقوبَ الخُرَيمىّ فى دِقّة نظـره وكَثْرة كسْبه[4]؟ ومن كان أكثرَ نحْـرًا لجَزَرةٍ[5] لم تُخلق من ابن هَرْمَةَ، وأطعنَ برُمْحٍ لم ينبتْ، وأطعمَ لطعـامٍ لم يُزْرع من الخُرَيمى[6]؟ فأين أنت عن ابنِ يسير[7]؟ وأين تذهبُ عن ابن أبى كَرِيمةَ[8]؟ ولِمَ تُقَصِّرُ فى ذكر الرَّقاشىّ، ولم تذكر سِرّه[9]؟

إنّ الأعرابىّ شرٌّ من الحاضر، سائلُ جبّار، ووثّابةٌ ملّاق[10]؛ إن مدَح كذَب، وإن هجـا كذب، وإن سَبَّ كذب، وإن طمِع كذب. لا يعرفه إلّا نَطِفٌ[11] أو أحمق، ولا يعطيـه إلا من يُحبّه، ولا يحبه إلّا من هو فى طباعه.

---

(١) يقال: لا يشق لفلان غبار فى كذا: أى لا يلحق. كأن غباره ينقطع دون من وراءه — وابن أبى حفصة: هو مروان بن سليمان بن يحيى بن أبى حفصة. شاعر كبير. نشأ فى العصر الأموى. وأدرك زمنا من العصر العباسى. توفى ببغداد سنة ١٨١ هـ. (٢) فى اللسان: وفلان لا يصطلى بناره: إذا كان شجاعا لا يطاق. ولكن المعنى هنا أنه لا يماثل فى الرياء والشح — وأبو العتاهية هو اسماعيل بن القاسم بن سويد العينى، من قبيلة عنزة. وهو يعدّ من طبقة بشار وأبى نواس وأضرابهما. كان مجيـدا فى الزهد والمديح. وكان فى أول عهده يبيع الجرار. ثم اتصل بالخلفاء، وعلت مكانته. توفى سـنة ٢١١ هـ. (٣) سبق لنا تعريف وجيز به فى ص ٣٢، ج ١ — ونزيد هنا أنه ولد بالأهواز، ونشأ بالبصرة، ورحل إلى بغداد، فاتصل فيها بالخلفاء من بنى العباس. قال الجاحظ: ما رأيت رجلا أعلم باللغة ولا أفصح لهجة من أبى نواس. وأخباره فى كتب الأدب كثيرة. (٤) هو أبو يعقوب إسحاق بن حسان الأعور الخريمى. وقد تقدم التعريف به فى ص ١١ من هذا الجزء. (٥) الجزرة: الشاة السمينة. وجمعها جزر. وقد أعاد ذكر ابن هرمة والخريمى، إطنابا وتفكيها. (٦) يقول إن ابن هرمة والخـريمى كانا يتخيلان ويتمدحان بمـا لم يأتيا من أعمال الكرم والشجاعة. (٧) سبق تعـريف وجيز به فى ج ١، ص ٥٩ — ونزيد هنا أنه محمد بن يسير الرياشى. كان شاعرا ظـريفا هجاء. لم يفارق البصرة، ولا وفد على خليفـة أو أمير. وكان مشهورا بالبخل. (٨) من أصحاب الجاحظ. وله خبر فى هـذا الكتاب فى ص ٤٥، ج ١ (٩) ولم تقصر الخ، أى ولم تقصر فى ذكره بين هؤلاء العظماء من البخلاء؟ أى فيجب ألا تنساه. وقـوله: ولم تذكر سره، الواو للحال: أى وقد نسيت سره. والمراد بالسر هنا — كما يظهر لنا — سرّ بخله. هذا إذا لم تكن العبارة محرفة. وفى النسخ: (شره) بدل سره. وفى مقدّمة طبعـة ليدن، يظن الكاتب أنها قد تكون (سره) لا شره. والمـراد بالرقاشىّ هنا: الفضـل بن عيسى الرقاشى. وقد عده الجاحظ فى (البيان والتبيين) بين البلغاء والأبيناء. فقال: كان ... من أخطب النـاس. وكان متكلما، وكان قاصا مجيـدا ... وهو رئيس الفضلية، وإليه ينسبون — وإن أردت المزيد فارجع إلى الجزء الأوّل من (البيان والتبيين) ص ١٤٥ و ٢٧٤، طبعة السندوبى. (١٠) الحاضر: ساكن الحضر. ووثابة: كثيرا لوثوب إلى الفرص، نهاض لها. و (ملاق): يظهر الود واللطف. (١١) النطف: الرجل المريب (بضم الميم وكسر الراء)، وهو المتهم.

ما أبطأكم عن البذل فى الحقّ ! وأسرعكم إلى البذل فى الباطل ! فإن كنتم الشعراءَ تُفضّلون ، و إلى قولهم ترجعون ، فقد قال الشاعر :

قليلُ المالِ تُصلحه فيَبْقَى ولا يَبْقَى الكثيرُ على الفساد

وقد قال الشمّاخُ بنُ ضِرَار (١) :

٥ لَمالُ المرءِ يُصلِحُه فيُغنِى مَفاقِرَه (٢) أعفُّ من القُنوع

وقال أُحَيْحَةُ بن الجُلاح (٣) :

استغْنِ أو مُتْ ولا يغرُرْك ذو نَشَبٍ من ابن عمٍّ ولا عمٍّ ولا خالِ

إنى أُكِبُّ على الزَّوْراءِ (٤) أَعْمُرُها إنّ الكريمَ على الأقوامِ ذو المالِ

وقال أيضا :

١٠ استغْنِ عن كل ذى قُرْبى وذى رَحِمٍ إنّ الغنيَّ من استغنَى عن الناس

والبَسْ عدوّك فى رِفق وفى دَعَةٍ لِباسَ ذى إرْبةٍ (٥) للدهر لبّاس

ولا يَغُرَّنْك أضغانٌ مُزَمَّلَةٌ (٦) قد يُضْرب الدَّبِرُ الدامِى بأحْلاس

وقال سهلُ بن هارون (٧) :

إذا امرُؤٌ ضاق عنّى لم يضِق خُلُقى من أن يرانى غنيّا عنه باليـاس

---

١٥ (١) هو معقل بن ضرار بن حرملة بن سنان المازنى الذبيانى المعروف بالشماخ . شاعر مخضرم . وهو شاعر مجيد من طبقة عالية . توفى سنة ٢٢ هـ . (٢) المفاقر : قيل : جمع فقر على غير قياس . وقيل : جمع لا واحد له . والقنوع : السؤال والتذلل . (٣) هو أبو عمرو أحيحة بن الجلاح . سيد الأوس ، وأعز أهل يثرب فى الجاهلية . وكان من فرسان العرب الأجواد ، وشعرائهم المجودين . وأخباره مفصلة فى مواضعها .

(٤) الزوراء : أرض كانت لأحيحة بن الجلاح — (انظر معجم البلدان ٤ : ٤١٢) — سميت ببئر كانت فيها .

٢٠ و(أعمرها) : أصلحها وأثمرها . (٥) الأربة : الدهاء والحيلة . (٦) المزملة : المغطاة . والدبر : البعير أصيب بقرحة من الرحل أو نحوه . والأحلاس : جمع حلس (بكسر فسكون) ، وهو ما يوضع على ظهر البعير تحت الرحل . يقول : لا تغتر بعدوك وما يخفى فى صدره من أحقاد يبدى لك ضدها ؛ فإن البعير الذى تدمى جروحه بالأحلاس التى قد غطتها ، قد يضرب و يؤذى وهو على تلك الحال . (٧) تكلمنا عليه فى صدر الجزء الأول .

فـلا يرانى إذا لم يرع آصـرتى ‏ ‏ ‏ ‏ مُستمرِيا دِرَرًا منـــه بإبْساس [١]

لا أطلُب المـال كىْ أغنَى بفضْلته ‏ ‏ ‏ ‏ ما كان مطلبُه فقـــرا إلى النـاس [٢]

وقال أبو العتاهيـــة :

أنت ما استغنيتَ عن صا ‏ ‏ ‏ ‏ حِبِـك الدهرَ أخـــوه

فإذا احتجت إليْــه ‏ ‏ ‏ ‏ ساعـةً مجَّـك فـــوه

وقال أُحَيْحَة بنُ الجُلاح :

فـــلو أنّى أشاء نعمت بالًا ‏ ‏ ‏ ‏ وباكَرَنى صَبُوحٌ أو نشـيلُ [٣]

ولاعَبَنِى على الأَنمـاطِ لُعْسٌ ‏ ‏ ‏ ‏ على أنيابهنّ الزنجبيـــلُ [٤]

ولكنّى خُلِقْتُ إزاءَ مالٍ ‏ ‏ ‏ ‏ فأبخُلُ بعـــد ذلك أو أنيـــلُ [٥]

وقال آخـــر :

أبَا مُصْلِحٍ أصلحْ ولا تك مُفسدًا ‏ ‏ ‏ ‏ فإنّ صلاحَ المـال خيرٌ من الفقر

ألم تَرَ أنّ المرءَ يزداد عِـــزّةً ‏ ‏ ‏ ‏ على قومه أن يعلموا أنّه مُـثْرِى؟

وقال عُرْوةُ بنُ الوَرْد [٦] :

ذَرِينى للغـــنى أسْـــعَى فإنّى ‏ ‏ ‏ ‏ رأيتُ النـاسَ شرُّهم الفقـــيرُ

---

(١) الآصرة : صلة المودة أو القرابة . والمستمرى : الطالب المستدر . والدرر : جمع درة (بالكسر)، وهى اللبن . والإبساس : دعوة الناقة إلى الحلب بلطف ورفق . يقولون : أبس بها : دعاها للحلب . وقيل : دعا ولدها لتدر على حالبها ، كما فى اللسان . يقول : اذا لم يرع مودتى فلن يرانى طالبا منه شيئا . والكلام على المجاز .

(٢) « ما » فى قوله : « ما كان مطلبه الخ » مصدرية ظرفية : أى مدة كون طلبه يعد فقرا إلى الناس .

(٣) باكرنى : جاءنى فى بكرة النهار . والصبوح : ما حلب من اللبن بالغداة . والنشيل : اللحم المطبوخ بغير تابل . أو اللبن ساعة يحلب . (٤) الأنماط : جمع نمط : ضرب من البسط . واللعس : نساء لعس ، جمع لعساء . واللعس (محركة) : لون الشفة إذا كانت يميل إلى السواد قليلا . وكان مستحسنا عند العرب .

(٥) إزاء المال : سائسه وراعيه وحافظه . وفى نسخة ليدن : إذا (بالتنوين) لمال . وهو تحريف .

(٦) هو عروة بن الورد بن زيد بن عمرو ، من بنى عبس . من شعراء الجاهلية . جواد فارس شجاع . قال عبد الملك بن مروان : من قال إن حاتما أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد . توفى نحو سنة ٣٠ ق هـ .

وأبعدُهم وأهونُهم عليهم وإن أمسى له نَسَبٌ وخِيرُ [١]

ويُقْصَى فى النَّدِىِّ وتزدريه حَليلتُهُ ويَنْهَرُه الصغيرُ

وتلقَى ذا الغِنَى وله جَلالٌ يَكادُ فؤادُ صاحِبه يطيرُ

قليلٌ ذنبُه والذنبُ جَمٌّ ولكنَّ الغِنَى رَبٌّ غَفورُ [٢]

٥ وقال سعيدُ بنُ زَيْدِ بنِ عَمْرِو بنِ نُفَيْل [٣] :

تلك عِرْساىَ تَنْطِقَانِ على عَمْـ ـدٍ لِىَ اليومَ قولَ زُورٍ وهَتْرِ [٤]

سَالَتَانِى الطلاقَ أنْ رَأَتَا ما لى قليلًا — قد جئتمانى بنُكْرِ [٥]

فلَعَلِّى أنْ يكثُرَ المالُ عندى ويُعَرَّى من المَغارِمِ ظَهْرى

ويُرَى أعْبُدٌ لنا وأواقٍ ومناصيفُ من خوادمَ عَشْرِ [٦]

١٠ ونُجَرُّ الأذيالَ فى نعمةٍ زَوْ لٍ، تقولان: ضَعْ عَصاكَ لدهرِ [٧]

وَىْ كَأَنْ مَنْ يكنْ له نَشَبٌ يُحْـ ـبَبْ، ومَنْ يفتقرْ يعشْ عيشَ ضُرِّ [٨]

ويُجَنَّبْ سِرَّ النَّجِيِّ ولكنَّ أخا الفقرِ مُحْضَرٌ كُلَّ شَرِّ [٩]

---

(١) الخير : الكرم والشرف . وفى (عيون الأخبار) : (حسب)، بدل (نسب) . (٢) فى عيون الأخبار : (ولكن الغنى رب غفور) . (٣) قال فى الأعلام : صحابى من خيارهم . هاجر إلى المدينة ، وشهد المشاهد كلها .

١٥ وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة . كان من ذوى الرأى والبسالة . مولده بمكة ، ووفاته بالمدينة . له فى الصحيحين ٤٨ حديثا . توفى سنة ٥١ هـ . (٤) عرساى : زوجتاى . والهتر : تمزيق العرض . يقال : هتر عرض فلان (كضرب) هترا . ويجوز أن يقرأ بكسر الهاء ، بمعنى الكذب والسقط من الكلام ، كما فى اللسان . (٥) سالتانى : سهلت الهمزة من سأل . أو تكون سال (من باب خاف) لغة فى سأل المهموز . والنكر : المنكر . (٦) الأواقى : جمع واقية ، وهى الحافظة الصائنة . ويريد بها الخادمة . ومناصيف : جمع منصف (بكسر الميم وقد تفتح) وهى الخادم .

٢٠ وجمعها مناصف ومناصيف . (٧) الزول : الحسنة المعجبة (بكسر الجيم) . ومعنى «تقولان ضع عصاك لدهر» : تقولان : ألق عصاك لدهرك ، ولا تكدح فيه ، ولا تنقل فى طلب الرزق ؛ فقد تمت عليك النعم . (٨) وى بمعنى أتعجب . وكأن مخففه من ثقيلة . وهى هنا بمعنى حقا . (٩) هكذا البيت فى نسخة الشنقيطى . وفى النسخ : (ويجنب شر) ، بدل (سر) . وهو غير مفهوم . والنجى : الذى تساره ، يكون للواحد والجماعة . والبيت فى (عيون الأخبار) هكذا :

ويجنب سر النجى ولكـ ـن أخا المال محضر كل سر

وقال الآخـــر :

وللمـال منّى جانبٌ لا أضيعه ... وللهـــو مـنّى والبَطالةِ جانبُ [1]

وقال الأَخْنَس بنُ شِهاب [2] :

وقد عشتُ دهرًا والغُواةُ صَحابتى ... أولئك إخوانى الذين أُصاحبُ [3]

فأدّيتُ عنّى ما استعرتُ من الصِّبا ... وللمـالِ منّى اليومَ راعٍ وكاسبُ [4]

وقال ابنُ أُذَيْنة الثّقفىُّ :

أطعتُ العِرْس فى الشهوات حتّى ... أعادتنى عَسِيفًا عبـدَ عبـدِ [5]

إذا ما جئتُها قـد بعتُ عِتْقًـا ... تُعـانِق أو تُقبِّـلُ أو تُفَـدِّى [6]

فمـن وجد الغِنَى فليصطَنِعْهُ ... ذخيرتَه ويَجْهَـدْ كلَّ جَهْـدِ [7]

وقال :

مـنْ يجمـعِ المـالَ ولا يُثَبِّهِ ... ويـتركِ العـامَ لعـامِ جَدْبِهِ [8]

يَهُنْ على الناس هوانَ كلبه

وقد قيل فى المثل : الكَدُّ قبل المـدّ [9] ، وقال لَقِيط : الغزو أدرُّ لِلّقاح، وأَحَدُّ للسلاح [10] .

---

(١) الرواية المشهورة : ولله منى الخ . (٢) شاعر جاهلى ، من أشراف تغلب وشجعانها . توفى نحو سنة ٧٠ ق . هـ . (٣) الغواة : جمع غاو ، وهو المنهمك فى الجهل ، وهو خلاف الرشد . والفعل من باب ضرب . والاسم الغواية (بفتح الغين) . (٤) أى لما صحوت من جهل الصبا ، أديت الحقوق التى أخذنى عنها زمن الصبا وعبثه . ثم اتجهت لرعاية المـال وكسبه . (٥) كذا فى (عيون الأخبار) . وفى النسخ : النفس ، بدل العرس . وأعادتنى : صيرتنى . والعسيف : الأجير . وقيل : المملوك المستهان به . وفى نسخة الشنقيطى : عبد عبدى . (٦) العتق : الشرف والحرية . وفداه تفدية : قال له : جعلت فداك . أى إذا ماجئت عرسى وقد بعت شرفى وحريتى تسربى . (٧) فليصطنعه : فليتخذه . (٨) ثبى المـال : كثره ونمـاه . ومعنى ترك هذا العام لعام الجدب : أنه إذا كان فى عام خصب ، ترك ما يدخره فيه لعام قد يكون جدبا . (٩) الكد : التعب . والمدّ : البسط والسعة . يراد : الطلب قبل الحاجة والعجز . كذا فى (عيون الأخبار) . (١٠) هكذا فى (مجمع الأمثال) للميدانى . وفى النسخ : « ألقم وأذر للقاح » . وهو ما لا يكاد يفهم إلا على تكلف شديد . واللقاح : جمع لقوح ، وهى هنا الناقة الحلوب . وأدر للقاح : أكثر إدرارا للبنها ، أى بمـا ينتجه من الغنائم والثروة . وكون الغزو أحد للسلاح ظاهر . ولقيط هذا هو لقيط ابن عبد القيس الفزارى . قال فى تاج العروس : حليف الأنصار . قال سيف : كان أميرا على كردوس يوم اليرموك .

وقال أبو المعافى :

وإنّ التوانى أنكح العجز بِنْتَـه (١) ... وساق إليها حين زوّجها مهْرًا

فراشًا وطيئًا (٢)، ثم قال لها : اتّكى ... فقُصْرُكما – لا بُدّ – أن تلدا الفقرا

وقال عثمان بن أبى العاص (٣) : ساعةٌ لدنياك ، وساعةٌ لآخرتك . وقال رسول الله (صلّى الله

٥ عليه وسلّم) : أنهاكم عن قيلَ وقالَ ، وكثرةِ السؤال ، وإضاعةِ المـال . وقال : خيرُ الصّدقة

ما أبقى غِنًى ، واليدُ العُلْيا خيرٌ من اليد السُّفْلى (٤) ، وابدأ بمن تعول . وقال النبيّ (صلّى الله عليه وسلّم) :

«الثُلُثَ . والثُلُثُ كثيرٌ ، إنّك إنْ تدعْ ولدك أغنيـاءَ ، خيرٌ من أن يتكفّفوا الناس» (٥) .

وقال ابنُ عبّاس (٦) : وددتُ أنّ الناس غضّوا (٧) من الثُلُث شيئًا ، لقول النبيّ (عليه السلام) : الثُلُثَ .

والثُلُثُ كثير . وقال النبيّ (صلّى الله عليه وسلّم) : كفى بالمرء إثمًـا أن يُضيعَ من يَقوتُ .

١٠ وأنتم ترَوْن أنّ المجدَ والكرمَ أنْ أُفقِـرَ نفسى بإغناء غيرى ، وأنْ أحُوط عيالَ غيرى

بإضاعة عيالى !

وقال فى ذلك ابنُ هَرْمَة (٨) :

كتاركةٍ بيضَهـا بالعَـراءِ ... ومُلبِسـةٍ بيضَ أخرى جَناحا (٩)

---

(١) التوانى زوّج العجز ابنته ، ولم يكلف العجز مهرا ، بل بعث إليه بابنته وساق إليه مهرها . وفى النسخ : إن التوانى .

١٥ والتصحيح من (عيون الأخبار) . (٢) هكذا البيت فى نسخة الشنقيطى ، يعنى : كان هذا المهر فراشا وثيرا .

ثم قال لابنته : استريحى عليه ولا تعملى شيئا . ومعنى قصركما : قصاراكما ، أى غاية أمركما التى لا مناص منها أن تلدا

مولودا اسمه الفقر . وفى نسخة ليدن : (فقصركما عندى لأن تلدا الفقرا) . وفى (عيون الأخبار) : (قصارا هما لا بد

أن يلدا الفقـرا) . (٣) فى (البيان والتبيين) : عثمان بن أبى العاصى اهـ . وكان من الحكماء ذوى العقل

واللسن : وروى له الجاحظ فى (البيان والتبيين) ج ٢ ، ص ٥٢ (طبعة السندوبى) ، وصية حكيمة لبنيه .

٢٠ (٤) فى نسخة الشنقيطى : بقيت . واليد العليا : المعطية . والسفلى : الآخذة . (٥) جاء هذا الحديث

فى الجزء الأول ، ص ١٦٨ ، مقتصرا على قوله : (الثلث . والثلث كثير) . وقد شرحناه هناك شرحا وافيا .

(٦) عبد الله بن عباس ، رضى الله عنهما . (٧) نقصوا . (٨) انظر ص ١٣٢

(٩) يعنى النعامة . ويضرب بها المثل فى الحمق ، فيقال : «أحمق من نعامة» .

وقال آخـــر :

كمفسدِ أدناهُ ومصلحِ غـــيرِه ولم يأتَمِرْ فى ذاك أمرَ صـلاحِ (١)

وقال الآخـــر :

كمرضعةٍ أولادَ أُخرَى وضيَّعتْ بنيهـا ولم ترْقَـعْ بذلك مَرْقَعا (٢)

وقال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ، إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ﴾ . وقال : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ ، قُلِ الْعَفْوَ ﴾ . فأذِن فى العفوِ ولم يأذَنْ فى الجَهْد (٣) ، وأَذِن فى الفُضُول ولم يأذَن فى الأصول (٤) .

وأراد كعبُ بن مالكٍ (٥) أن يتصدّق بمـاله . فقال له النبيّ (صلّى الله عليه وسلّم) : أَمْسِكْ عليكَ مالكَ . فالنبيُّ (صلّى الله عليه وسلّم) يمنعُه من إخراج مالِه فى الصـدقة ، وأنتم تأمرونه بإخراجه فى السَّرَف والتبذير !

وخرَجَ غَيْلانُ بنُ سَلَمَةَ (٦) من جميع ماله ، فأكرهه عمـرُ على الرجوع فيه ، وقال : لو مُتَّ لرجمتُ قبرَك ، كما يُرجم قبرُ أبى رِغال (٧) .

وقال الله جلّ وعزّ : ﴿ لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ ، وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ﴾ . وقال النبيّ (صلّى الله عليه وسلّم) : يكفيكَ ما بَلَّغَكَ المَحَلَّ (٨) . وقال : ما قلَّ وكفَى ، خيرٌ ممـا

---

(١) المراد بالأدنى هنا من يقوت و يعول . (٢) فى الأساس : وما رقع فلان مرقعا : ما صنع شيئا .

(٣) العفو : ما يفضل عن الحاجة . والجهد : ما يجهد المتصدق به و يتعب . (٤) المراد بالأصول : المـال المحتاج إليه فى حياة الرجل أو صناعته أو تجارته . (٥) هو كعب بن مالك الخزرجى الأنصارى . كان صحابيا جليلا ، وشاعرا مجيـدا . دافع عن الإسـلام بسيفه ولسانه . وقد روى الأحاديث ورويت عنـه . ومات فى عهد معاوية سنة ٥٥ هـ . (٦) غيلان بن سلمة الثقفى ، شاعر جاهلى حكيم . أدرك الإسلام وأسلم يوم الطائف . وهو ممن وفد على كسرى ، وأعجب كسرى بكلامه . توفى سنة ٢٣ هـ . (٧) روى ابن عمر قال : سمعت رسـول الله صلى الله عليه وسلم حين خرجنا معه إلى الطائف فررنا بقـبر . فقال : هـذا قبر أبى رغال . وهو أبو ثقيف . وكان من ثمود . وكان بهذا الحرم يدفع عنه . فلما خرج منه أصابته النقمة التى أصابت قومه بهذا المكان . فدفن فيـه — انظر سبب رجم قبره فى لسان العرب . (٨) جاء فى خطبـة أكثم بن صيفى أمام كسرى : « يكفيك من الزاد ما بلغك المحل » . أى يكفيك من الزاد ما بلغت به محلك ، أو قضيت به حاجتك .

كثير وأكثر . وقال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا ، وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ . وقال النبيّ (صلّى الله عليه وسلّم) : إنّ المُنْبَتّ[1] لا أرضًا قطع ، ولا ظهرًا أبقى . وقال الله جلّ ذكره : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ ، وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴾ .

ولذلك قالوا : خيرُ مالِكَ ما نفعك ، وخيرُ الأمورِ أوساطها ، وشرُّ السَّيْرِ الحَقْحَقَةُ[2] ، والحسنةُ بين السيئتين . وقالوا : دِينُ الله بين المقصِّر والغالي[3] . وقالوا في المثل : بينهما يَرْمِي الرامي[4] . وقالوا : عليك بالسَّداد والاقتصاد ، ولا وَكْسَ[5] ولا شَطَطَ[6] . وقالوا : بين المُمِخَّةِ[7] والعَجْفَاء[8] . وقالوا : لا تكُنْ حُلْوًا فتُبتلع ، ولا مُرًّا فتُلْفَظ . وقالوا في المثل : ليس الرِّيُّ عن التَّشَافّ[9] . وقالوا : يا عاقدُ اذكُرْ حَلًّا[10] . وقالوا : الرَّشْفُ أنقعُ للظمآن[11] . وقالوا : القليلُ الدائمُ أكثرُ من الكثير

---

(١) المنبت : المنقطع عن أصحابه في السفر ، والظهر : الدابة . والمثل يضرب لمن يبالغ في طلب الشيء و يفرط ، حتى ربما يفوته على نفسه . (٢) الحقحقة : أشد السير وأتعبه للدابة . وكان من آداب السير عندهم كف ساعة ، وإتعاب ساعة . قال مطرف بن الشخير لابنه عبد الله لما اجتهد في العبادة : خير الأمور أوساطها ، وشر السير الحقحقة . (٣) أى إن الدين هو الطريقة المثلى بين التقصير والغلو . (٤) أى إن بين التقصير والغلو الاعتدال الذى يجب أن يقصد إليه القاصد . وقد سبق هذا المثل فى قصة صالح بن عفان ، فى هذا الجزء .

(٥) الوكس : النقص . يقال : وكسه حقه (من باب وعد) : نقصه . ووكس الشيء أيضا : نقص . يتعدى و يلزم . (٦) الشطط : الجور والزيادة . (٧) المخة : السمينة . وقد أمخت الشاة : سمنت . و يقال أيضا : شاة مخيخة : سمينة . (٨) العجفاء : الهزيلة . ومعنى المثل : كن وسطا .

(٩) الشفافة (بالضم) : بقية الماء فى الإناء . وتشاف ما فى الإناء : شربه كله . ومعنى المثل أن الرى لا يحصل دائما باستيعاب ما فى الإناء . فقد يحصل بشرب قليل منه وترك الباقى . والمثل يضرب فى قناعة الرجل ببعض ما ينال من حاجته . أى ليس قضاؤك الحاجة ألا تدع قليلا أو كثيرا إلا نلته . فإذا نلت منها شيئا فاقنع .

(١٠) مثل أصله فى الرجل يشد حمله ، فيسرف فى الاستيثاق ، حتى يضر ذلك به و براحلته ، عند إرادة حله . يضرب مثلا للنظر فى العواقب . (١١) يقال : نقع الماء غلته . وأنقع : أعظم إطفاء للعطش . وهو مثل يضرب ببلوغ الحاجة بالتأنى . أخذا من رشف الماء قليلا قليلا . وفى النسخ : « الرشيف » ، بدل « الرشف » . و يصح المعنى عليه أيضا ؛ إذ الرشيف : تناول الماء بالشفتين . ولكنا رجحنا أن تكون الرواية (الرشف) ، لمطابقتها لما ورد فى أمثال الميدانى .

المنقطع . وقال أبو الدَّرْداءِ[1] : إنّى لأَستَجِمُّ[2] نفسى ببعض الباطِل، كراهةَ أن أحمِـلَ عليها من الحق ما يُمِلُّها .

وقال الشاعر :

وإنّى لحُـلْوٌ تعـتريني مرارةٌ وإنّى لصعبُ الرأس غيرُ جَموحِ[3]

وقالوا فى عَذْل المُصْلِح ولائمةِ المقتصِد : الشحيحُ أعذَرُ من الظالم[4] . وقالوا : ليس من العدل سرعةُ العـذل[5] . وقالوا : لعـلّ له عذرًا وأنت تلوم[6] . وقالوا : ربّ لائمٍ مُليمٍ[7] . وقال الأحنف : ربّ مَلُوم لا ذنب له . وقال : إعطاءُ السائل تَضْرِيَةٌ[8]، و إعطاءُ المُلْحِف مشاركة[9] .

وقال النبيّ (صلّى الله عليه وسلّم) : لا تصلحُ المسألة إلّا فى ثلاثٍ : فقرٍ مُدْقِعٍ، وغُرْمٍ مُفْظِعٍ، ودمٍ موجِعٍ[10] .

وقال الشاعر :

الحـرُّ يُلْحَى والعصا للعبـدِ وليس للمُلْحِف غــيرُ الردِّ

وقالوا : إذا جدّ السؤال[11]، جدّ المنع . وقالوا : احذَرْ إعطاءَ المخدُوعين، و بذْلَ المغبونين[12]، فإنّ المغبونَ لا محمودٌ ولا مأجورٌ . ولذلك قالوا : لا تكن أدنى العَيْرَيْن إلى السهم[13] . (يقول :

(١) تقدّمت ترجمته فى ص ٣٨ ، ج ١ (٢) فى اللسان : ويقال : إنى لأستجم قلبى بشىء من اللهو، لأقوى به على الحق اهـ . يعنى أجمعه وأريحه وأكل صلاحه . (٣) يصف نفسه بالاعتدال، فهو سهل الخلق مع شدّة تعتريه أحيانا ؛ وهو صعب القياد من غير نفور أو جموح ، فقد يلين أحيانا . (٤) يقول : حتى إنهـم حين تجنوا على المقتصـد ولاموه ووصفوه بالشح كذبا ، جعلوا له فى شحـه عذرا أقوى من عذر الظالم . (٥) يقول : وهذا المقتصد الملوم، ربمـا كان الإسراع بلومه ليس من العدل فى شىء . (٦) مثل يضرب لمن يلوم من له عذر لا يعلمه اللائم . وهو عجز بيت . وصدره : «تأنّ ولا تعجل بلومك صاحبا» . (٧) مليم : ملوم . (٨) التضرية : التعويد . وأصله فى تعويد الكلب ونحوه الصيد . (٩) أى مشاركة له فى الإلحاف ؛ لأنك بإعطائه عاونته وجرأته . وقد سبق ذكر الأحنف بن قيس فى ص ٣٨ ، ج ١ . ونزيد هنا أن اسمه صخر . وكان فى رجله حنف، وهو الميل . فلقب بالأحنف لذلك . (١٠) غرم مفظع : فظيع . وقوله : ودم موجع : أى فى حال جمع المال لدية القتيل . (١١) جدّ هنا بمعنى قوى واشتدّ . (١٢) المصدر مضاف لفاعله . أى احذر أن تعطى وأنت تظن أو تشك فى أنك مخدوع . وكذا يقال فى : (وبذل المغبونين) . وقد سبق فى ج ١ ، ص ٥٧ ، شرح قوله : فإن المغبون الخ . (١٣) العـير : الحمار . وأصـله فى المثل حمار الوحش . والعيران هنا : السائل والمسئول . فإذا أعطى المسئول كل ماله لسائليه، تعرض لسهام أعدائه، ولم يقو على تزاحم .

إذا أعطيتَ السائلين مالكَ ، صارت مقاتلُكَ أظهرَ لأعدائك من مقاتلهم) . وقالوا : الفِرارُ بِقِرابٍ أكْيَسُ[1] . وقال أبو الأسود[2] : ليس من العزِّ أنْ تتعرّض للذّل ، ولا من الكرم أنْ تستدعِيَ اللؤمَ[3] . ومَنْ أخرجَ ماله من يده افتقر ، ومن افتقر فلا بدّ له من أن يضرعَ[4] ، والضَّرَع لؤم . وإن كان الجودُ شقيقَ الكرم ، فالأنفة أَوْلَى بالكرم[5] . وقد قال الأول : اللهم لا تُنْزِلْنِي ماءَ سَوْءٍ ، فأكونَ امرأَ سَوْءٍ[6] .

وقد قال الشاعر :

واخطُ مع الدهر إذا ما خطا ... واجرِ مع الدهر كما يجري

وقد قال الآخر :

يا ليت لى نعلين من جِلْدِ الضَّبُعْ ... وشُرُكًا من ثَغْرِها لا تَنْقَطِعْ[7]

كلَّ الحِذاءِ يحتذِى الحافى الوَقِعْ[8]

وقد صَدَق قول القائل : من احتاجَ اغتفر ، ومن اقتضى تجوّز[9] . وقيل لرِيسِيمُوس[10] :

---

(١) قال المفضل : المثل لجابر بن عمرو المزنى . وذلك أنه كان يسير يوما فى طريق ، إذ رأى أثر رجلين — وكان عائفا قائفا — فقال : أرى رجلين شديدا كلبهما ، عزيزا سلبهما . والفرار بقراب أكيس . ثم مضى . قال الميدانى : أراد ذو الفرار أى الذى يفرّ ومعه قراب سيفه إذا فاته السيف ، أكيس ممن يفقدهما معا . يضرب للاحتياط والحذر من العواقب . والعائف : المتكهن بالطير أو غيرها . والقائف : من يعرف الآثار .

(٢) تقدمت ترجمة أبى الأسود الدؤلى فى ج ١ ، ص ٤٤ (٣) اللؤم : الشح ودناءة النفس . واستدعاء اللؤم يكون بكثرة الإنفاق والبذل فى غير وجهه . (٤) يضرع : يذل . (٥) يقول : إذا كان الجود شقيق كرم النفس ، وجب على الجواد ألا يسعى فى إذلال نفسه ، وأن يحافظ على أنفتها وإبائها . وإنما يكون ذلك بالمحافظة على ماله . (٦) هكذا فى (الحيوان) للجاحظ . وفى النسخ : « لا تنزلى » . (وامرأ سوء) : رجل شر ودناءة . (٧) هذه رواية الميدانى . والشرك : جمع شراك ككتاب وكتب . وهو سير النعل . وثغرها : ثغر الضبع . وفى نسخة ليدن : من استها . (٨) يقال : وقع الرجل (كوجل) : إذا حفى من مره على الحجارة . وهذا مثل يضرب عند الحاجة تحمل على الاكتفاء بما يقدر عليه .

(٩) اقتضى حقه : أخذه . و (تجوز) : ترخص . يعنى أن المطالب بحقه يتسامح ولا يتشدد . فقد يتنزل عن بعض حقه . (١٠) هكذا فى نسخة ليدن . وفى بعض النسخ : ديسيموس . وجاء فى كتاب الحيوان للجاحظ : حدثنى العتبى قال : كان فى اليونانيين ممرور له نوادر عجيبة . وكان يسمى ريسيموس . قال : والحكماء يروون له أكثر من ثمانين نادرة . وذكر له الجاحظ عدة نوادر فى الجزء الثانى من (البيان والتبيين) . وقال إن ريسيموس كان من موسوسى اليونانيين . وسماه فى الجزء الأول منه : أرسيموس . و (ممرور) : غلبت عليه المرة (بالكسر) ، وهى مزاج من أمزجة البدن . ويظهر أن من يغلب عليه هذا المزاج يصاب بالوسواس .

تأكل فى السوق؟ قال : إن جاع (رَبْسيموسُ)[1] فى السوق، أكل فى السوق[2] . وقال : من أجدبَ انتجع، ومن جاع جَشِع . وقال : احذروا نِفارَ النعمة، فإنّها نَوارٌ[3]، وليس كلُّ شارد بمردود، ولا كل نادٍّ بمصروف[4] . وقال علىُّ بنُ أبى طالب : قلّما أدبَرَ شىء فأقبل . وقالوا : رُبَّ أكْلَةٍ تمنع أكَلاتٍ[5]، ورُبَّ عَجَلَةٍ تَهَبُ رَيْثًا[6] . وعابوا من قال : أكْلَةٌ ومَوْتَةٌ[7] . وقالوا : لا تطلُبْ أثرًا بعـدَ عَيْنٍ[8] . وقالوا : لا تكُن كمن تغلبه نفسُـهُ على ما يَظُنّ، ولا يغلبُهـا على ما يَستيقن . فانظرْ كيف تُخرِجُ الدّرهمَ؟ ولِمَ تُخرِجُهُ؟ . وقالوا : شَرٌّ من المَرْزِئَةِ سُوءُ الخَلَف[9] .

وقال الشاعر :

إنْ يكنْ ما به أُصِبْتَ جليلا فذهابُ العَـزاءِ فيـه أجلُّ

وَلأَنْ تفتقر بجائحةٍ نازلةٍ[10]، خيرٌ لك من أن تفتقر بجناية مُكْتَسَبة . ومَنْ كان سببًا لذهاب وَفْرِه، لم تعدَمه الحسرةُ من نفسه[11]، واللائمةُ من غيره، وقلّةُ الرحمـة، وكثرةُ الشماتة، مع الإثم

---

(١) الزيادة التى بين قوسين من (الحيوان) للجاحظ . (٢) الضمير يعود على صعصعة بن صوحان . وهو قائل هـذا المثل . وكان يتغدّى عند معاوية، فتناول من بين يديه شيئا . فقال : يابن صوحان انتجعت من بعد . فقال : من أجدب انتجع . وقد تقدّمت هذه النادرة فى هذا الجزء باختلاف يسير فى الألفاظ . (٣) وقال الخ : ليس لضمير (قال) مرجع فى الكلام هنا، كما هـو دأب الجاحظ كثـيرا فيما يروى . ويعود إلى قائل من الحكماء أو العقـلاء . والنوار كسحاب : المرأة النفور من الريبة . (٤) ندّ البعـير : نفر وذهب على وجهـه شاردا . و (بمصروف) : بمرجوع عن شروده . وفى النسـخ : (مردود) و (مصروف) . وهو تحريف .

(٥) قال المفضل : أول من قاله عامر بن الظرب العدوانى . يضرب فى ذم الحرص على الطعام . (راجع الميدانى) .

(٦) الريث : البطء . والفعل من باب باع . وهو مثل يضرب للرجل يشتدّ حرصه على حاجة، ويخرق فيها حتى تذهب كلها . (راجع الميدانى) . (٧) يقول : آكل وأملأ بطنى ولو كان فى ذلك الموت . والتقدير : هـذه أكلة وبعدها موتة . وقد سـبق هذا المثل فى هـذا الكتاب . (٨) مثـل فى النهى عن ترك الشىء وهو موجود، ثم طلبه بعد فوته . أول من قاله مالك بن عمرو العاملى . (انظر الميدانى) . (٩) المرزئة هنا : النقص من الأموال . وقد تقدّم الكلام على المرزئة فيما مر بك . وسوء الخلف : ما تخلفه من الجزع ونحوه . أى إنك إذا فقدت مالك كان جزعك على ضياعه أشدّ على نفسك من ضياعه . وقوله : (شرّ) . هكذا فى نسخة الشنقيطى . وفى النسخ : أشد . (١٠) الجائحة : الآفة . يقال : جاحت الآفة المال — من باب قال — إذا أهلكته .

(١١) لم تعـدمه الحسرة : أى لم يعدم هـو الحسرة . فكأن فى العبارة قلبا . وقد سبق مثل هـذا التركيب . و (من) بمعنى (فى) — راجع (المغنى) .

المُوبِق[١]، والهوانِ على الصاحب . وذَكَرَ عمرُ بنُ الخطاب فِتيانَ قريش، وسَرَفَهم فى الإنفاق، ومسابقتَهم فى التبذير، فقال : لَخُرْقَة أحدِهم أشدُّ علىَّ من عَيْلَته[٢] . (يقول : إنّ إغناء الفقير، أهْوَنُ علىّ من إصلاح الفاسد) .

ولا تَكُنْ على نفسك أشْأَمَ من خُوَيْتِعَة[٣]، وعلى أهلك أشأمَ من البَسُوس[٤]، وعلى قومك أشأمَ من عِطْرِ مَنْشِم[٥] . ومَنْ سلّط الشهواتِ على ماله، وحكّم الهوَى فى ذات يده، فبِق حَسِيرًا[٦]، فلا يلومَنّ إلّا نفسَه . وطُوبَى لك يوم تقدر على قديمٍ[٧] تنتفع به .

وقال بعض الشعراء :

أرَى كلَّ قومٍ يمنعون حَرِيمَهم ... وليس لأصحاب النبيذ حريمُ[٨]

أخوهم إذا مادارت الكأسُ بينَهم ... وكُلُّهُمُ رَثُّ الوِصال سَئُومُ[٩]

فهذا بيانى، لم أقُلْ بجهالةٍ ... ولكنّنى بالفاسقين عليمُ

وقد كان هذا المعنى فى أصحابِ النبيذ أوْجَدَ[١٠] . فأمّا اليومَ فقد استوى النّاسُ .

---

(١) الموبق : المهلك . (٢) الخرقة : الحمق وسوء التصرف . والعيلة : الفقر . وفى الكلام مضافٌ محذوف، أى من علاج عيلته . وفى نسخة ليدن : (لخرافة) ، بدل : لخرقة . وفى نسخة الشنقيطى : (لحرقة) . ونعتقد أنهما محرفتان ؛ لأن معنى هاتين الكلمتين لا يلائم المقام . (٣) هو أحد بنى غفيلة (على صيغة التصغير) — راجع الميدانى ، والقاموس فى (خ ت ع) ، تجد تفصيلا لذلك . (٤) هى بسوس بنت منقذ التيمية ، خالة جساس بن مرة قاتل كليب ، والتى من أجلها نشبت حرب البسوس المشهورة بين بكر وتغلب . وحديثها مفصل فى الميدانى . (٥) خلاف كبير فى معنى منشم وضبطه . ومن معانيه أنه اسم امرأة كانت تبيع العطر . ففى القاموس : و[منشم] بنت الوجيه العطارة بمكة . وكانوا إذا أرادوا القتال وتطيبوا بطيبها كثرت القتلى . فقالوا : أشأم من عطر منشم اه . وراجع أيضا الميدانى . (٦) الحسير : الملهف النادم . (٧) يراد بالقديم المال المدخر . وفى النسخ : على قدم . ونظنها محرفة . (٨) الحريم : ما يمنع ويحرم مسه . (٩) أى أنت أخوهم وقت شربهم ولهوهم . أما فى غير وقت الشراب فهم لا يحفظون ودّا ، ولا يدومون على عهد . (١٠) أوجد : أكثر وجودا بين أصحاب النبيذ، قليلا فى غيرهم .

قال الأضبطُ بنُ قُرَيْعٍ [١]، لمّـا انتقل فى القبائل فأساءوا جِوارَه ، بعـد أن تأذّى ببنى سَـعْد [٢] :
بكلِّ وادٍ بنو سعد .

خذ بقولى ، ودَعْ قول أبى العاص . وخذ بقول من قال : عِشِّ ولا تغترّ [٣] ، وبقول من قال : لا تَطْلُبْ أثرًا بعد عَيْن [٤] ، و بقول من قال : املأْ حُبَّك من أول مَطْرَة [٥] ، ودَعْ ما يَرِيبك إلى ما لا يَرِيبك [٦] . أخوك من صَدَقك [٧] ، ومن أتاك من جهة عقالك ، ولم يأتِك من جهة شهوتك .   ٥
وأخوك من احتملَ ثِقَل نصيحتك فى حظِّك [٨] ، ولم تأمن لائمَته إيّاك فى غدك .

وقال الآخــــر :

إنّ أخاك الصِدْقَ من لَنْ [٩] يَخْدَعَكْ   ومَنْ يَضِيرُ [١٠] نفسَـه لينفعَكْ

وقال عَبِيدُ بنُ الأبرص [١١] :

واعْلَمَنْ عِلْمًـا يقينًـا أنّهُ   ليس يُرْجَى لك من ليس معك   ١٠

---

(١) شاعر مشهور فى الجاهلية . قال الزبيدى : و بنو تميم يزعمون أنه أول من رأس فيهم . وهو صاحب الأبيات المشهورة التى منها :

لكل هم من الهموم سـعة   والمسى والصبح لا فلاح معه

ومنهـــا :

قـــد يجمع المـال غير آكله   و يأكل المـال غير من جمعه   ١٥

(٢) هم قومه : وهم بنو سعد بن زيد مناة بن تميم . (٣) أصل المثل — فيا يقال — أن رجلا أراد أن يفوز (بتشديد الواو مكسورة) بإبله ليلا ، واتكل على عشب يجده فى الطريق . فقيل له : عش ولا تغتر بمـا لست منه على يقين ، كما فى الميدانى . والمثل يضرب حثا على الحيطة وحسن التدبير . وفوّز : ركب المفازة . (٤) ورد فى الميدانى هكذا : (تطلب أثرا بعد عين) . قال : العين : المعاينة . يضرب لمن ترك شيئا يراه ، ثم تبع أثره بعد فوت عينه . قال الباهلى : أول من قال ذلك مالك بن عمرو العاملى اهـ — وجاء هذا المثل أيضا فى الميدانى هكذا : لا أطلب أثرا بعد عين . قال الميدانى : ومعنى المثل فى الموضعين سواء : أى لا آخذ الدية وهى أثر الدم وتبعته ، وأترك العين ، يعنى القاتل اهـ . (٥) الحب : وعاء كبير للماء . يضرب أيضا للحذر والأخذ بالحيطة . (٦) هو حديث جاء فى (النهاية) لابن الأثير . قال : يروى بفتح الياء وضمها . أى دع ما تشك فيه ، إلى ما لا تشك فيه . (٧) صدقك ، أى صدقك الحديث . والمراد : أخلص لك فى النصح . (٨) أى فى سبيل خيرك وسعادتك . (٩) فى بعض النسخ : «لم» . (١٠) يضير نفسه : يضرها . وفى رواية : يضر . (١١) هو عبيد بن الأبرص ابن عوف بن جشم الأسدى . جاهلى ، من حكمائهم وشعرائهم . وقد عاصر امرأ القيس . عمر طويلا حتى قتله النعمان ابن المنذر ، وقد وفد عليه فى يوم بؤسه .

٢٠ ٢٥

ولا تزالُ بخيرٍ ما كان لك واعظٌ من نفسك، وعينٌ من عقلك على طباعك؛ أَوْ ما كان لك أخٌ نصيح، ووزيرٌ شفيق. والزوجةُ الصالحةُ عَوْنُ صِدْق. والسعيدُ من وُعِظَ بغيره. فإن أنت لم تُرْزَق من هذه الخصال خَصْلَةً (١) واحدة، فلا بُدَّ لك من نكبة مُوجِعة، يبقى أثرها، ويلوح لك ذِكْرُها. ولذلك قالوا: خيرُ مالِكَ ما نفعك. ولذلك قالوا: لم يذهب من مالكَ ما وعظك (٢).

إنّ المالَ محروصٌ عليه، ومطلوبٌ في قَعْرِ البحار، وفي رءوس الجبال، وفي دَغَل الغياض (٣)؛ ومطلوبٌ في الوُعورة، كما يُطلَب في السُّهولة. وسواء فيها (٤) بطونُ الأودية، وظهورُ الطُّرُق، ومشارقُ الأرض ومغاربُها. فطُلِبَتْ بالعزّ، وطُلِبَتْ بالذّل، وطُلِبَتْ بالوفاء، وطُلِبَتْ بالغدر، وطُلِبَتْ بالنُّسُك (٥)، كما طُلِبَتْ بالفتك، وطُلِبَتْ بالصدق، كما طُلِبَتْ بالكذب؛ وطُلِبَتْ بالبَذَاء (٦)، وطُلِبَتْ بالمَلَق — فلم تُتْرَكْ فيها حيلةٌ ولا رُقْيةٌ (٧)؛ حتى طُلِبَتْ بالكفر بالله، كما طُلِبَتْ بالإيمان. وطُلِبَتْ بالسُّخْف (٨)، كما طُلِبَتْ بالنُّبْل (٩). فقد نصبوا الفِخاخ بكلّ موضع، ونصبوا الشَّرَك بكل رَبْع. وقد طلبك من لا يُقَصِّر دون الظَّفَر. وحَسَدَك من لا ينام دون الشِّفاء.

وقد يهدأ الطالبُ الطوائل (١٠)، والمطلوبُ بذاتِ نفسه، ولا يهدأ الحريص. يقال إنّه ليس في الأرض بلدةٌ واسِطة (١١)، ولا بادية شاسعة، ولا طَرَف من الأطراف، إلّا وأنت واجد بها

(١) أي الخصال التي ذكرت آنفا، وهي أن يكون له واعظ من نفسه... الخ. (٢) هذا المثل يروى عن أكثم ابن صيفي حكيم العرب، في وصية يوصي بها بنيه، وفي رواية: لم يضع، وفي أخرى: لم يهلك. (٣) الدغل: الشجر الكثير الملتف. والغياض: جمع غيضة، بالفتح، وهي الأجمة ومجتمع الشجر. (٤) فيها، أي في الأموال. والمراد: في طلبها، فهي مطلوبة في بطون الأودية... الخ. (٥) النسك: العبادة. (٦) البذاء: الفحش والكلام القبيح. (٧) كلمات مأثورة، تقال لجلب الخير ودفع الشر. والكلام على المجاز. (٨) السخف: نقص العقل. (٩) النبل: الذكاء والنجابة. (٩) الشرك: حبائل الصيد. اسم جنس جمعي لشركة، كقصبة وقصب. وجمع الشرك: أشراك. (١٠) الطوائل: جمع طائلة، وهي الثأر. وقوله: والمطلوب الخ، أي وقد يهدأ المطلوب بثأر من أولياء المقتول. (١١) واسطة: متوسطة، لا هي بالكبيرة، ولا هي بالصغيرة. والفعل من باب وعد.

المَدِينىّ والبَصْرىّ والحِيرىّ[1] . وقد ترى شَنَفَ[2] الفقراء للأغنياء، وتسرُّعَ الرغبــة إلى الملوك، وبُغْضَ المـاشى للراكب، وعمومَ الحسد فى المتفاوتين .

وإنْ لم تستعملِ الحذَرَ، وتأخذْ بنصيبك من المُدَاراة، وتتعلّمِ الحـزمَ، وتجالسْ أصحابَ الاقتصادِ، وتعرفْ الدهورَ — ودهرَك خاصةً — ، وتُمَثِّلْ لنفسك الغِيَرَ[3]، حتى تتوهّمَ نفسَك فقيرا ضائعا ، وحتّى تتّهمَ شمالَك على يمينك، وسمعَك على بصرك ، ولا يكونَ أحدٌ أتْهَمَ عنـد نفســك من ثِقَتِك[4] ، ولا أوْلى بأخذ الحذر منه من أمينك — اخْتُطِفَتْ[5] اخْتِطَافًا، واستُلِبْتَ اســتلابا ، وذَوّبوا مالك وتحيّفوه[6] ، وأرزموه السَّـلَّ ولم يُداوُوه . وقــد قالوا : بِلى المـالَ رَبُّه، وإن كان أحمق . فلا تكوننّ دون ذلك الأحمق . وقالوا : لا تعدَم صَنَاعٌ ثَلّة[7] . فلا تكوننّ دونَ تلك الصَّناع . وقد قال الأوّلُ فى المـال المضيَّع المسلَّط عليه شهواتُ العيال : ليس لهـا راعٍ ، ولكنْ حَلَبَة[8] .

وليس مالُك المـالَ المُعْفَى من الأضراس ، فيقالَ فيــه : مرعًى ولا أَكُولَة[9] ، وعُشْبٌ ولا بعير . فقُصاراك مع الإصلاح أن يقومَ ببطنك[10] وبحوائجك[11] وبما ينوبُك . ولا بقاءَ للمـال على قِلّةِ الرَّعْيِ ، وكثرةِ الحَلْب .

(١) الحيرة : اسم لعــدة بلاد ، وأشهرها واحد كان على ثلاثة أميال من الكوفة . وكان مسكن ملوك العرب فى الجاهلية . أى إنّ كل بلد فى الأرض تجد فيها أناسا لهم أخلاق أهل المدينة والبصرة والحيرة؛ لأن الناس متشابهون فى كل مكان . (٢) الشنف : نظرة البغض . شنف له (كفرح) : أبغضه وتنكره . (٣) تغير الأيام، وتقلب حوادث الدهر . (٤) أعظم تهمة . ولم نجد فيما لدينا من المراجع فعلا ثلاثيا من هذه المادة يصح أن يصاغ منه اسم التفضيل . ولعل للجاحظ فى ذلك سندا . والثقة : الشخص الموثوق به . (٥) هذا جواب الشرط . وفى بعض النسخ : واحتفظت احتفاظا . والتصحيح من نسخة الشنقيطى . (٦) فى (ذوبوا) مجاز لا يخفى . وتحيفوه : تنقصوه من حيفه . (جمع حيفة بالكسر)، وهى الناحية . (٧) امرأة صناع اليدين : حاذقة ماهرة بعمل اليدين . والثلة : الصوف تغزله المرأة . يضرب لمن إذا عدم عملا أخذ فى آخر، لحذقه وبصيرته . (٨) الحلبة : جمع حالب . يضرب للرجل يؤكل وليس له من يبق عليه . وفى نسخ : خلية، بدل حلبة . وهو تحريف . (٩) الأكولة : الشاة التى تعزل للأكل والسمن . يضرب للتمول لا آكل لماله . (١٠) فى نسخة ليدن : أن يقومك ببطنك . وهو تحريف . (١١) فى نسخة الشنقيطى : وبحقائقك . والحقائق ما تجب حمايته ورعايته .

فَكِسْ[1] فى أَمرك، وتقدّم فى حفظ مالك؛ فإنّ من حفظَ ماله فقد حفظ الأكْرَمَيْن .
والأكرمان : الدِينُ والعِرْض . وقد قيل : قبل الرمْي يُراش السهم[2]، وعند النِّطاح تَغْلِبُ القَرْناءُ[3] .

وإذا رأت العرب مستأكلًا وافق غُمْرًا[4] قالت : ليس عليكَ نَسْجُه، فاسحَبْ وخَرِّق[5] .
وقد قال رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم) : " الناسُ كلُّهم سواءٌ كأسنان المُشْط، والمرءُ كثيرٌ بأخيه " . ولا خيرَ لك فى صُحبة من لا يرى لك مثلَ ما يرَى لنفسه . فتعرَّفْ شأنَ أصحابِك، ومَعْنَى[6] جلسائك . فإن كانوا فى هذه الصفة[7] فاستعمل الحزم، وإن كانوا فى خِلاف ذلك عمِلْتَ على حَسَبِ ذلك .

إنّى لست آمُرُك إلّا بما أَمَرَك به القرآن . ولست أوصيك إلّا بما أوصاك به الرسولُ .
ولا أَعِظُك إلّا بما وَعَظ به الصالحون بعضُهم بعضًا . قال رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم) :
اعْقِلها[8] وتوكّل . وقال مُطَرِّفُ بنُ الشِّخِّير[9] : من نام تحت صَدَفٍ[10] مائل ، وهو ينوى التوكّل ،
فليرمِ بنفسه من طَمارٍ[11]، وهو ينوى التوكّل ! فأين التوقّى الذى أمر الله به ؟ وأين التغريرُ[12] الذى

---

(٣) أمر من كاس (من باب باع) : عقل وفطن . (٢) رواه الميدانى هكذا : «قبل الرمى يراش السهم» . يضرب فى تهيئة الآلة قبل الحاجة إليها . وهو مثل قولهم : «قبل الرماء تملأ الكنائن» ، أى تؤخذ الأهبة للأمر قبل وقوعه . وراش السهم بريشه : ألزق عليه الريش . (٣) ذات القرن . ومن أمثالهم : (عند النطاح يغلب الكبش الأجم) . و(يغلب) بالبناء للمجهول . والأجم : الذى لا قرن له . يضرب لغلبة المستعد لغير المستعد .
(٤) الغمر : الذى لم يجرب الأمور . فاذا صادفه مستأكل رتع فى نعمته . وفى نسخة ليدن : (عمدا) ، بدل (غمرا) . وهو تحريف . (٥) أى إنك لم تصب فيه ، فلذلك تفسده . وفى نسخة ليدن : وحرق . والمثل المعروف : ليس عليك نسجه فاسحب وجر . وقوله : فاسحب ، هو من سحب الذيل ، أى جره على الأرض . (٦) معنى : مقصد .
(٧) فى هذه الصفة : فى صفة من لا يرى لك مثل ما يرى لنفسه . (٨) اعقلها : اربطها بالعقال . والضمير للناقة . والحديث مشهور . (٩) هو أبو عبد الله مطرف بن عبد الله بن الشخير الحريشى . كان من أفاضل التابعين . توفى سنة ٨٨ هـ . (١٠) الصدف : كل شىء مرتفع من حائط ونحوه . (١١) طمار (كقطام) : المكان المرتفع . وقيل : هو اسم جبل . (١٢) غرر بنفسه : حملها على غير ثقة .

نهى عنه؟ ومن طمِع فى السلامةِ من غير تسلُّمٍ[1]، فقد وضع الطمع فى موضع الأمانىِّ . وإنّما يُنجِزُ الله الطمعَ، إذا كان فيما أمر به ، وإنّمـا يحقِّق من الأمل ، ما كان هو المسبِّبَ له .

وفرّ عُمَرُ من الطاعون، فقال له أبو عُبَيْدة[2] : أتفِرُّ من قَدَر الله؟ قال نعم، إلى قَدَر الله . وقيل له : هل ينفعُ الحَذَرُ من القَدَر؟ فقـال : لو كان الحـذر لا ينفع ، لكان الأمرُ به لَغْـوًا .

فإبلاء العذر هو التوكّل[3] . وقال رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم) لرجل قال فى خصومةٍ : حَسْبِىَ اللهُ : أَبْلِ اللهَ عذرًا ، فإذا أعجزك أمرٌ فقل : حَسْبِىَ اللهُ .

وقال الشاعر[4] :

وَمَنْ يَكُ مثلى ذا عيـال ومُقْـترًا — من المـال يطرَحْ نفسه كلَّ مَطْرَحِ
لِيُبْـلِىَ عذرًا أو ليبلُـغَ حاجةً — ومُبْلِـغُ نفسٍ عذرَها مثـلُ مُنْجِحِ

وقال الآخر :

فإن يكن القاضى قضَى غيرَ عادلٍ — فبعـد أمورٍ لا ألوم لهـا نفسى

وقال زهير البابى[5] : إن كان التوكُّلُ أن أكونَ متى أخرجتُ مالى أيقنْتُ بالخَلَف ، وجعلتُ الخَلَفَ مالًا يرجع فى كيسى ، ومتى ما لم أحفَظْـه أيقنتُ بأنه محفوظ ، فإنّى أُشْهِدُكُم أنى لم أتوكّل قطّ . إنّما التوكُّل أن تعلم أنّك متى أخذتَ بأدَب الله أنّك تتقلّبُ فى الخيْرِ ، فتُجزَى بذلك

(١) المراد بالتسلم هنا الأخذ بأسباب السلامة ، والتوقى من الآفات ، وإن كان هـذا المعنى ليس فى المعجمات .

(٢) هو أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح القرشى . كان من عظماء الصحابة . وكان من الحاربين الشجعان ، والقواد أصحاب الرأى والدهاء . شهد كثيرا من المغازى والفتوح . وآخر ما شهد فتوح الشام . وكان أميرا على الجيش . مات بالشام سنة ١٨ هـ . (٣) أبلاء العذر : تقديمه . وكل من لم يقصر فى عمل شىء ولم ينجح فيه فقد أبلى عذرا . وقوله : (هو التوكل) ، هو ما فى نسخة الشنقيطى . وفى نسخة ليدن : من التوكل . (٤) هو عروة بن الورد العبسى .

(٥) هو زهير بن نعيم البابى ، نسبته إلى باب الأبواب . انظر (معجم البلدان) لياقوت .

إمّا عاجلًا وإمّا آجلًا[1] — ثم قال : فلِمَ تَجَرَ أبو بكر؟ ولِمَ تجَرَ عُمر؟ ولِمَ تجَرَ عثمان؟ ولِمَ تجَرَ الزُّبيرُ[2]؟
ولِمَ تَجَرَ عبدُ الرحمن[3] ؟ ولِمَ علّمَ عُمَرُ الناس يَتَّجرون ، وكيف يشترون ويبيعون ؟ ولِمَ قال عُمر :
إذا اشتريتَ جَملًا فاجعله ضخمًا، فإن لم يَبِعْه الخُبْرُ[4] باعه المنظَر؟ ولِمَ قال عُمر : فرّقوا بين المنايا،
واجعلوا الرأس رأسين[5] . ولِمَ قال عثمان حين سُئِل عن كثرة أرباحه ، قال : لم أُرْوَ من ربح قطّ[6] .
ولِمَ قيل : لا تشترِ عيبًا ولا شيبًا[7] ؟ وهل حجَر عليُّ بنُ أبي طالب على ابن أخيه عبد الله بن جعفر[8]
إلّا في إخراج المال في غير حقّه ، وإعطائه في هواه ؟ . وهل كان ذلك إلّا في طلب الذِّكْر
والتماس الشكر؟ وهل قال أحدٌ : إنّ إنفاقه كان في الخمور والقِمار ، وفي الفُسولة[9] والفجور ؟
وهل كان إلّا فيما تسمونه جودًا ، وتعُدّونه كرمًا ؟ ومَنْ رأى أن يحجُر على الكِرام لكرمهم ،
رأى أن يحجُر على الحُلَماء لحِلمهم[10] . وأيّ إمامٍ بعد أبي بكر تريدون ؟ وبأيّ سَلَفٍ بعد عليّ
تقتدون ؟ .

---

(١) هكذا العبارة من قوله : « نَما التوكل » في نسخة الشنقيطي . وفي غيرها تحريف كبير في هذه العبارة .

(٢) هو الزبير بن العوام بن خويلد الأسدي ، من كبار الصحابة ، وأحد أصحاب الشورى . وهو ابن عمة النبي وحواريه . وكان بطلا شجاعا . شهد مع رسول الله المشاهد والفتوح . وكان ممن التحق بجيش عمرو بن العاص مددا له بمصر . قتل غيلة سنة ٣٦ هـ .

(٣) هو عبد الرحمن بن عوف الزهري . كان صحابيا جليلا ، وأحد أصحاب الشورى . وكان من الفرسان الشجعان . شهد مع رسول الله الفتوح . وكان ذا مال كثير ، حتى إنه لما حضرته الوفاة أعتق في يوم واحد ثلاثين عبدا . توفي سنة ٣٢ هـ .

(٤) الخبر : العلم والمعرفة .

(٥) يقول حولوا بين الموت واستئصال غنمكم ، بتفريقها في أماكن مختلفة . واعملوا على تميتها ، حتى يتضاعف عددها . وقد سبق في ج ١ ، ص ٤١ ، أن فسرنا قوله : فرقوا بين المنايا .

(٦) لم يرو لي عطش من ربح . أي فأنا دائما متطلع إلى الربح . وفي نسخة ليدن : (رد) بدل (أرو) ، وهو تحريف . وقد كرر (قال) ، كما هو دأبه كثيرا في هذا الكتاب .

(٧) الشيب معروف . والمراد هنا لازمه ، وهو الضعف وكبر السن . أي لا تشتر ذا عيب ولا ذا ضعف .

(٨) هو عبد الله بن جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب الهاشمي القرشي . صحابي . ولد بأرض الحبشة لما هاجر أبوه إليها . وكان كريما جوادا . وقد مدحه الشعراء لجوده . توفي سنة ٩٠ هـ .

(٩) الفسولة : الدناءة .

(١٠) أي لو كان حجر علي رضي الله عنه على عبد الله بن جعفر لكرمه ، لساغ الحجر على الحليم ، وساغ الحجر على كل ذي فضيلة . يريد أن يقول : إن إنفاق ابن جعفر لم يكن كرما .

وكيف نرجو الوفاءَ ، والقيامَ بالحقّ ، والصبرَ على النائبة ، من عنـد لُعْمُوظٍ[١] مُستأكِل ، وملّاق مُخادع ، ومَنْهُوم بالطعـام شَرِهٍ . لا يبـالِى بأىّ شىءٍ أَخَذَ الدِّرهَم ؟ ومن أىّ وجه أصاب الدينارَ ؟ ولا يكترث لِلمنّة[٢] ، ولا يُبالى أن يكون أبدًا منهومًا ، منعومًا عليـه ؛ وليس يُبالى — إذا أكل — كيف كان ذلك الطعام ؟ وكيف كان سببُه ؟ وما حكمُه[٣] ؟

فإن كان مالُكَ قليلاً ، فإنّمـا هو قِوامُ عِيالك . وإن كان كثيرًا فاجعل الفاضلَ لعُدّةِ نوائبك . (ولا يأمنُ الأيامَ إلّا المضلَّل) ، ولا يغترّ بالسلامة إلّا المغفَّل . فاحْذَر طوارقَ البلاء ، وخُدَعَ رجال الدَّهاء . سَمْنُك فى أديمك[٤] ، وغَثُّك خيرٌ من سمين غيرك[٥] ، لو وجَدْتَه ، فكيف ودونه أَسَلٌ حِدادٌ[٦] ، وأبوابٌ شِداد ؟ قالت امرأة لبعض العرب : إنْ تزوجتنى كفيتُك . فأنشأ يقول :

إذا لم يكن لى غيرُ مالِكِ ، مسّنى   خَصَاصٌ ، وبانَ الحمدُ مِنِّىَ والأجرُ[٧]

وما خـيرُ مالٍ ليس نافعَ أهـلِهِ   وليس لشيخ الحىّ فى أمرِهِ أمرُ

وقال المَعْلُوطُ القُرَيْعىّ :

أبا هانئٍ لا تسألِ الناسَ والتمسْ   بِكَفَّيْكَ سَـتْرَ اللهِ فاللهُ واسـعُ

فلو تسألُ الناسَ الترابَ لأوشكوا   إذا قلتَ : هاتوا ، أن يَملّوا فيمنعوا

---

(١) اللعموظ : الحريص الشهوان . وقد تقدم تفسيرله آخر ، ص ١٢٣ ، ج ١   (٢) ولا يكترث لمنة : لا يبالى بأن يعتد له المعطى ما فعل له من الصنائع . وذلك لبلادة طبعه ، وموت إحساسه . و (منهوما) ، أى بالطعام . من (نهم بالشىء) ، بالبناء للمفعول ، إذا أولع به . وقوله : (منعوما عليه) ، هكذا فى جميع النسخ التى بأيدينا . ونعتقد أنها محرفة من (منعما عليه) . إذ لا نعرف أن يقال : نعم عليه . أو لعلها لغة .   (٣) أى من حيث الحل والحرمة .

(٤) من أمثالهم : (سمنكم هريق فى أديمكم) . ويقولون أيضا : (سمنهم فى أديمهم) . يضرب للذى لا يجاوزه خيره . والأديم : المأدوم من الطعام .   (٥) أول من قال هذا المثل معن بن عطية المذحجى . وتجد شرح هذا المثل مفصلا فى الميدانى . يضرب للاكتفاء بما فى اليد ، والاستغناء عما فى أيدى الناس .   (٦) الأسل : الرماح ، جمع أسلة . وحداد : قواطع .   (٧) الخصاص : الفقر ، كالخصاصة . وقوله : وبان الخ ، أى وفارقنى حمد الناس لى ، وأجر الله لى .

* * *

ثم رجعَ الحديثُ إلى أحاديث البخلاء، وإلى طُرَف معانيهم وكلامهم .

* * *

قال ابن حسّان : كان عندنا رجلٌ مُقِلٌّ، وكان له أخٌ مُكْثِر . وكان مُفْرِطَ البخل ، شديدَ النَّفْج[1] . فقال له يومًا أخوه : وَيْحكَ ! أنا فقيرٌ مُعِيلٌ[2] ، وأنت غنيٌّ خفيفُ الظَّهْر ، لا تُعِيُنني على الزمان، ولا تُواسيني ببعض مالك، ولا تتفرّجُ[3] لى عن شيء ! واللهِ ما رأيتُ قطُّ ولا سمعت أبخَلَ منك! قال : وَيْحَكَ! ليسَ الأمرُ كما تظنُّ، ولا المالُ كما تحسُبُ، ولا أنا كما تقول فى البخل ولا فى اليُسْر . واللهِ لو ملكتُ ألفَ ألفِ درهم، لوهبتُ لك خَمْسمائةِ ألفِ درهم . يا هؤلاء، فرجلٌ يَهَبُ فى ضربةٍ واحدة خَمْسمائةِ ألفِ درهم، يقال له : بخيل !

* * *

وأمّا صاحب الثَّرِيدَةِ البلقاءِ[4] ، فليس عَجَبى من بُلْقَةِ ثَرِيدته ، وسائرِ ما كان يظهر على خِوانه ، كعجبي من شيء واحدٍ ، وكيف ضَبَطه وحَصَره وقَوِىَ عليه[5] ؛ مع كثرة أحاديثه وصُنوف مذاهبه ؟ وذلك أنّى فى كثرة ما جالسته، وفى كثرة ما كان فيه[6] يُفَنِّنُ[7] من الأحاديث، لم أَرَه خَبَّرَ أنّ رجلا وهب لرجل درهما واحدًا ! فقد كان يُفَنِّن فى الحزم والعزم، وفى الحلم والعلم، وفى جميع المعانى، إلّا ذِكْرَ الجود؛ فإنّى لم أسمع هذا الاسمَ منه قطُّ : خَرَجَ هذا البابُ من لسانه، كما خَرَجَ من قلبه !

(١) الافتخار وادعاء الثروة والتمدح بما هو غير موجود . وقد سبق تفسيره . (٢) كثير العيال .
(٣) لا تتفرج : لا تتفتح عن شىء أناله منك . وهو تعبير طريف . (٤) تكلمنا على معنى الثريدة البلقاء فى ج ١ ، ص ١٠٦ . ولم يصرح باسم صاحب هذه الثريدة ، تسترا عليه . فانه يقصد إلى التستر أحيانا ، كما ذكر علة هذا التستر فى صدر هذا الكتاب . (٥) وكيف ضبطه الخ، أى وكيفية ضبط ذلك الشىء فى نفسه وحبسه فيها وقوته على ذلك . (٦) أى فى الكلام . (٧) فى اللسان : والرجل يفنن الكلام : أى يشتق فى فن بعد فن . وفى نسخة : يفتن .

ويؤكّدُ ما قلتُ ما حدّثنى به طاهرٌ الأسيرُ، فإنّه قال : وممّـا يدلُّ على أنّ الرومَ أبخلُ الأمم، أنّك لا تجد للجود فى لغتهم اسما . (يقولُ : إنّمـا يُسمّى النّاسُ ما يحتاجون إلى استعماله . ومع الاستغناء يسقطُ التكلُّف[1]) .

وقد زعم ناسٌ أنّ ممّا يدلُّ على غشّ الفُرْسِ، أنّه ليس للنصيحة فى لغتهم اسمٌ واحدٌ يجمع المعانىَ التى يقع عليها هـذا الاسم . وقولُ القائِل[2] : نصيحةٌ، ليس يُراد به سـلامةُ القلب ؛ فقد يكون أن يكونَ الرجلُ سليمَ الصدرِ، ولم يحدُثْ سببٌ من أجله يقصِد إلى المَشُورة عليك بالذى هو أردُّ عليك — على حَسَبِ رأيه فيك — وجهًا لنفعك[3] . ففى لغتهم اسمٌ للسـلامة، واسمٌ لإرادة الخير، وحسنِ المشورة، وحملِكَ بالرأى على الصواب . فللنصيحةِ عندهم أسماءٌ مختلفةٌ، إذا اجتمعت دلّت على ما يدلُّ عليـه الاسمُ الواحدُ فى لغة العرب . فمن قضَى عليهم بالغشّ من هذا الوجه فقد ظلم[4] .

✧ ✧ ✧

وحدّثنى إبراهيم بنُ عبـد العزيز قال : تغدّيتُ مع راشـدٍ الأعورِ، فأتَوْنا بجامٍ فيه بِيَاحٌ سَبَخِىٌّ، (الذى يقال له الدُّرَّاج[5]) . فجعلتُ آخذُ الواحدةَ فأقطعُ رأسَها ثم أعزِلُه، ثم أشقُّها

---

(١) أى إذا استغنى عن التعبير عن شىء لعدم وجوده، زالت الحاجة إلى وضع اسم له . (٢) (وقول القائل)، أى فى لغة العرب، (نصيحة)، أى هذا اللفظ . وقوله : (ليس يراد به سلامة القلب)، أى وحدها، كما هو الحال فى لغة الفرس . (٣) فقد يكون الخ، تعليل لعدم اقتصار لفظ (نصيحة) فى العربية على معنى سلامة القلب وحده . وقوله : بالذى الخ، تقدير الكلام فيه : بالذى هو أردّ عليك وجها لنفعك، على حسب رأيه فيك . (٤) يقول : ان الفرس وان لم يكن فى لغتهم اسم جامع لمعانى النصيحة، لديهم اسم لكل معنى من المعانى التى يتضمنها لفظ النصيحة . وهذه الأسماء مجتمعة تؤدّى معنى النصيحة . (٥) تقدّم تعريف الجام . والبياح (ككتّاب وكتّان) : ضرب من السمك . وقوله : سبخى، أى ما يعيش فى ماء السبخة، وهى أرض ذات نز (ما يتحلب من الأرض من الماء) وملح . وقوله : (الذى يقال له الدراج) يعنى فى عرف ذلك الوقت . ولا يمكن أن يراد به هنا ذلك الطير المعروف . لأن قوله : فجعلت آخذ الواحدة الخ، يعين أن الكلام فى سمك لا فى طير . ولا يعترض على ذلك بقوله : (والجناح)، لأن زعانف السـمك تسمى أجنحة أيضا . ففى القاموس، فى الكلام على (الزعنفة) : جمعه زعانف، وهى أجنحة السمك اهـ . وفى نسخة الشنقيطى : (سيحى)، بالياء والحاء، بدل (سبخى) . وله وجه . ثم رأينا فى (نهاية الأرب) جـ ١٠، ص ٣٠٧، نقلا عن ابن سينا ما نصه : والبياح البحرى لا بأس به اهـ . وقوله : البحرى، احتراز من النهرى .

باثْنَيْنِ[1] من قِبَلِ بطنها ، فآخذُ شوكةَ الصُّلْب والأضلاعَ فأعزِلُها ، وأرمى بما فى بطنها ، وبطَرف الذنَب والجَناح . ثم أجمعُها فى لُقْمة واحدة وآكُلُها .

وكان راشدٌ يأخذ البَيّاحةَ ، فيقطعُها قطعتين ، فيجعلُ[2] قطعةً فى لُقْمة، لا يُلْقِى رأسا ولا ذنَبا — فصبر لى على لُقَمٍ عِدّةٍ . فلما بلغتُ المجهودَ منه قال : أىْ بُنَىَّ ، إذا أكلتَ الطعامَ فكل خَيْره بشَرِّه !

قال : وكان يقول : لم أنتفعْ بأكل التمر إلّا مع الزَّنْج وأهلِ أَصْبهان[3] . فأمّا الزَّنْجِىُّ فإنّه لا يتخيّر، وأنا أتخيَّر . وأمّا الأصبهانىُّ فإنّه يقبِضُ القَبْضَةَ ، ولا يأكل من غيرها ، ولا ينظر إلى ما بين يديه، حتى يفرُغَ من القَبْضة .

وهذا عدلٌ . والتخيُّر قِرْفَةٌ[4] وجَوْر . لا جَرَم أنّ الذى يبقَى من التمر لا يَنْتَفِعُ به العِيالُ ، إذا كان قدّامَ مَنْ يتخيّر .

وكان يقولُ : ليس من الأدب أن تجولَ يَدُك فى الطَّبَق، وإنما هو تَمْرٌ وما أصاب[5] .

* * *

وزعم سَرِىُّ بنُ مُكَرَّمٍ، وهو ابن أخى موسى بنِ جَناح، قال : كان موسى يأمُرنا ألّا نأكلَ ما دام أحدٌ منّا مشغولًا بشرب الماء وطلبِه . فلما رآنا لا نُطاوِعه دعا ليلةً بالماء، ثم خطَّ بإصبعه خطًّا فى أُرُزَّةٍ[6] كانت بين أيدينا، فقال : هذا نصيبى، لا تعرّضوا له حتى أنتفعَ بشرب الماء !

وأحاديثُه فى صَدْر هذا الكتاب . وهذا منها .

---

(١) هكذا فى نسخة ليدن . وفى نسخة الشنقيطى : باثنين . (٢) هكذا فى نسخة الشنقيطى . وفى غيرها : يجعل . (٣) من بلاد العجم . وكانت ستة عشر رستاقا ، كل رستاق ثلاثمائة وستون قرية قديمة ، سوى المحدثة . قال ياقوت : وفتح همزتها أصح . وقد تبدل باؤها فاء . اهـ ملخصا من تاج العروس . (٤) القرفة : التهمة . وفى نسخة الشنقيطى : قرفة . وقد رأيت أنه هو نفسه كان يتخير . فقد حكم على نفسه بالظلم ، وأضاف إليها التهمة . (٥) أى تمر وما أصاب التمر ، أى واليد التى أصابته . والواو للعطف مع المصاحبة . والمعنى أن اليد التى تمس التمرة لا تتركها إلى غيرها ، بل إذا وقعت على تمرة أخذتها من غير اختيار . (٦) طعام يصنع من الأرز ، كما سبق .

*
* *

وقال المكىّ[١] لبعض من كان يتعشّى ويُفطرُ عنـد الباسيانىّ : ويحكُمْ ! كيف تُسـيغون طعامَه، وأنتم تسمعونه يقول : ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾[٢] . ثم تَرَوْنه لا يَقْرَؤها إلّا وأنتم على العَشاء ، ولا يقرأُ غيرَ هذه الآية[٣] . أنتم واللهِ ضدُّ الذى قال :

ألبانُ إبْلِ تعِـلَّةَ بنِ مُسافرٍ[٤] ... ما دام يملِكُها علىّ حَـرَامُ

وطعـامُ عِمْرانَ بنِ أوْفَى مثـلُه ... ما دام يسلُك فى البطون طعامُ

إنّ الذين يسـوغُ فى أعناقهم ... زادٌ يُمَنُّ عليهـمُ لَلِئَامُ

قال[٥] : فمتى تعجَبُ أعجَبُ[٦] من خمسين رجلا من العرب ، فيهم أبو رافع الكِلابىُّ ، وهو شاعرٌ نَدِىٌّ[٧] ، يُفْطِرون عند أبى عثمان الأعورِ . فإفطارى من طعام نَصْرانىّ أشدُّ من إفطارى من طعام مُسلم يقرأ القرآن ويقولُ الحقَّ[٨] .

*
* *

وحدّثنى أبو المُنْجُوف السَّـدُوسىُّ[٩] قال : كنتُ مع أبى ومعنا شـيخٌ من مَوالِى الحىِّ[١٠] . فمررنا بناطُورٍ[١١] على نهر الأُبُلَّةِ[١٢] ، ونحن تَعِبُون . فجلسنا إليه . فلم يلبَثْ أنْ جاءنا بِطَبَق عليه رُطَبُ سُكَّرٍ[١٣] وجِيسُوان[١٤] أسْـوَدُ ، فوضعه بين أيدينا . فأكل الشيخ الذى كان معنا . فلما رأيتُ أبى

---

(١) هو محمد المكىّ ، كما سبق . (٢) اقتبس الآية الكريمة . انظر ص ٨٥ ، ج ١ (٣) هو بعض الأعراب ، كما فى (البيان والتبيين) . (٤) هذه رواية المبرد فى (الكامل) — وفى النسخ : « مساور » . (٥) أى بعض من كان يتعشى عند الباسيانى فى الرد على المكى . (٦) أى : عجبا أعجب . (٧) ندى : كريم . وفى نسخة الشنقيطى : بذىّ . (٨) يقول لا عار على من إفطارى عند مسلم يقول الحق ويقرأ القرآن ، كالباسيانى . وإنما العار على من يفطرون عند نصرانى ، ولو جاملهم وأحسن لقاءهم ، كأبى عثمان الأعور . (٩) هو من أصحاب الجاحظ . روى له نادرة فى الجزء الثانى من (البيان والتبيين) ، فى (باب النوكى والمجانين) . (١٠) الموالى هنا من ليس أصلهم من العرب ، كما سبق . (١١) الناطور : حارس الكرم والنخل . (١٢) انظر ص ١٣١ ، ج ١ (١٣) السكر : نوع من جيد الرطب . (١٤) فى المصباح : الجيسوان ، بضم الجين . قال أبو حاتم فى كتاب النخلة : الجيسوانة : نخلة عظيمة الجذع تؤكل بسرتها خضراء وحمراء . فاذا أرطبت فسدت . وأصلها من فارس .

لا يأكل لم آكل، وبي إلى ذلك حاجةٌ[1] . فأقبل الناطُورُ على أبي فقال : لِمَ لا تأكُل؟ قال : واللهِ إني لأشتهيه . ولكنْ لا أظنُّ صاحبَ الأرض أباح لك إطعامَ النـاس من الغَريب[2] . فلو جئتَنا بشيء من السِّهْرِيزِ[3] والبَرْنِيِّ[4] لأكلنا . فقال مولانا ، وهو شـيخٌ كبيرُ السنّ : ولكنّي أنا لم أنظر في شيء من هذا قطُّ[5] .

٥

* * *

قال المكّيّ : دخل إسماعيلُ بنُ غَزْوانَ[6] إلى بعض المساجد يصلِّي . فوجد الصفَّ تامًا، فلم يستطع أن يقومَ وحدَه . فجذب ثوبَ شيخ في الصفِّ ليتأخر فيقومَ معه . فلمّا تأخر الشيخُ ورأى الفُرَجَ[7] ، تقدم فقام في موضع الشيخ، وترك الشيخَ قائمـا خلفَه ينظرُ في قفاه، ويدعو اللهَ عليـــه[8] .

١٠

* * *

وكان ثُمَامَةُ[9] يحتشم[10] أن يقعدَ على خِوانه مَنْ لا يأنَسُ به . ومن رأيه أنْ يأكل بعضُ غِلمانه معه . فحبس قاسمُ التمّـارُ يومًا على غَدائه بعضَ من يحتشمُه . فاحتمل ذلك ثُمامةُ في نفسه . ثم عاد بعد ذلك إلى مثلها، ففعل ذلك مرارًا، حتى ضجَّ ثُمامةُ واستُفْرِغ صبرُه .

فأقبل عليه فقال : ما يدعوك إلى هـذا ؟ لو أردتُهم لكان لساني مطلقا، وكان رسولي يؤدّي عنّي . فلِمَ تحبِسُ على طعامي من لا آنسُ به؟ قال : إنّمـا أريد أن أسخّيَكَ، فأنفيَ عنك التبخيلَ وسوءَ الظنّ .

١٥

(١) هكذا في نسخة الشنقيطي . وفي نسخة ليدن : ولي . (٢) أي الصنف الغريب النادر من البلح .

(٣) السهريز والشهريز (بالضم والكسر) : نوع من التمر مشهور . (٤) نوع من التمر . وقد تقدّم شرحه .

(٥) يعني أنه لم يفكر فيما فكر فيه والد أبي المنجوف . (٦) محمد المكي وإسماعيل بن غزوان للقارئ عهد بهما في كثير مما سبق . (٧) الفرج : جمع فرجه ، وهو ما يوسعه القوم في الموقف أو المجلس . وكان مقتضى الظاهر أن يقول : (ورأى الفرجة) . ولعلها كانت هكذا فحرفت . والضمير في (رأى) يعود إلى إسماعيـل ابن غزوان . (٨) ليست هذه الحكاية من بابة هذا الكتاب، كما هو ظاهر . (٩) انظر ص ٤٦ ، ج ١ . وانظر أيضا كلام الجاحظ في وصف بلاغة ثمـامة ، ص ١٠٥ ، ج ١ من (البيان والتبيين) ، طبعـة السندوبي .

٢٠

(١٠) يحتشم : يستحي وينقبض .

فلمّــا أن كان بعــد ذلك ، أراد بعضُهم الانصرافَ ، قال له قاسمٌ : أين تريد ؟ قال : قــد تحرَّك بطنى فأريدُ المنزلَ . قال : فـلِمَ لا تتوضّأ ها هنا ؟ فإنّ الكنيف خالٍ نظيفٌ ، والغــلامَ فارغٌ نشيط ، وليس من أبى مَعْنٍ[1] حِشْمةٌ ، ومنزلُه منزلُ إخوانه ! فدخل الرجل فتوضأ . فلمّا كان بعد أيّامٍ حبَس آخرَ . فلمّا كان بعد ذلك حبَس آخرَ !

فاغتاظ ثُمَــامَةُ ، وبلغ فى الغيظ مَبْلَغًا لم يكن على مثـلِه قطّ . ثم قال : هــذا يحبِسهم على غَدائى ، لِأَنْ يَسخَيَنى بحبسهم ، على أنْ يخرءوا[2] عندى ! لِمَهْ؟ لأنّ مَنْ لم يخرأ الناسُ عنده فهو بخيل على الطعام ! وقد سمِعتُهم يقولون : فلان يكره أن يُؤكل عنده . ولم أسمع أحدًا قطّ قال : فلانٌ يكره أن يُخْرَأ عنده !

وكان قاسمٌ شديدَ الأكل ، شديدَ الخَبْط[3] ، قذِرَ المؤاكلة . وكان أسخَى الناس على طعامِ غيره ، وأبخلَ الناس على طعام نفسه . وكان يعمَل عمَلَ رجل لم يسمع بالحِشْمة ولا بالتجمّل قطّ . فكان لا يرضَى بسوء أدبه على طعام ثُمامةَ ، حتى يجرَّ معه ابنَه إبراهيمَ . وكان بينه وبين إبراهيمَ ابنِه فى القَذَر ما بينه وبين جميع العالَمين[4] ! فكانا إذا تقابلا على خِوان ثُمــامةَ ، لم يكن لأحد على أيمانهما وشمائِلهما حظٌّ فى الطيّبات !

فأتوه يومًا بقصعة ضخمة فيها ثَرِيدةٌ كهيئة الصوْمعة[5] ، مكلَّلةٌ بأكاليل من عُراقٍ[6] ، بأكثر ما يكون من العُراق . فأخذ قاسم الذى يستقبلُه ، ثم أخذ يَمْنةً ، وأخذ ما بين يَدَىْ من كان بينه وبين ثُمامة ، حتى لم يدعْ إلّا عَرْقًا قدّامَ ثُمــامة . ثم مال على جانبه الأيسر ، فصنع مثلَ ذلك

(١) كنية ثمــامة . (٢) الفعل من باب تعب . (٣) الخبط : الضرب كأنه يضرب الطعام بيديه .
(٤) يعنى أن زيادة إبراهيم فى القذر على أبيه ، بقدر زيادة أبيه فى القذر على جميع الناس . (٥) بناء دقيق الرأس ، كالمئذنة ونحوها . وقالوا : ثريدة مصمعة ومصومعة : مدققــة الرأس . وصومعها : دقق رأسها ، كما فى القاموس . (٦) العراق : جمع عرق (بفتح فسكون) وهو العظم بلحمه ، كما هو أحد معانيه . وهو الملائم هنا .

الصنيع . وعارضه ابنُه وحاكاه ! فلمّا أنْ نظر ثُمامةُ إلى الثريدة مكشوفةَ القِناع ، مسلوبةً عاريةً ، واللحمُ كلُّه بين يديه و بين يدى ابنه إلّا قطْعةً واحدة بين يديه ، تناولها فوضعها قدّامَ إبراهيمَ ابنِه ، ولم يدفعها[1] . واحتَسَب بها فى الكرامة والبِرّ . فقال قاسمٌ لمّا فرَغ من غَدَائه : أمَا رأيتم إكرامَ ثُمامةَ لابنى ؟ وكيف خصَّه ؟

فلمّا حكى هذا لى ، قلتُ : ويلكَ ! ما أظن أنّ فى الأرض عِرْقاً أشأمَ على عيالك منه ! هذا أحرجَه الغيظ ، وهذا الغيْظ لا يتركه حتى يتشفّى منك . فإن قدَر لك على ذنب فقد واللهِ هلكتَ . وإن لم يقدر عليه أقْدَرَه لك الغيْظ . وأبوابُ التجنّى كثيرةٌ . وليس أحدٌ إلّا وفيه ما إن شئتَ جعلتَهُ ذنباً . فكيف وأنت ذُنوبٌ من قَرْنك إلى قدمك !

وكان ثُمامةُ يُفطِّرُ أيام كان فى أصحاب الفساطيط[2] ناساً . فكثُروا عليه ، وأتوه بالرِّقاع[3] والشفاعات . وفى حِشْوة المتكلمين[4] أخلاقٌ قبيحةٌ ، وفيهم على أهل الكلام وعلى أرباب الصناعات مَحُنةٌ عظيمة .

فلمّا رأى ثُمامةُ ما قد دهمه ، أقبل عليهم وهم يتعشَّوْن فقال : إنّ الله عزّ وجلّ لا يَسْتَحيي من الحق . كلُّكم واجبُ الحقّ ، ومَنْ لم تجئنا شفاعتُه ، فأُكرِمُه كمن تقدّمتْ شفاعتُه . كما أنّا لو استطعنا أن نعمّكم بالبِرّ ، لم يكن بعضُكم أحقَّ بذلك من بعض .

---

(١) ولم يدفعها إبراهيم . وفهم أن ذلك من إكرام ثمامة له ، وبره به .

(٢) من معانى الفسطاط : مجتمع أهل الكورة حوالى مسجد جماعتهم . يقال : هؤلاء أهل الفسطاط . كذا فى اللسان . فقوله : (أيام كان فى أصحاب الفساطيط) ، معناه كما يظهر لنا : أيام كان يسكن هذه السكنى بين الناس .

(٣) هكذا فى نسخة الشنقيطى . وفى غيرها : وأتوه الرقاع .

(٤) حشوة المتكلمين : عامتهم . وهم من دون أهل الرياسة والمتقدمين من أهل الكلام . والمراد بالكلام (علم التوحيد) الممزوج بالجدل والفلسفة . وقد بلغ فى عصر الجاحظ أعلى مراتبه . وقد سبق أن قلنا فى تعريف ثمامة : إنه كان من رؤساء المعتزلة . والمعتزلة (كما هو معروف فى موضعه) من المتكلمين الذين كان لهم فى ذلك العصر نفوذ عظيم .

فكذلك أنتم إذا أُعْجِزنا[1] أو بدا لنـا ، فليس بعضكم أحقَّ بالحرمان من بعض ، أو بالحَمْـل[2] عليه ، أو بالاعتذار إليـه ، من بعض . ومتى قرّبتكم ، وفتحتُ بابى لكم ، و باعدتُ من هو أكثرُ منكم عددًا ، وأغلقت بابى دونهـم ، لم يكن فى إدخالى إيّاكم عذرٌ لى ، ولا فى منع الآخرين حجّةٌ . فانصرفوا ولا تعودوا !

⁂

قال أبو محمد العَروضىُّ[3] : وقعتْ بين قوم عَرْبدةٌ ، فقام المُغَنِّى يحجُز بينهم ، وكان شيخًا مُعيِلًا بخيلا . فمسك رَجُلٌ بحلْقه فعصَره ، فصاح : معيشتى ! معيشتى ! فتبسّم وتركه .

⁂

وحدّثنى ابن أبى كَرِيمـةَ[4] قال : وهبوا للكِنانىّ المُغَنِّى خابيةً فارغة . فلمّـا كان عنـد انصرافه وضعوها له على الباب . ولم يكن عنـده كِراءُ حَمَّالها . وأدركه ما يُدرك المُغَنِّينَ من التِّيـه ، فلم يَحْمِلْها . فكان يَرْكُلُهـا[5] رَكْلةً ، فتَدَحْرجُ وتَدورُ بمبلغ حَمِيَّة الرَّكْلة . و يقومُ من ناحية كى لا يراه إنسانٌ و يرى ما يصنع . ثم يدنو منها ، ثم يَركُلُها أخرى ، فتَدَحْرجُ وتدورُ ، و يقفُ من ناحية . فلم يَزل يفعل ذلك إلى أن بلغ بها المنزلَ !

⁂

قالوا : كان عبد النور كاتبُ إبراهيم بنِ عبـد الله بن الحسن[6] قـد استخفَى بالبَصْرة فى عبد القيس[7] ، من أمير المؤمنين أبى جعفر وعمّاله . وكان فى غُرْفةٍ قُدّامَها جَناحٌ[8] . وكان

(١) أعجزنا ، أى عن برّكم و إطعامكم . وقوله : أو بدا لنا ، أى ظهر لنا رأى فى هـذا الحرمان .
(٢) الحمل عليـه : الهجوم عليـه بضروب الجبه والاستنكار .
(٣) هو عبد الله العروضى . انظر ص ١٠٤ ، ج ١
(٤) من أصحاب الجاحظ . انظر ص ٥٤ ، ج ١
(٥) يركلها : يضربها برجله .
(٦) هو إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب . أحد الأمراء الأشراف الشجعان . خرج بالبصرة على المنصور العباسى . فكثرت شـيعة إبراهيم . فاستولى على البصرة . وهجم على الكوفة . وكانت بينه و بين جيوش المنصور وقائع عظيمة . إلى أن قتله حميد بن قحطبة سنة ١٤٥ هـ .
(٧) عبد القيس بن أفصى : أبو قبيلة من أسد .
(٨) المراد بالجناح هنا جزء من البيت .

لا يُطلِعُ رأسه منها . فلمّـا سكن الطلبُ شيئا[1] ، وثبتَ عنده حسنُ جِوار القوم ، صار يجلس في الجَناح ، يرضى بأن يسمع الصوتَ ولا يرى الشخصَ ، لِمَا في ذلك من الأنس عند طول الوحشة . فلمّـا طالت به الأيام ، ومرّت أيّامُ السلامة ، جعل في الجَناح خَرْقا بقدر عينه . فلمّا طالت الأيام ، صار ينظر من شَقّ بابٍ كان مسموراً[2] . ثم ما زال يفتحه الأوّلَ فالأوّلَ ، إلى أن صار يُخرج رأسـه ويُبدي وجهه . فلمّا لم يرَ شيئا يَريبه[3] ، قعـد في الدِّهْليز . فلمّا زاد في الأُنس ، جلس على باب الدّار !

ثم صلّى معهم في مُصَلّاهم ودخل . ثم صلّى بعـد ذلك وجلس[4] . والقومُ عَرَبٌ ، وكانوا يُفيضون في الحديث ، ويذكرون من الشعر الشاهدَ والمَثَل ، ومن الخبرِ الأيّامَ[5] والمقاماتِ . وهو في ذلك ساكت ، إذ أقبل عليـه ذاتَ يوم فتًى منهـم ، خرج عن أدبهم ، وأغفل بعضَ ما راضُوه به من سيرتهم[6] ، فقال له : يا شيخُ ، إنّا قومٌ نخوض في ضروب ، فربّما تكلمنا بالمَثْلَبَة[7] ، وأنشدْنا الهِجاءَ . فلو أعلمتنا ممّن أنت ، تجنّبنا كلَّ ما يسوءك . ولو اجتنبنا أشعارَ الهِجاء كلَّها ، وأخبارَ المثالب بأسرها ، لم نأمن أن يكون ثناؤنا ومديحُنا لبعض العرب ممّـا يسوءُك . فلو عرّفتنا نسبَك ، كفيناك سَماعَ ما يسوءُك من هجاء قومك ، ومن مديح عدوّك .

فلطمه شـيخٌ منهم ، وقال : لا أمَّ لك ! مِحْنةٌ كمِحنةِ الخوارج[8] ، وتنقيرٌ كتنقير العيّابين[9] ؟ ولِمَ لا تدعُ ما يَريبك إلى ما لا يَريبك ؟ فتَسْكُتَ[10] إلّا عمّا توقنُ بأنّه يَسُرُّه .

---

(١) شيئا : بعض السكون . وقد سبق مثل هذا التعبير . (٢) شيئا فشيئا . (٣) يريبه : يسبب شكه وخوفه . (٤) يعني أنه في المرة الأولى صلى معهم وعاد إلى غرفته . أما في الثانية فصلى وجلس معهم بعد الصلاة . (٥) أيام العرب : وقائعها وحروبها . ومقاماتها : أحاديث مجالسها وأنديتها . (٦) خرج عما أدبوه به ، وعوّدوه إياه وذللوا به طبعه . (٧) المثلبة : العيب والذم . (٨) يقول أتريد أن تصيبنا بمصيبة كمصيبة الخوارج ؛ فإن أصل بلائهم من التعمق فيما يثير الشك . وفي القاموس وشرحه : الخوارج من أهل الأهواء ، لهم مقالة على حدة . وهم سبع طوائف . سموا بذلك لخروجهم على الناس ، أو عن الدين ، أو عن الحق ، أو عن عليّ كرّم الله وجهه ، بعد صفين . (٩) التنقير : البحث . (١٠) هكذا في نسخة الشنقيطي . وفي النسخ : فسكتّ .

قال : وقال عبد النور : ثمّ إنّ موضعى نبا بى[1] لبعض الأمر . فتحولتُ إلى شِقّ[2] بنى تميم . فنزلتُ برجل فأخذته بالثِقة، وأكمنت نفسى إلى أن أعرِفَ سبيلَ القوم . وكان للرجل كنيفٌ إلى جانب داره ، يَشْرَع[3] فى طريق لا ينفُـذ . إلّا أنّ مَن مَرّ فى ذلك الشارع رأى مسـقِطَ الغائط من خلاء ذلك الجَنَـاح . وكان صاحبُ الدار ضـيّقَ العيش ، فاتّسع بنزولى عليـه . فكان القوم إذا مرّوا به ينظرون إلى موضـع الزِبل والغائط ، فلا يذهبُ قلبى إلى شىء ممّـا كانوا يذهبون إليه .

فبينا أنا جالسٌ ذاتَ يوم إذا أنا بأصوات ملتفّة على الباب، وإذا صاحبى يَتَنفّى[4] و يعتذر، وإذا الجيرانُ قد اجتمعوا ، إليه وقالوا : ما هـذا الثَلْطُ[5] الذى يسقُط من جَناحك ، بعد أن كنّا لا نرى إلّا شيئاً كالبعر، من يُبْس الكَعْك ؟ وهذا ثَلْطٌ يعبِّرُ عن أكلٍ غضٍّ ! ولولا أنّك انتجعتَ[6] على بعض من تَسَتُّر وتُوارى لأظهرتَه . وقد قال الأوّل[7] :

السِتْر دون الفاحشاتِ ولا ... يلقاك دون الخيرِ مِنْ سِتْرِ

ولولا أنّ هـذا طَلِبَةُ السلطان ، لمـا توارَى . فلسنا نأمنُ من أن يجرّ على الحىّ بليّـةً . ولستَ تُبـالى — إذا حسُنتْ حالُك فى عاجل أيّامك — إلام يُفضى بك الحـالُ[8] ، وما تلقَى عشيرتُك . فإمّا أنْ تُخرجَه إلينا ، وإما أنْ تخرجَه عنّا . قال عبد النور : فقلتُ : هذه والله القِيافةُ[9]، ولا قيافةُ بنى مُدْلِج ! إنّا لله! خرجتُ من الجنّـة إلى النار ! وقلتُ : هـذا وَعِيدٌ .

---

(١) نبا بى : لم يوافقنى . (٢) فى ناحيتهم ، أو فى جانبهم . (٣) فى اللسان : وشرع الباب والدار شروعا : أفضى إلى الطريق . وأشرعه إليه . (٤) يتنفى : ينفى عن نفسه ما يتهمونه به و يتبرأ منه . (٥) الثلط : السلح الرقيق . (٦) الأصل فى الانتجاع طلب الكلأ فى موضعه . والغرض هنا : ظفرت ببعض من تستّر ، وانتفعت به ، كما ينتفع المنتجع بالكلإ . (٧) البيت لزهير بن أبى سلمى . وهو من قصيدة مطلعها :

لمن الديار بقنّة الحِجر * أقوين من حجج ومن شهر

(٨) ما يفضى بك الحـال الخ، أى من البلايا والمصائب . (٩) القيافة : تتبع الأثر . وفى اللسان : ومدلج (بضم الميم) : قبيـلة من كنانة ، ومنهم القافة اه . والقافة : جمع قائف ، وهو من يعرف الآثار .

وقد أعذَرَ مَنْ أنْذَرَ[١] . فلم أظنَّ أنّ اللؤمَ يبلغ ما رأيتُ من هؤلاء[٢]، ولا ظننتُ أنّ الكرم يبلغ ما رأيت من أولئك[٣] !

* * *

شهدتُ الأصمعىّ يوماً ، وأقبلَ على جلسائه يسألهم عن عَيْشهم ، وعمّا يأكلون ويشربون . فأقبل على الذى عن يمينه فقال : أبا فلانٍ، ما أُدْمُك؟ قال : اللحمُ . قال : أكُلَّ يوم لحمٌ ؟ قال : نعم . قال : وفيه الصفراءُ والبيضاءُ، والحمراءُ والكَدْراءُ، والحامضةُ والحلوةُ والمُرَّةُ ؟ قال : نعم . قال : بئس العيشُ هذا ! ليس هذا عيشَ آلِ الخطّاب . كان عُمَرُ بن الخطّاب (رحمةُ الله عليه ورضوانُه) يضربُ على هذا . وكان يقولُ: مُدْمِنُ اللحم، كمُدْمِن الخمر[٤].

ثم سأل الذى يليه قال : أبا فلان ، ما أُدْمُك قال : الآدامُ[٥] الكثيرة، والألوانُ الطيّبةُ .

قال : أفى آدامِك سَمْن ؟ قال : نعم . قال فتجمعُ السمنَ والسمينَ على مائدة ؟ قال : نعم . قال : ليس هذا عيشَ آلِ الخطّاب . كان ابنُ الخطّاب (رحمةُ الله عليه ورضوانُه) يضرب على هــذا . وكان إذا وجدَ القُدورَ المختلفةَ الطُّعومِ[٦] كدَرها فى قِدْر واحدة . وقال : إنّ العربَ لو أكلت هذا لقتل بعضُها بعضا .

ثم يُقبل على الآخر فيقول : أبا فلان ، ما أدمُك؟ قال : اللحمُ السمينُ، والجداءُ الرُّضَّعُ . قال : فتأكله بالحُوّارَى[٧]؟ قال : نعم . قال : ليس هذا عيشَ آلِ الخطّاب . كان ابنُ الخطّاب

(١) أى بلغ فى تعــذره، أى فى كونه معــذورا ، كما فى الأساس . (٢) يعنى بنى تميم .
(٣) يعنى بنى عبد القيس . (٤) الإدمان : المواظبة والمداومة . وقد تقدّم تفسير هذا القول فى ص ١٨ من هذا الجزء . (٥) الآدام : جمع إدام وأدم، وهو ما يؤتدم به . (٦) الطعوم : جمــع طعم (بفتح فسكون) . وفى نسخ : المطعوم . وهو تحريف . و(كدرها) : صبها ، كما فى اللسان . (من باب نصر) . وقد جاء فى خبر آخر : (فكلّزها كلها فى قدر عظيمة ، وقال الخ) . انظر ص ١٣٦ ، ج ١ ، فهناك شرح مفصل .
(٧) أى بخبز الحوارى . والحوارى : الدقيق الأبيض، وهو لباب البر . وقد سبق شرحه .

يضرب على هـذا . أوَ ما سمعتَه يقول : أترْونى لا أعرف الطعامَ الطيِّبَ؟ لُبابَ البُرِّ بصغار المِعْزَى . أَلا تراه كيف ينتفِى[١] من أكله و ينتحلُ معرفتَه ؟

ثم يُقبـل على الذى يليـه فيقول : أبا فلان ، ما أدْمك ؟ فيقولُ : أكثرُ ما نأ كُلُ لحومُ الجَزُورِ، ونتّخذ منها هذه القَلَايا[٢]، ونجعل بعضها شِوَاء . قال : أفتأ كُلُ من أ كبادها وأسْنِمَتِها، وتتّخذ لك الصِـباغَ[٣] ؟ قال : نعم . قال : ليس هـذا عيشَ آل الخطّاب . كان ابنُ الخطّاب يضرِب على هذا . أوَ ما سمعتَه يقول : أتروْنى لا أقدر أتّخذ أ كبادًا وأفلاذًا[٤] وصلائق[٥] وصِنابا[٦]؟ ألَا تراه كيف يُنكر أكلَه، ويستحسن معرفتَه ؟

ثم يقول للذى يليه: أبا فلان، ما أدْمك؟ فيقول : الشُّبارِقاتُ[٧] والأخبصةُ[٨] والفالوذجات[٩] . قال : طعامُ العجم، وعيشُ كِسْرَى، ولُباب البُرّ بلُعاب النحل بخالص السمن — حتّى أتى على آخرهم . كلّ ذلك يقولُ: بئس العيشُ هذا ! ليس هذا عيش آل الخطّاب . كان ابن الخطّاب يضرِب على هذا .

فلمّا انقضى كلامُه ، أقبل عليه بعضهم فقال : يا أبا سَعيد، ما أدْمُك ؟ قال : يوماً لبن ، و يوما زيت ، و يوما سمن ، و يوما تمـر ، و يوما جبن ، و يوماً قَفـار[١٠] ، و يوماً لحمٌ . عيشُ آلِ الخطّاب .

---

(١) ينتفى : يتبرأ ، كما سبق . وانتحل الشىء : ادعاه لنفسه . والمراد أنه كان يحيط به علما . ومع هذه الإحاطة كان لا يقربه . وهذا غاية الزهد . (٢) الجزور يقع على الذكر والأنثى . والقلايا : جمع قلية . وهى مرقة تتخذ من لحوم الجزور وأكبادها . وقد سبق شرح ذلك . (٣) الصباغ : جمع صبغ ، وهو ما يصطبغ به من الإدام . والمراد به هنا ما يتخذ للتشهية ، كالخل والزيت والتوابل . (٤) الأفلاذ : جمع فلذ (بالكسر) ، وهو كبد البعير . أو المراد هنا القطع من اللحم ، فيكون جمع فلذة (بالكسر أيضا) . (٥) الصلائق : جمع صليقة وهى اللحم المشوى المنضج ، كما فى القاموس . (٦) الصناب : صباغ يتخذ من الخردل والزبيب . (٧) الشبرق : ما اقتطع من اللحم صغارا وطبخ . وهو معرب ، كما فى القاموس . وهو بفتح الشين . وقال الجوهرى إنه بالضم . والشبارقات : جمعه . (٨) جمع خبيص : حلواء تعمل من التمر والسمن ، كما سبق . (٩) جمع فالوذج . وقد سبق تعريفه . (١٠) هكذا فى نسخة الشنقيطى . وفى النسخ : قال : يوما قفار ، و يوما لحم — والقفار : الخبز بلا أدم .

ثم قال : قال أبو الأشهب : كان الحسنُ [1] يشترى لأهله كلَّ يوم بنصفِ دِرْهم لحماً ، فإن غلا ، فبدرهم . فلمّا حُبِس عطاؤه كانت مَرَقته بشحم .

ونُبِّئْتُ عن رجل من قريش أنّه كان يقول : مَنْ لم يُحسِنْ يَمنعُ ، لم يحسن يعطى ؛ وأنّه قال لابنه : أىْ بُنَىَّ ، إنّك إن أعطيت فى غير موضع الإعطاء ، أوْشَك أن تستعطِىَ الناس فلا تُعْطَى .

ثم أقبل علينا فقال [2] : هل علمتم أنَّ اليأسَ أقلُّ من القناعة وأعزُّ [3] . إنّ الطمَع لا يزال طمعًا . وصاحبُ الطمع لا ينتظر الأسباب . ولا يعرِف الطمَع الكاذبَ من الصادقِ . والعيالُ عِيالان : شهوةٌ مُفْسدة ، وضِرْس طَحُون [4] . وأكْلُ الشهوة أثقلُ من أكل الضِرس . وقد زعموا أنّ العيالَ سوسُ المال ، وأنّه لا مالَ لذى عيال . وأنا أقول : إنّ الشهوة تبلغ ما لا يبلغُ السوسُ ، وتأتى على ما يقصُر دونه العِيالُ . وقد قال الحسنُ : ما عال أحَدٌ قطْ عن قَصْد [5] . وقيل لشيخ من أهل البَصْرة : مالَكَ لا يَنْمِى لك مالٌ ؟ قال : "لأنى اتّخذتُ العِيالَ قبلَ المالَ ، واتّخذ الناسُ المالَ قبلَ العِيالِ" . وقد رأيتُ من تقدّم عِيالُه مالَه ، فَجَبَرَهُ الإصلاح ، وَرَفَدَه الاقتصاد ، وأعانه حسْنُ التدبير [6] . ولم أر لَشَهْوانى تدبيرًا ، ولا لِشَرِهٍ صبراً . وقال إياسُ بنُ معاويةَ [7] : إنّ الرجلَ يكون عليه ألفٌ [فينفق ألفًا] [8] ، فيُصْلِحُ ، فتَصْلُح له الغَلّةُ . ويكون عليه ألفان ،

---

(١) أى البصرى . وقد تقدّمت ترجمته . (٢) أى الأصمعى . (٣) اليأس أقل من القناعة وأعز : أندر منها . (٤) شهوة الخ ، أى شهوات صاحب المال . وكنى بالدرس الطحون عن العيال . (٥) القصد : الاعتدال والتوسط . (٦) رفده : أعانه . يعنى أن كثرة العيال قبل جمع المال لا تسبب العيلة ، إذا اعتدلت المعيشة بالاقتصاد وحسن التدبير . (٧) هو أبو واثلة إياس بن معاوية ابن قرة المزنى . قاضى البصرة . كان من أعاجيب الدهر فى الذكاء ، وصدق النظر والفراسة . وقد ضرب به المثل ، فقيل : أذكى من إياس . انظر ما قاله فيه الجاحظ فى (البيان والتبيين) ، ص ٩٥ ، ج ١ ، طبعة السندوبى . توفى بواسط سنة ١٢٢ هـ . (٨) أى يكون عائدا عليه إيراد مقداره ألف فى كل سنة ، فينفق هذا الألف . وما بين القوسين زيادة يقتضيها المقام .

فيُنفق ألفين ، فيُصلح ، فتَصْلُح له الغَلّةُ . و يكونُ عليـه ألفان ، فيُنفق ثلاثة آلاف ، فيبيع العَقارَ في فضل النفقة (١) .

وذكر الحديثَ عن أبى لِينَةَ (٢) ، قال : كنت أرى زيادًا (٣) وهو أمير ، يمُرّ بنا على بغلة فى عُنقها حبلٌ من ليف مدرَّجٌ (٤) على عنقها .

وكان سَلْمُ بنُ قُتَيْبَةَ (٥) يركب بغلةً وحده ، ومعه أربعة آلاف رابِطة (٦) . ورآه الفضلُ بن عيسى (٧) على حمار وهو أميرٌ ، فقال : بِذْلةُ نبيّ وقُعودُ جبّار (٨) !

ولو شاء أبو سَيّارةَ (٩) أن يدفع بالعرب على جَمل مَهْرِيّ أو فرس عتيق لفعل . ولكنّه أراد هُدَى الصالحين .

وحُمِل عُمَرُ على بِرْذَوْنٍ (١٠) ، فهَمْلَجَ (١١) تحته . فنزل عنه . فقال لأصحابه : جنّبونى هذا الشيطانَ . ثم قال لأصحابه : لا تطلبوا العِزَّ بغيرِ ما أعزّكم اللهُ به .

قد كنتُ أعجبُ من بعض السَّلَف حيث قال : ما أعرِفُ شيئًا ممّا كان النـاس عليه إلّا الأذانَ . وأنا أقول ذلك (١٢) . ولم يزل الناسُ فى هبوط ما ترفّعوا (١٣) بالإسراف . وما رفعوا البنيان

---

(١) المعنى أن من ينفق أكثر من إيراده فان ذلك يؤديه إلى بيع ما يملك . (٢) هو أبو لينة ، النضر بن أبى مريم ، مطرق (كمنبر) ، كوفى ضعيف الحديث اﻫ من تاج العروس . (٣) زياد بن أبى سفيان . وقد ذكر من قبل غير مرة ، وترجم له . (٤) مدرج : مضيق . (٥) انظر ص ١٢٩ ، ج ١

(٦) فى اللسان : وقد خلف فلان بالثغر خيلا رابطة . و ببلد كذا رابطة من الخيل اﻫ . فقوله : ومعه أربعة آلاف رابطة ، أى وعنده هذا العديد من الخيل . (٧) الفضل بن عيسى الرقاشى . وقد سبق التعريف به فى ص ١٣٣ من هذا الجزء . (٨) البذلة : التبذل . وهو هنا التخضع وترك التزين . وفى اللسان : وفى حديث الاستسقاء : فخرج متبذلا متخضعا اﻫ . وقعود جبار : أى عند القعود للحكم والأمر . (٩) أبو سيارة عميلة (بضم ففتح) ابن الأعزل ، أحد حكام العرب فى الجاهلية . وقوله : (أن يدفع بالعرب) ، أى إلى مواسم الحج . ولكنه ركب عيرا أربعين عاما ، لأنه كان يتألّه (يتعبد و يتنسك) ، كما فى (البيان والتبيين) . زعموا أنه أول من جعل الدية مائة من الإبل . ومهرى : نسبة إلى مهرة بن حيدان ، حى فى العرب ينسب إليه نوع جيد من الإبل . (١٠) البرذون : الفرس العظيم الخلقة ، الغليظ الأعضاء . وهو ليس من الخيـل العربية . (١١) سار سيرا حسنا سريعا .

(١٢) لا يزال الأصمعى يتكلم . (١٣) ما ترفعوا : أى مدة طلبهم الرفعة والعظمة بالاسراف والتبذير .

للطاولة[1] . وإنّ من أعجبِ ما رأيتُ فى هـذا الزمانِ ، أو سمِعت ، مفاخرةَ مُوَيس بنِ عمْران لأبى عُبَيْـد الله بنِ سليمان فى أيِّهما كان أسبق إلى ركوب البراذِين[2] ! وما للتاجر ولِلبِرْذَوْن ؟ وما ركوبُ التاجر للبراذين إلّا كركوب العرب للبقر !

ولو كانوا إذا جلسوا فى الخُيوش[3] ، واتخذوا الحمّامات فى الدور ، وأقاموا وظائف الثلج والريحان[4] ، واتّخذوا القِيانَ[5] والخِصْيان ، استردّ[6] الناسُ ودائعَهم ، واسترجعت القضاةُ أموال الأيتام والحَشْرِيّة[7] منهم ، لعادوا إلى دينِهم[8] وعيشهم واقتصادهم . وإذا رآهم أصحاب الغَلّات ، وأهل الشرف والبيوتات ، أنِفوا أن يكونوا دونهم فى البِزّة[9] والهيئة . فهلكوا وأهلكوا .

✤
✤ ✤

زعم أبو يعقوب الخُرَيْمىّ[10] أنّ جعفرَ بنَ يحيى[11] أراد يومًا حاجةً كان طريقه إليها على باب الأصْمَعىّ ، وأنّه دفع إلى خادم له كيسا فيـه ألف دينـار ، وقال له : سأنزِلُ فى رَجْعتى إلى الأصمعىّ . وسيحدّثنى ويُضحكنى . فإذا رأيتَنى قد ضحِكْتُ فضع الكيسَ بين يديه .

---

(١) للقارئ عهد به فى مواضع سبقت . (٢) كانت البراذين مما يتفاخر بركوبه فى ذلك العصر ، لندرتها ، وغلاء ثمنها ، وروعة منظرها . (٣) جمع خيش . ولعله يقصد بالخيوش الخيمات ، لاتخاذها من الخيش . ولعلها كانت تتخذ لعظماء الناس وقت الصيف فى ذاك الزمن . ويمكن أن تكون (الخيوش) محرّفة عن (الحشوش) ، وهى البساتين .

(٤) الوظيفة : ما يقدر فى اليوم من طعام أو نحوه : أى كان من إغراقهم فى الترف أن رتبوا أن يرسل إليهم الثلج والريحان فى كل يوم . (٥) جمع قينة ، وهى الأمة ، مغنية كانت أو غير مغنية ، وغلبت فى المغنية . وقد سبق شرحها . (٦) جواب (إذا) . وجواب (لو) قوله : لعادوا الخ . (٧) الحشرية : نسبة إلى الحشر (بفتح فسكون) ، وهو الجمع . وهم من يجمعون العشور والجزية . وسماهم فى (تاج العروس) الحشار (بضم فشين مشددة) . قال : والحشار عمال العشور والجزية اه . وفى (التاج) أيضا : وفى حديث وفد ثقيف : اشترطوا ألا يعشروا ولا يحشروا ... وقيل [أى فى معنى (ولا يحشروا)] : لا يحشرون إلى عامل الزكاة ، ليأخذ صدقة أموالهم ، بل يأخذها فى أماكنهم اه . وفى المصباح : ... ومنـه قيل : الأموال المحشورة ، أى المجموعة . وفى (كتاب الروضتين) لأبى شامة : «ولم يكن لمال المواريث الحشرية حاصل ، ولا لديوانه طائل» . ويقصد بالمواريث الحشرية التركات التى مات أصحابها بلا وارث فاستولى عليها بيت المال . وكان يشرف على هـذه التركات عمال من قبل الحاكم .

(٨) (دينهم) : طريقتهم الأولى وما كانوا عليه . (٩) فى اللسان : البزة : الهيئة والشارة واللبسة (بكسر اللام) . والشارة : الحسن والهيئة واللباس . (١٠) هو أبو يعقوب إسحاق بن حسان الأعور الخريمى . انظر ص ١١ من هذا الجزء . (١١) جعفر بن يحيى بن خالد البرمكى . ولد ونشأ فى بغداد . واستوزره هارون الرشيد . وبلغ لديه من المكانة ما لم يبلغـه أحد . فدانت له الدولة . يحكم فلا يرد له حكم ، ويأمر فلا ينقض له أمر . وكان من البلغاء . واشتهرت توقيعاته بالجمال . قتل فى جملة من قتلهم الرشيد من البرامكة فى نقمته عليهم سنة ١٨٧ هـ .

فلمّا دخل فرأى حُبًّا(١) مقطوعَ الرأس ، وجَرّة مكسورة العُرْوة ، وقصعة مُشَعَّبَة(٢) ، وجَفْنة أعشارًا(٣) ، ورآه على مُصَلّى بالٍ ، وعليـه بَرَّكانٌ(٤) أجردُ ـ غَمز غلامه بعينه ألا يضعَ الكيس بين يديه ، ولا يدفعَ إليه شيئًا .

فـلم يدع الأصْمعىّ شيئًا ممّـا يُضْحِك الثّكلان والغَضبَان إلّا أورده عليـه ، فمـا تبسم . فقال له إنسان : ما أدرى من أىّ أمرَيْكَ أعجبُ(٥) ؟ أمن صـبرِكَ على الضحِك ، وقـد أورد عليك ما لا يُصْـبَرُ على مثله ، أم من تركك إعطاءه ، وقد كنتَ عزمتَ على إعطائه ؟ وهـذا خِلاف ما أعرِفك به !

قال : ويلكَ ! من استرعَى الذئبَ فقد ظلَم(٦) . ومن زرع سَبَخَةً(٧) حصَد الفقر . إنّى والله لو علمتُ أنّه يكتُم المعروفَ بالفعل ، لمـا ارتفقتُ(٨) بنشره له باللسان . وأين يقع مديحُ اللسان ، من مديح آثار الغنى على الإنسان ؟ فاللسان قـد يكذب ، والحال لا تكذِب . لله درّ نُصَيْب(٩) حيث يقــول :

فعاجُوا فأَثْنَوْا بالذى أنتَ أهْلُه ‍ ‍ ‍ ولو سكتوا أثنتْ عليك الحقائبُ

---

(١) الحب : وعاء كبير للماء (الزير) . (٢) مشعبة : يقال : قصعة مشعبة : أى أصلحت فى مواضع منها . شدد للكثرة . (٣) جمع عشر (بالكسر) ، وهو الجزء المكسر عن الجفنة ، كما فى اللسان .

(٤) ضرب من الثياب . وقد سبق شرحه فى ص ٧٢ ، ج ١ (٥) أى على حبس الضحك .

(٦) أى ظلم الغنم . مثل يضرب لمن يولى غير الأمين . قالوا : إن أول من قاله أكثم بن صيفى .

(٧) سبخة : ملحة ، ذات نز . (٨) (يكتم المعروف بالفعل) : يخفى آثار المعروف عليه بما يفعله من إظهار ضدها ، والمقصود أنه لا ينتفع بما يسدى إليه من برّ . و (ارتفقت) : انتفعت . وفى (عيون الأخبار) : (لما حفلت نشره له باللسان) . (٩) مولى المهدى العباسى . من الموالى السودة من بادية اليمامة . شاعر مجيد . عرض على المهدى قبل أن يلى الخلافة . فاستنشده فأنشده من شعره . فأعجب به ، فاشتراه . توفى نحو ١٧٥ هـ .

أعلمتَ أنّ ناوُوسَ أبْرَوِيزَ[1] أمدحُ له من شعر زُهير[2] لآل سِنانِ بن أبى حارثة[3]؟ لأنّ الشاعر يكذِب و يصدُق ، و بنيانُ المراتب لا يكذِب مرّة و يصدُق مرّة . فلستُ بعائد إلى هذا بمعروف أبداً .

✣ ✣ ✣

كان الأصْمَعىّ يتعوّذ بالله من الاستقراض والاستفراض[4] . فأنعمَ الله عليه، حتى صار هو المستقرَض منه ، والمستفرَض ما عنده . فاتّفق أن أتاه فى يوم واحد رجلانِ . وكان أحدهما يطلبُ الفرْضَ، والاخر يطلبُ القرْض . فهجما عليه معاً، فأثقله ذلك وملأ صدره !

ثمّ أقبل على صاحب السَلَف فقال : "تتبدَّلُ الأفعالُ، بتبدُّل الحال . ولكلّ زمان تدبير ، ولكلّ شيء مقدار ، والله فى كلّ يوم فى شأن . كان الفقيه[5] يمرّ باللُّقَطَة ، فيتجاوزُها ولا يتناولُها ، كى يُمتحَنَ بحفظها سواه ، إذ كان جُلّ الناس فى ذلك الدهر يريدون الأمانة ، ويَحُوطون[6] اللُّقَطَة . فلمّا تبدّلوا وفسَدوا ، وجب على الفقيه إحرازُها والحفظُ لها ، وأن يصبِرَ على ما نابه من المِحْنة ، واختُبِر به من الكُلْفة[7]" .

"وقد بلغنى أنّ رجلا أتى صديقا له يستقرض منه مالا ، فتركه بالباب ، ثم خرج إليه مُؤْتَزِرا[8] . فقال له : ما لك؟ قال : جئت للقتال واللِّطام ، والخصومة والصخَب . قال : ولِم؟

(١) هكذا فى (عيون الأخبار) . وفى النسخ : باروية . ونعتقد أنه تحريف . وأبرويز : أحد ملوك الفرس . والمراد بناووسه قبره ؛ أى البناء الضخم الذى بنى فوقه . (٢) هو زهير بن أبى سلمى المزنى . حكيم الشعراء فى الجاهلية . ومن أئمة الأدب من يفضله على شعراء العرب كافة . وأشهر شعره معلقته التى مطلعها : (أمن أم أوفى دمنة لم تكلم) . توفى سنة ١٣ ق . هـ . (٣) هو سنان بن أبى حارثة المرى . أحد أجواد العرب فى الجاهلية . عنفه قومه على كثرة عطاياه . فركب ناقة ولم يرجع . فسمته العرب : ضالة غطفان اهـ من (الأعلام) .

(٤) الاستقراض : طلب القرض ، وهو السلف . والاستفراض : طلب الفرض ، وهو العطية ، وما فرضته على نفسك فوهبته ، أو جدت به لغير ثواب . (٥) الفقيه : العالم بأحكام الدين . واللقطة : شىء ذو قيمة يجده الانسان فى الطريق أو نحوه . (٦) يحفظون . (٧) وجب على الفقيه الخ ، وذلك لأنه لو تجاوزها لغيره — كما كان يفعل فى الزمن السابق — لذهبت واغتيلت . وقد أتى الأصمعى بهذه المقدمة وما يليها من الحكاية ، ليقنع الرجل بالانصراف عنه . (٨) لابسا الإزار ، وهو فوطة يغطى بها الجزء الأسفل من الجسم . ولعلها كانت عادة المصارعين .

قال : لأنّك فى أخذ مالى بين حالين : إمّا أن تَذهب به[١] ، وإمّا أن تَمْطُلَنى به . فلو أخذته على طريق البِرّ والصِّـلَة ، لاعتددتُ عليـك بحقّ ، ولوجب عليـك به شكرٌ[٢] . وإذا أخذته من طريق السلف ، كانت العـادةُ فى الديون ، والسـيرةُ فى الأسلاف ، الردَّ أو التقاضِىَ[٣] . وإذا تقاضَيْتُك أغضبتُك ، وإذا أغضبتُك أسمعتنى ما أكره ، فتجمعُ علىّ المَطْل وسوءَ اللفظ ، والوحشةَ وإفسادَ اليد[٤] فى الأسلاف ، وأنت أظلمُ ، فأغْضَبُ كما غضِبْتَ . فإذا نقلتنى إلى حالك[٥] فماتُ فعلَكَ ، وصرتُ أنا وأنت كما قال العربىّ : أنا تَئِقٌ وصاحبى مَئِق[٦] — فما ظنّك بمَئِق من الغيظ ، مملوءٍ من الغضب ، لاقى مُتْأَقًا[٧] من المُوق[٨] ، مملوءًا من الكفران[٩]؟ — ولكنّى أدخل إلى المنزل ، فأخرُجُ إليك مؤتزرًا ، فأعجِّل لك اليومَ ما أخّرتُه إلى غد[١٠] . وقد علمتَ أنّ ضربَ الموعظة ، دونَ ضربِ الحقد والسَّخِيمة[١١] ، فتربحُ صَرْف ما بين الألمين ، وفضلَ ما بين الشّتْمين[١٢] " .

«وبعدُ[١٣] فأنا أَضَنّ بصداقتى لك ، وأشَحّ على نصيبى منك[١٤] ، من أنْ أُعَرِّضه للفساد ، وأنْ أُعينَك على القطيعة . فلا تلمنى على أنْ كنتَ عندى واحدًا من أهل عصرك . فإن كنتَ عند نفسك فوقَهم ، وبعيدًا من مذهبهم ، فلا تكلِّف الناسَ علمَ الغيب فتظلمَهم» .

---

(١) أى تذهب به فلا تردّه ، ولا أجد سبيلا إلى مطالبتك . (٢) يجب أن تكون تكملة الكلام : وهذا ما لا تريده لنفسك وما لا أريده لنفسى . (٣) الأسـلاف : جمع سلف . والسيرة فى الأسلاف : العادة المتبعة فيها ، فهـذا إطناب . والتقاضى : المطالبـة بالدين . (٤) اليـد هنا : الصنيعة والمنة . (٥) فاذا نقلتنى الخ ، أى فاذا تصورت أنى طالب القرض ، لا أنت . (٦) ويروى المثل أيضا هكذا : أنت تئق ، وأنا مئق ، فكيف نتفق؟ التئق : السريع إلى الشر ، الملوء غيظا ، والمئق : السريع إلى البكاء . وقيـل : معنى المثـل : أنا ممتلئ غضبا ، وصاحبى سيئ الخلق . وفى تفسـير التئق والمئق أقوال أخرى كثيرة . يضرب هـذا المثل للختلفين أخلاقا . (٧) المتأق : الملوء . (٨) الموق : الحمق فى غباوة . (٩) هكذا فى نسخة الشنقيطى . وفى غيرها : النكران . (١٠) إلى غد ، أى عند تقاضيك فى المستقبل ، لو أقرضتك ومطلت . (١١) أى إن الضرب للوعظة أقل إيلاما من ضرب الحقـد . وعطف السخيمة على الحقـد عطف مرادف . (١٢) أى وبذلك التعجيل فى العقوبة ، تربح الفرق بين ألم ضرب الحقد وألم ضرب الموعظة ، ثم الفرق بين شتم الحقـد وشتم الموعظة . (١٣) أخذ الأصمعى يخاطب صاحب السلف ، بعـد أن قص عليـه الحكاية . (١٤) نصيبى منك : حظى من صحبتك وصداقتك . فهنا مضاف محذوف .

ثم قال : «وما زالت العاريّةُ مؤدّاةً ، والوديعةُ محفوظة . فلمّا قالوا : أحقُّ الخيل بالرَّكْض المُعار،[١] بعد أن كان يقال : أحقُّ الخيل بالصَّوْن المُعار ، وبعد أن قيل لبعضهم : ارفُق به ، قال : إنّه عاريّة ، وقال الآخر : فاقتُلْ![٢] — فسدت العاريّة ، واستَدّ هذا الباب[٣] . ولمّا قالوا[٤] :

<table dir="rtl">
<tr><td>شمِّرْ قميصَك واستعِدّ لنابلٍ[٥]</td><td>واحكُك جبينَك للقضاء بثُومِ</td></tr>
<tr><td>واخفِض جَناحَك إنْ مَشَيْتَ تخشُّعاً</td><td>حتّى تصيبَ وديعةً ليتيمِ»</td></tr>
</table>

«وحين أَكَلَت الأماناتِ الأمناءُ والأوْصِياءُ[٦] ، ورَتَع فيها المعدَّلون والصرّافون ، وجبَ حفظُها ودفْنُها ، وكان أكلُ الأرض لها خيرا من أكل الخَئُون الفاجر ، واللئيم الغادر . وهذا مع قول أكثَم بنِ صَيْفيّ[٧] في ذلك الدهر : لو سُئِلت العاريّة : أين تذهبين ، قالت : أَكْسِبُ أهلي ذمّا[٨]» .

«وأنا اليومَ أنهى عن العاريّة والوديعة ، وعن القرْض والفرْض ، وأكره أن يُخالِف قولي فعلي . أمّا القرْض فَلِما أنبأتُك ، وأمّا الفرْض فليس يَسَعُه إلّا بيتُ المال . ولو وَهَبْتُ لك

(١) عجز بيت صدره : وجدناه في كتاب بني تميم . كما في (الكامل) للمبرد . وفي الأساس : ركَل الدابة برجله ، وركضها برجلين : ضربها ليستحثها . (٢) أي حين علم أن الفرس أو نحوه عارية ، قال له : اقتله ، لأنه ليس ملكا لك .

(٣) (استدّ) : مطاوع سدّه ، أي أغلقه ، كما في اللسان . و (هذا الباب) : باب الأمانة وصيانة الوديعة والعارية ، حتى تؤدّى إلى أهلها . (٤) في (البيان والتبيين) : وقال مساور الوراق لابنه . ج ٣ ، ص ١١٥ (طبعة السندوبي) . (٥) أي حك جبينك بثوم ، لتحدث به أثرا أسود ، فيظن أنه أثر السجود ، فتختار للقضاء . ورواية (البيان والتبيين) : واستعد لقائل . والنابل : الرامي بالنبل . والشطر الأول من البيت الثاني في (البيان والتبيين) : (وعليك بالغنوى فاجلس عنده) . (٦) الأمناء : جمع أمين ، وهو من تأتمنه على الشيء . والمعدلون : المزكون (بفتح الكاف مشددة) ، وهم الذين يقول الناس إنهم عدول . ولعل معنى الصرافين (في اصطلاح الناس في ذلك العصر) : حفظة الودائع ، أو أنه كان من أعمال الصرافين إذ ذاك حفظ الودائع .

(٧) سبقت ترجمته في ص ٧٩ من هذا الجزء . (٨) أي لأنهم أخرجوني من أيديهم ، وتهاونوا في ، فهم لذلك جديرون بالذم . وقد سبق الكلام على (كسب) في ص ٧٨ من هذا الجزء .

دِرْهما واحدًا، لفَتَحْتُ على مالى بابًا لا تَسُدُّه الجبالُ والرمالُ ، ولو استطعتُ أن أجعل دونه رَدْمًا[1] كَرَدْم يَأجُوجَ ومأجُوجَ " .

" إنّ الناسَ فاغرةٌ أفواهَهم نحو من عنده دراهم ؛ فليس يمنعهم من النَّهْس[2] إلّا اليأسُ . وإن طعِموا لم تبقَ راغيةٌ ولا ثاغيةٌ ، ولا سَبَد ولا لَبَد ، ولا صامتٌ ولا ناطقٌ[3] ، إلّا ابتلعوه والتهموه ! أتدرِى ما تريدُ بشيخك ؟ إنّمـا تريدُ أنْ تُفقِرَه . فإذا أفقرتَه فقد قتلته . وقد تعلمُ ما جاء فى قتل النفس المؤمنة " !

⁂

فلم أشبّه قولَ الأصْمَعىّ لهذا الرجل، حين قال : " أنا أَضَنُّ بك، وأشَحّ على نصيبى منك من أن أعرِّضه للفساد "، إلّا بقول ثُمـامة[4]، حين قال لابن سافرِى[5] : " بالنظرِ منّى[6] أقول لك، والشفقة منّى أسبُّك[7] " . وذلك أنّه ندم، فرأى أنّ هذا القول يجعل ذلك منه يدًا ونِعمة .

⁂

وشهِدتُ ثُمـامةَ [وقَدْ][8] أتاه رجل ، قال : لى إليـك حاجةٌ ، فقال ثُمـامة : ولى إليك أيضًا حاجةٌ . قال : وما حاجتُـك ؟ قال : لست أذكرُها لك ، حتّى تضمَنَ لى قضاءَها . قال : نعم . قال : فحاجتى ألّا تسألَنى هذه الحاجةَ . قال : إنّك لا تدرى ما هى؟ قال : بلَى، قد دريْتُ . قال : فما هى؟ قال : هى حاجة . وليس يكون الشىء حاجةً ، إلا وهى تخرُج إلى شىء من الكُلْفة . قال : فقد رجَعْتُ عما أعطيتُك[9] . قال : لكنّى لا أرُدُّ ما أخذتُ .

(١) الردم : السدّ . (٢) النهس : انتزاع اللحم بالثنايا للأكل . (٣) الراغية : الناقة . والثاغية : الشاة . والسبد واللبـد : القليل والكثير . والصامت من المـال : الذهب والفضة . والناطق : الحيوان .

(٤) ثمامة بن أشرس النميرى . انظر ص ٤٦ ، ج ١ (٥) هكذا فى النسخ . ولم نعثر على اسمه كاملا فى مراجعنا . (٦) بالنظر منى : بالشفقة والعطف . ومثل هذا قول سهل بن هارون : (وبحسن النظر لكم) . انظر ص ٤٠ ، ج ١ . والمراد بالقول هنا اللوم والتعنيف . (٧) وذلك لأنه كان سبق له أن سبه . فأراد — فيما زعم — أن يتلطف له فى القول، ليصلح ما أفسد . (٨) ما بين القوسين زيادة يقتضيها التركيب . (٩) ما أعطاه الرجل هو ضمان قضاء حاجة ثمامة ، بقوله : نعم . وقد أوضحنا علة ذلك آنفا .

فأقبل عليه آخرُ فقال : لى حاجةٌ إلى منصورِ بنِ النُّعْمان . قال : قل : لى حاجةٌ إلى ثُمامةَ ابن أشْرَس ؛ لأنّى أنا الذى أقضى لك الحاجة[1] ، ومنصورٌ يقضيها لى . فالحاجة أنا أقضيها لك ، وغيرى يقضيها لى .

ثم قال : فأنا لا أتكلّم فى الولايات ، ولا أتكلّم فى الدراهم ؛ لأنّ الدراهم من قلوب الناس ، ولأنّ الحوائج تَنْقَضُّ[2] . فمن سألتُــه اليومَ أن يُعطيك ، سألنى غدًا أن أعطىَ غيرَك . فتعجيلى تلك العطيّةَ لك أَرْوَحُ لى[3] . ليس عندى دراهم[4] ، ولو كان عندى دراهم ، لكانت نوائبى القائمةَ الساعةَ تستغرقُها . ولكنّى أؤنِّبُ لكم مَن شئتم[5] . علىَّ لكم من التأنيب كلُّ ما تريدون !

قلتُ له : فإذا أتيْتَ رجلا فى أمرٍ لم نتقدّم فيه بمسألة ، كيف يكون جوابُه لك[6] ؟ فضحك حتى استند إلى الحائط .

* * *

وجاء مرّةً أبو همّام المُسَوِّط[7] ، يكلّمُه فى مَرَمّة داره التى تطوّع ببنائها فى رِباطِ عَبّادان ، فقال : (ذكَّرْتَنى الطعنَ وكنتُ ناسياً)[8] . قد كنتُ عزمتُ على هدمها ، حين بلغنى أنّ الجَبْرِيّةَ[9]

(١) أى بوساطة غيرى . (٢) فأنا لا أتكلم الخ ، أخذ ثمامة يتخلص من الرجل بمقدمات يخلص منها إلى عدم قضاء حاجته . والولايات : جمع ولاية ، وهى هنا : ما يلى المرء من عمل . فقوله : لا أتكلم فى الولايات ، معناه : لا أسأل أحدا عمــلا لأحد . وعلل لذلك بقوله : ولأن الحوائج الخ . و (تنقض) : تسقط سريعا . وقوله : لأن الدراهم من قلوب الناس ، أى كأنها من قلوبهم ، لشدّة الضن بها . (٣) (فتعجيلى تلك العطية) ، أى منى مالى . وهذا تفريع على قوله : فمن سألته اليوم الخ . وأروح : من راح يراح : إذا سرّ ووجد الفرجة بعد الكربة . (٤) (ليس عندى دراهم) ، جعل هــذا بمنزلة تعجيل العطية . وهو ضرب من السخرية . (٥) (أؤنب لكم من شئتم) ، أى على عدم الإعطاء ، لأنه ليس علىّ فى ذلك مؤنة ولا مشقة . (٦) يقول له : إنك قــد برعت فى رد كل سائل والافتنان فى المنــع . فهبك كنت ذا حاجة ، وقــدمت على رجل ولم تســأله فى قضاء هــذه الحاجة ، ثم تخيل لنا إجابة لمنع حاجة لم تسأل قضاءها . والغرض أن يقول له على سبيل المبالغة : إن فى استطاعتك أن تردّ سائلا قبل أن يسألك . (٧) فى المصباح : والرباط : الذى يبنى للفقراء ، مولد اهـ . وعبادان : جزيرة أحاط بها شعبتا دجلة . (٨) مثل يضرب فى تذكر الشىء بغيره . قال المفضل : أول من قاله رهيم بن حزن الهلالى . وتجد الخبر مبسوطا فى (الميدانى) . (٩) الجبرية : فرقة تنسب إلى الحسين بن محمد النجار البصرى . يقولون : إن العبد لا قدرة له ، وإن الحركات الارادية إنمـا هى بمثابة الرعدة والرعشة .

قد نزلتَها . قال : سبحان الله! تهدِمُ مَكْرُمةً ودارًا قد وقفتَها للسبيل؟[١] قال : فتعجَبُ من ذا ؟ قد أردتُ أن أهدِمَ المسجدَ الذى كنتُ بنيتَه ليزيدَ بن هاشم ، حين ترك أن يبنيَه فى الشارع ، وبناه فى الرائغ[٢] ، وحين بلغنى أنّه يخلِط فى الكلامِ[٣] ، ويُعين البِشْريّة على المعـتزلة . فلو أراده أبو همّام ، وجَد من ثمـامةَ مِرْبدًا[٤] جميعَ مساحة الأرض !

وكان حين يسوِّى لك اللفظَ[٥] ، لا ينظر فى صلاح المعانى من فسادها .

⁂

وتمشَّى رجل إلى الغاضِرىِّ ، قال : إنّ صديقك القادِمىَّ قد قُطِع عليه الطريقُ . قال : فأىّ شىء تريد ؟ قال : أن تُخلِف عليه[٦] . قال : فليس عليه قُطِعَ الطريقُ ، بل علىّ قُطِع !

⁂

وأتى ابنَ سكابٍ الصَّـيْرفىّ[٧] صديقٌ له يستلِف منـه مالا ، فقال : لو شئتُ أنْ أقولَ لقلتُ ، وأنْ أعتلَّ اعتللتُ ، وأنْ أستعير بعضَ كلام من يستلِفُ منه إخوانُه فعلتُ . وليس

---

(١) للسبيل : لسبيل الله ، أى طاعته . (٢) راغ الطريق : مال . ومعنى (بناه فى الرائغ) : فى منعطف من الطريق ، بعيد عن الشارع الأعظم . (٣) وحين بلغنى الخ ، المراد بالكلام هنا علم التوحيد . وقد سبق الكلام على (المعتزلة) فى ص ١٦٣ ، ج ١ . وأما البشرية فهى طائفـــة من المعتزلة ، لهم آراء يخالفون فيها آراء المعتزلة . وهم ينسبون إلى أبى سهل بشر بن المعتمر البغـــدادى . وكان فقيها معتزليا من أهـــل الكوفة . وله مصنفات فى الاعتزال . توفى ســنة ٢١٠ هـ . وقد سبق أن ثمامة كان من رؤساء المعتزلة ، فلهـــذا غضب على يزيد بن هاشم . وفى النسخ : الثمرية ، بدل البشرية . وهو تحريف فيما نعتقد . (٤) الضمير فى أراده يعود إلى المسجد . والمـــربد : محبس الابل ومكان إقامتها . والمعنى : لو أراد أبو همام أخذ هذا المسجد ، لوهب له ثمامة جميع مساحته ليكون مربدا لابله . وفى التعبير غرابة . ولعل الجاحظ أراد أن يحكى نص كلام ثمامة . (٥) هذه الجملة يصف بها الجاحظ أسلوب ثمامة . فهو يقول : إنه كان ذا عناية باختيار اللفظ . فاذا وقع عليه لم يأبه لما قـــد يترتب على ذلك من شذوذ ، وخروج على تعارف النـاس ، فيما يؤدّيه من المعانى . وقد وصف الجاحظ بلاغة ثمامة فى الجزء الأوّل من (البيان والتبيين) ، ص ١٠٥ (طبعة السندوبى) فقال : وما علمت أنه كان فى زمانه قروى ولا بلدى كان بلغ من حسن الإفهام ، مع قلة عدد الحروف ، ولا من سهولة المخرج ، مع السلامة من التكلف ، ما كان بلغه . وكان لفظه فى وزن إشارته ، ومعناه فى طبقة لفظه . ولم يكن لفظه إلى سمعك ، بأسرع من معناه إلى قلبك اهـ . فوازن بين حكمه هنا وحكمه هناك ، تر البون بعيدا . (٦) أن تخلف عليه : أن تعوّضه مما ذهب منه خلفا . (٧) هكذا فى بعض النسخ . وفى نسخة الشنقيطى : سكات : وفى نسخة ليدن : سكاب ، من غير إعجام مطلقا . ولم نقع لهذا الاسم على ضبط .

أرى شيئاً خيراً من التصحيح وقَشْر العصا[١]، وليس أفعلَ[٢]. فإن التمستَ لى عذراً، فهو أرْوَحُ لقلبك، وإنْ لم تفعل، فهو شرٌّ لك.

* * *

وضاق الفَيْضُ بنُ يزيدَ ضيقاً شديداً، فقال: والله ما عندنا من شيء نُعوِّلُ عليه. وقد بلغ السكينُ العظمَ[٣]. والبيعُ لا يكون إلّا مع طول المدّة[٤]. والرأىُ أنْ نُنْزِلَ هـذه النائبةَ بمحمد بن عبّاد[٥]، فإنه يعرِفُ الحـالَ، وصحّةَ المعاملة، وحسنَ القضاء، وما لنـا من السَّبَب المنتظر[٦]. فلو كتبتُ إليه كتابا لسرّه ذلك، ولسدّ منّا هذه الخَلّة[٧] القائمة الساعةَ.

فتناول القلَم والقِرطاسَ ليكتب إليه كتابَ الواثِق المُدِلّ، لا يشكُّ أنّه سيتلقّ حاجتَـه، بمثل ما كان هو المتلقّ لها منه — ومضى بعضُ من كان فى المجلس إلى محمّد بن عبّادٍ، ليُبشّره بسرعة ورود حاجة الفيض إليه. فأتاه[٨] أمر لا يقوم به[٩]. فأمر بالكتابة إليـه ليشغَلَه بحاجته إليه[١٠]، عن حاجته إليه.

---

(١) وليس الخ، يحكى الجاحظ لغـة الرجل، كما هو دأبه كثـيرا. والصواب: ولست أرى. وقوله: من التصحيح، معناه: من إبداء الأمر على وجهـه الصحيح، خاليا من المواربة والختل والاعتذار الكاذب. وأما (قشر العصا)، فقد جاء فى الأساس: وقشرت له العصا: أبديت له ما فى ضميرى. (٢) (أفعل): اسم تفضيل، أى أعظم تأثيرا من ذلك. (٣) مثل يضرب لما جاوز الحد. (٤) يريد أن بيع ما عنده من الغلة لا يتم فيه قبض الثمن إلا بعد مدة طويلة. (٥) ذكره الجاحظ فى (البيان والتبيين) فقال: كاتب زهير، ومولى بجيلة، من سبى دابق. وكان شاعرا راوية، وطلابة للعلم علامة. (٦) السبب المنتظر: الخير المنتظر من بيع الغلة. (٧) الفقر والحاجة. (٨) الضمير فى (أتاه) يعود إلى محمد بن عباد. (٩) أى لا يستطيع احتماله. (١٠) الضمير فى (إليه) الأولى يعود إلى الفيض. وقوله: «عن حاجته إليه»، أى عن حاجة الفيض إلى ابن عباد. والعبارة فى النسخ محرفة هكذا: «فأتاه أمر لا يقوم لكتابه ليشغله». والتصحيح عن نسخة الشنقيطى.

فكتب إليـــه :

مالى يَضْعُف ، والدَخْلُ قليـل ، والعِيال كثير ، والسِـعْرُ غال . وأرزاقُنا من الديوان قد احتُبِسَتْ . وقد تفتّحت علينا من أبواب النوائب فى هذه الأيام ، ما لم يكن لنا فى حساب . فإن رأيتَ أن تبعثَ إلىّ بمـا أمكنك فعجِّل به ، فإنّا إليه أعظمَ الحاجة .

فورد الكتّابُ على الفيض قبل نفوذ كتابه إليه . فلمّا قرأه استرجع[1] ، وكتب إليه :

يا أخى ، تضاعفتْ علىّ المصيبةُ ، حتى جَمَعَتْ خَلّةَ عِيالك إلى خَلَّة عِيالى . وقد كنتُ على الاحتيال لهم . وسأضطرِبُ فى وجوه الحِيَـل غَيْرَ هـذا الاضطراب[2] . وسأتحرك فى بيع ما عندى ، ولو ببعض الطرح[3] .

فلمّا رجعَ الكتّابُ إلى ابن عَبّادٍ سكَن ، وألقى صاحبَه فى أشدِّ الحركة ، وأتعب التعب .

* * *

وكان رجل من أبناء الحربيّة[4] ، له سخاء وأرْيَحيّة . وكان يُكْثِر من استزارة ابنِ عبّاد ، ويتلِف عليـه من الأموال ، من طريق الرغبة فى الأدباء ، وفى مشايخ الظرفاء . وكان يظنّ بكرمه أنّ زيارتَه ابنَ عبّاد فى منزله زيادةٌ فى المؤانسة . وقد كان بلغه إمساكه ، ولكنّه لم يظنّ أنّه لا حيلة له فى سببه[5] .

فأتاه يوما مُتطرِّئا[6] ، وقال : جئتك من غير دُعاء . وقد رضِيتُ بمـا حضر . قال : فليس يحضُر شىءٌ . وقولُك : (بما حضر) ، لا بدَّ من أن يقع على شىء! قال : فقطعةُ مالِح[7] ، قال :

---

(١) قال : إنا لله و إنا إليه راجعون . (٢) سأكدح وأجد فى طرق الاحتيال ، لكسب الرزق للعيال ، سالكا غير الطـرق التى كنت أسلكها من قبل لأسعفهم . (٣) ولو ببعض الطرح : ولو ببعض الخسارة . (٤) انظر ص ١٤ من هذا الجزء . (٥) الضمير فى (أنه) و (له) يرجع إلى ابن عباد . أى إن هذا الرجل لم يكن يظن أنه فطر على البخل وجبل عليه ، حتى أصبح لا يستطيع التخلص منه لو أراد . (٦) لم نجـد فى مراجعنا (تطرأ) ، بتشديد الراء . فلعلها «طارئا» . والطارئ : القادم بغتة على غير موعد . (٧) أى قطعة من سمك أو لحم مملوح ، أو نحو ذلك . وقد سبق أن تكلمنا على لفظ (مالح) والخلاف فيه .

وقطعةُ مالح ليس هى شىء [(١)] ؟ قال بلَى . فنحن نشرب على الريق [(٢)] ؟ قال : لو كان عندنا نبيذٌ كنّا فى عُرْس [(٣)] . قال : فأنا أبعث إلى نبيذ . قال : فإذا صرتَ إلى تحويل النبيذ ، فحوِّل أيضًا ما يصلُح للنبيذ ! قال : ليس يمنعنى من ذلك ، ومن إحضار النَّقل والرَّيْحان [(٤)] ، إلّا أن أحتسبَ لك هذه الزَّوْرةَ بدعوة [(٥)] . وليس يجوز ذلك إلّا بأن يكون لك فيها أثر .

٥ فقال محمد : فقد انفتح لى بابٌ لكم فيه صلاحٌ ، وليس علىّ فيه فسادٌ : فى هذه النخلة زَوْجُ وَرَشانٍ [(٦)] . ولهما فَرْخان مُدْرِكان . فإن نحن وجدنا إنسانا يصعَدُها — فإنّها سحيقة مُنْجَرِدة [(٧)] — ولم يطيرا — فإنّهما قد صارا ناهضَيْن [(٨)] — جعلنا الواحد طَبَاهَجَة [(٩)] والآخر جَرْدَنَاجًا [(١٠)] ، فإنّه يومُ جَرْدَناج !

فطلبوا فى الجيران إنسانا يصعَد تلك النخلةَ ، فلم يقدروا عليه . فدلُّوهم على أكّار [(١١)] لبعض

١٠ أهل الحربيّة . فما زال الرسولُ يطلبه حتى وقع عليه . فلمّا جاء ونظر إلى النخلة قال : هذه لا تُصعَدُ ولا يُرتَقَى عليها إلا بالتبليا [(١٢)] والبَرَبَنْد [(١٣)] . فكيف أرومها أنا بلا سبب؟ فسألوه أن يلتمس لهم ذلك . فذهب فغَبَرَ مليًا [(١٤)] . ثم أتاهم به . فلمّا صار فى أعلاها ، طار أحدُهما ، وأنْزَلَ الآخَرَ . فكان هو الطَّبَاهَج والجَرْدَنَاج ، وهو الغَدَاء ، وهو العَشاء !

---

(١) (ليس هى شىء) ، يحكى الجاحظ كلام الرجل كما رواه . (٢) يريد بالشرب على الريق أن يكون

١٥ من غير طعام بجانب الشراب . (٣) يريد بالعرس هنا الوليمة ، أى فيما يشبه العرس ، وهو طعام الإملاك .

(٤) النقل ما يؤكل مع الشراب . وقد سبق لنا شرحه . (٥) أى إن الذى يمنعنى من إحضار شىء هو رغبتى فى أن أعد هذه الزيارة وليمة أولمتها لى ، بدعوة منك . (٦) الورشان ، محركة : طائر . وهو ساق حر .

(٧) سحيقة : عالية . و(منجردة) : ملساء ، انجردت عما نتأ عليها من أصول السعف . (٨) ناهضين : قويين على الطيران . (٩) الطباهجة : اللحم المشرح ، قلى على نحو خاص . انظر ص ٥٥ ، ج ١ .

٢٠ (١٠) الجردناج : كلمة فارسية . وهو اللحم يغلى فى الماء قليلا ثم يشوى . وفى النسخ : كردناجا .

(١١) الأكار : الحراث . والمراد به هنا العامل فى المزرعة . وقد سبق لنا تعريفه . (١٢) لم نعثر على معنى لها . وظاهر أنها أعجمية ، وأنها أداة لارتقاء النخل . (١٣) البربند : الحزام يصعد به فى النخل .

(١٤) فغبر مليا : فمكث ساعة طويلة .

* * *

وكتب إبراهيم بن سَيَّابة (١) إلى صديق له يساويه فى الأدب، و يرتفع عليـه فى الحال — وكان كثيرَ المـال، كثيرَ الصامت (٢) — يستسلف منه بعضَ ما يرتفق به ، إلى أن يأتيَه بعضُ ما يؤمَّل . فكتب إليه صديقُه هذا يعتذر و يقول :

إنّ المـالَ مكذوبٌ له وعليه . والناسُ يُضيفون إلى الناس فى هذا الباب ما ليس عندهم . وأنا اليومَ مضيِّق (٣)، وليست الحال كما تحبّ . وأحقُّ من عذَر، الصديقُ العاقلُ .

فلمّا ورد كتابه على ابن سَيَّابة، كتب إليه :

إن كنتَ كاذبا، فجعلك الله صادقا، و إن كنت ملُومًا، فجعلك الله معذورًا .

* * *

قال عَمْرو الجاحظُ : احتجْنا عند التطويل، وحين صار الكتاب طو يلا كبيرًا، إلى أن يكون قد دخل فيــه (٤) من علم العــرب وطعامهم ، وما يتمادحون به، وما يتهاجَوْن به ، شيءٌ و إن قلّ ، ليكونَ الكتاب قد انتظم جُمَلَ هــذا الباب . ولولا أن يخرجَ من مقــدار شهوة الناس (٥)، لكان الخبرُ عن العرب والأعراب، أكثرَ من جميع هذا الكتاب .

* * *

الطعامُ ضروبٌ . والدعوةُ اسم جامع . وكذلك الزَّلَّةُ (٦) . ثم منه العُرْسُ والخُرْس والإعذار والوَكِيرة والنقِيعة . والمأدُبةُ (٧) اسم لكل طعام دُعِيَتْ إليه الجماعاتُ .

---

(١) هو إبراهيم بن سـيابة ، مولى بنى هاشم . كان شاعرا ماجنا خليعا . وقد اختص بمدائحه إبراهيم الموصلى وابنه إسحاق . فكانا يتغنيان بشعره، و يذكرانه للوزراء والخلفاء . فكان يناله من ذلك نفع عظيم . (٢) الذهب والفضة . وقد سبق شرحه . (٣) مضيق : فقير، كما فى الأساس . (٤) أى إلى أن يدخل فيه . (٥) أن يخرج من مقدار شهوة الناس : ألا يكون على ما يشتهون . (٦) الزلة : الصنيع للناس (الوليمة) . (٧) العرس : وليمة الزواج، كما سبق . والخرس : ما يولم عند الولادة . والإعذار : وليمة الختان . والوكيرة : وليمة تقام عند إتمام البناء . والنقيعة : ما نحر من الغنيمة قبـل قسمتها ، أو طعام يصنع للقادم فى سـفر ، أو طعام الرجل ليلة زواجه ، أو كل جزور جزرتها للضيافة فهى نقيعة .

قال الشاعر :

نحن فى المَشْتَاةِ ندعو الجَفَلَى ... لا تَرى الآدبَ فينا يَنْتَقِرْ [١]

وجاء فى الحديث : القرآنُ مأدُبة الله . وقد زعم ناس أنّ العُرْس هو الوليمة ، لقول النبى (صلّى الله عليه وسلّم) لعبدِ الرحمن [٢] : أَوْلِمْ ولو بِشاةٍ [٣] . وكان ابنُ عوفٍ [٤] والأَصْمَعى من بعده يذُمّان عمرَو بنَ عُبَيْد [٥] ، ويقولان : لا يُجيب الولائم ، يجعلان طعامَ الإملاكِ [٦] والإعراسِ والسُبُوع والخِتان وليمةً [٧] . والعُرْسُ معروف . إلا أن المُفَضَّل الضَّبِّيّ [٨] زعم أنّ هذا الاسم مأخوذ من قولهم : لا عطْرَ بعــد عَرُوس . وكان الأَصْمَعىّ يجعــل العَرُوس رجلًا بعينه ، كانَ بَنَى على أهــله فلم تتعطّر له . فَسُمِّىَ بعــدُ لذلك كلُّ بانٍ على أهله بذلك الاسم [٩] . ومثل هــذا لا يثبُت إلّا بأن يستفيضَ فى الشعر، ويظهرَ فى الخَبَر .

---

(١) المشتاة : الشتاء . والجفلى : أن تدعو الناس إلى طعامك دعوة عامة . والآدب : المولم . وينتقر : يدعو النقرى ، وهى الدعوة الخاصة . والبيت لطرفة بن العبد ، كما يأتى . (٢) هو عبد الرحمن بن عوف . وقد سبقت ترجمته فى ص ١٥٠ من هذا الجزء . (٣) أى إن النبى صلى الله عليه وسلم عبر عن العرس بالوليمة ، فقال : «أولم» . وهذا لا يشهد لمن زعم أن العرس الوليمة ؛ فان الحديث يدل على أن الوليمة تشمل العرس ، فهى أعم . ولا يدل على أن العرس يراد به الوليمة عامة ؛ فهو خاص بطعام الاملاك . (٤) هكذا فى نسخة الشنقيطى . وهو عبد الرحمن بن عوف . وفى بعض النسخ : عون . وهو تحريف . (٥) هو أبو عثمان عمرو بن عبيد البصرى ، شيخ المعتزلة فى عصره . كان من مشهورى الزهاد والعلماء . وفيه قال المنصور العباسى : (كلكم يطلب صيد ، غير عمرو بن عبيد) . وله كتب . منها (التفسير) و (الرد على القدرية) . ولما توفى سنة ١٤٤ هـ ، رثاه المنصور . ولم يسمع بخليفة رثى من دونه سواه اهـ ملخصا من (الأعلام) . (٦) الاملاك : الزواج أو عقد الزواج . وأعرس بامرأته : دخل بها . وعرّس : عمل عرسا . والسبوع : لغة فى الأسبوع . (٧) وهذا هو الرأى المشهور فى اللغة . وهو أن لفظ الوليمة عام يطلق على كل طعام يتخذ لجمع . ويرى ابن فارس أن الوليمة طعام العرس .

(٨) هو المفضل بن محمد بن يعلى الضبى ، أبو العباس . راوية ، عالم بالأدب ، من أهل الكوفة . لزم المهدى العباسى ، فصنف له كتابه (المفضليات) . ومن كتبه : (الأمثال) ، و (معانى الشعر) ، و (الألفاظ) . توفى سنة ١٦٨ هـ . اهـ من (الأعلام) . (٩) يروى المثل : لا مخبأ لعطر بعد عروس . قال المفضل : عروس هاهنا : اسم رجل تزوج امرأة . فلما أهديت له وجدها تفلة [تفلة الريح ، لترك الطيب والأدهان] . فقال : أين عطرك ؟ فقالت : خبأته . فقال : لا مخبأ لعطر بعد عروس . وعبارة الجاحظ مضطربة .

وأمّا الخُرْس فالطعام الذى يُتَّخَذُ صَبيحةَ الولادة للرجالِ والنساء . وزعموا أنّ أصلَ ذلك مأخوذ من الخُرْسة . والخُرْسةُ طعام النُفَساء . قالت جارية ولدت حين لم يكن لها من يخدُمها و يمارِس لهـا ما يُمَـارَسُ للنفساء : تخرّسِى، لا مُخَرِّسَةَ لك .

وفى الخُرْسة يقول مُساوِر الورّاق [1] :

إذا أَسَـدِيّةٌ ولدتْ غـلامًا ... فبشِّـرْها بلؤم فى الغُـلامِ

تخرِّسهـا نسـاءُ بنى دُبَـيْرٍ [2] ... بأخبثِ ما يجِدْن من الطعـامِ

وقال ابن قَمِيئَة [3] :

شَـرُّكم حاضـرٌ وخيْرُكم دَ ... رُّ خَرُوسٍ من الأرانب بِكْرِ [4]

فالخَروس هى صاحبة الخُرْسة [5] .

والإعْذارُ طعامُ الختان . يقال : صبىٌّ معذور، وصبىٌّ مُعْذَرٌ، جميعاً . وقال بعض أصحاب النبىّ (صلّى الله عليه وسلّم) ، وهو يريد تقارُبَهم فى الأسنان : كنّا إعذارَ عام واحد [6] .

وقال النابغـــةُ :

فنُكِحْن أبكـارًا وهنّ بإمّةٍ ... أعْجَلْنَهُــنّ مَظِنّــةَ الإعْــذارِ [7]

فزعموا أنهم سَمَّوْا طعامَ الإعذار بالإعذار، للملابسة والمجاورة .

(١) هو مساور بن سوار بن عبد الحميد . شاعر كوفى، من رواة الحـديث . روى عن طائفـة من التابعين . وروى عنه كثير من أصحاب الحديث . (٢) دبير : أبو قبيلة من أسـد . (٣) أى يصف قوما بقلة الخير . وهو عمرو بن قميئة بن سعد البكرى . من فحول الشعراء الجاهليين . و يعد من شـعراء الطبقة الثانية . توفى نحو سنة ٥٦٠ م . (٤) أى خيركم قليل، فهو لبن أرنب عند أول ولادة لها . (٥) فيقـال : هى البكر فى أول حملها . و يقال : هى التى يعمل لها الخرسة . (٦) فى اللسان : أى ختنا فى عام واحد . وكانوا يختنون لسن معلومة، فيما بين عشر سنين وخمس عشرة . (٧) الإمة : الخير والخصب ونضارة العيش . أى إن هؤلاء البنات زوجن أبكارا وقد كن فى نعمة و رفاهية . وقد أعجلت الأمهات تزويجهن وهن فى مظنة الاعذار . ومظنة الشىء : موضعه ومألفه الذى يظن كونه فيه . والمراد هنا وقت الاعذار . ووقت الاعذار من السنة السادسة إلى الخامسة عشرة .

***

كان الأصمعىُّ يقول: قد كان للعرب كلام على معان . فإذا ابتُذلت[١] تلك المعانى، لم تُتكلّم بذلك الكلام . فمن ذلك قول الناس اليومَ : ساق إليها صَدَاقها . و إنّما كان هذا يقال حين كان الصداق إبلاوغنما . وفى قياس قول الأصمعىّ أنّ أصحابَ التمر الذين كان التمر دِيَاتِهم ومهورَهم، كانوا لا يقولون : ساق فلان صَداقه . قال : ومن ذلك قول الناس اليومَ : "قد بنَى فلانٌ البارحةَ على أهله". و إنّما كان هذا القول لمن كان يضرب على أهله فى تلك الليلة قُبّتَه وخَيْمتَه . وذلك هو بناؤه .

ولذلك قال الأوّل :

لو نزَلَ الغَيْثُ أبْنَيْنَ امرأً كانت له قُبَّـةٌ ، سَحْقَ بِجَادْ[٣]

وكان الأصمعىّ يَعُدّ من هذا أشياءَ ليس لذكرها هاهنا وجه .

***

ومن طعامهم الوَكِيرةُ . وهو طعام البناء . كان الرجل يُطعِم من يَبنِى له . و إذا فرغ من بنائه تبرّك بإطعام أصحابه ودعائهم .

ولذلك قال قائلُهم :

خيرُ طعامٍ شهِد العشيرهْ العُرْسُ والإعذارُ والوَكِيرهْ

---

(١) لم نجد «ابتذل» فى المعجمات . ولعلها (تبدّلت) . و يجوز أن يكون (ابتدلت) محرفة عن (ابتذلت) بالذال المعجمة ، أى أهملت ولم تصن . (٢) كان الأصمعى يرى أن التراكيب التى وضعت لمعان فى صورة تناسب الحياة العربية البدوية ، يجب إهمالها عند تبدّل أحوال هذه الحياة . ولم يقبل الجاحظ هذا الرأى ، كما يفهم مما يأتى . (٣) رواية اللسان : لو وصل الغيث . وأبنيت فلانا بيتا : إذا أعطيته بيتا يبنيه ، أو جعلته يبنى بيتا . قال ابن السكيت : قوله : لو وصل الغيث : أى اتصل الغيث ، لأبنين امرأ سحق بجاد ، بعد أن كانت له قبة . يقول : يغير [أى الخيل] عليه ، فيخربه ، فيتخذ بناء من سحق بجاد ، بعد أن كانت له قبة أدم . بجملة (كانت له قبة) صفة لامرئ . وسحق مفعول به ثان لأبنين . والسحق : البالى من الثياب ، الخلق . والبجاد : كساء مخطط . والجاحظ يسوق هذا الشاهد فى استعمال البناء فى إقامة الخيمة ، لا فى معنى الزواج .

ويسمّون ما يَنحرون من الإبل والجُزُر من عُرْض المغنَم النَّقيعةَ (١) .

قال الشاعر :

إنّا لنضرِبُ بالسيوف رءوسَهم ضَرْبَ القُدارِ نَقيعــةَ القُــدّام (٢)

والعَقيقــةُ دَعوةٌ على لحم الكبش الذى يُعَقّ عن الصَّبىّ (٣) . والعقيقةُ اسمٌ للشَّعْر نفســه .

والأشـعار هى العقائق . وقولُهم : عُقُّوا عنــه ، أى احلقوا عَقيقته . ويقولون : عُقّ عنه ، ٥

وعُقّ عليه . فسُمّىَ الكبشُ — لقرب الجوار وسبب المتلبِّس — عَقيقةً . ثم سَمَّوْا ذلك الطعامَ

باسم الكبش (٤) .

وكان الأصْمعىُّ يقول : لا يقولَنّ أحدكم : أكلت مَلّة ، بل يقول : أكلتُ خُبْزةً .

وإنّمــا المَلّة موضعُ الخبزة (٥) . وكذلك يقول فى الراوية والمزادة ، يقول : الراوية هو الجمــلُ (٦) .

وزعموا أنّهم اشتقُّوا الراويةَ للشعر من ذلك (٧) . ١٠

* * *

فأمّا الدعاءُ إلى هذه الأصناف ، فمنه المذمومُ ، ومنه الممدوحُ . فالمذموم النَّقَرى ، والممدوحُ

الجَفَلَى . وذلك أنّ صاحب المأدُبة وولىّ الدعوة ، إذا جاء رسولُه ، والقوم فى أَحْوِيَتهم (٨) وأنديتهم ،

(١) من عرض المغنم : من جانبه قبل القسمة . (٢) قائله مهلهل . والقدار : الجزار . والقدام : القادمون من سـفر . وقد ساق الجاحظ هـذا البيت شاهـدا على أن النقيعة ما ذبح من إبل الغنيمة . والأولى أن يساق شاهدا على الطعام يصنع للقادم من سفر . (٣) يعق عن الصبى : يذبح عنـه حلق شعره . ١٥

(٤) ملخص كلامه أن العقيقة فى الأصل اسم للشعر الذى يولد به المولود . ثم صارت اسما للكبش الذى يذبح عند حلق شـعر المولود . وهذا مجاز علاقته المجاورة الذهنية . ثم اطلقت العقيقة على الدعوة على لحم الكبش ، الذى يذبح لحلق شعر الصبى . وقوله : وسبب المتلبس ، أى المتلبس بالحـدث هنا ، وهو الكبش المتلبس بالذبح .

(٥) الملة : الرماد الحار والجمر . وقد كانوا يطلقونها على الخبز مجازا ، لعلاقته السببية ، لأنها تنضجه . يعنى أن الأصمعى لم يكن يسيغ هـذا المجاز . (٦) يقول الأصمعى : إن أصل معنى الراوية الجمل الذى يحمل الماء ، فاستعمالها فى الوعاء الذى يوضع فيه الماء ليس استعمالا أصليا . (٧) أى على ضرب من التشبيه . فالجمل الذى يحمل الماء يغذى الجسم . والراوى الذى يروى الشعر يغذى النفس . (٨) الأحوية (جمع حواء) : جماعة البيوت إذا تدانت . وفى بعض النسخ : أخويتهم . وهو تحريف . ٢٠

فقال : أجيبوا إلى طعام فلان . فجعلهم جُفْلَةً[1] واحدة ، وهى الجُفالة[2] . فذلك هو المحمودُ .
وإذا انتقر فقال : قُم أنت يا فلانُ، وقم أنت يا فلان، فدعا بعضًا وترك بعضا، فقد انتقر .

قال الهُذَلىّ :

وليلةٍ يَصطلى بالفَرْثِ جازرُها ‏ ‏ ‏ يَخُصّ بالنَقَرى المُثْرِينَ داعيها[3]

يقول : لا يدعو فيها إلّا أصحابَ الثروة وأهلَ المكافأة . وهذا قبيح .

وقال فى ذلك بعضُ ظرفائنا :

آثَـرَ بالجَـدْى وبالمائدهْ ‏ ‏ ‏ من كان يرجو عنـده الفائدهْ

لو كان مَكُّوكانِ فى كفِّـه ‏ ‏ ‏ من خَرْدل ما سقطَتْ واحدهْ[4]

وقال طَرَفَةُ بن العبد[5] :

نحن فى المَشْتاةِ ندعو الجَفَلَى ‏ ‏ ‏ لا تَرَى الآدِبَ فينا يَنْتَقِرْ

ولما غزا بسطامُ بنُ قيس الشَّيْبانىُّ مالكَ بنَ المُنْتَفِق الضَّبّىّ، وأثبتَـهُ عاصمُ بنُ خليفَـة الضبى[6]، شدّ عليه فطعنه وهو يقول :

هـذا وفى الجَفْلةِ لا يدعونى *

(١) فى اللسان : وأخذت جفلة (بضم فسكون) من صوف ، أى جزة (بضم الجيم) اهـ . فقوله : فجعلهم جفلة ، أى مجتمعين كجزة الصوف . (٢) الجفالة : الجماعة من الناس . (٣) الفرث : ما فى الكرش من قذر .

(٤) المكوك : مكيال لأهل العراق يسع نصف ويبة . (انظر اللسان والقاموس وشرحه) . وحب الخردل صغير جدا . فهو يصف الرجل بشدة الحرص والبخل . وهـذا يشبه ما وصف به أبو الحارث جمين محمـد بن يحيى . راجع ص ١٣١ ، ج ١ (٥) هو أبو عمرو، طرفة بن العبد بن سفيان البكرى الوائلى . شاعر جاهلى من الطبقة الأولى . وأشهر شعره معلقته التى مطلعها : (لخولة أطلال ببرقة ثهمد) . وأخباره مفصلة فى كتب الأدب . توفى نحو سنة ٦٠ ق . هـ . وقد تقدم شرح بيته هذا . (٦) اختلف الرواة فيمن قتل بسطام بن قيس . فمنهم من يرى أن قاتله مالك بن المنتفق . وتبع هؤلاء صاحب القاموس . وبعضهم يرى أن قاتله عاصم بن خليفة الضبى . وهو رأى الجاحظ هنا ، ورأى المبرد فى الكامل . وقوله : وأثبته عاصم بن خليفـه : يعنى عرفه حق المعـرفة من بين المقاتلين . وبسطام بن قيس يكنى أبا الصهباء . سيد شيبان ، ومن أشهر فرسان العرب فى الجاهلية . يضرب المثل بفروسيته . أدرك الإسلام ولم يسلم . قال فى (الأعلام) : وقتله عاصم بن خليفة الضبى يوم الشقيقة (بعد البعثة النبوية) . قتل نحو سنة ١٠ ق . هـ . وأما عاصم ابن خليفة الضبى ففارس جاهلى . أدرك الإسلام . وسكن البصرة وكان شاعرا مخضرما . توفى نحو سنة ٣٠ هـ .

ويروى : فى الحَفْلَة لا يدعونى . كأنّه حقد عليه، حين كان يدعو أهل المجلس ويدعُه .

* * *

والطعـامُ المذمومُ عنـدهم ضَرْبانِ : أحدُهما طعـامُ المجَاوع(١) والحُطَمات(٢)، والضَرائك(٣) والسَّبارِيت(٤)، واللئام(٥) والجُبَناء، والفقراء والضعفاء . من ذلك : الفَثّ(٦) والدُّعاع(٧) والهَبيد(٨) والقُرامة والقُرّة والعُسوم(٩) ومُنقع البَرَم(١٠) والقَصِيد(١١) والقَدّ(١٢) والحيّاتُ .

فأمّا الفَظُّ فإنّه وإن كان شرابا كريها، فليس يدخل فى هذا البـاب . وكذلك المجْدوح .

فأمّا الفَظُّ ، فإنّه عُصارة الفَرْث ، إذا أصابهـم العطشُ فى المفاوز . وأمّا المجدوح ، فإنّهـم إذا بلغ العطشُ منهم المجهودَ، نحروا الإبلَ، وتَلَقَّوْا أَلْبابهـا(١٣) بالجفان، كى لا يضيعَ مِنْ دِمائها شيءٌ . فإذا بَرَد الدمُ ضربوه بأيديهم ، وجَدحوه بالعيدان جَدْحا(١٤) حتى ينقطع ، فينعزلَ ماؤه من ثُفْله، كما يخلُصُ الزُبدُ بالمَخيض(١٥)، والجُبنُ بالإنفحة(١٦)، فيتصافنون(١٧) ذلك المـاءَ، ويتبلغون به، حتى يخرجوا من المفازة .

---

(١) المجاوع : جمع مجاعة . (٢) الحطمة : السنة الشديدة الجدب . (٣) الضريك (كأمير) : الفقير اليابس الهالك سوء حال . والأنثى ضريكة : والجمع ضرائك وضركاء . (٤) السبروت (بضم فسكون) والسبريت (بكسر فسكون) : المحتاج المقل والمفلس . (٥) يقصد بهم هنا الأشحاء . (٦) الفث : نبت يختبز حبه ويؤكل فى الجدب . وتكون خبزته غليظة كخبزة الملة . (٧) الدعاع : جمع دعاعة : حبة سوداء يأكلها فقراء البادية إذا أجدبوا . (٨) الهبيد : الحنظل يكسر ويستخرج حبه ، وينقع لتذهب مرارته ، ويتخذ منه طبيخ يؤكل عند الضرورة . (٩) جمع عسم ، وهو الخبز اليابس . (١٠) البرم : جمع برمة ، وهى ثمرة العضاه أو السلم . والسلم هو العضاه ، كما فى المصباح . وفى اللسان : والعضاه من الشجر : كل شجر له شوك ... الواحدة : عضاهة . (١١) القصيد : اللحم اليابس . (١٢) القـد : جلد السخلة . وفى اللسان : وفى حديث عمـر رضى الله عنه : كانوا يأكلون القـد . يريد جلد السخلة فى الجدب اهـ . والسخلة تطلق على الذكر والأنثى من أولاد الضأن والمعز ساعة تولد ، كما فى المصباح . وما لم يفسر هنا قد فسره الجاحظ فيما يلى .

(١٣) الألبـاب : جمع لبب (كسبب) ، وهو المنحر . وفى النسخ : ألبانهـا . وهو تحريف ظاهر . ومعنى (تلقوا ألبابها بالجفان) : أسرعوا بوضع الجفان عند ألبابها . انظر أيضا ما جاء فى معنى (المجدوح) فى لسان العرب .

(١٤) الجدح : تحريك السائل بأداة تخوضه ، كما يجدح اللبن . (١٥) هكذا فى النسخ . ونظن أنه محرف عن (بالمخض) . فالباء للآلة . ويرجحه قوله : بالإنفحة . إلا أن تكون الباء بمعنى (فى) : أى فى اللبن المخوض .

(١٦) الإنفحة : شىء أصفر يخرج من بطن الجدى الرضيع ، يغلظ به اللبن . (١٧) يتصافنون : يتقاسمون .

وقال الشاعر :

لم تأكل الفَثَّ والدُّعَاع ولم ... تجنِ هَبِيداً يجنيه مهتَبِدُ

وقال أميةُ بنُ أبي الصَّلْت[1] :

ولا يتنازعون عِنان شِرْكٍ ... ولا أقواتُ أهلهم العُسُومُ[2]

ولا قَرْنٌ يُقزَّزُ من طعام ... ولا نَصَبٌ ولا مَوْلًى عديم[3]

وقال معاوية بن أبي رَبيعةَ الجَرْميُّ في القُرَّة[4] ، وهو يُعيِّر بني أسد وناسا من هَوازِنَ ، وهما ابنا القَمَلِيَّة[5] :

ألم تر جَرْما أنجدت وأبوكم ... مع الشَّعر في قصّ الملبَّد شارعُ[6]

إذا قُرَّة جاءت يقول : أصب بها ... سوى القمل؛ إنّي من هَوازنَ ضارِع[7]

---

(١) البيتان في صفة أهل الجنة . وهو أمية بن أبي الصلت الثقفي . كان على عهد بعثة النبي صلى الله عليه وسلم . وكان قد نظر في كتب الأوائل ، وتعبد لإله إبراهيم و إسماعيل ، وحرم الخمر ، وشك في الأوثان . قيل إنه طمع في النبوة . فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم حسده . ولما كانت وقعة بدر ، أخذ يحرض قريشا ، و يرثي قتلاها المشركين . وكان شاعرا مفوها . قيل عنه : إنه أشعر أهل المدر . قال الأصمعي : ذهب أمية في شعره بعامة ذكر الآخرة . توفي سنة ٥ هـ ، على قول من أقوال . (٢) وفي بعض النسخ : (عناق شول) . والعناق : الأنثى من أولاد المعز قبل استكمالها الحول . والشول : الإبل جفت ألبانها . مفرده شائلة . وقد استعملها فيما قل لبنها من المعز . ولعل هذه الرواية أشبه بموضوع البيتين . (٣) كان العرب يأكلون القرون في الجدب . انظر ص ١٣٢ ، ج ١ . و (يقزز) : ينفر . والعديم : الفقير . (٤) أسد بن خزيمة : أبو قبيلة من مضر . وهوازن : قبيلة من قيس . وهو هوازن بن منصور بن عكرمة بن حفصة بن قيس عيلان . (٥) امرأة قلية (بالتحريك) : قصيرة جدا . و يظهر أن هذا الوصف غلب عليها . (٦) هذه رواية الجاحظ في (كتاب الحيوان) . وهي أجلى من غيرها وأظهر . يقول : إن جرما أصبحت ذات مجد . وأبوكم ملازم الشعر الملبد بالدقيق ، وهو شارع في قصه . وجرم : بطن في طيء . ويروى : أنجدت . (٧) أي إذا جاءت القرة يقول لآكل : كل منها ما سوى القمل ؛ إني ذليل أنتسب إلى هوازن . ولتوضيح المقام ننقل ما جاء في اللسان قال : قال ابن الكلبي : عيرت هوازن و بنو أسد بأكل القرة . وذلك أن أهل اليمن كانوا إذا حلقوا رءوسهم بمنى ، وضع كل رجل على رأسه قبضة (بضم فسكون) دقيق . فإذا حلقوا رءوسهم ، سقط الشعر مع ذلك الدقيق . ويجعلون ذلك الدقيق صدقة . فكان ناس من أسد وقيس يأخذون ذلك الشعر بدقيقه ، فيرمون الشعر و ينتفعون بالدقيق اهـ .

والقُرامةُ نُحاتة القُرون والأظلاف والمَناسِم وبُرادتُهـا . والعِلْهِزُ القِرْدانُ، ترضّ وتعجن بالدمِ[1] . والقُرَّةُ الدقيقُ المختلطُ بالشَّعرِ . كان الرجل منهم لا يحلق رأسه إلّا وعلى رأسه قُبْضةٌ من دقيق، للأكل . فهو مَعيب .

وفى أكل الحيّات يقوله ابنُ مُناذر[2] :

فإيّاكُمُ والرِّيفَ لا تَقْــرَبُنَّهُ ... فإنّ لديه الحَيْفَ[3] والموتَ قاضِـيَا

وهمْ طـردوكم عن بلاد أبيكُمُ ... وأنتم حُــلولٌ تشتُوون الأفاعيـا

وقال القَطاميُّ[4] فى أكلهم القَدّ :

تَضيّفتُ فى طــلٍّ وريحٍ تَلُفُّنى ... وفى طِرْمِساءَ[5] غيرِ ذاتِ كواكبِ

إلى حَيْزَبونٍ[6] تُوقد النـارَ بعـــد ما ... تلفّعت الظلمـاءُ من كلّ جانبِ

فسـلّمتُ ، والتَّسْـليمُ ليس يسرُّها ... ولكنّـه حقّ على كلّ جائِبِ[7]

فلمّـا تنازعنا الحـديثَ سألتُها : ... مَنِ الحيُّ؟ قالت : معشرٌ من مُحارِبِ[8]

---

(١) فى اللسان : العلهز: وبر يخلط بالدم، ويؤكل فى المجاعات . وكانوا يخلطون فيه القردان اه . والقردان : جمع قراد (كغراب) . وهو دويبة تكون فى وبر الإبل . وقوله : والعلهز القردان الخ ، أخبر عن العلهز بأنه القردان الخ ، وأغفل الوبر؛ لأن القردان كانت أهم ما يعتمدون عليه فى العلهز من حيث الغـذاء ، كما يظهر لنا .

(٢) قال فى القاموس : وابن مناذر، ويضم فيصرف : شاعر بصرى؛ لأنه محمد بن المنذر بن المنذر . وفى الأغانى : إنه إذا قيل له ابن مناذر (بفتح الميم) يغضب . ثم يقول : أمناذر الصغرى أم مناذر الكبرى ؟ وهما كورتان من كور الأهواز . إنما هو مناذر، على وزن مفاعل (بضم الميم)، من ناذر، فهو مناذر، مثل ضارب، فهو مضارب، وقاتل، فهو مقاتل اه .

(٣) وفى بعض النسخ : الحتف .

(٤) هو عمير بن شييم القطامى . شاعر غزل مجيد . ولكنه مقل . نصرانى، فى الدولة الأموية . ويروى أنه أسلم . مات سنة ١٠١ هـ .

(٥) رواية العقد : " تضيفت " . وفى النسخ : تعممت . والطرمساء : الظلمة . وقد يوصف بها فيقال : ليلة طرمساء .

(٦) الحيزبون : العجوز والسيئة الخلق . وتلفعت الظلماء : التحفت بلفاعها الأسـود .

(٧) جائب : سار فى الليل ، أو قاطع للفلاة .

(٨) محارب : قبيلة من فهر (بكسر فسكون) .

من الْمُشْتَوِينَ القِدَّ فى كلّ شَتْوةٍ … وإن كان ريفُ الناس ليس بناضِبِ (١)

وقال الراعى (٢) :

بَكَى مُنْذِرٌ من أن يُضاف وطارقٌ … يشدّ من الجوع الإزارَ على الحَشَا (٣)

إلى ضوء نار يَشْتوِى القِدَّ أهلُها … وقد تُكْرَمُ الأضيافُ والقِدُّ يُشْتَوَى

وقد يضيّقونَ فى شراب غير المجدوح والفظّ ، فى المَغَازى والأسفار (٤) ؛ فيمدحون من آثر صاحبه ، ولا يذمّون من أخذ حقّه منه ، وهو ماء المُصافنة . والمُصافنةُ مُقاسمةُ هذا الماء بعينه . وذلك أنّ الماء إذا نقص عن الرىّ ، اقتسموه بالسواء . ولم يكن للرئيس ولا لصاحب المِرْباع (٥) والصَّفِىّ (٦) وفُضولِ المَقَاسِم (٧) فضلٌ على أخسّ القوم . وهذا خُلُقٌ عامٌّ ومَكْرُمة عامّة فى الرؤساء .

قال الفــرزدق (٨) :

فلمّا تصافنّا الإداوةَ أجْهَشَت … إلىّ غُضُونُ العنبرىّ الجُراضِمِ (٩)

على ساعةٍ لو أنّ فى القوم حاتِمًا … على جوده ضنّتْ به نفسُ حاتم (١٠)

(١) الريف هنا : الخصب والسعة فى المآكل . و (ناضب) : من نضب الخصب : أى قل ، كما فى القاموس . ورواية (العقد) : ليس بناضب .

(٢) هو عبيد بن حصين النميرى . وقد غلب عليه هذا اللقب لكثرة وصفه للإبل . وكان راعيا لها . وهو من أهل بادية البصرة . عاصر جريرا والفرزدق . وكان يفضل الفرزدق ، فهجاه جرير هجاء مرا . توفى سنة ٩٠ هـ .

(٣) بكى منذر من أن يضاف عند قوم كرام لا يستطيعون ضيافته لفقرهم .

(٤) أى يقلون اقتصادا ، فى شراب غير المجدوح الخ ، أى كما كانوا يضيقون فيهما ، كما علم مما سبق .

(٥) صاحب المرباع : الرئيس الذى يأخذ ربع الغنيمة فيها ، كما علم مما سبق .

(٦) الصفى : ما يصطفيه الرئيس من الغنيمة .

(٧) المقاسم : جمع مقسم (كمنبر) . يقال : قسمت الشىء بين الشركاء ، وأعطيت كل شريك مقسمه ، كما فى اللسان . وفضول المقاسم : ما لا يستطاع تقسيمه ويختص بها الرئيس .

(٨) سبق التعريف به فى ص ٩٦ من هذا الجزء .

(٩) الإداوة : وعاء الماء — وأجهشت : نهضت وهمت بالبكاء . وفى الحديث : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان بالحديبية ، فأصاب أصحابه عطش . قالوا : فجهشنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكذلك الإجهاش اهـ من اللسان . والغضون : مكاسر الجلد فى الجبين . و (العنبرى) : المنسوب إلى العنبر : أبو حىّ من تميم . قال ابن سيده : هو العنبر بن عمرو بن تميم اهـ من اللسان . والجراضم : الأكول . يقول : فلما تقسمنا الماء أجهش إلى صاحبى العنبرى متضرعا ، لشدة ما به من العطش . وزاد فى حدة عطشه أنه أكول .

(١٠) سبق هذا البيت فى رسالة أبى العاص بن عبد الوهاب . غير أن الشطر الأول هناك هكذا :

* على ساعة لو كان فى القوم حاتم *

وبذلك المذهب من الأَثَرة[1] ، مَدح الشاعرُ كعبَ بنَ مَامةَ ، حين آثر بنصيبه رفيقَه النَّمَرِىَّ ، فقال :

ما كان من سُوقةٍ أسقَى على ظمإٍ   خمرًا بماءٍ إذا ناجُودها بَرَدَا[2]

من ابنِ مامةَ كعبٍ ، ثم عَىَّ به   زَوُّ المنيّة ، إلّا حَرّةً وقَدَى[3]

أَوْفَى على الماء كعبٌ ، ثم قيل له :   رِدْ كعبُ ، إنّك ورّادٌ ، فما وردا

وفى المصافنة يقول الأسَدىّ[4] :

كأنّ أُطَيطًا يابنةَ القوم لم يُنِخْ   قلائصَ يَحْكِيها الحَنِىُّ المُنَقَّحُ[5]

ولم يسقِ قومًا فارسىٌّ على الحَصَى   صُبابَ الأَدَاوَى والمطيّاتُ جُنَّحُ[6]

ويزعمون أنّ الحصاة التى إن غمرها الماء فى الإناء كانت نصيبَ أحدهم ، تسمّى المَقْلَةَ[7] . وهذا الحرفُ سمعته من البغداديّين . ولم أسمعْه من أصحابنا[8] . وقد برِئتُ إليك منه .

---

(١) الأثرة هنا : اسم مصدر من الإيثار ، كما قررنا ذلك فيما سبق . (٢) السوقة : الناس غير الملك . والناجود : إناء الخمر . أى لم يكن من الناس من هو أسقى خمرا ممزوجة بماء عند ظمئهم من كعب . والأبيات لمامة الإيادى أبى كعب . كذا ذكره السيرافى . (٣) عى به : عجز . وزوّ المنية : أحداثها . والحرة : حجارة سود . وقدى بفتح الواو والقاف : أى متوقدة . والمعنى : عجزت أحداث المنية عن إهلاكه ، إلا حجارة ملتهبة شديدة الحرارة ، فقد قضت عليه . (٤) هو عبد الله بن فضالة بن شريك الوالبى الأسدى . كان من شعراء بنى أسد الفحول . وكان خطيبا مصقعا ، ومتكلما لسنا مفوها . (٥) أطيط : اسم رجل . والقلائص : جمع قلوص ، وهى من الإبل : الشابة ، أو القادرة على السير . والحنى : القوس . والمنقح : المشذب المسوى . (٦) الصباب والصبابة : بقية الماء فى الإناء . والأداوى : جمع إداوة ، وهى وعاء الماء ، كما سبق . وجنح : جمع جانحة ، وهى الناقة الباركة إذا مالت على أحد شقيها . (٧) فى اللسان : المقلة : حصاة القسم ، توضع فى الإناء ليعرف قدر ما يسق كل واحد منهم . وذلك عند قلة الماء فى المفاوز . ومقال المقلة : ألقاها فى الإناء . وفى حديث على : لم يبق فيها إلا جرعة كجرعة المقلة . فالكلمة واردة فى كلام على بن أبى طالب . فهى عربية صحيحة . (٨) المراد بالحرف الكلمة ، وهى المقلة . وقوله : من أصحابنا : يعنى البصريين .

وقال ابن جَحْوَش[١] فى المصافنة :

ولمّا تعاوَرْنا الإداوةَ أجهشتْ ... إلى الماءِ نفسُ العنبرىّ الجُراضمِ[٢]

وآثرتُه لمّا رأيتُ الذى بـه ... على النفسِ، أخشى لاحقاتِ الملاوِمِ[٣]

فجاء بجُلْمودٍ له مثلِ رأسِه ... ليشربَ حظَّ القومِ بين الصَّرائمِ[٤]

✣

وقد يُصيبُ القومَ فى باديتهم ومواضعهم، من الجَهْد ما لم يُسْمَع به فى أمّة من الأمم، ولا فى ناحية من النواحى. وإنّ أحدَهم ليجوعُ حتى يَشُدَّ على بطنه الحجارةَ، وحتى يعتصِمَ بشدِّه معاقدَ الإزارِ[٥]، وينزِعَ عمامته من رأسه، فيشُدَّ بها بطنه، وإنّما عمامته تاجُه. والأعرابىّ يجدُ فى رأسه من البرد إذا كان حاسرًا ما لا يجدُه أحدٌ، لطول ملازمته العمامةَ، ولكثرة طيّها وتضاعف أثنائها[٦]. ولربما اعتمّ بعمامتين. ولربّما كانت على قَلَنْسُوةٍ حَدْرِيّة[٧].

وقال مُصْعَبُ بنُ عُمَيْرٍ الليثىّ[٨] :

سيروا فقد جَنَّ الظلامُ عليكُمُ ... فباستِ امرئٍ يرجو القِرَى عند عاصمِ[٩]

(١) سبق أن نسب البيت الأوّل للفرزدق، بتغيير فى بعض الألفاظ، كما رأيت. وقصته مع العنبرى مشهورة معروفة. وفى الكامل للمبرد، أورد البيتين الأوّل والثالث، ونسبهما إلى الفرزدق، وقص قصته مصافنته العنبرى.

(٢) تعاورنا الإداوة : تداولناها. وغير هذا قد شرحناه آنفا. (٣) (على النفس) متعلق بآثرته. و(الملاوم) : جمع ملامة. ولاحقات الملاوم : من إضافة الصفة إلى الموصوف. (٤) الجلمود : الصخر. و(حظ القوم) : نصيبهم. والصرائم : جمع صريمة، وهى الرملة التى تنقطع من معظم الرمل. يقول : فجاء هذا العنبرى بصخرة كرأسه ليضعها فى الإناء، حتى يشرب نصيب القوم من الماء. وهذا ذم له.

(٥) هكذا فى نسخة الشنقيطى. وفى نسخة ليدن وغيرها : بشدة. ومعاقد الإزار : مواضع عقده. مفرده معقد (كمجلس). (٦) جمع ثنى (بكسر فسكون). (٧) حدرية : منسوبة إلى الحدر، وهو الإرسال من أعلى إلى أسفل العين نازلة على الجبهة. أى فإذا كانت كذلك كان نزعها أعظم تعريضا للابسها للبرد. هذا ما أمكن تخريج اللفظة عليه. وربما كان هذا مما اصطلحوا عليه فى ذلك العصر لمعنى آخر. (٨) هو مصعب ابن عمير بن هاشم بن عبد مناف القرشى. صحابى شجاع. من السابقين إلى الاسلام. وقد شهد بدرا. وحمل اللواء يوم أحد، فاستشهد سنة ٣ هـ. (٩) فى رواية : فسيروا. وقوله : فباست الخ، قال فى الأساس : وتقول : باست فلان : إذا استخففت به. وفى رواية : فباست الذى.

دُفِعْنا إليـه وهو كالذِّيخ خاطيا نشُــدُّ على أكبادِنا بالعمائِم (١)

وقال الراعى فى ذلك :

يَشُبُّ لِرَكْبٍ منهمُ من ورائهـم فكلُّهُمُ أمسَى إلى ضـوئها سَرَى

إلى ضَـوء نارٍ يَشْتَوِى القِدَّ أهلُها وقد تُكْرَمُ الأضيافُ والقِدُّ يُشْتَوى

فلمّـا أناخُوا واشتكَيْنا إليهـمُ بَكَوْا وكلا الخصمين ممّا به بكى (٢)

بكَى مُنْذِرٌ من أنْ يُضافَ، وطارقٌ يشدُّ من الجوع الإزارَ على الحَشَا

ومّما يدلّ على ما هم فيه من الجَهْد، وعلى امتداحهم بالأَثَرة (٣) قولُ الغَنَوِىّ (٤) :

لقــد علمتْ قيسُ بنُ عَيْلانَ أنّنـا نُضارٌ، وأنّا حيث رُكِّب عــودُها (٥)

إذا المـاءُ بعـدَ اليوم يُمْـذَقُ بعضُـه ببعضٍ، ويُبْـلَى شُحُّ نفسٍ وجـودُها (٦)

وأنّا مَقَـارٍ حين يُبْتَكَرُ الغَضَى إذا الأرضُ أمستْ وهى جُدْبٌ جنودُها (٧)

(١) الذيخ : الذئب الجرىء، وذكر الضباع ، وخاطيا : ماشيا . (٢) الخصمان هنا بمعنى الفريقين ، لأن بينهما ما يشبه الخصومة ، وهو التنازع على الطعام . وقد تقـدّم البيتان الثانى والرابع فى ص ١٨٦ . وقد شرحنا البيت الرابع هناك . (٣) الأثَرة : اسم من الإيثار ، كما سبق . (٤) هو طفيل بن عوف بن كعب ، من بنى غنى ، من قيس عيلان . شاعر جاهلى فحل . من الشجعان . وهو أوصف العرب للخيل . عاصر النابغة الجعدى وزهير بن أبى سلمى . توفى نحو سنة ١٣ ق . هـ . اهـ من (الأعلام) . (٥) هو قيس بن عيـلان بن مضر . من عدنان . جدّ جاهلىّ . بنوه عدة قبائل . والنضار : نوع من الخشب صلب ، أو الذهب ، أو الخـالص من كل شىء . وعودها خبر أن . أى : وأننا العود الذى تعتمد عليـه ، حيث ركب ، وحيث وجد . ويصح أن يعرب عودها نائب فاعل (ركب) ، وأن تكون (حيث) خبرا لأن . أى : إنا فى الموضـع الذى تتجمعه وتضرب فيـه خيامها . يعنى أنا متأهبون لنجدتها ، حاضرون لنصرتها . ويحتمل أن يكون معنى : وأنا عودها : وأنا فرعها . فمن معانى العود أنه من الشـجرة ما جرى فيـه المـاء . يعنى : أننا على ما فطـرت عليه من الجود والكرم .

(٦) المذق : خلط اللبن بالماء ولعله يراد بالمـاء هنا اللبن . والابتلاء : الاختبار . (٧) يقال : إنه لمقرى (بكسر فسكون . وكذا مقراء) للضيف . والجمـع مقار . وابتكار الغضى : أخذ باكورته . والغضى : شجر تأكله الإبل . والمراد بجنود الأرض نباتاتها .

وقال فى ذلك العُجَيْرُ السَلُولِىّ (١) :

مِن المُهْدِيات الماءِ بالماءِ بعد ما ... رَمَى بالمقَارِى كلُّ قارٍ ومُعْتِمِ (٢)

وقال آخرُ فى مثل هذا :

لنا إبلٌ يُرْوِينَ يوما عِيالنَا ... ثلاثٌ، فإن يَكثُرْنَ يوماً فأربعُ

تَمُدُّهُمُ بالماءِ لا من هوانِهم ... ولكنْ إذا ما قلّ شىءٌ يُوسَّعُ (٣)

على أنّها يَغْشَى أولئكَ بِيَتْها ... على اللحمِ حتى يذهبَ الشرُّ أجْمعُ (٤)

وقال أبو سعيد الخُدْرِىُّ (٥) : أخذتُ حَجَرًا فعصَبْتُه على بطنى من الجوع، وأتيتُ النبىّ (صلّى الله عليه وسلّم) أسأله . فلمّا سمِعته وهو يخطب (٦) : من يستعِفَّ (٧) يُعِفَّه الله، ومن يستغِنْ يُغْنِه الله. رجعتُ ولم أسأله .

قال أعرابىّ : جُعْتُ حتى سمِعتُ من مسامعِى (٨) دَوِيًّا . فخرجت أُرِيغُ (٩) الصيدَ، فإذا بمغارة، وإذا هو جَرْوُ ذِئبٍ . فذبحتُه وأكلتُه، وادَّهَنْتُ واحتذيتُ .

---

(١) هو العجير بن عبد الله السلولى ، شاعر مقل من شعراء الدولة الأموية .

(٢) لعل المراد بقوله : " الماء بالماء " : اللبن ممزوجا بالماء . والمقارى : الجفان ، مفرده مقراة (بكسر فسكون) . والمراد برمى المقارى عدم استعمالها للجدب . والمعتم هنا : المبطئ فى قرى الضيف .

(٣) أى تمد هذه الابل من تعولهم باللبن ممزوجا بالماء فى أيام الجدب ، لا لهوان شأنهم ، ولكن ذلك يكون عند قلة الخير وامتناعه . وفى نسخة الشنقيطى : (تمدهم) . و(يوسع) رواية (الحيوان) . وقد آثرناها .

(٤) أولئك : إشارة إلى الضيوف . و(يغشى) فى نسخة الشنقيطى . وفى النسخ : تعشى . وهو غير واضح .

(٥) هو سعد بن مالك بن سنان الخدرى الأنصارى الخزرجى : صحابى ، كان من ملازمى النبى صلى الله عليه وسلم . وروى عنه أحاديث كثيرة . غزا اثنتى عشرة غزوة . وله فى الصحيحين (١١٧٠) حديثا . توفى بالمدينة سنة ٧٤ هـ . اهـ من (الأعلام) .

(٦) أى وهو يخطب قائلا .

(٧) يستعف : يعف .

(٨) جمع مسمع (بكسر فسكون) ، وهو الأذن . وتسمى أيضا السامعة .

(٩) أريغ : أطلب .

ولمّـا قدِم المُغيرةُ[1] القادسـيّةَ[2] على سـعدٍ[3] بسبعين من الظَّهْرِ[4]، وعند سـعدٍ ضيقٌ شديدٌ من الحال، نحروها وأكلوا لحومَها، وادَّهنوا بشحومها، واحتذَوْا جلودَها .

وذكر الأصْمعىُّ عن عثمانَ الشحّام[5] . عن أبى رجاء العُطارِدىّ[6] . قال : لمّـا بلغنا أنّ النبىّ (صلّى الله عليه وسـلّم) قد أخذ فى القتل[7] ، هربنا فاشتوينا فخِـذَ أرنب دفِينًا[8] ، وألقينا عليها جمالنا[9] . فلا أنسَى تلك الأكلةَ !

وكان الأَصْمعى إذا حدّث بهذا الحديث قال : نِعْمَ الإدامُ الجوع[10] ، ونِعْمَ شعارُ المسلمين التخفيفُ .

وذكروا عن عبد الملك بن عُمَيْرٍ[11] ، عن رجل من بنى عُذْرَةَ ، قال : خرجت زائرًا لأخوال لى بهَجَرَ[12] . فإذا هم فى بَرْثٍ[13] أحمرَ بأقصَى هجَـر ، فى طُلوع القَمر[14] . فذكروا أنّ أتانًا تعتاد نخلةً ، فترفع يديها ، وتعطُو[15] بفيها ، وتأخذ الحُلْقانَ[16] والمُنْسَبِتَةَ[17] والمُنصِّفَةَ[18] والمعْوَةَ[19] .

---

(١) انظر ص ١٨٢ ، ج ١ . (٢) قرب الكوفة . (٣) هو سـعد بن أبى وقاص الزهرى الصحابى الجليل ، والفاتح العظيم . كان أحد العشرة المبشرين بالجنـة . وولاه عمـر الكوفة . وقاد الجيوش فى حرب القادسـية . أسلم وهو ابن تسع عشرة سنة . ومات سـنة ٥٥ هـ . وأخباره مبسوطة فى تاريخ صـدر الإسلام .

(٤) الظهر : الإبل التى يحمل عليها ويركب . يقال : عنـد فلان ظهر : أى إبل . ومنه الحديث : أتأذن لنا فى نحر ظهرنا : أى إبلنا التى نركبها . ويجمع على ظهران ، بالضم اهـ من اللسان . (٥) ممن كان الأصمعى يروى عنهم . وفى (عيون الأخبار) ج ١ ، ص ١٠٤ ، نادرة رواها عنه أيضا . (٦) من التابعين . ففى القاموس : سـلم بن زرير (كجرير) : مـن تابعى التابعين ، عطاردىّ بصرى ، سمـع أبا رجاء العطاردىّ . وفى اللسان : عطـارد : بطن من تميم ، رهط أبى رجاء العطاردى اهـ . ولأبى رجاء خبر فى (عيون الأخبار) ، ج ٣ ص ١٧٤

(٧) أى أخذ فى تعقب أعدائه وقتلهم . (٨) دفينا ، أى فى الرماد الحار . (٩) أى وأنخنا لأجل ذلك جمالنا . (١٠) لأن الجائع يتلذذ بكل شىء ولو كان المأكول رديئا . (١١) يكنى أبا عمرو . وأصـله من لخم . تولى قضاء الكوفة بعـد الشعبى . وظل فيه سنة . ثم استعفى الحجاج فأعفاه . وكان بليغا راوية ، وشاعرا صاحب أخبار . وكان دميما جدا . توفى سنة ١٣٦ هـ . (١٢) هجر : اسم لجميع أرض البحرين . ومنه المثل : كمبضع تمر إلى هجر . قاموس . (١٣) البرث : الأرض اللينة ، أو الجبل من الرمل السهل ، أو أسهل الأرض وأحسنها . وحمرتها من لون رملها . (١٤) أى إن زيارته إياهم كانت عند طلوع القمر .

(١٥) تعطو : تتناول . (١٦) الحلقـان : البسر إذا بلغ الإرطاب ثلثيـه . الواحدة حلقانة .

(١٧) المنسبتة : الرطبة جرى فيها كلها الارطاب . (١٨) المنصفة : البسرة نصفها أحمـر ، ونصفها أخضر . والفعل لازم . (١٩) المعو : الرطب . والواحدة معوة .

فتنكّبتُ قوسي ، وتقلّدت جَفِيري[(١)] . فإذا هي قـد أقبلتْ . فرميتُها ، فخرّت لفيها . فأدركتُ ، فقوّرتُ سُرّتَها ومَعْرَقَتَها[(٢)] . فقدحتُ نارِي ، و جمعت حطَبَ ، ثمّ دفنتُها[(٣)] . ثم أدركني ما يُدرِكُ الشبابَ من النوم . فـما استيقظتُ إلّا بحرّ الشمسِ فى ظهري . ثم كشفتُ عنها . فإذا لها غَطِيطٌ[(٤)] من الوَدَكِ[(٥)] كتداعى طَيّئٍ[(٦)] وغُطَيْفٍ[(٧)] وغَطَفَانَ[(٨)] . ثم قمتُ إلى الرُّطبِ وقد ضربه بَرْدُ السحر[(٩)] . فجنيتُ المَعْوَةَ والحُلْقَـانَ . فجعلتُ أضـع الشحمةَ بين الرطبتين ، والرطبـةَ بين الشحمتين ، فأظُنُّ الشحمةَ سَمْنَةً ثم سِـلاءة[(١٠)] ، وأحسَبُها من حلاوتهـا شُهْدَةً أحدرُها من الطُّـــور[(١١)] .

* * *

وأنا أتّهم هذا الحديثَ[(١٢)] . لأنّ فيه ما لا يجوزُ أنْ يتكلّمَ به عربىٌّ يعرف مذاهبَ العرب . وهو من أحاديث الهَيْثَم[(١٣)] .

---

(١) الجفير : الجعبة . والمراد جعبة السهام . (٢) المعرقة : اللحم الذى ينبت عليه العرف .
(٣) دفنتها : حفرت لها حفرة ، وجعلت عليها الحطب . وهنا إيجاز : أى ثم أشعله . (٤) صوت تردد نفس النائم . شبه به ما ينبعث فيها من الأصوات ، من فعل النار بلحمها ودهنها . (٥) ما يتحلب من الشحم من دسم . (٦) قبيلة من اليمن ، أبوها طيئ بن أدد (بضم ففتح) بن زيد بن كهلان بن سبأ بن حمير (بكسر فسكون ففتح) . (٧) بنو غطيف : حىّ من العرب ، أو قوم بالشام . (٨) غطفان : حىّ من قيس عيلان . وهو غطفان بن سعد بن قيس عيلان (لسان) . (٩) هكذا فى نسخة الشنقيطى . وفى النسخ الأخرى : الشجر . وهو تحريف ، كما هو ظاهر . (١٠) هكذا فى النسخ . ونظن التاء فى آخرها زائدة . فليست فى المعاجم التى بين أيدينا . وسلأ السمن يسلؤه واستلأه : طبخه وعالجه فأذاب زبده . والاسم السلاء بالكسر . كذا فى اللسان . وقد شرحنا ذلك من قبل غير مرة . (١١) الطور : الجبل حيث بيوت النحل فى الغالب . وأحدرها : أنزلها . وفى المصباح : وحدرت الشىء حدورا ، من باب قعد : أنزلته من الحدور ، وزان رسول ، وهو المكان الذى ينحدر منه اهـ . وفى نسخة الشنقيطى : الطود (بالدال) ، بدل الطور . وهو الجبل أيضا .
(١٢) لعل اتهام الجاحظ هـذا الحديث آت مما فيه من تكلف تبدو فيه الصنعة ، ومن تعمد الاتيان بالغريب .
(١٣) هو الهيثم بن عدىّ الطائى الكوفى ، الراوية النسابة المشهور . وكان يروى الضعيف والمصنوع . وله من الكتب : (كتاب المعمرين) و (النساء) و (طبقات الفقهاء) وغيرها . توفى سنة ٢٠٧ هـ .

*
* *

وقال مَدِينىٌّ لأعرابىّ : أىَّ شىء تَدَعُون ، وأىّ شىء تأكلون ؟ قال : نأكل ما دبَّ ودَرج ، إلا أُمَّ حُبَيْن[١] . فقال المَدِينىّ : لِتَهْنِ أَمَّ حُبَيْنٍ العافيةُ .

وقال الأَصْمَعىّ : تعرّق أعرابىٌّ عظما ، فلمّا أراد أنْ يُلقيه — وله بنونَ ثلاثةٌ — قال له أحدهم : أَعْطِنيه . قال : وما تصنعُ به ؟ قال : أتعرَّقُهُ حتّى لا تجدَ فيه ذَرَّةٌ مَقِيلاً[٢] . قال : ما قلتَ شيئًا ! قال الثانى : أعطِنيه . قال : وما تصـنعُ به ؟ قال أتعرَّقُه حتى لا تدرى ألِعامِهِ ذلك هو أم للعام الذى قبله . قال : ما قلتَ شيئًا ! قال الثالثُ : أعْطِنيـه . قال : وما تصنعُ به ؟ قال أجعله مُخَّةَ إدام[٣] . قال : أنت له !

وقال الآخـــر :

فإنَّك لم تُشْـــبِهْ لَقِيطًا وفعـلَهُ[٤] ... وإن كنتَ أطعمتَ الأُرُزَّ مع التمرِ

وقال الآخـــر :

إذا انغاضَ منها بعضُها لم تجدْ لها ... دَوِيًّا لـمـا قد كان منهـا مُدانيا[٥]

و إن حاولوا أن يَشْعَبُوها رأيتَها ... على الشَّعْبِ لا تزدادُ إلّا تداعِيا[٦]

---

(١) أم حبين : دويبة على قدر الخنفساء ، فى قول ، يلعب بها صبيان العرب ، و يقولون :

أم حبيـن انشرى برديك ... إن الأمير والج عليـك

* وموجـع بسوطه جنبيك *

فتنشر جناحيها . كذا قالوا .

(٢) الذر : صغار النمل . ومقيلا : مكانا تقيل فيه . يريد : موضعا تلتمس فيه غذاء .

(٣) يقصد أنه يضعه فى الماء حتى يغلى ، فيخرج ما يمكن أن يكون فيه من دسم .

(٤) يقصد به لقيط بن زرارة بن عدس الحنظلىّ . من فرسان العرب فى الجاهليـة ، وأجوادهم وساداتهم وشعرائهم . مات نحو سـنة ٥٧ ق . هـ .

(٥) انغاض : نقص . أى : إذا نقص ماء القدر لغليانها ، لم تسمع لها دويا وهى قريبة منك . وذلك لصغرها .

(٦) الشعب : إصلاح ما تكسر من الآنية . والتداعى : التصدّع .

مُعوَّذةُ الإرحالِ لم تُوفِ مَرْقَباً ... ولم تمتط الجُونَ الثلاثَ الأثافيا (١)

ولا اجْتَزَعَتْ من نحو مكّةَ شُقّةً ... إلينا ولا جازت بها العيسُ واديا (٢)

ولكنّها فى أصلها مَوْصِلِيّةٌ ... مجاورةٌ فَيْضًا من البحر جاريا (٣)

أتتنا تُزجِّيها المجاذيفُ نحوَنا ... وتَعْقُبُ فيما بين ذاك المَرَادِيا (٤)

فقلت : لمن هذى القدورُ التى أرَى ... تَهِيلُ عليها الريحُ تُرْباً وسافيا ؟ (٥)

فقالوا : وهل يخفَى على كلّ ناظر ... قُدُورُ رقاشٍ ، إن تأمّلَ رائيا ؟ (٦)

فقلت : متى باللحم عهدُ قُدُورِكُم ؟ ... فقالوا : إذا ما لم يكنّ عَواريا (٧)

مِنَ اضْحَى إلى الأضْحَى ، وإلّا فإنّها ... تكونُ بِنَسْجِ العنكبوت كما هيا (٨)

فلما استبان الجَهدُ لى فى وجوههم ... وشكواهُمُ أدخلتهم فى عِياليا

(١) معوذة : معصومة وممنوعة من الارحال . وهذه رواية (عيون الأخبار) . وفى النسخ : معودة ، بالدال المهملة . ولا تتفق مع سياق الهجاء . ألاترى إلى قول معن بن أوس (ص ١٩٦) أخو : شتوات الخ . والإرحال : الإشخاص والإزعاج . يقال : رحل الرجل : إذا سار ، وأرحلته أنا (لسان) . والمرقب : المكان العالى حيث توقد النار ليراها الأضياف . ثم إن هذه القدر لم توضع على الأحجار الثلاثة الجون (جمع جون — بفتح فسكون — وهو الأسود) . والأثافى : جمع أثفية (بضم فسكون فكسر فياء مشددة أو مخففة) : التى توضع عليها القدر للطبخ .

(٢) اجتزعت : قطعت . والعيس : كرائم الابل ، أو الابل البيض التى يخالط بياضها شىء من الشقرة . واحدها أعيس وعيساء . يعنى أن هذه القدر لم تأت من بلاد عربية . و (اجتزعت) فى نسخة الشنقيطى . وفى النسخ : اجترعت .

(٣) موصلية : منسوبة إلى الموصل . وفى النسخ : « فيها » بدل (فيضا) . ونظنه تحريفا .

(٤) تزجيها : تدفعها . والمرادى : جمع مردى (بضم فسكون فكسر) . وهى خشبة تدفع بها السفينة . وقوله : وتعقب الخ ، عقبت فلانا (من باب نصر) : جئت بعده . يعنى أن المجاذيف تعقب المرادى . وهذه تعقب المجاذيف . وهكذا .

(٥) فى النسخ : تجيل . ورواية (عيون الأخبار) ٣ — ٢٦٧ : تهيل . وهى أظهر . و (سافيا) : ترابا سفته الريح .

(٦) فى عيون الأخبار : « إن تأمل دانيا » . وهى أظهر . و (فى عيون الأخبار) أيضا : وإن ، بدل : وهل .

(٧) يقولون : إن عهد قدورنا بطبخ اللحم يكون مرة فى كل عام . وذلك من عيد الأضحى إلى مثله . إلا إذا استعرنا فى هذه القدور طعاما من غيرنا . والعوارى : جمع عارية ، بتشديد الياء . وقد تخفف فى الشعر .

(٨) فى النسخ : « كنسج العنكبوت » . وفى (عيون الأخبار) : بنسج العنكبوت . وهى أصح . وفى النسخ كذلك : « الاضحى إلى الأضحى » . وتصحيحنا من (عيون الأخبار) .

فكنتُ إذا ما استشرفونى مُقْبِلًا (١) أشاروا جميعًـا بَجّـَةٍ وتداعيـا

* * *

وممّـا قالوا فى صـفة قُدُورهم وجِفانهم وطعامهم ممّـا (٢) أنا كاتبه لك . وهم وإن كانوا فى بلاد جَدْب ، فإنّهـم أحسنُ النـاس حالًا فى الخِصْب . فلا تظنّنّ أنّ كلّ ما يصفون به قُدورَهم وجِفانهم وثَرِيدَهم وحَيْسَهم (٣) باطلٌ .

* * *

وحدّثنى الأصْمعِىّ قال : سألتُ المُنتَجِعَ بنَ نَبْهانَ عن خِصْب البـادية ، فقال : ربّمـا رأيتَ الكلبَ يتخطّى الخُلاصةَ (٤) — وهى له مُعْرِضَةٌ (٥) — شِبَعًا .

وقال الأفْوَه الأوْدِىّ (٦) :

تَهْنَا لثعلبـةَ بنِ قيسٍ جَفْنـةٌ يأوِى إليهـا فى الشـتاء الجُوَّعُ (٧)
ومَذانبٌ لا تُسـتعارُ وخَيْمـةٌ سـوداءُ عَيْبُ نسيجها لا يُرْقَعُ (٨)
وكأنّمـا فِيها المَذانبُ حَلْقـةٌ ودَمُ الدلاءِ على دُلوجٍ يُـنْزَعُ (٩)

(١) استشرف الشىء : رفع بصره ينظر إليه . والجة : كثرة الأصوات . والتداعى : أن يدعو بعضهم بعضا — وهـذه القصيدة لمحمد بن يسـير، يرد على أبيات للرقاشى . راجع (باب القدور والجفان) من (عيون الأخبار) ، ج ٣ ، ص ٢٦٦ (٢) لعل الصواب ما أنا كاتبه . (٣) الحيس : تمر يخلط بالسمن ومخيض لبن الغنم، بعد نزع نوى التمر . وقد سبق شرحه . (٤) الخلاصة : ما خلص وصفا من السمن . (٥) معرضة : بادية ظاهرة . من قولهم : عرض الشىء فأعرض : أى أظهره فظهـر . قال الجوهرى : وهو من النوادر . وقد سبق لنا مثل هذا الشرح فى موضع آخر . (٦) هو صلاءة (بضم الصاد ولام مخففة) بن عمرو بن مالك ، من بنى أود (بفتح فسكون)، من مذحج : شاعر يمانى جاهلى . كان سيد قومه وقائدهم فى حروبهم . وهو أحد حكماء الشعراء فى عصره . وأشهر شعره : (لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ... الخ) . توفى نحو سنة ٥٠ ه . اه من (الأعلام) .

(٧) تهنأ لهم جفنة : تسوغ وتؤكل هنيئا . والجملة دعائية . (٨) المذانب : جمع مذنب ومذنبة (بكسر فسكون) . وهى المغرفة ، لأن لها شبه الذنب . و(لا تستعار) : لكثرة عملها . وسـواد الخيمة من كثرة دخان الطبخ . ويريد بقوله : (عيب نسيجها لا يرقع) أنه يصعب ترقيع مابلى من نسيجها ، لكثرة ما تراكم عليها من غبار الدخان ، فيما يظهر لنا . (٩) يقول : كأن المغارف وقد أحاطت بحافة هـذه الجفنة حلقة لاستدارتها حولها ، وكأن ما يغرفه منها الآكلون لعظمه وثقله ، ماء دلاء يرفعه النازعون بمشقة .

وقال مَعْنُ بْنُ أَوْسٍ[١]، وهو يذكر قِدْرَ سعيدِ بنِ العاص[٢]، فى بعض ما يمدحه :

أخو شَتَواتٍ[٣] لا تزال قُدورُه ... تَحُلُّ على أرجائها ثم تُرْحَلُ

إذا ما امتطاها الموقدون رأيتَها ... لِوَشْكِ قِراها وهى بالجَزْلِ تُشْعَلُ[٤]

سمعتَ لها لَغْطًا إذا ما تَغَطْمَطَتْ ... كهَدْرِ الجِمالِ رُزَّمًا حين تُجْفَلُ[٥]

ترى البازِلَ الكَوْماءَ فيها بأسرها ... مقبَّضَةً فى قعرها ما تَجَلْجَلُ[٦]

كأنّ الكُهولَ الشُّهْبَ فى حَجَراتها ... تَغَطْرَشُ فى تيّارها حين يَحْفِلُ[٧]

إذا التطمتْ أمواجها فكأنّها ... غوائبُ دُهْمٍ فى المَحَلَّةِ قُبَّلُ[٨]

---

(١) هو معن بن أوس بن نصر بن زياد المزنى . شاعر فحل من مخضرمى الجاهلية والإسلام . له مدائح فى جماعة من الصحابة . وله أخبار مع عمر بن الخطاب . وبقى إلى أيام عبد الملك بن مروان . مات بالمدينة سنة ٦٣ هـ .

(٢) هو أبو عثمان سعيد بن العاص . كان من سادات بنى أمية . قتل أبوه العاص بن سعيد مشركا يوم بدر . وكان سعيد إذ ذاك غلاما حدثا . فقدم إلى النبى صلى الله عليه وسلم فكساه جبة . وكان عثمان بن عفان ولاه الكوفة ثم عزله ، وولى مكانه أبا موسى الأشعرى . مات سنة ٥٩ هـ .

(٣) أخو شتوات : كريم يطعم الناس فى الشتاء ، وهو زمن الجدب . لا تزال قدوره تقيم وتنتقل لاطعام الضيفان .

(٤) المراد بالموقدين هنا الطاهون . ويعنى بامتطائهم إياها قيامهم عليها من مكان عال فى أثناء الطبخ ، لفرط كبرها ، بضرب من التجوز . وقوله : رأيتها إلى آخ . أى رأيتها تشعل بالحطب الجزل ، أى الغليظ ، ليسرع القرى للوافدين .

(٥) اللغط : الأصوات التى لا تفهم والجلبة . والمراد صوت غليانها . وتغطمطت : غلت . وهدر الجمال : صوتها . ورزما : جمع رازم . وهو من الإبل : الساقط هزالا أو إعياء . وتجفل : تثار للسير .

(٦) البازل من الابل ، للذكر والأنثى : ما كان فى السنة التاسعة . والكوماء : الناقة ضخمة السنام . تجلجل : تتحرك . لسمنها وضخامتها . وفى نسخة : تخلخل . وهى بمعنى تجلجل .

(٧) الكهول : الجمال الكهول . والشهب : جمع أشهب ، وهو الأبيض يصدعه سواد . وحجرات القدر : نواحيها . وفى القاموس : غطرش الليل بصره : إذا أظلم عليه ، فغطرش بصره . لازم متعد . والتغطرش : التغاضى عن الشىء اهـ . وفى اللسان مثله . فتغرطش هنا بمعنى تختفى ، على ضرب من التجوز . ويحفل : يجتمع ويعظم . أى كأن الجمال الكهول فى أنحاء هذه القدر تختفى حينما يشتد تيارها عند الغليان .

(٨) غوائب : جمع غائب . والدهم : جمع أدهم ، وهو الفرس الأسود . والمحلة : المكان ينزله القوم . وقبل : جمع قابل : أى مقبل . وفى المختار : وقد قبل (بفتح الباء) وأقبل بمعنى اهـ . يقول : كأن أمواج هذه القدر فى شدة غليانها ، خيل كانت غائبة عن المحلة ، فأقبلت متدافعة من شوقها إلى وطنها :

إذا احتدمتْ أمواجُها فكأنّمـا يزعزعها من شدّة الغَلْى أفْكَل (١)

تظَـلُّ رواسيها رُكودًا مُقيمةً لمن نابه فيهـا معاشٌ ومأكَلُ (٢)

وضاف الفرزدقُ أبا السَّحْاءِ سُحَيْمَ بنَ عامرٍ (٣) ، أحدَ بنى عَمْرِو بن مَرْثَد (٤) ، فأحْمده ، وذكر فى إحماده قِدْرَه ، فقال :

سألنا عن أبى السَّحْاء حتّى (٥) أتينـا خـيرَ مطروق لسـارى

فقلنـا : يا أبا السَّـحْاء إنّا وجدنا الأزْدَ أبعدَ من نِزار (٦)

فقام يجرُّ من عَجَـلٍ إلينـا أسَابِىَّ العِنـاسِ مـع الإزارِ (٧)

وقام إلى سُـلافةِ مُسْلَحِبٍّ رثِـيم الأنفِ مَرْبوبٍ بقَـارِ (٨)

تدور عليهـمُ والقِـدرُ تَغـلِى بأبيضَ من سَدِيفِ الكُوم وارى (٩)

كأنّ تطلُّعَ الترعيب فيهـا عذارَى يطّلِعْنَ إلى عذارِى (١٠)

---

(١) الأفكَل : الرعدة . (٢) رواسيها : ما فى هذه القدر من جمال راسية فى قعرها ، حتى ينال منها الآكلون . (٣) قال ثعلب : ضفت فلانا : إذا نزلت به . (٤) عمرو بن مرثد بن قيس بن ثعلبة ، من الأزد . (٥) هكذا فى النسخ جميعها . وفى هامش (العيون الأخبار) : السمحاء . انظر ج ٣ ، ص ٢٦٥

(٦) نزار : أبو قبيلة . وهو نزار بن معد بن عدنان . يقول : إنا وجدنا الأزد ، وهم أهل قبيلتك ، أبعد فى الكرم من نزار وأعرق . (٧) قال فى اللسان : الإسبة والإسباءة (بكسر فسكون) : الطريقة من الدم . وأسابى الدماء : طرائقها اهـ . والعناس : جمع عنس (بفتح فسكون) ، وهى البازل الصلبة من النوق ، كما فى اللسان . يقول : فقام أبو السحاء على عجل يجر إلينا مع إزاره طرائق الدماء من نحر هذه العناس لأضيافه . وفى الكلام تجوز لا يخفى . وفى النسخ ، وفى اللسان أيضا : النعاس . ونظنه تحريفا . (٨) دن مسلحب : منبطح . ويقال : رثم أنفه (من باب ضرب) فهو رثيم : كسره حتى يقطر منه الدم . والكلام على التشبيه . ومربوب : مدهون أو مصلح . (٩) تدور ، أى السلافة . والسديف : شحم السنام . والوارى : السمين ، من ورى يرى ، كوعى يعى ، كما فى القاموس . (١٠) الترعيب : جمع ترعيبة ، وهى القطعة من السنام . أى كأنما يخيل إلى الجالسين حول القـدر أن تطلع قطع السنام بعضها إلى بعض ، عذارى ينظر بعضهن إلى بعض ، فى جمالهن وبياضهن . وفى النسـخ : الترغيب ، بالغين . وهو خطأ . وفى النسـخ أيضا : (كأن تطلع الترعيب منهـم) . وفى (عيون الأخبار) : فيها ، بدل (منهم) . فلذا آثرناها ؛ لأنها أصح . وفى نسخة الشنقيطى : منها .

وقال الكُمَيْتُ[(١)] فى صفة القِدْر :

إِوَزٌ تَغَمَّسُ فى لُجَّــةٍ تغيبُ مِرارا وتطفو مِرارا

كأنَّ الغُطامِطَ من غَلْيِها أراجيزُ أَسْلَمَ تهجو غِفارا[(٢)]

٭ ٭ ٭

وأمّا ما ذكروا من صفات القدور من تَعْيِيرِ بعضِهم بعضًا، فهو كما أنشدنى محمدُ بنُ يَسِير، قال : لمـا قال الأوّلُ :

إنَّ لنا قِدْرًا ذراعانِ عرضُها وللطـول منها أذْرُعٌ وشِــبارُ[(٣)]

قال الآخر : وما هذه ؟ أخزى اللهُ هذه قِدْرًا ! ولكنّى أقول :

بَوَأْتُ قِـدْرى لِلْوَرَى فوضـعتُها برابيــةٍ من بين مِيثٍ وأجْرَعِ[(٤)]

جعلتُ لها هَضْبَ الرِّجام وطِخْفَةً وغَــوْلًا أثافى دونها لم تُــنَزَّعِ[(٥)]

بقِـدْرٍ كأنّ الليل شِحْنَــةُ قعـرِها ترى الفيلَ فيهـا طافيا لم يُقَطَّـعِ[(٦)]

---

(١) هو الكميت بن زيد بن خنيس الأسـدى . شاعر الهاشميين من أهل الكوفة . كان عالما بآداب العرب ولغاتها وأخبارها . وأشهر شعره (الهاشميات) ، وهى عدّة قصائد فى مدح الهاشميين . كان خطيب بنى أسـد ، وفقيه الشيعة . وكان فارسا شجاعا راميا ، لم يكن فى قومه أرمى منـه . توفى سـنة ١٢٦ هـ .

(٢) الغطامط : صوت الغليان . والأراجيز : جمع أرجوزة : القصيدة من بحر الرجز . وأسلم : أبو قبيلة فى مراد ، كما فى اللسان . وفيه أيضا : و بنو غفار من كنانة : رهط أبى ذر الغفارى . وقد جاء فى (الكامل) أن نصيبا قال للكميت حين أنشده ذلك : ما هجت أسلم غفارا قط . فاستحيا الكميت وسكت .

(٣) فى النسخ : ذراعين . ولا نعرف له وجها إلا مع التمحل .

(٤) الميث : جمع ميثاء ، وهى الرملة السهلة . والأجرع : الأرض الطيبة المنبت ، أو ذات الحزونة .

(٥) الهضب : جمع هضبة ، وهى الجبل (واختلف فى تعريفها) . والرجام : جبل طويل أحمر ، نزل به جيش أبى بكر رضى الله عنه يريد عمان أيام الردة . وفى القاموس : وطخفة ، بالكسر والفتح : جبل أسمر طويل حذاءه آبار ومنهل . ومنه يوم طخفة لبنى يربوع ، على قابوس بن المنـذر بن ماء السماء . وغول : موضع ، كما فى القاموس . ولا بد أن يكون مرتفعا ، أخذا من قرينة المقام . والأثافى : الحجارة التى توضع عليها القدر ، كما سبق . أى : إنه جعل هذه الجبال الثلاثة أثافى لقدره . وهذا منتهى المبالغة .

(٦) الشحنة (بالكسر) : ما ملأت به الشىء . أى كأن الليـل بأجمعه اجتمع فى قعر هـذه القدرة لعظم اتساعها . وقوله : (طافيا) ، هكذا فى نسخة الشنقيطى ، وهو واضح . وفى عداها : طاميا . ويفهم على تكلف . يقول : لو كان فيها فيـل غير مقطع لطفا ولم يرسب ، من اتساعها وعظم ما فيها من المرق .

يُعَجِّل للاضياف وارِى سَدِيفِها ... ومَن يأتِها من سائرِ الناسِ يُشْبَعِ (١)

قال أبو عُبَيْدَةَ (٢) : ولمـا قال الفرزدق :

وقِـدْرٍ كَحَـيْزُومِ النَعامةِ أَحْمَشَتْ ... بأجْذَالِ خُشْبٍ زال عنها هَشِيمُها (٣)

قال مَيْسَرَة أبو الدَرْدَاء : وما حَيزومُ النعامة؟ والله ما تُشْبِـع هذه الفرزدق . ولكنّى أقول :

وقدرٍ بجوفِ الليلِ أحْمَشْتُ غَلْيَها ... ترى الفيلَ فيها طافياً لم يُفَصَّـلِ

وقال عبد الله بنُ الزَّبير (٤) يمدح أسماءَ بنَ خارجةَ (٥) :

ألم ترَ أنّ المجـدَ أرسـل يبتـغى ... حليفَ صـفاءٍ قابِـلا لا يُزايلُهْ (٦)

تخـيَّرَ أسمـاءَ بنَ حِصْنٍ فبُطِّنَتْ ... بفعـلِ العـلا أيْمـانُه وشَمـائِلُهْ (٧)

ومّمـا يجوزُ فى هذا البـاب ، وإنْ لم يكن فيه صـفةُ قِدْرٍ ، قولُ الفرزدق فى العُـذافِرِ ابنِ زَيْد ، أحدِ بنى تَيْمِ اللَّاتِ بن ثَعْلَبَةَ :

لَعُمرك ما الأزراقُ يومَ اكتيالها ... بأكثرَ خيرًا من خِوانِ العُذَافِرِ (٨)

ولو ضافه الدَّجالُ يلتمس القِرَى ... وحـلَّ على خَبَّـازه بالعَسَاكِـرِ (٩)

بِعِـدّةِ يأجُوجٍ ومأجُـوجَ جُوَّعًا ... لأشـبعهم شهرًا غَدَاءُ العُـذافِرِ (١٠)

---

(١) ذكرنا آنفا تفسير الوارى والسديف فى قصيدة الفرزدق . (٢) سبقت ترجمته فى ج ١ ، ص ١١٩

(٣) الحيزوم : الصدر . وأحمشت : أكثر وقودها . والأجذال : جمع جذل (بالكسر) ، وهو أصل الشجرة . وقوله : زال عنها هشيمها : أى اليابس المتكسر حولها . (٤) هو عبد الله بن الزبير بن الأشيم الأسدى . شاعر بليغ من شعراء بنى أمية ومن شيعتهم . نشأ بالكوفة . وكان قد هجا عبد الله بن الزبير بن العوام . ثم لحق بالحجاج ، فأرسله إلى الرى فى بعث ، فمات بها . وأخباره كثيرة تلتمس فى كتب الأدب والتاريخ .

(٥) هو أسماء بن خارجة بن حصن بن حذيفة الفزارى . كان سيد قومه ، ومن أشراف أهل الكوفة . وكان جوادا شجاعا . وكان ذا جاه عريض فى الدولة الأموية . مقدما عند الخلفاء . توفى سنة ٦٦ هـ .

(٦) قابلا : أى مستقبلا المودة ، لا مدابرا لها . (٧) أى كأنّ فعل العلا بطانة يمينه وشماله .

(٨) فى عيون الأخبار : من خوان عذافر . (٩) ضافه أى نزل به ، كما سبق أن شرحناه .

(١٠) فى عيون الأخبار : كلهم ، بدل : جوّعا . وفيه : يوما ، بدل : شهرا .

وقال ابنُ عَبْدَلٍ(١) في بِشْرِ بنِ مَرْوان بن الحَكَم(٢) :

ولو شـاء بِشْرٌ كان من دون بابِه ... طَماطِمُ سُـودٌ أو صَقَالِبَةٌ حُمْـرُ(٣)

ولكنّ بشرًا أسهلَ البـابَ للّتى ... يكونُ لبشرٍ عندها الحمـدُ والأجْرُ(٤)

بعيـدُ مُرادِ العين ما ردّ طـرفَهُ ... حِذارَ الغَواشِى بابُ دارٍ ولا سِـتْرُ(٥)

٥ وقالوا فى مناقضاتِ أشعارهم فى القُدور، قال الرَّقاشىّ :

لنـا من عطـاء الله دَهْماءُ جَوْنَةٌ ... تَناوَلُ بعْـدَ الأقربين الأقاصيا(٦)

جعلنا أَلالًا والرِّجامَ وطِخْفَـةً ... لهـا، فاستقلّت فوقهنّ أثافِيـا(٧)

مُـؤدِّيةٌ عنّـا حقـوق محمّـدٍ ... إذا ما أتانا بائسَ الحـال طاويا(٨)

أتى ابنُ يسـير كى ينفّسَ كَرْبَهُ ... إذا لم يَرُحْ وافَى مع الصبح غاديا(٩)

١٠ فأجابه ابنُ يسير فقال :

وثَرماءَ ثلمـاءِ النواحِى ولا يَرَى ... بهـا أحدٌ عَيْبًا سـوى ذاك باديا(١٠)

---

(١) هو الحكم بن عبدل بن جبلة الأسدى . من شعراء الدولة الأموية المجيدين ، كوفى المنشأ . وكان هجاء خبيث اللسان . وكان أعرج أحدب . قال صاحب الأغانى : كان الحكم أعرج لا تفارقه العصا . وكان يكتب على عصاه حاجته ، ويبعث بها مع رسله ، فلا يؤخر له رسول ، ولا تحبس عنه حاجة . ثم جعل يكاتب الأمراء بما يحتاج إليه ١٥ فى الرقاع . توفى نحو سنة ١٠٠ هـ . (٢) بشر بن مروان بن الحكم بن أبى العاص ، القرشى الأموى . كان سمحا جوادا . ولى إمرة العراقين لأخيه عبد الملك . وهو أول أمير مات بالبصرة . توفى سنة ٧٥ هـ . (من الأعلام) .

(٣) الطماطم : جمع طمطم ، بالكسر ، وهو من فى لسانه عجمة . والصقالبة : جيل معروف . يقول : لو كان بشر بخيلا ، كان عند بابه أعوان شداد من الأعاجم لصد الناس عنه . (٤) للتى : للكرمة التى . (٥) المراد : المكان الذى تذهب الإبل وتجىء فيه لترعى . فالكلام على المجاز . أى إنه بعيد النظر إلى ما يطلب منه ، لا يحجبه باب ٢٠ ولا ستر ، خوف من يغشى منزله من القصاد . (٦) الدهماء : القدر . والجونة : السوداء . (٧) ألال : اسم جبل بعرفات . وقد فسرنا آنفا الرجام وطخفة . وفى النسخ : الألاء . وفى عيون الأخبار : ألالا . وعليها اعتمدنا . (٨) الضمير فى أتانا يعود إلى محمد بن يسير . وفى (عيون الأخبار) : يابس الجنب طاويا .

(٩) فى النسخ : كربها . والتصحيح من (عيون الأخبار) . و (لم يرح) : لم يأت بالعشى . (١٠) الثرماء : من كسرت ثنيتها . شبه بها القدر التى تكسرت أطرافها من كثرة الاستعمال . والثلماء : المكسورة النواحى .

ينادِى ببعضٍ بعضُهم عند طَلْعتى ألا أبشروا هذا اليسيرىُّ جائيـا

وقال ابنُ يسير فى ذلك :

قــدرُ الرَّقاشىِّ لم تُنقـــر بمنقار مثلَ القــدور ولم تُفْتَضَّ من غار [(١)]

لكنّ قِدْرَ أبى حَفْصٍ إذا نُسِبَتْ يــوماً رَبيبـــةُ آجامٍ وأنهـارِ

٥ فاعترض بينهما أبو نُوَاسٍ الحسنُ بنُ هانئ الحَكَمىُّ ، يذكر قِدْرَ الرَّقاشىِّ بالهجاء أيضًـا ، فقـال :

ودَهْمـاءَ تُثْفيها رَقاشٌ إذا شَتَتْ مركّبةِ الآذان أمِّ عِيـالِ [(٢)]

يَغَصُّ بحَـيْزومِ البعوضة صدرُها وتُنزلها عفـوًا بغـيرِ جِعال [(٣)]

ولو جئتَها مَلْأَى عَبيطًا مُجَـزَّلًا لأخرجتَ ما فيهـا بعـود خلال [(٤)]

١٠ هى القدرُ قدرُ الشيخ بكرِ بنِ وائلٍ ربيعِ اليتامَى عامَ كلِّ هُزَال [(٥)]

وقال فيها أيضًا :

رأيتُ قدُور الناس سودًا من الصَلَى وقدرَ الرَّقاشيِّين زَهْراءَ كالبـدر [(٦)]

ولو جئتَهـا مَلْأَى عَبيطا مُجـزَّلا لأخرجتَ ما فيها على طَرَفِ الظفر

يُثَبِّتُهـا للمعتـفِى بفنـائهـم ثلاثٌ كخَطِّ الثاءِ من نُقَطِ الحِـبْرِ [(٧)]

---

١٥ (١) المنقار : ما ينقر به الحجر ونحوه . والغار : الكهف . يقول : إن قدر الرقاشىّ لم تكن من الحجر ، ولكنها صنعت من الطين المأخوذ من الآجام وغرين الأنهار . (٢) تثفيها : تضعها على الأثافى . ووصفت القــدر بأنها أم عيال ، لأنهـا تقوتهم . وقوله : مركبة الآذان ، أى وصلت بهـا آذان ليست من مادتهـا .

(٣) أى يضـيق صدرها بصــدر البعوضة ، لضيقها وصــغرها . وتنزلها بلا جرقة ، لأنهـا لا توضـع على نار .

(٤) العبيط : اللحم الطرى . ومجزلا : مقطعـا . (٥) لا يخفى ما فى البيت من تبكيت وسخرية .

٢٠ (٦) الصلى : اتقاد النار . والزهراء : البيضاء . (٧) المعتفى : طـالب المعروف والقــرى . أى إنهـا تثبت على ثلاث أثافى صــغار كنقط الثاء الثــلاث .

تَبَيَّنُ فى مِحراثها أنَّ عُودَه ... سليمٌ صحيحٌ لم يُصِبْهُ أذى الجمرِ [1]

تروحُ على حىِّ الرِّبابِ ودارِمٍ ... وسعدٍ وتعروُها قَراضبةُ الفِزْرِ [2]

وللحىِّ عمرٍو نفحةٌ من سِجالها ... وتَغْلِبَ والبيضِ اللَّهاميمِ من بَكْرِ [3]

إذا ما تنادَوْا بالرحيل سعَى بها ... أمامَهُمُ الحَوْلىُّ من وَلَدِ الذَّرِ [4]

٥ وقال بعضُ التيميّين وهو يهجو ابنَ جَبّار [5] :

لو أنَّ قِدْرًا بكتْ من طولِ ما حُبِسَتْ ... على الحُفُوفِ [6] بكت قِدْرُ ابن جبّارِ

ما مسّها دَسَمٌ مُذْ فُضَّ مَعدِنُها ... ولا رأتْ بعدَ نارِ القَيْنِ من نارِ

* * *

والشُّعُوبيّةُ [7] والآزاد مرديّةُ [8] ، المبغضون لآلِ النبىّ (صلّى الله عليه وسلّم) وأصحابِه ، ممن فتح

١٠ الفُتوحَ ، وقتَل المجوسَ ، وجاء بالإسلام ، تَزيدُ فى خشونة عيشهم ، وخُشونة ملبسهم ، وتَنقُصُ

من نعيمهم ، ورَفاغَةِ عيشهم . وهم أحسنُ الأمم حالاً مع الغَيْثِ ، وأسوءُهم حالاً إذا خفت

---

(١) المحرث والمحراث : خشبة تحرك بها النار . (٢) تروح : تشتد ريحها ، أى رائحتها . والرباب ودارم وسعد : أسماء قبائل . والقراضبة : اللصوص والفقراء . واحده قرضاب (بالكسر) ، أو قرضوب (بالضم) . والفزر : لقب سعد بن زيد مناة ، ويريد القبيلة . انظر القاموس . والمراد التهكم ، كما هو فى البيت التالى ، كما لا يخفى .

١٥ (٣) النفحة : العطية ، من : نفحه بالمال نفحا : أعطاه . والسجال : جمع سجل ، بفتح فسكون ، وهو الدلو العظيمة مملوءة . واللهاميم : الأجواد . مفرده لهموم ، بضم فسكون . (٤) فى (عيون الأخبار) : إذا ما ينادى بالرحيل . والحولى : ما مر على ولادته حول . والذر : صغار النمل ، جمع ذرة . يقصد أطفال النمل . وهو إغراق فى المبالغة . (٥) هو عقبة بن جبار المنقرى ، كما فى عيون الأخبار (٣ — ٢٦٥) . وفى النسخ : حبار . ويريد ببعض التيميين الفرزدق . (٦) هكذا فى ديوانه المحفوظ بدار الكتب المصرية .

٢٠ والحفوف : قلة الدسم . وفى النسخ : من الجفوف ، وهو الجفاف . (٧) انظر ص ٧٣ من هذا الجزء . والآزاد مردية : نسبة إلى آزاد مرد . ومعناها الرجل الحر . وهم طائفة لها رأى الشعوبية ، شديدو التعصب للفرس ، ويظهر أنهم أنفوا أن يسموا بالشعوبية ، فسموا أنفسهم بهذا الاسم ومعناه : طائفة الأحرار .

(٨) فى نسخة الشنقيطى : المتعصبون . ونعتقدها محرفة .

السـحاب . حتى ربّمـا طَبَّق الغيثُ الأرضَ بالكَلَإِ والمـاءِ . فعنـد ذلك يقول المُصْرِمُ[١] والمُقْتِر : مَرْعًى ولا أَكُولَة ، وَعُشْبٌ ولا بعير ، وكَلَا تِيْجَع له كِبْدُ المُصْرِمِ[٢][٣] .

ولذلك قال شاعرهم :

فَجَنَّبَـكَ الجيـــوشَ أبا زُنَيْبٍ وجادَ على مسـارحِكَ السحابُ[٤]

* * *

و إذا نظرتَ فى أشعارهم ، علمتَ أنّهم قد أكلوا الطيِّبَ وعرفوه ، لأنّ الناعِم من الطعام لا يكونـ إلا عند أهـل الثَّراءِ وأصحابِ العيش . فقال زِيادُ بنُ فيّاض يذكُرُ الدَّرْمَكَ[٥] ، وهو الحُوّارَى :

ولاقت فتًى قيس بن عَيْلانَ ماجدًا إذا الحربُ هرَّتها الكُماةُ الفوارِسُ[٦]

فقام إلى البَرْكِ الهِجانِ بسيفه وطارت حِذارَ السيفِ دُهْمٌ قَنَاعِسُ[٧]

فصادف حدُّ السيفِ قَبَّاءَ جَلْعَدًا فكاستْ ، وفيها ذُو غِرارَيْنِ نَاءِسُ[٨]

فأطعمها شَحْمًا ولحمًا وَدرْمَكًا ولم يَثْنِنا عنـه النسيمُ الخَنَادِسُ[٩]

وقال :

تظـلُّ فى دَرمَـكٍ وفاكهةٍ وفى شِـواءٍ ما شئتَ أو مَرَقِـهْ

---

(١) المصرم : السيء الحال ، الكثير العيال . (٢) سبق هذان المثلان فى رسالة ابن التوأم وشرحا .

(٣) فى اللسان : ويقال : كلأ تيجع (بفتح فسكون ففتح) منه كبد المصرم : أى إنه كثير . فاذا رآه القليل المال أسف ألا تكون له إبل كثيرة يرعيها (مضارع أرعاها) فيه . (٤) هذا البيت محرف فى النسخ وقد أثبتناه كما ورد فى (البيان والتبيين) . وفى نسخة الشنقيطى : ربيث ، بدل : زنيب . (٥) الدرمك : نقى لباب البر .

(٦) سبق الكلام على قيس عيلان . وهرتها : كرهتها . (٧) البرك : جماعة الإبل الباركة . والهجان من الإبل : البيض الخالصة اللون الكرام . و (دهم) : نوق سود . والقناعس : الطوال . (٨) قباء : ناقة قباء ، وهى الدقيقة الخصر ، الضامرة البطن . و (جلعدا) : صلبة شديدة . و (كاست) : مشت على ثلاث قوائم . وذو غرارين : سيف ذو حدين . وناءس : متدل متحرك . (٩) نسيم خنادس : هكذا فى النسخ . ولابد أن يكون هناك تحريف . ولعلها : البهيم الخنادس . والخنادس : جمع حندس (بكسر فسكون فكسر) ، وهو الليل الشديد الظلمة . ووصف بالجمع للمبالغة .

وقال جـرير[1] :

تكلفني معيشةَ آلِ زَيْدٍ ومَنْ لى بالمُرَقَّقِ والصِّناب[2]

وقال النَّمِرُ بنُ تَوْلَبٍ[3] :

لَها ما تشتهى، عسلٌ مُصَفًّى وإنْ شاءتْ فحُوَّارَى بِسَمْنِ

ومن أشرف ما عرفوه من الطعام — ولم يُطْعِم الناسَ أحدٌ منهم ذلك الطعام، إلاّ عبدُ الله ابنُ جُدْعانَ[4] — وهو الفالوذقُ . مدحه بذلك أُميّةُ بنُ أبى الصَّلْتِ[5]، فقال :

إلى رُدُحٍ من الشِّيزَى عليها لُبابُ البُرِّ يُلْبَكُ بالشِّهادِ[6]

ولهم الثريدُ . وهو فى أشرافهم عامّ . وغلَب على هاشم حين هشَم الخبزَ لقومه . وقد مُدِح به فى شعر مشهور، وهو قوله :

عمرُو العلا هشَم الثّريدَ لقومه ورجالُ مكّةَ مُسْنِتُونَ عِجافُ[7]

ومن الطعامِ الممدوح الحَيْسُ[8]. وتزعم مَخْزُومٌ[9] أنّ أوّل من حاس الحَيْسَ سُوَيْدُ بنُ هَرَمِىّ.

وقال الشاعر :

وإذا تكونُ شديدةٌ أُدْعَى لها وإذا يُحاسُ الحَيْسُ يُدْعَى جُنْدُبُ

---

(١) تقدمت ترجمته فى ص ١٣٢ من هذا الجزء . (٢) المرقق : الخبز المرقق . والصناب : صباغ يتخذ من الخردل والزبيب، كما سبق . (٣) تقدمت ترجمته فى ص ١٠٧ من هذا الجزء . وقد جاء فى نسخة الشنقيطى ونسخ أخرى بعد بيت النمر بن تولب : وحديثها أشهى من الثمر . (٤) هو عبد الله بن جدعان التيمى القرشى . كان من كبار الأجواد فى الجاهلية . وكان يلقب (حاسى الذهب)، لأنه كان يشرب فى إناء من ذهب . وقد ضرب به المثل فى الجود، فقيل : أقرى من حاسى الذهب . وقد أدرك النبى صلى الله عليه وسلم قبل النبوة . (٥) انظر، ص ١٨٤ من هذا الجزء . (٦) ردح : جمع رداح، أى عظيمة . يقال : جفنة رداح، وجفان ردح . والشيزى : خشب أسود للقصاع، أو هو الآبنوس . والشهاد : جمع شهد (بفتح الشين وضمها)، وهو العسل فى شمعه . (٧) مسنتون : مجدبون . وعجاف : جمع أعجف أى هزيل، على غير قياس . وقد تقدم هذا البيت وتفسيره فى شروحنا فى الجزء الأول . (٨) هو تمر ينزع نواه، ويدق مع أقط، ويعجنان بالسمن . ثم يدلك باليد حتى يبقى كالثريد . وربما جعل معه سويق . وقد أسلفنا تعريفه فيما مر من هذا الكتاب . (٩) مخزوم : أبو حى من قريش . وهو مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب . كذا فى اللسان .

والخبزُ عندهم ممدوح . وكان عبد الله بن حَبيب العَنْبَرِىُّ أحدُ بنى سَمُرَة، يقال له آكلُ الخبز، لأنّه كان لا يأكل التمر، ولا يرغب فى اللبن . وكان سـيّدَ بنى العَنْبر فى زمانه . وهم إذا فخروا قالوا : منّا آكلُ الخبز، ومنّا مجيرُ الطّير، يعنى ثَوْبَ بن شَحْمَةَ العنبرىَّ[1] .

وهم يقدّمون اللحم على التمر، ألا تراه يقول :

قَرَتْنى عُبيـدٌ تمـرها وقـريتُها سَـنامَ مُصَرّاةٍ قليـلٍ رُكوبُها[2]

فهل يستوى شحم السّنام إذا شتا وتمرُ جُواثَى حين يُلْقَى عَسيبُها[3]

وليس يكون فوق عَقْرِ الإبلِ و إطعام السّنامِ شىءٌ . والعَقْرُ هو النَّجْدَةُ، واللبن هو الرِّسْلُ[4] .

قال الهُـذَلىُّ :

لو أنّ عنـدى من قُرَيم رَجْلَا لمنعـونى نَجْـدَةً و رِسْـلا[5]

وقال الهُـذَلىُّ :

* ألا إنّ خيرَ النـاسِ رِسْلًا ونَجْدَةً *

وقال المَرّارُ بنُ سعيد الفقْعسى :

لهم إبلٌ لا من دياتٍ ولم تكن مُهورًا ولا من مَكْسَبٍ غيرِ طائل[6]

---

(١) عرفناه فى هذا الجزء، ص ٦٥ (٢) المصراة : الكثيرة اللبن . (٣) شتا : كان فى زمن الشتاء . وجواثى : اسم حصن بالبحرين . فقوله : وتمر جواثى ، يعنى تمر الجهة التى فيها هـذا الحصن . والعسيب : جريدة النخل سقط خوصها . وتكون النخلة وثمرها إذ ذلك غاية فى الضعف . (٤) فى لسان العرب : النجدة هى الشـدّة ، والرسـل هو الخصب . فمعنى عبارة الجـاحظ أن العقر يكون فى زمن الشـدّة الذى يجلى فيـه كرم الكريم . وأما اللبن فيكون فى زمن الخصب لكثرة المرعى . وهو إذ ذاك كثـير . فالجود به لا يدل على كرم .

(٥) الهذلى هو صخر الغى ، كما فى اللسان . قال : قاله وقد يئس من أصحابه أن يلحقوا به . وأحدق به أعداؤه ، وأيقن بالقتل . ثم قال فى تفسير البيت : أى لمنعونى بقتال ، وهى النجدة ، أو بغير قتال ، وهى الرسل اهـ . وفى اللسـان : (أو رسلا) . والرجل : جمع راجل . وهو ضد الفارس . وعلى هذا المعنى فالبيت ليس مما نحن بصدده من معنى الرسل والنجدة . إلا أن يكون الجاحظ أتى به استطرادا . (٦) يريد أن إبلهم ملك قديم موروث ، أو ضريف مكتسب . فلم تؤخذ دية عن قتلاهم . ولم تؤخذ مهورا لبناتهم . و (غير طائل) : غير شريف .

ولكنْ حماها من شَمَاطِيطِ غارةٍ ... خِلَالَ العوالى فارسٌ غيرُ مائِلِ (١)
مُخَيَّسَةٌ فِي كلّ رِسْلٍ ونجدةٍ ... ومعروفةٌ ألوانُها فى المَعَاقِلِ (٢)

وقد وصفوا الثريدَ، فقال الراعى :

فباتتْ تَعُدُّ النجمَ فى مُسْتَحِيرةٍ ... سريعٍ على أيدى الرجالِ جُمُودُها (٣)

وقال آخر :

ثريدٌ كأنّ السمنَ فى حُجُراته ... نجومُ الثُّريّا أو عيونُ الضَّياوِنِ (٤)

وقال ابن هَرْمَةَ (٥) :

إلى أن أتاهم بشِيزِيَّةٍ ... تَعُدُّ كواكبُها الشُّبَّكُ (٦)

وقال كاملُ بنُ عِكْرِمَةَ :

فقرّبَ بينهم خبزًا رَكُودًا ... كساها الشحم ينهمر انهمارا (٧)
يَدُفُّ بها غلاماه جميعًا ... تردُّهما إلى الأرض انهصارا (٨)
فأصبح سُوْرُهم فيها وعلمى ... لو آنّ العلم صنّفها شِيارا (٩)

فهذا فى صفة الثريد .

---

(١) الشماطيط : مفرده شمطاط (بكسر الشين) وشمطوط (بضم الشين) . يقال : جاءت الخيل شماطيط : أى متفرقة أرسالا . عن اللسان . و (مائل) : ظالم . (٢) المخيسة : المذللة المروضة . والمعاقل هنا : جمع معقلة (بفتح فسكون فضم) وهى دية المقتول . أى إنها حينا يعطونها فى الديات تعرف بألوانها . والرسل والنجدة هنا أيضا ليسا مما ساق الكلام إليه أولا . بل هما بمعنى ما جاء فى بيت صخر الغى . وقد شرحناه آنفا . (٣) رواية المبرد فى (الكامل) : فى مستجيرة ، بالجيم . وفسر المستجيرة بالاهالة . ورواية صاحب اللسان : فى مستحيرة ، بالحاء ، وهى المثلثة . والمراد بالنجم هنا الثريا ؛ لأن فيها ستة أنجم ظاهرة يتخللها نجوم صغار خفية . ومعنى عدّ النجم فى المستجيرة أنها تعكس الثريا فتراها فيها ، أو أن قطع الدهن فيها تشبه الثريا فى لمعانها . (٤) المراد بالحجرات هنا النواحى . والضياون : السنانير . ومفردها ضيون . وهو السنور الذكر . (٥) هو إبراهيم بن على بن هرمة الهذلى القرشى . شاعر مجيد . وقد استشهد به الجاحظ فى مواطن كثيرة من (البيان والتبيين) . مات فى عهد الرشيد سنة ١٥٢ هـ . (٦) الشيزية : جفنة من الشيز وهو الآبنوس ، كما سبق . وفى الكلام تشبيه : فهو يشبه فقاقع السمن فوق الجفنة بالكواكب المشتبكة .

(٧) الركود : الجفنة الملأى . وهو عطف بيان على (خبزا) . (٨) الأصل فى الدف أن يحرك الطائر جناحيه لطيرانه مع جريه على الأرض . والمراد هنا المشى السريع . والانهصار : الإمالة ، أى من شدة ثقلها .

(٩) سور الإبل : كرامها . والشيار : السمان الحسان من الابل . والمعنى : فأصبح لهم كرائم إبلهم حال كونها سمانا فى هذه الجفنة . وعلمى بذلك حاصل ، لو أن العلم استطاع أن يبين صنف الابل ونوعها . وفى النسخ : أشارا .

وقال بِشرُ بنُ أبي خازِم :

تَرَى وَدَكَ السَّـدِيفِ على لِحَـاهُمْ ... كلوْنِ الرَّارِ لَبَّـدَه الصَّـقِيعُ (١)

وقال الآخـــر :

جلا الأذْفَرُ الأحْوَى من المسك فَرْقَهُ ... وطِيبُ الدِهانِ رأسَـه فهـو أنْزَعُ (٢)

إذا النَفَرُ السُّـود اليمـانُونَ حاولوا ... له حَـوْكَ بُرْدَيْهِ أرقُّـوا وأوْسَـعوا (٣)

وقال الزُبيرُ بنُ عبدِ المطَّلِب :

فإنّا قـــد خُلِقْنَـا إذ خُلِقْنـا ... لنـا الحِـبَرَاتُ والمِسْـكُ الفَتِيتُ (٤)

واـــولا الحُمْسُ لم يَلْبَس رِجالٌ ... ثيـاباً غُــرَّةً حـــتى يمـــوتوا (٥)

ثيـابُهــمُ شِمـالٌ أو عَبـاءٌ ... بهـا دَنَسٌ كما دَنِسَ الحَمِيتُ (٦)

فَمَيَّز — كما ترى — بين لباس الأشراف وأهل الثروة وغيرهم . (٧)

وقال الأعشى :

المُشْرِفُ العَـوْدِ فأكنافُـهُ ... ما بيـن حُمْـرانَ فَيَنْصُـوبِ (٨)

---

(١) الودك : ما يحلب من الشحم من دسم . والرار : الذائب من المخ . وفى اللسان : وفى حديث خزيمة ، وذكر السنة ، فقالت : تركت المخ رارا : أى ذائبا رقيقا ، للهزال وشدة الجدب . والسديف : شحم السنام . والصقيع : الجليد .

(٢) الأذفر : الشديد الرائحة . والأحوى : الأسود يضرب إلى الخضرة . والانزع : من انحسر الشعر على جانبي جبهته . والبيت كناية عن الرفاهية والنعم .

(٣) هذا وصف آخر برفاغة العيش . فهو يصفه بأنه لا يلبس غير البرود اليمانية . وكانت اليمن مشهورة بها . ورقة الثوب واتساعه من لوازم الترف والغنى .

(٤) الحبرة (بكسر الحاء وفتح الباء) : من برود اليمن . والفتيت : المفتوت ، أى المدقوق . وفى الأساس : وتزن فى ملاعبن فتات المسك .

(٥) الحمس : لقب قريش وكنانة وجديلة ومن تابعهم فى الجاهلية ، لاعتصامهم بالحمساء ، وهى الكعبة . الواحد أحمس . والغرة : النفيس من كل شىء ، كما فى اللسان .

(٦) الشمال : جمع شملة ، وهى كساء يشتمل به . والدنس : القذر . والحميت : وعاء السمن .

(٧) هكذا فى نسخة الشنقيطى . وفى غيرها : الناس .

(٨) نسب هذا الشعر ياقوت لعدى . وفى بعض النسخ : (الشرف العود) . وفى نسخة ليدن : (للشرف العود) ، بضم (العود) . وقد استظهرنا أن تكون محرفة عن : (المشرف العود) . والعود : المسن من الإبل . وحمران وينصوب : موضعان . وفى نسخة ليدن : جمران (بالجيم) . وفى نسخة الشنقيطى : فنضوب . يصفه بأنه يشرف فوق بعيره على مدى بعيد تحت إمرته وحمايته .

خيرٌ لها إن خشيتْ جحْرةً من ربها زَيْد بن أيّوب (١)
متّكئًا تُقرَعُ أبوابُهُ يسعَى عليه العبدُ بالكُوب

وقال أبو الصلْتِ بنُ ربيعة :

اشرَبْ هنيئًا عليك التاجُ مرتَفِقًا في رأس غُمْدان دارًا منك مِحْلالا (٢)

٥ وليس هذا من باب الإفراطِ . وباب الإفراطِ كقول جِرَانِ العَوْد (٣) ، حين وصف نفسه وعشيقَته فقال :

فأصبح في حيثُ التقينا غنيمةً سِوارٌ وخَلْخَال ومِرْطٌ ومُطْرَفُ (٤)
ومنقطِعاتٌ من عُقود تركْنَها بجمرِ الغَضَى في بعض ما تَتَخطْرَفُ (٥)

ومن ذلك قول عدِيّ بن زَيْد (٦) :

١٠ يا لُبَيْنَى أوْقِدِي النارا إنّ من تَهْوَيْنَ قد حارا
رُبَّ نارٍ بِتُّ أرمُقُها تقضَم الهنديَّ والغارا (٧)

(١) الجحرة : السنة الشديدة المجدبة . والضمير في " لها " لم نقف له على مرجع . ولعله يعود على إبل أو امرأة . ولعل بيتا أو أبياتا سقطت بعد البيت الأول . أي إن هذا المترف العود خير لها في سنة الجدب من ربها .

(٢) في اللسان : غمدان : حصن في رأس جبل بناحية صنعاء . وفيه يقول : (في رأس غمدان دارا منك

١٥ محلالا) اهـ . ومحلال : يكثر فيه الحلول . يقول هذا البيت في مدح ذي يزن . (٣) هو عامر بن الحارث ابن كلفة النميري . شاعر فحل فصيح . وهذان البيتان من قصيدة أولها :

ذكرت الصبا فانهلت العين تذرف وراجعك الشوق الذي كنت تعرف

(٤) المرط : كساء من صوف أو خز . والجمع مروط . والمطرف : رداء من خز مربع ذو أعلام .

(٥) الغضى : شجر . والضمير في (تخطرف) و (تركنها) يعود لمحبوباته . وفي قول الجاحظ : (حين وصف

٢٠ نفسه وعشيقته) تسامح . والتخطرف : توسيع الخطا بجعل كل خطوة مكان خطوتين . (٦) هو عدي بن زيد العبادي . شاعر جاهلي حضري . وكان يحسن الفارسية والرمي بالنشاب ، ويلعب لعب العجم بالصوالجة على الخيل . وهو أول من كتب بالعربية في ديوان كسرى . وقد اتخذه من خاصته ، وجعله ترجمانا بينه وبين العرب . قتله النعمان بن المنذر في سجنه بالحيرة نحو سنة ٣٥ ق . هـ . (٧) الهندي : العود الهندي . والغار : شجر عظام له دهن . وكلاهما شديد الصلابة ، قوي على النار .

وقال الآخــــر :

أرى فى الهَوى نارًا لظبية أُوقِدَتْ ... يُشَبُّ ويُذْكَى بَعْــد وهْنٍ وُقُودُها[1]

تُشَبُّ بعيــدان اليَلَنْجوج مَوْهِنًــا ... وبالرَّنْد أحيــانا، فــذاك وَقُودها[2]

* * *

قد ذكرنا الطعام الممدوحَ ما هو، وذكرنا أحد صِنْفَى الطعامِ المذمومِ .

والصنفُ الآخرُ الخزِيرةُ[3]، التى تعاب بهــا مُجاشِع بن درام[4]، وكنحو السَّخِينَةِ[5] التى تُعاب بها قُرَيْش .

قال خِداش بن زُهير[6] :

يا شَــدَّةً ما شدَدْنا غيرَ كاذبة ... على سَخِينَةَ لولا الليــلُ والحَرَمُ[7]

وقال عبدُ الله بنُ همّام[8] :

إذًا لضربتُهــمُ حتى يعــودوا ... بمكّة يَلعَقُون بهــا السَّخِينا

وقال جــريــر :

وُضِعَ الخَزِيرُ فقيل: أينَ مُجاشِعٌ؟ ... فَشَحَا جَحافلَه جُـِحَـافٌ هِبْلَعُ[9]

والخَزِيرُ لم يكن من طعامهم . وله حديث . والسَّخِينةُ كانت من طعام قُرَيْش .

---

(١) الوهن : نصف الليل أو بعد مضى ساعة من الليل . والوقود : الاتقاد . وتفتح واوه أيضا . وفى النسخ : بعدهن . والتصحيح عن نسخة الشنقيطى . (٢) اليلنجوج : عود يتبخر به . وموهنا : هو بمعنى الوهن . والرند : شجر طيب الرائحة . والوقود : ما توقد به النار . (٣) الخزيرة : مرقة . وهى أن تصفى بلالة النخالة ثم تطبخ .

(٤) أبو قبيلة من تميم . (٥) السخينة : دقيق يلق على ماء أو على لبن فيطبخ ثم يؤكل بتمر .

(٦) هو خداش بن زهير بن ربيعة العامرى . كان شاعرا مخلا فى الجاهلية . وكان فارسا مغوارا جيد الرأى . وهذا البيت من أبيات قالها خداش يوم نخلة من أيام الفجار، وقد لجأت فيه قريش إلى الحرم معتصمة به اهـ من حاشية للسندوبى على (البيان والتبيين) ج ٣ ، ص ١٤ (٧) الشدة : الهجوم . وأراد بسخينة القوم الذين يأكلونها . ولولا الليل والتجاؤهم إلى الكعبة لقضينا عليهم . (٨) هو عبد الله بن همام المرى السلولى . كان من أكابر الشعراء فى الدولة الأموية . وله فى (البيان والتبيين) نادرة تدل على نفوذه فى السياســة وقوة سلطانه . ج ١ ، ص ٣١١

(٩) شحا فاه يشحوه : فتحه . وفى نسخة الشنقيطى : فشا . والجحف : الجافى الثقيل لا غناء عنده . والهبلع : العظيم اللقم الأكول . وفى نسخة الشنقيطى : (جحف مبلع) والمبلع (بفتح فسكون ففتح) : السريع . والجحفلة : للفرس والحمار والبغل : كالشفة للانسان . ورواية اللسان : جراف هبلع . والجراف (بضم أوله) : من يأتى على الطعام كله .

وتُهجَى الأنصار وعبدُ القَيْس وعُذْرَةُ ، وكلُّ من كان يَقْرَب النخلَ — بأكل التمر .

فقال الفرزدق :

لستُ بسعدىّ على فيه حَبْرَةٌ (١) ولستُ بعبدىّ حَقيبته التمرُ

وتُهجَى أَسَد بأكل الكلاب ، وبأكل لحوم الناس . والعربُ إذا وجدت رجلا من القبيلة قد أتى قبيحًا ، ألزمت ذلك القبيلةَ كلَّها . كما تُمدحُ القبيلةُ بفعلٍ جميلٍ ، وإن لم يكن ذلك إلّا بواحد منها : فتهجو قريشًا بالسَخينة ، وعبدَ القَيْس بالتمرِ ، وذلك عامٌّ فى الحيّين جميعًا . وهما من صالح الأغذية والأقوات . كما تهجو بأكل الكلاب والناس ، وإن كان ذلك إنّما كان من رجلٍ واحد . فلعلّك إذا أردتَ التحصيلَ تجدُه معذورًا .

قال الشاعر :

يا فَقْعَسِىُّ لِمْ أكلتَهُ لِمَهْ (٢) لو خافك اللهُ عليه حَرَّمَهْ

* فما أكلتَ لحمَهُ ولا دَمَهْ *

وقال فى ذلك مُساوِرُ بنُ هِنْد :

إذا أسديةٌ ولدتْ غلامًا فبشِّرْها بلؤم فى الغلام

تُخَرِّسُها نساءُ بنى دُبَيْرٍ (٣) بأخبثِ ما يَجِدْنَ من الطعام

ترى أظفارَ أعْقَدَ مُلْقَياتٍ (٤) بَراثِنُها على وَضَمِ الثُّمام

(١) الحبرة : أن تركب الأسنان صفرة تضرب إلى السواد . وفى نسخة : خبزة . (٢) فقعس : حى من بنى أسد . أبوهم فقعس بن طريف بن عمرو بن الحارث بن ثعلبة بن دودان بن أسد اه من اللسان . ويقال : بعير محرَّم : أى صعب . فمعنى (حرمه) هنا : جعله صعب المنال . والضمير فى (أكلته) و (عليه) يعود إلى الكلب . يقول : أيها الفقعسى ، لم أكلت الكلب؟ لو خافك الله عليه لخلق له من وسائل الدفاع ما يجعله صعب المنال ، فلا تتمكن من أكله . (٣) سبق هذان البيتان . (٤) الأعقد : الكلب والذئب الملتوى الذنب . والبراثن : جمع برثن ، وهو المخلب . والوضم : كل شىء يوضع عليه اللحم : من خشب أو بارية ، يوقى به من الأرض . والوضم أيضا : ما وضع عليه الطعام فأكل اه من اللسان . والثمام : نبت . وقد تقدم شرحه . يعنى أن لحم الكلب كان على هذا الوضم . وفى بعض النسخ : ترائبها ، بدل : براثنها .

وقال :

بنى أسدٍ إنْ يَمْحَلِ العامَ فَقْعَسٌ   فهذا إذًا دهرُ الكلابِ وعامُها

وقال الفرزدق :

إذا أسـدىٌّ جاع يوماً ببلْدةٍ   وكان سميناً كلبُهُ فهو آكلُهْ

وتُهجَى أَسَدٌ وهُذَيْلٌ والعَنْبَرُ وباهلةُ بأكل لحوم الناس .

قال الشاعر فى هُذَيْل :

وأنتم أكلتم سَحْفَةَ ابنِ مُخَدَّمٍ   زماناً فما يأمَنُكُمْ أحدٌ بعْـدُ[1]

تَداعَوْا له من بين خَمْسٍ وأربعٍ   وقد نَصَل الأظفارُ وانْسَبأَ الجلدُ[2]

وقال حسّان[3] فيهم :

إن سرَّكَ الغدرُ صِرْفًا لا مِزاجَ له   فأتِ الرَّجيعَ وسلْ عن دار لحْيانِ[4]

قوم تواصَوْا بأكل الجارِ بينهمُ   فالشاةُ والكلبُ والإنسانُ سِيّانِ

وهجا شاعرٌ بَلْعنبرِ، وهو يريدُ ثوب بنَ شَحْمَةَ[5] . وفيه حديثٌ :

عجلْتُمْ ما صَدَّكُمْ علاجى   من العُنُوق ومن النِعاجِ

* حتّى أكلتم طَفْلةً[6] كالعاجِ *

---

(١) السحفة : الشحمة عامة . وقيل : التى على الجنبين والظهر . وفى بعض النسخ : شحمة . ورواية الحيوان : « زمانا » . وكذا فى نسخة الشنقيطى . وفى النسخ : زباب .   (٢) تداعوا : دعا بعضهم بعضا لافتراسه . وقوله : من بين خمس وأربع ، لعله يقصد : خمس نساء وأربع نساء . ونصل الأظفار : ثبت فى الفريسة . وانسبأ الجلد : انسلخ .   (٣) هو حسان بن ثابت الأنصارى . رضى الله عنه .   (٤) الرجيع : ماء لهذيل .

(٥) بلعنبر : هم بنو العنبر . حذفوا النون منها ، كما حذفوها فى بلحارث . والعنبر : أبو حى من تميم . وهو العنبر ابن عمرو بن تميم . وقد تقدمت ترجمة ثوب بن شحمة فى ص ٦٥ من هذا الجزء .   (٦) فى النسخ : صادكم . وقد ضبط بتشديد الدال فى بعضها . ونعتقده تحريفا . والعنوق : جمع عناق . وهى الأنثى من أولاد المعز . والطفل (بفتح فسكون) : الرخص الناعم . والمراد : امرأة شابة كأنها العاج بياضا . يقول : عجلتم بأكل لحوم البشر . ولم يصدكم ما عالجتكم به من أولاد المعز ومن النعاج .

ولمّا عيّر ثوبُ بنُ شَحْمة بأكل الفتى [العنبرىّ](١) لحمَ المرأة [سكت] إلى أن نزل هو من الجبل فقال :

يا بنتَ عمّى ما أدراكِ ما حسبى ... إذْ لا تُجِنُّ خبيثَ الزاد أضلاعُ

إنّى لذو مِرّة تُخشَى بوادرُه(٢) ... عند الصباح بنَصل السيف قرّاعُ

فهجا(٣) ثوبَ بن شحمة بأكل لحوم امرأةٍ . وكان ثوبٌ هذا أكرم نفسا عندهم من أن يَطْعَمَ طعامًا خبيثا ، ولو مات عندهم جوعا . وله قَصص . ولقد أَسَرَ حاتما الطائىّ ، وظلّ عنده زمانا .

وقال الشاعر يهجو باهلة(٤) بمثل ذلك :

إنّ عِفاقا أكلتْه باهِلَهْ ... تمشّشوا(٥) عظامه وكاهِلَهْ

وأصبحت أمُّ عِفاقٍ ثاكله

وهُجِيَتْ بذلك أَسَدٌ جميعًا ، بسبب رَمْلَة بنتِ فائد بن حبيب بنِ خالد بن نَضْلَة ، حين أكلها زوجُها وأخوها أبو أَرَبٍ . وقد زعموا أنّ ذاك إنّما كان منهما من طريق الغيظ والغَيْرة .

فقال ابن دَارة(٦) ينعَى ذلك عليهم :

أفى أنْ رَوِيتم واحتلبتم شُكَيَّكُمْ(٧) ... فخرتم ، وفيم الفَقْعَسِىُّ من الفخرِ؟

ورَمـلةُ كانت زوجة لفريقكم ... وأختَ فريق ، وهى مُخْزِيةُ الذكْرِ

أبا أرَبٍ كيف القرابةُ بينكم ... وإخوانُكُمْ(٨) من لحم أكفالها العُجْرِ؟

(١) وضعت هذه الكلمة وما بعدها زائدة بين قوسين ليتضح المعنى . وفى رواية : الرجل ، بدل الفتى .
(٢) المرة : القوة . والصباح : وقت الغارة . ورواية الحيوان : عند الصياح ، بالياء . وفى النسخ جميعها : أضلاعى وهو تحريف .
(٣) فهجا الخ ، أى شاعر بلعنبر بقوله : عجلتم الخ . وفى نسخة الشنقيطى : لحم ، بدل : لحوم .
(٤) قبيلة من قيس عيلان .
(٥) التمشش : مص أطراف العظام . وعفاق بن مرى (على صيغة التصغير) ، أخذه الأحدب بن عمرو الباهلى فى قحط ، فشواه وأكله . كذا فى القاموس .
(٦) هو سالم بن مسافع بن دارة الجشمى ، شاعر مخضرم ، أدرك الجاهلية والإسلام .
(٧) الشكا (بضم الشين) : جمع شكوة (بفتح فسكون) ، وهى جلد صغير يحلب فيه اللبن . وصغر الشكا على شكى .
(٨) الإخوان : الخوان ، وهو ما يوضع عليه الطعام . والعجر : جمع أعجر ، وهو الغليظ السمين . وفى النسخ : «من لحم أكفالها عجر» ، وهو خطأ . وفى نسخة الشنقيطى : وأجوافكم ، بدل : وإخوانكم . يقول : يا أبا أرب ، كيف تتصور القرابة بينك وبين أختك رملة والحال أن خوانكم مملوء من لحم أكفالها .

وقال :

عَدِمتْ نِساءٌ بعـــدَ رَمْلةِ فائدٍ — بنى قَقْعَسٍ — تأتيكمُ بأمانِ (١)

و باتت عروسا ثم أصبح لحمُها جِلًا فى قُدورٍ بينكم وجِفانِ (٢)

وقال البَرَاءُ بنُ رِبْعِىّ، أخو مُضَرِّس بنِ رِبْعِىّ يعيّر (٣) صَلْتا (٤) — وهو أخوه — فقال :

يا صَلْتُ إنّ محـلَّ بيتِك مُنْتِنٌ فارحَل فإنّ العُــودَ غيرُ صَليب

و إذا دعاك إلى المعـاقل فائدٌ فاذكر مكانَ صِدارِها المسلوبِ (٥)

والآنَ فادْعُ أبا رجالٍ، إنّهـا شَــنْعاء لاحقـــةٌ بأمّ حَبِيب

وأبو رجال هذا عمُّها .

وقال فى ذلك معروفٌ الدُّبيْرِىُّ :

إذا ما ضِفْتَ ليـلا قَقْعَسِـيّا فلا تَطْعَـمْ له أبدًا طعـاما (٦)

فإنّ اللحـمَ إنسانٌ فدعْه وخَـيرُ الزادِ ما منـعَ الحَرَاما

⁂

وهذا البابُ يكثُر و يطول . وفيما ذكرنا دليل على ما قصدنا إليه من تصنيف الحالات . فإن أردتَه مجموعا فاطلبْه فى (كتاب الشُّعُوبية) (٧)، فإنّه هناك مستقصًى .

⁂

والأعرابىّ إذا أراد القِـرَى ولم يَر نارا نبـحَ ، فيجاوبُه الكلبُ ، فيتبـعُ صـوتَه . ولذلك قال الشاعر :

ومُسْتَنْبِحٍ أهـلَ الثَّرَا يطلبُ القِرَى إلينـا ومُمْسَاهُ مِن الأرضِ نازِحٌ (٨)

(١) الضمير فى تأتيكم يعود إلى النساء . (٢) جلا : مقصور جلاء ، وجلاء العروس : زفها إلى زوجها .

(٣) هو شاعر أيضا . (٤) هكذا فى نسخة الشنقيطى . وفى النسخ : كليا . ونظنه محرفا .

(٥) المعاقل : جمع معقلة (بفتح فسكون فضم) وهى الدية . والصدار : ثوب يغشى الصدر . (٦) ضفت : نزلت ضيفا .

(٧) هو كتاب للجاحظ فيما نرجح . وانظر فى معنى الشعوبية ما علقناه فى حاشية ص ٧٣ من هـذا الجزء .

(٨) لعل الثرا مقصور الثراء . وفى النسخ : الثرى . و (نازح) : بعيد .

وقال الآخر :

عَوَى حَدَسٌ والليلُ مُسْتَحْلِسُ النَّدَى ... لِمُسْتَنْبِحٍ بين الرُّمَيْثَةِ والحَضْرِ (١)

ويدلك على أنه يَنْبَح وهو على راحلته ليَنبحه الكلب ، قول حُمَيْدٍ الأرقط :

وعاوٍ عوى والليل مُسْتَحْلِس النَّدَى ... وقد زَحَفَتْ للغَوْرِ تاليةُ النَّجْمِ (٢)

فمنهم من يُبْرِزُ كلبه ليُجيب ، ومنهم من يَمْنَعُه ذلك . قال زِياد الأعجم ، وهو يهجو بنى عِجْل :

وتَكْعَمُ كلبَ الحيِّ من خَشْيَةِ القِرَى ... وقِدْرُك كالعذراءِ من دونها سِتْرُ (٣)

وقال آخر :

نزلنا بِعَمّارٍ فأشْلَى كلابَهُ ... علينا فكِدْنا بين بَيْتَيْهِ نُؤكَلُ (٤)

فقلت لأصحابى أُسِرُّ إليهمُ : ... أذا اليومُ أم يومُ القيامةِ أطول

وقال آخر :

أعْدَدْتُ للضيفانِ كلبًا ضاريًا ... عندى وفضلَ هِراوةٍ من أَرْزَنِ (٥)

وقال أعشى بنى تغلب :

إذا حَلَّتْ معاويةُ بنُ عمرٍو ... على الأَطواء خَنَّقَت الكلابا (٦)

---

(١) حدس : اسم كلب . ومستحلس الندى : دائم الإمطار ملازمه . والرميثة والحصر : موضعان . يعنى أن حدسا عوى مجاوبة لنباح رجل يطلب القرى ، وقد كان هذا الرجل إذ ذاك بين الرميثة والحصر . وفى نسخة الشنقيطى : والحضر . (٢) زحفت للغور انحدرت للغروب . والمراد بالنجم الثريا . وتاليتها : ما يتلوها من النجوم . وفى النسخ : فجمت . ورواية الجاحظ فى (الحيوان) : زحمت . (٣) كعمه : شد فاه بشىء كى لا ينبح . (٤) رواية الجاحظ فى (الحيوان) : نزلنا بعباد . ورواية صاحب (اللسان) : أتينا أبا عمرو . وأشلى كلابه : دعاها ليغريها بنا . وفى (الحيوان) : بين بابيه . (٥) الأرزن : شجر صلب تتخذ منه العصى . (٦) الأطواء : جمع طوى ، وهو البئر . وفى (الحيوان) : زحفت ، بدل : حلت .

وأنشدنى ابن الأعرابىّ (١)، وزعم أنّه من قول المجنون :

وناءٍ قـد رفعتُ لغـيرِ خيرٍ رجاهُ لمن تأوّبنى الـرعا (٢)

تأوّبنى طويلُ الشخصِ منهم يجُـرُّ ثفالَه يرجـو العَشَا (٣)

فكان عشاءَه عنـدى خَزِيرٌ (٤) بتمـرٍ مَهِينـةٍ فيـه النـوى

وقال فى خلاف ذلك حسّان بن ثابت :

أولادُ جَفْنَـةَ حول قَبْرِ أبيهمُ قـبرِ ابن ماريةَ الكريمِ المُفْضِلِ

يُغْشَوْنَ (٥) حتّى ما تَهِـرُّ كلابُهم لا يَسألون عن السّواد المُقْبِـلِ

وقال المَرّارُ الحِمّانِيّ فى كلبه :

ألِفَ النـاسَ فمـا يَنْبَحُهـمْ من أسِيفٍ يبتغى الخـيرَ وحُرّ (٦)

وقال عِمْرانُ بن عِصام (٧) :

لعبـدِ العـزيزِ عـلى قومـهِ وغـيرِهِم مِنَنٌ غامرهْ

فبـابُـك ألينُ أبوابِهـمْ ودارُك مأهـولةٌ عامره

وكلبُـك آنسُ بالمُعتَفِيـنَ (٨) مِن الأمّ بابنتهـا الزائـره

(١) هو أبو عبد الله بن محمد بن زياد الكوفى . كان من ثقات الرواة واللغويين، نحويا نسابة . ناقش العلماء ، واستدرك عليهم ، وخطأ كثيرا من نقلة اللغة . وله تصانيف كثيرة . وكان أبوه عبدا سنديا . توفى سنة ٢٣١ هـ .

(٢) تأوبنى : زارنى وآب إلى . والرعا : مقصور الرعاء ، جمع راع . وهو فاعل (رجاه) . (٣) الثفال هنا : البطىء من الإبل ونحوها .

(٤) الخزير : مرقة . وهى أن تصفى بلالة النخالة ثم تطبخ . وقد سبق تعريفها . وتمر مهينة : تمر نخلة حقيرة ضعيفة . وفى النسخ مثينة . ونظنها محرفة .

(٥) وفى نسخة : يمشون ، من : عشا النار وإليها : رآها ليلا من بعيد فقصدها مستضيئا .

(٦) الأسيف : الأسير .

(٧) شاعر شجاع . قال فى (البيان والتبيين) : وهو الذى أشار على عبد الملك بخلع أخيه عبد العزيز، والبيعة للوليد بن عبد الملك ، فى خطبته المشهورة اهـ . ولما كانت فتنة ابن الأشعث خرج معه عمران . فلما وقع فى يد الحجاج قتله شر قتلة .

(٨) اعتفاه : طلب معروفه .

وكفُّكَ حين ترَى السائليـ ... ـن أندَى من الليلة الماطِره

فمنكَ العطاءُ ومنّا الثناءُ ... بكلِّ مُحَبَّرةٍ سائره (١)

وفي أُنْس الكلاب بالناس لطول الرؤية لهم شعر كثير .

وقال الشاعر :

يا أمَّ عَمْرٍو أنجِزِى الموعودا ... وارْعَىْ بذاكِ أمانةً وعهودا

ولقد طرقتُ كلابَ أهلِكِ بالضُحا ... حتى تركتُ عَقُورَهُنَّ رقُودا

يَضْرِبْنَ بالأذناب من فَرَحٍ بنا ... متوسِّداتٍ أذرعا وخدودا

وقال ذو الرُّمَّة (٢) :

رأتنى كلابُ الحيِّ حتى ألِفْنَنِى ... ومَدَّتْ نُسوجُ العنكبوتِ على رَحْلى (٣)

وقال الآخر :

باتَ الحُوَيْرِثُ والكلابُ تَشُمُّهُ ... وسَرَتْ بأبيضَ كالهلالِ على الطَّوَى (٤)

هذا البيت يدخل في هذا الباب .

وقال الآخر :

لو كنت أحمِلُ خمرًا يوم زرتكُمُ ... لم يُنْكِرِ الكلبُ أنّى صاحبُ الدار

لكنْ أتيتُ وريحُ المِسْك تَفْغَمُنِى ... والعنبرُ الوَرْدُ أُذْكِيهِ على النار (٥)

---

(١) المحبرة السائرة : القصيدة تسير بين الناس . (٢) هو أبو الحارث غيلان بن عقبة بن مسعود العدوى . شاعر فحل بدوى يأتى الحضر ، فيقيم بالكوفة والبصرة . مات فى عهد بنى أمية عن أربعين سنة ، سنة ١١٧ هـ . (٣) فى النسخ : «رجلى» . ورواية الجاحظ فى (الحيوان) : رحلى . وهى أصح . والبيت كله كناية عن طول الإقامة . (٤) الضمير فى سرت يعود للابل . وبأبيض : برجل أبيض . وشبهه بالهلال لنحوله . والطوى : الجوع . و (بأبيض) رواية (الحيوان) . وفى النسخ : (بأزهر) . (٥) فغمه الطيب : سد خياشيمه . وهذه رواية الجاحظ فى (البيان والتبيين) . وفى النسخ : يفعمنى . وفى نسخة الشنقيطى : ينفحنى . والورد : ذو اللون الأحمر الضارب إلى الصفرة .

فأنكر الكلبُ ريحى حينَ أبصرنى وكانَ يَعْرِف ريحَ الزِقِّ والقـار[١]

وقال هلالُ بنُ خَثْعَم[٢] :

إنّى لَعَفٌّ عن زيارة جارتى وإنّى لمشـنوءٌ إلىَّ اغتيابُهـا[٣]

إذا غابَ عنهـا بعلُها لم أكن لهـا زَءُوراً ولم تأنَسْ إلىَّ كلابُهـا

وما أنا بالدارِى أحاديثَ بيتِهـا ولا عالمٌ فى أىّ حَـوْكٍ ثيابُهـا[٤]

وقال ابن هَرْمة[٥] فى فرح الكلب بالضيف لعادة النحر :

وفَـرْحَةٍ من كلابِ الحىِّ يتبعهـا مَحْضٌ يَزِفُّ به الراعى وتَرْعِيبُ[٦]

وقال ابن هَرْمَــة :

ومستنبِحٍ نَبَّهْتُ كلبى لصـوته فقلتُ له : قم باليفَـاع فجاوِبِ[٧]

فجاء خَفِىَّ الشخصِ قد رامَهُ الطَّوَى بضَرْبَةِ مسـنون الغرارَيْن قاضب[٨]

فَرَحَّبْتُ واستبشرتُ حين رأيتُـه وتلك التى أَلْقَى بهـا كل ثائِبِ[٩]

وفى منع الكلب من النُباح يقول الراعى[١٠] فى الحطيئة :

أَلا قَبَّـحَ اللهُ الحطيئـةَ إنّـه على كلِّ ضيفٍ ضَافَهُ فهـو سَالِحُ[١١]

(١) المراد بالزق هنا وعاء الخمر . والقار : الزفت المطلى به الزق . (٢) فى نسخة الشنقيطى : هلال ابن حكيم . (٣) مشنوء : مكروه . (٤) فى (الحيوان) : أحاديث سرها . وقوله : ولا عالم الخ ، أى إنى لا أدرى صفة حياكة ثوبها . وهذا كناية عن أنه لا يراها من كثب . (٥) ابراهيم بن هرمة . وقد سبق التعريف به فى ص ١٣٢ من هذا الجزء . (٦) المحض : اللبن الخالص . ويزف : يسير مسرعا . والترعيب : جمع ترعيبة ، وهى القطعة من شحم السنام . ورواية الجاحظ فى (الحيوان) : « شحم يزف به الداعى وترعيب » . (٧) اليفاع : التل . (٨) هكذا فى نسختى الشنقيطى وليدن . ورواية الجاحظ فى (الحيوان) : « فجاء خفى الصوت قد مسه الطوى » . والغرار : حد الرمح والسهم والسيف . والقاضب : القاطع . يقول : جاء هذا المستنبح ضئيلا جائعا . وكان مجيئه مصحوبا بعقر ناقة لضيافته بضربة سيف قاطع . (٩) هكذا فى نسخة الشنقيطى . وفى النسخ : نائب . (١٠) فى النسخ : ابن أعياء ، وفى الحيوان للجاحظ : «الداعى» . (١١) ضافه : نزل به ضيفا ، كما سبق . والسلح : البراز .

دُفِعْتُ إليــه وهو يَخْنُق كَلْبَــه ألا كلُّ كلبٍ – لا أبالَكَ ! نابح[١]

بكيتَ على مَــذْقٍ خبيثٍ قَرَيْتَــهُ ألا كلُّ عبسىٍّ على الزاد نابحُ[٢]

⁂

وقد قالوا فى صفة أبواب أهل المقدُرة والثروة، إذا كانوا يقومون بحق النعمة . قال الراجز :

* إنّ النَّــدَى حيثُ تَرَى الضِّغَاطا[٣] *

وقال الآخــر :

يزدحــم النــاسُ عــلى بابــه والشَّــرَعُ السَّــهْلُ كثيرُ الزِّحامْ[٤]

وقال الآخــر :

و إذا افتقرتَ رأيتَ بابك خاليًــا وترى الغِــنَى يَهْــدِى لك الزُّوّارا

وليس هذا من الأوّل، إنّمـا هذا مثلُ قوله :

ألم ترَ بَيْتَ الفقــرِ يُهْجَرُ أَهْــلُهُ و بيتَ الغِــنَى يُهْــدَى له ويُزار

وهذا مثل قوله :

إذا ما قــلّ مالُكَ كنتَ فــردًا وأىُّ النــاس زَوَّارُ المُقِــلِّ

⁂

والعرب تفضّــل الرجل الكَسُوب ، والغِــرَّ الطَّلُوب[٥] ، ويَذُمُّون المقيم الفَشِــلَ[٦] ، والدَّثِرَ والكسلان . ولذلك قال شاعرهم وهو يمدح رجلا :

شَــتَّى مَطَالِبُــه ، بَعيــدٌ هَمُّــهُ جَــوَّابُ أوديةٍ ، بَرُودُ المَضْــجَعِ[٧]

---

(١) فى (الحيوان) : «وقفنا إليه وهو يخنق كلبه . دع الكلب ينبح إنما الكلب نابح» . وقوله : وهو يخنق كلبه، أى حتى لا يهتدى المستنبح إلى البيت . (٢) فى النسخ، يتصل هذا البيت بالبيتين قبله . وقد نسبه الجاحظ فى (الحيوان) إلى أعشى بنى تغلب . والمذق : اللبن الممزوج بالماء . (٣) الضغاط : المزاحمة ، مصدر (ضاغط) . (٤) الشرع : هنا : الطريق السهل . وفى نسخة الشنقيطى : والمشرع . (٥) الغـر : الكريم الذى لا يفطن للشر . وفى الحديث : المؤمن غرّ كريم . (٦) الفشـل : الكسلان الضعيف المتراخى . والدثر : الرجل البطىء، الخامل النئوم . (٧) فى الأساس : برد مضجعه : إذا سافر .

ومدَح آخر نفسه فقال :

فإن تأتيانى فى الشـتاء وتَلْمسا مكانَ فِراشِى فهو بالليل باردُ

وقال آخــــر :

إلى ملكٍ لا يَنْقُضُ النأىُ عَزْمَه خُروجٍ تَرُوكٍ للفِراشِ المُمَهَّـــدِ

وقال الآخــــر : ٥

فِداكَ قَصِـــيرُ الهَمِّ يملأُ عَزْمَه[1] من النوم إذ مَلْقَى فراشِـكَ باردُ

وقال الآخــــر :

أبيضُ بَسَّـامٌ بَرُودٌ مَضْجَعُه اللُّقْمَةُ الفَــرْدُ مِرارًا تُشْـبِعُه[2]

٭ ٭ ٭

وهم يمدحون أصحاب النيران، ويذمّون أصحاب الإخماد . ١٠

قال الشاعر :

له نارٌ تُشَبُّ بكلِّ رِيـــعٍ[3] إذا الظلمـاءُ جَلَّلَتِ اليفَـاعا

وما إن كان أكثرَهم سَوامًا[4] ولكن كان أرْحَبَهـم ذِراعا

وقال مُزَرِّدُ بنُ ضِرار[5] :

فأبْصَرَ نارِى وهى شقراءُ أُوقِدَتْ بعلياءَ نَشْزٍ[6] للعيــون النواظرِ ١٥

جعلها شــقراء، ليكون أضوء لهـا . وكذلك النار إذا كان حطبها يابسًا كان أشد حمرة ناره . و إذا كثُر دخانُه قلَّ ضوءُه .

---

(١) فى نسخة الشنقيطى : فداك . (٢) أى كثيرا ما تشبعه اللقمة الواحدة . (٣) الريع : المكان المرتفع . وهــذه رواية البيان والتبيين . وفى النســخ : ريح . وجللت هنا : عممت وطبقت . واليفاع : ما ارتفع مـن الأرض . و (اليفاعا) كما فى نســخة الشنقيطى . وفى غيرها : القناعا . وفى تخـريجها تكلف . ٢٠

(٤) السوام والسائمة : الإبل الراعية . وفى الأساس : فلان رحب الذراع بهذا الأمر : إذا كان مضيقا له .

(٥) هو يزيد بن ضرار الغطفانى . غلب عليه (المزرد) . وهو أخو الشماخ بن ضرار الشاعر . (٦) النار الشقراء : المحمرة . والنشز : المكان العالى .

وقال الآخر :

ونارٍ كَسَجْرِ العُود يَرْفَعُ ضَوْءَها [1] مع الليل هَبَّاتُ الرياح الصَّوارد

وكلما كان موضع النار أشدّ ارتفاعا ، كان صاحبها أجودَ وأمجدَ ، لكثرة من يراها من البُعد . ألا ترى النابغةَ الجَعْدىّ [2] حين يقول :

منعَ الغَدْرَ فلم أَهْمُمْ به وأخو الغدر إذا همَّ فَعَلْ

خشيةُ الله وأنّى رجلٌ إنّما ذِكْرى كنارٍ بقَبَلْ [3]

وقالت خنساءُ السُّلمية [4] :

وإنّ صخرًا لتأتمّ الهداةُ به كأنّه علمٌ فى رأسه نار

* * *

وليس يمنعنى من تفسير كلّ ما يمرّ إلا اتّكالى على معرفتك . وليس هذا الكتابُ نفعُه إلا لمن رَوَى الشِّعرَ والكلامَ [5] ، وذهب مذاهبَ القومِ ، أو يكونُ قد شَدَا [6] منه شَدْوًا حسنا .

---

(١) السجر : الإيقاد . والصوارد : الباردة . ومعنى كون النار كسجر العود ، أنها صافية اللهب ، لا يخالها دخان .

(٢) هو أبو ليلى حسان بن قيس بن عبد الله الجعدى العامرى . شاعر مفلق صحابى ، من المعمرين . اشتهر فى الجاهلية ، وسمى النابغة ، لأنه أقام ثلاثين سنة لا يقول الشعر . ثم نبغ فقاله . وكان ممن هجر الأوثان ، ونهى عن الخمر قبل ظهور الإسلام . وفد على النبى صلى الله عليه وسلم فأسلم ، وأدرك صفين فشهدها مع على . ومات بأصبهان وقد جاوز المائة . وأخباره كثيرة . مات نحو سنة ٥٠ هـ . اهـ من (الأعلام) . (٣) القبل : ما استقبلك من مكان عال .

(٤) هى تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد الرياحية السلمية ، من مضر . أشهر شواعر العرب . عاشت أكثر عمرها فى الجاهلية . وأدركت الإسلام فأسلمت . وأجود شعرها فى رثاء أخويها صخر ومعاوية . وكانا قد قتلا فى الجاهلية . وكان لها أربعة بنين شهدوا حرب القادسية سنة ١٦ هـ ، فاستشهدوا جميعا . ماتت سنة ٢٤ هـ .

(٥) يريد بالكلام هنا كلام العرب وأحاديثهم وخطبهم ومحاوراتهم ، إلى غير ذلك .

(٦) شدا : أخذ طرفا من الأدب . كذا فى القاموس .

***

ومما يدلّ على كرم القوم أيمانُهم الكريمةُ، وأقسامُهم الشريفةُ . قال مَعْدَانُ بنُ جَوّاسٍ الكِنْدىّ :

إنْ كان ما بُلِّغْتَ عنّى فلامنى صَدِيقى وحُزّتْ من يدَىَّ الأناملُ (١)
وكُفِّنْتُ وحدى مُنْذِرًا فى ردائه وصادَفَ حَوْطًا من أعادِىَّ قاتلُ (٢)

وقال الأشْتَرُ، مالكُ بنُ الحارثِ (٣) فى مثل ذلك أيضا :

بَقِيتُ وَحْدِى وانحرفتُ عن العُلا ولقيتُ أضيافى بوجهِ عَبُوسِ (٤)
إنْ لم أَشُنَّ على ابن حَرْبٍ غارةً لم تَخْلُ يومًا من نِهابِ نفوسِ
خَيْلًا كأمثالِ السَّعالِى شُذَّبًا تَغْدُو ببيضٍ فى الكَرِيهَة شُوسِ (٥)
حَمِىَ الحديدُ عليهمُ فكأنّه لَمَعانُ بَرْقٍ أو شُعاعُ شُموسِ

وقال ابن سَيْحَان :

حرامٌ كَنَّتى مِنّى بِسُوءٍ وأَذْكُرُ صاحبى أبدًا بِذَام (٦)

---

(١) فلامنى الخ البيت الثانى : جمل دعائية . (٢) لعل منذرا وحوطا اسما ولديه . (٣) مالك بن الحرث الأشتر النخعى . وكان من شجعان العرب وأبطال الاسلام . وكان شاعرا مجيدا ، وخطيبا بليغا . وكان من قواد الجيوش مع على بن أبى طالب . وشهد معه وقائعه فى الجمل وصفين . وكان يلى الجزيرة له . وولاه مصر ، فقصدها ، فمات فى الطريق مسموما سنة ٣٧ هـ . (٤) فى نسخة الشنقيطى : بقيت (بتشديد القاف مفتوحة) وفرى . والوفر : المال والمتاع الكثير . فهو يدعو على نفسه (على هذه الرواية) ألا يبقى هذا الوفر . وأما على رواية الجاحظ ، فانه يدعو على نفسه بأن ينفرد وحده محروما أهله وأبناءه وعشيرته . (٥) السعالى : جمع سعلاة ، وهى الغول ، فيما يزعم العرب . وقد شرحناها فى ص ٨٨ ، ج ١ . والشذب : المتفرقة للغارة فى الأرض . والشوس : جمع أشوس ، وهو من ينظر بمؤخر عينه كبرا أو غيظا . (٦) الكنة : امرأة الابن أو الأخ . والمعنى : على حرام أن تصاب كنتى بسوء منى ، وأن أذكر صاحبى بذم . والبيت فى قوة القسم ، بدليل وجود لام القسم بعده الداخلة على قد .

لقد أحرمتُ ودَّ بنى مُطيع ... حرامَ الدهرِ للرجُل الحَرام (١)

وحُرمَهُمُ الذى قد ستَّروهُ ... ومجلسهم بمعتلج الظلام (٢)

وإن جَنِفَ الزمانُ مَددتُ حبلاً ... متيناً من حبال بنى هشام (٣)

وريقٌ عودُهم أبداً رطيبٌ ... إذا ما اغبرَّ عيدانُ اللئام (٤)

(١) أحرمت الشيء : جعلته حراما ، والرجل الحرام : المحرم فى الحج . (٢) وحرمهم ، معطوف على ودّ فى البيت قبله . وحرام المال : خياره . وستروه : أخفوه وغطوه . يقال : جارية مسترة : أى محجوبة . وفى النسخ : قد يستروه . وهو تحريف ، لعدم وجود المقتضى لحذف النون . ومعتلج الظلام : ملتطمه كأنه البحر . (٣) جنف : ظلم . (٤) اغبر : صار لونه كالغبار لجفافه وذبوله .

٥

محتـــويات

الجـــزء الثـانى من (كتاب البخلاء)

الفهـــرس الأوّل

يشتمل هذا الفهرس على أسماء الرجال والنساء، والأمم والقبائل، والطوائف والنحل . وقد روعى فيه ما يلى :

(أ) أن تحـذف الزوائد من نحـو الأب والابن والأم فى الترتيب ، فابن أبى كريمة مثـلا فى حرف الكاف ، وذو يزن فى حرف اليـاء .

(ب) وأن يذكر أوّلا رقم الجزء، ثم رقم الصفحة، ثم رقم السطر أو أرقام السطور .

فمثـلا : ج ٢ ١٥ : ٢٠ ، ٢٢ يدل على أن العـلم ورد فى الجزء الثـانى، فى الصفحة الخامسة عشرة ، فى السطرين : العشرين والثانى والعشرين .

حرف الهمزة

حرف البـاء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

حرف الزاى

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف الظاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفـاء

حرف القـاف

حرف الكاف

حرف النون

حرف اليـاء

الفهـــرس الثـانى

يشتمل على أسماء البلاد ، والأماكن من بحر ونهر وجبل وقلعة ، وما إلى ذلك . وقد روعى فى ترتيبه ما روعى فى الفهرس الأول

حرف الألف

حرف البـاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الراء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

استدراكات

جزء	صفحة	سطر	
١	١٠٧	٤	اطلعنا فى (الأعلام) للزركلى على ذكر لمالك بن المنذر ، فى عرض الحديث عن بلال ابن أبى برده . (راجع ج ٢ ص ٨٦ س ٢٢ من كتابنا هذا) .
٢	٥٤	٩ و ١٠	وردت كلمة (الفرد) فى فهرس طبعة ليدن ، على الظن بأنه (حفص الفرد) . وفى هذا الموضوع عينه وردت كلمة (الجوهرى) وأثبتت فى فهرس ليدن على أنها (الجوهرى) الوارد أيضا فى ص ٨١ من هذا الجزء لطبعتنا هذه . فعلى ذلك يكون أصحاب طبعة ليدن قد فهموا فى هذه العبارة غير ما كتبنا . ولكنا حين أردنا أن نفهمها على وجهها ، انبهم علينا الأمر ، ولم نخرج منها بمعنى شاف تطمئن إليه النفس . فليحرر .
٢	٨٦	١٤	وردت كلمة (الحلاء) . وصوابها : (الخلاء) بالمعجمة .
٢	١٠٥	٨	استظهرنا أن هناك تحريفا فى اسم (جد بن قيس) على أن صوابه (الحر بن قيس) . ولكننا بعد ذلك رأينا القصة كما ساقها الجاحظ هنا ، مثبتة فى كتاب "الاشتقاق" لابن دريد ، منسوبة لجد بن قيس . وكذلك فى (الإصابة) وفى (طبقات ابن سعد) . وعلى ذلك ليس هناك تحريف .
٢	١٧٣	٢	ورد (يزيد بن هاشم) ، والصواب (يزيد بن هشام) فى الأصل والحاشية .
٢	١٨٤	٧ و ١٨	قد يفهم أيضا من (القملية) أن هذا اللقب غلب عليها نسبة إلى القمل ، لما شهرت به من تفليتها للقمل عن القرة . فيكون على ذلك (القملية) بسكون الميم .

(صنع فهرسى الأعلام : الأستاذ محمد شوقى أمين)

كَمُلَ طبع الجزء الثانى من "كتاب البخلاء" بمطبعة دار الكتب
المصرية فى يوم الثلاثاء ٢٢ ربيع الأوّل سنة ١٣٥٩ (٣٠ أبريل
سنة ١٩٤٠) م

محمد نديم
ملاحظ المطبعة بدار الكتب
المصرية

(مطبعة دار الكتب المصرية ٤٠/١٩٣٧/٧٠٠٠)